الجمهورية الجزائرية الدّيمقراطية الشّعبية
وزارة التّعليم العالي والبحث العلمي
جامعة عبد الحميد بن باديس – مستغانم -
كلّية الأدب العربي والفنون
قسم الدّراسات اللّغويّة

الشّعبة : دراسات لغويّة التّخصّص : لسانيات النّصّ وتحليل الخطاب

أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه

موسومة بـــ:

آليات التّماسك النّصّي في إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة لمصطفى صادق الرّافعي نموذجا

إشراف الدكتورة:
منور عائشة
فريحي مليكة

لجنة المناقشة

الإسم واللقب	الدّرجة العلميّة	الصّفة	الجامعة الأصليّة
بن عائشة حسين	أستاذ	رئيسا	جامعة مستغانم
فريحي مليكة	أستاذة	مشرفا	جامعة مستغانم
دحماني نور الدين	أستاذ	عضوا مناقشا	جامعة مستغانم
مسكين حسنية	أستاذة محاضرة(أ)	عضوا مناقشا	جامعة مستغانم
خليفي سعيد	أستاذ	عضوا مناقشا	جامعة غليزان
الأحمر الحاج	أستاذ	عضوا مناقشا	جامعة سيدي بلعباس

السنة الجامعية :1441هـ-1442هـ/2020م-

شكر وتقدير

أتوجه بالشكر الخاص والخالص إلى أستاذتي المشرفة الفاضلة الدكتورة فريحي مليكة على سعة صدرها، وعلى ما أسدته إلي من نصائح وتوجيهات قيمة ليكتمل هذا البحث بإذن الله تعالى، وحرصها الشديد على التقيد بالموضوع رهن الدراسة وإعطائه أولوية واهتماما شديدا، الأمر الذي جعلني أحرص على الانتفاع من نبل أخلاقها، وشرف تواضعها ، ودفعاتها المشجعة خاصة في أحاديثها الشفوية، فكان لها الفضل بعد الله تعالى ليستوي هذا البحث على سوقه فلها مني كل الشكر والتقدير.

كما لا يفوتني أن أقدم شكري الجزيل لصاحب المشروع "لسانيات النص وتحليل الخطاب" الدكتور بن عائشة حسين على فتحه لنا هذا الآفاق العلمي في الدكتوراه، إضافة إلى حرصه الشديد على تمام الأعمال من قبل كل الطلبة فجزاه الله عنا خير الجزاء.

ولا أملك في الأخير إلا أن أسأل الله التوفيق والسداد وحسن الرأي لمن قرأ وناقش ووضع بصماته رأيا أو ملاحظة أو تصويبا لهذا البحث.

الإهـــــــــداء

إلى من خصّهما الله جلّ في علاه بالدّعاء في كتابه الكريم

ﱡﱠ الإسراء: ٢٤

إلى والدتي الّتي لا زالت تمطرني بدعواتها الخالصة، وإلى روح والدي رحمه الله تعالى وطيّب الله ثراه.

إلى جميع إخـــــــــــوتي وأخـــــــواتي وأبنـــــــــــائهم

إلى كلّ الأصدقاء وخاصة أبيناش، جوليا وإيمرا.

إلى كلّ من وجّهني وزوّدني بقليل من العلم أو الكثير

إلى كلّ لسان ناطق باللغة العربيّة

إليهم جميعا أهدي هذا العمل

مقدمة

اهتمت اللّسانيات النّصيّة في بداياتها بدراسة الجملة في مستويات عديدة، وقد عدّت هذه الأخيرة أكبر وحدة لغوية قابلة للوصف النّحوي، أو التّحليل اللساني، فاشتغل بها اللّسانيون كلّ حسب منهجه، إلى أن ظهرت مؤشرات ظهور علم جديد يُعنى بدراسة النّصّ باعتباره وحدة دلالية متكاملة، ذلك كون الجملة أصبحت عاجزة على الوصف اللّغوي، فمجال اشتغالها ضيّق فلم يعد بإمكانها تفسير شامل لمتتالية من الجمل المترابطة من حيث الشّكل والدّلالة، وهذا ما جعل الباحثين في مجال النّصّ يعيدون النّظر في هذه القضيّة، فقد دعوا إلى انفتاح الدّرس اللّساني على دراسة تكون أعلى من الجملة متمثّلة في النّصّ، فكان لابد من تجاوز مستوى الجملة إلى مستوى النّص، أدّى ذلك إلى ظهور اتجاه لساني جديد يعنى بدراسة النّص كوحدة لغوية كبرى، له أسسه ومناهجه ضمن مجال علم جديد أطلق عليه"لسانيات النّص"،هذا العلم يتداخل مع علوم أخرى لغوية كانت أو غير لغوية، إضافة إلى مجموعة من الثّقافات المختلفة، الأمر الذي جعله يتّسم بالتّداخل المعرفي .

يتكفّل هذا العلم بدراسة تماسك النّصوص، واعتبار هذا النّصّ كلّه وحدة التّحليل، فلم يعد هذا النّص مجرد متتالية جملية، وإنّما هو وحدة لغوية تحكمها معايير الاتّساق والانسجام لتحقّق للنّص نصيته، إضافة إلى مدى تأدية هذه النّصوص وظيفتها التّبليغية من خلال المقاصد التي يرمي إليها المؤلّف وذلك ضمن سياقات محدّدة، مع مراعاة ظروف المتلقي وثقافته أشياء كثيرة تحيط بالنّص، وبذلك أضحى هذا العلم الأكثر شمولا وتماسكا واقتصادا من نحو الجملة، وهذا لا يعني إلغاء كلّ الجهود التي توصّل إليها علماء نحو الجملة، بل عدّت منطلقا قام علماء لسانيات النّص بالتّوسع فيه بما يقتضي دراسة وحدات أكبر من الجمل وهي النّصوص من خلال رصد العلاقات التي تربط بين الجمل ومتتاليات الجمل.

وقد تميّز هذا العلم بأنّه حديث متنوّع الموضوعات، وبذلك تنوّعت المدارس اللّسانية النّصيّة ممّا أدّى إلى عدم استقراره على مصطلح واحد، فقد تعدّدت المصطلحات الخاصّة به، وتجدر الإشارة هنا إلى أنّه مهما اختلفت المصطلحات إلّا أنّ لسانيات النّص قد عنيت دراستها في تماسك النّصوص بعنصرين هامّين متمثّلين في الاتساق والانسجام اللّذين كانا مناط الأبحاث والدراسات التي تندرج في مجال هذا العلم، ويعتبران من أهم القضايا التي اهتم بها العلماء العرب في دراستهم للنّصوص الأدبيّة بصفة عامّة والنّص القرآني بوجه خاص.

وبناء على ما سبق ذكره أردنا استغلال المفاهيم التي اعتمدت عند الباحثين الغربيين في مجال لسانية النص لقراءة كتاب"إعجاز القرآن والبلاغة النبوية "للمؤلف المبدع مصطفى صادق الرافعي من أجل الكشف عن مختلف المعايير

النصية التي اعتمدها في مدوّنته من خلال هذا البحث الموسوم بـــــ"آليات التماسك النصي في إعجاز القرآن والبلاغة النبوية"لمصطفى صادق الرافعي أنموذجا".

وقد تمحور هذا البحث حول إشكالية كان منطلقها ومحور اشتغالها في ما يلي:

هل المفاهيم الغربية المنظمة للسانيات النّص قادرة على تحديد آلياتالتماسك النصي وفق ما جاء في إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي؟ وما هي مظاهر التّماسك النّصي التي اعتمدها الرافعي في هذا المؤلَّف ؟

وقد تفرعت عن هذه الإشكالية عدة تساؤلات:

- ما هي أهم مظاهر الاتّساق في إعجاز القرآن ؟
- ما هي أهم مظاهر الانسجام في الإعجاز ؟
- هل الظّواهر اللّغوية التي اعتمدها مصطفى صادق الرافعي في مدونته تتوافق مع ما جاءت به الدّراسات الغربية النّصيّة في تحديدها للتّماسك النّصي؟
- وهل يمكن اعتبار هذه المدونة ثريّة بالظّواهر اللّغوية بما يكفي لإشباع رغبة الباحثين في لسانيات النّص؟ .

كان الدافع إلى معالجة إشكالية هذا البحث مجموعة من الأسباب تنوّعت وتعدّدت نذكر منها:

أوّلا: أردنا أن يكون البحث في موضوع يكون له علاقة بكتاب الله عزّ وجلّ، واختيار المدوّنة"إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة" للدّراسة، كونه كتاب افضى في قضية الإعجاز وعالجها بطريقة تجعل القارئ يستميل إليها لروعة الأسلوب وجمال الطرح.

ثانيا: فهو الدّافع العلمي الّذي هو هدف كل باحث أكاديمي يسعى للبحث من أجل الوصول إلى الجديد، إضافة إلى نقص الدّراسات احلنّصيّة لهذه المدوّنة خاصّة في جانبها التّطبيقي، كما أردنا الكشف عن مدى ثراء هذا الكتاب بأدوات التّماسك النّصّي وآلياته، وكذلك أنّ هذا الموضوع يكتسب أهميّة كونه تطبيق على مدوّنة حضيت باستحسان في السّاحة الأدبيّة فور ميلادها.

يتمثل الهدف الأساسي للموضوع في إجراء قراءة لإعجاز القرآن والبلاغة النبوية ــ مدونة البحث ــ الّتي تضع في اعتبارها عنصرين هامين هما : الاتّساق والانسجام اللّذان يسهمان في عمليّة التّماسك النّصّي، وذلك من أجل إثبات أنّ ما جاءت به الدّراسات الحديثة في ضوء لسانيات النّصّ وتحليل الخطاب، لها تمثّلات عند المحدثين من العرب في مدوّناتهم بما في ذلك"إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة" لمصطفى صادق الرافعي.

يحاول هذا الموضوع أن يدرس آليات التّماسك النّصّي في "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية" لمصطفى صادق الرافعي أنموذجا، حيث قامت دراسات عديدة بتناول هذه المدوّنة من جوانب متعدّدة، أمّا اجانب الّتي أردنا الخوض فيه يكمن في محاولة إبراز مختلف آليات التّماسك النّصي الّتي اعتمدها الرافعي في كتابه مقارنة مع ما جاءت به المناهج الغربيّة المساهمة في ارتباط النّص وتماسكه وذلك من خلال وضع تحليل للمصطلحات المعتمدة في المدونة وفق ما جاءت به لسانيات النّص، من أجل الوصول إلى ما يميّز المفاهيم اللّغوية الّتي استعملها الرّافعي في الإعجاز من خصوصيّة لغويّة واجتماعية وثقافيّة، وكذلك إثبات أنّ ما جاء به الرافعي يتطابق إلى حدّ كبير مع ما جاء به الباحثون في علم النّص.

الدّراسات الّتي تناولت كتاب"إعجاز القرآن والبلاغة النبوية"قليلة جدّا، ربمّا ذلك راجع لقلّة المصادر والمراجع التي تناولت كتب أو مؤلفات الرافعي، أمّا عن بعض الدّراسات لهذا الكتاب نذكر"أسس الإعجاز عند مصطفى صادق الرافعي" بحث قدم لنيل شهادة الماجستير للطالبة بن نعوم سعاد، أو بعض المقالات في المجلات العلمية على سبيل المثال لا الحصر:"مفهوم النص في إعجاز القرآن والبلاغة النبوية عند مصطفى صادق الرّافعي" للأستاذة حورية قادري جامعة بشار، مجلة دراسات، إضافة إلى"جمالية المفردة القرآنية عند الرافعي بين التقليد والتجديد" للدكتور سلمان بن محمد بن حسن القرني، مجلة الباحة للعلوم الإنسانية،و"البلاغة النبوية في منظور الرافعي: قراءة في المنهج، للأستاذ بن عيسى بطاهر، بحوث ودراسات...وغيرها من المقالات التي لا يمكن إدراجها جميعا، أمّا الجانب التي تناولنا منه هذه المدوّنة هو معرفة ما أضافه الرافعي بالنسبة لدراسات السّابقين في الإعجاز، الشّيء الذي جعله يتميّز ويتفرّد به.

اخترنا لدراسة الموضوع خطة بنيناها وفق عناصر تطلّبت مدخلا وأربعة فصول، بدأت بمقدمة وانتهت بخاتمة، تمّ فيها عرض نتائج هذه الدّراسة، فقد تضمن المدخل مفاهيم عامة، عرضنا من خلاله مفهوما للجملة والنّص والخطاب، وتطرقنا إلى مفهوم التّماسك النّصي، معرجين بعد ذلك على مفهوم الإعجاز وكذلك البلاغة النبوية.

أما الفصل الأوّل ـــ مفاهيم لسانيات النص ـــ فكان الحديث فيه عن مفهوم لسانيات النّص، قدّمنا عنه عرضا وجيزا وسريعا للمسار الانتقالي الّذي مسَّ الدّراسة اللّسانية من الجملة إلى النّص، بعدها تناولنا فكرة التّماسك النّصي عند الغرب والعرب القدماء منهم والمحدثين.

وقع الاختيار عند الغرب على أعلام كانت لهم إسهامات كبيرة في مجال لسانيات النّص من خلال مؤلفاتهم من بينهم فان دايك **(Van Dijk)**، وباحثين بارزين في هذا المجال هما : هاليداي ورقية حسن**(Ruqaia Hasan – Halliday)**، عرضنا من خلالمؤلّفاتهمأهم قضايا التّماسك النّصي التيأسهموا بها في مجال لسانيات النّص والّتي اعتمدها الباحثون في تحليل النّص قصد الكشف عن تماسكه.

أمّا الدّرس العربي التّراثي شمل اجتهادات كثيرة يمكن أن نتّخذها مرجعا لما اصطلح عليه"لسانيات النّص"، اخترنا بعض النّماذج محاولة منّا لتأصيل الدّرس اللّغوي التّراثي النّصي، وإعطائه حقّه، فمجهوداتهم كانت سباقة في إشارتها لأسس النّصيّة ولو بطريقة ضمنيّة كالاتّساق والانسجام والقصديّة والسّياق، والاهتمام بمتلقي الخطاب وغيرها، برز في هذا المجال علماء كرّسوا جهودهم للخطاب القرآني، وقد تجاوزت دراساتهم وتحليلاتهم للنّصوص من مستوى الكلمة والآية إلى البحث في آليات ترابط النّص القرآني كوحدة شاملة متكاملة، من ذلك ما ذهب إليه الإمام الخطابي(ت388ه) في رسالته" بيان إعجاز القرآن"، والباقلاني (ت403هـ)في مدوّنته"إعجاز القرآن" وصولا إلى الإمام عبد القاهر الجرجاني(ت471هـ) من خلال كتابه"دلائل الإعجاز" فأعمالهم تعدّ بمثابة نموذج واضح المعالم لما قدّمه العرب القدامى من رؤى نصيّة تراثيّة أصيلة أصالة لغتهم، ترقى إلى ما وصلت إليه اللّسانيات النّصيّة الحديثة بمباحثها المتنوّعة.

الأمر ذاته عند العرب المحدثين، بحيث تمّ اختيار باحثين من أعلام عرب كانت لهم إسهامات في لسانيات النّص، ذكرنا منهم على سبيل المثال لا الحصر محمد خطابي من خلال مؤلّفه "لسانيات النّص مدخل إلى انسجام الخطاب"، وصبحي إبراهيم الفقي من خلال كتابه"علم اللّغة النّصي بين النّظرية والتّطبيق"، حاولنا من خلالهما معرفة رؤية كلّ منهما حول قضايا اتّساق وانسجام النّصوص، مقارنين ذلك بالآراء الغربية من حيث التّوافق أو التّعارض معها.

وكان الفصل الثاني موسوما بـــ"مظاهر الاتساق النصي عند الرافعي في الإعجاز" حدّدنا من خلاله أهمّ أدوات الاتّساق الّتي أسهمت في التّرابط الشّكلي في القرآن الكريم، وذلك من خلال الرؤية التي تبنّاها الرّافعي، وفيها تناولنا بالدّراسة والتّطبيق للتّكرار والتّضام والاستبدال ودورهم في تحقيق هذا الاتّساق، باعتبار هذه العناصر من وسائل الاتّساق الشّكلية والتي تتمثّل في البنيّة السّطحيّة للنّص.

وعنونّا الفصل الثالث بـــ " مظاهر الانسجام النّصي عند الرّافعي في الإعجاز" وفيه تمّ تحديد أهم مظاهر الانسجام الواردة في المدوّنة، مركزين في ذلك على الآليات التي تعمل على الرّبط الدّلالي للنّصوص ومحاولة رصدها وتقديمها، دون أن ننسى دور المتلقي في العمليّة الاتّصالية ودوره الفعّال في عمليّة الانسجام النّصي .

أمّا الفصل الرّابع فقد وسم بـــ "آليات التّماسك النّصي في البلاغة النّبويّة من منظور الرّافعي"، بيّنا من خلاله أهم الآليات التي تعمل على انسجام النّص النّبويّ، مشيرين في ذلك إلى المعايير النّصية التي تحقق للنص نصيّته من منظور الرّافعي مقارنين ذلك بما نادى به دي بوجراند من معايير التي تحقق للنّص انسجامه وتماسكه.

وفي الأخير، وبعد عرض الفصول الأربعة، والتفصيل فيها، عرضنا أهمّ النّتائج الّتي توصّلنا إليها في خاتمة هذا البحث.

وقد اعتمدت الدّراسة على عدد من المصادر والمراجع الغربية والعربية، وذلك في كل ما يتعلّق بموضوع البحث، فكان منها "النّص والخطاب والإجراء لـــ" وبرت دي بوجراند "،و"تحليل الخطاب" لـ"براون ويول" وغيرها من المراجع الغربية.

أمّا الدّراسات العربية، فمنها دراسات سعيد حسن بحيري"علم لغة النّص، المفاهيم والاتّجاهات" ومحمد خطابي"لسانيات النّص، مدخل إلى انسجام الخطاب، وصبحي إبراهيم الفقي"علم اللّغة النّصي بين النّظريّة والتّطبيق"... وغيرها من المؤلّفات العربيّة.

ولما كان البحث يتطلب منهجا يسير عليه، ويسدد خطواته، فقد تمت مقاربة كل ذلك بواسطة المنهج التحليلي الذي يقوم على النقد والتفسير والاستنباط، وهو ما فرضته طبيعة المدوّنة، وموضوع البحث، بحيث يمكن من خلاله وصف الظاهرة اللغوية والكشف عن وسائلها المختلفة.

وقد واجهتنا بعض الصّعوبات، كأيّ باحث في هذا المجال، من بينها قلّة المصادر والمراجع التي تناولت مؤلفات الرّافعي، إضافة إلى قلّة الدّراسات النّصية في الآيات القرآنية عن بعض القضايا التي قام الرافعي بالتّنظير لها، على أساس أنّه اكتفى في إعجاز القرآن على التنظير ليطبّق في كتاب آخر لم يكتب له أن يكتمل موسوم بـــــ"أسرار الإعجاز"، متأثرا بذلك بعبد القاهر الجرجاني في تأليفه "أسرار البلاغة"، فكان لابدّ للبحث أن يكلّل ببعض الجوانب التّطبيقية فارتأينا أن نقوم ببعض المحاولات البحثيّة في آيات قرآنية لتوضيح بعض الرؤى لدى الرّافعي.

ولا يفوتني أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى أستاذتي المشرفة الدكتورة"فريحي مليكة" على رعايتها لهذا الموضوع، وتذليلها الصّعوبات بملاحظاتها الموجهة ونصائحها القيّمة التي أنارت طريق البحث وحفزتني على إثرائه في أحسن الظروف، وإلى اللجنة العلمية التي تعمل على مناقشة هذا البحث وإثرائه بآرائها.

مستغانم في: فبراير 2021.

مدخل:

مفاهيم لسانيات النّصّ

1 ــ مفهوم الجملة والنّصّ من التّراث إلى المعاصرة:

اهتم الدّرس اللّغوي قديما بدراسة الجملة(SENTENCE) ولا يزال كذلك، فقد بحث اللّغويون في العلاقات التي تربطها بوظائفها، وما ينتج عنها من معاني التي تعمل الألفاظ على إنتاجها في مختلف السّياقات الاتّصالية المختلفة، كما عملوا على تحليل مكوّناتها واستقصاء أنماطها وصياغة قواعدها،وخاصّة النّحاة الّذين جعلوها أولى اهتماماتهم، فقد أخذت عندهم مفاهيم مختلفة.

1-1مفهوم الجملة عند العرب والغرب:

تشعّبت الآراء وتنوّعت حول العلاقة بين لسانيات الجملة و لسانيات النّص، ولابدّ من تحديد لكل مصطلح مفاهيمه الخاصّة بغية الوقوف على أهمّ العناصر المهمّة والأساسيّة والّتي تحدد كلّا منهما، فقد اهتمت اللّسانيات الحديثة لفترة طويلة بدراسة الجملة واعتبرتها وحدة لغويّة كبرى، ومن أجل ذلك سنقف بداية على مفهوم الجملة في اللّغة والاصطلاح قديما وحديثا، عند العرب وعند الغرب، ليأتي بعدها دور أهم المفاهيم للنّص في التّراث العربي وحديثا ثم عند الغرب وذلك قصد الاستقرار على تعريف واحد .

جاء في القاموس المحيط عن الجملة :"والجُملة، بالضم:جماعةُ الشيء"، "والشيء جمعه عن تفرقه والحساب رده إلى الجملة"[1]،وجاء معنى الجملة عند ابن فارس:"الجيم والميم واللام أصلان: أحدهما تجمُّع وعِظَم الخلْق، والآخر حُسْنٌ، فالأول قولك أجملْتُ الشيء، وهذه جملة الشيء.وأجْملْتُه حصّلته"[2]وفي النحو القديم"تداخلت الجملة مع الكلام"[3]،حيث ذهب ابن جني في تعريفه للكلام على أنه"كل لفظ مستقل بنفسه مفيد بمعناه وهو الذي يسميه النّحويون الجمل"[4] ، فقد جعل الجملة والكلام يشيران إلى معنى واحد،كما يقول في كتابه اللّمع:"وأما الجملة فهي كل كلام مفيد مستقل بنفسه"[5]، فالجملة عنده ترادف الكلام ثم استقل كل منهما

---

[1] ـ الفيروز آبادي: التعريفان من القاموس المحيط، دار إحياء التراث العربي،بيروت، 1997م،ج1،مادة(جمل).

[2]- أحمد بن فارس: معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، ط2، البابي الحلبي، مصر 1969م،مادة (جمله).

[3]- أحمد عفيفي: نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي،ط1،مكتبة زهراء الشرق، 2001م،ص:18.

[4]- ابن جني:الخصائص، ت:عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1424ه-2002م،ج1،ص: 73

[5]- ابن جني: اللمع في العربية، ت:حسين محمود شرف، عالم الكتب، بيروت، ط2، 1979م، ص: 110.

بشكل حاسم على يد جمال الدين بن هشام حيث يقول:"الكلام هو القول المفيد بالقصد، والمراد بالمفيد: ما دل على معنى يحسن السكوت عليه، والجملة عبارة عن الفعل وفاعله..والمبتدأ وخبره..وما كان بمنزلة أحدهما.وهذا يظهر لك أنّهما ليسا بمترادفين كما توهم كثير من الناس، وهو ظاهر قول صاحب المفصل، فإنه بعد أن فرغ من حد الكلام قال:ويسمى: جملة.والصواب، أنها أعمّ منه، إذ شرطه الإفادة بخلافها، وله تسمعهم يقولون: جملة الشرط، وجملة الجواب، وجملة الصلة، وكل ذلك ليس مفيدا، فليس بكلام" [1] ويرى الزمخشري(ت538ه) أن "الكلام مؤلف إما من اسمين أسند أحدهما إلى الآخر، وإما من فعل واسم وسمي كلاما"[2]، وأراد بالكلام معنى الجملة فهو لم يفرق بينهما وجعل منهما مفهوما واحدا.

وقد أخذ مصطلح الكلام دلالات كثيرة في كتاب سيبويه(ت180ه)"بحيث لا يمكن أن يقال أنه استخدم "الكلام" في معنى "الجملة" الاصطلاحي دائما" [3]، ذلك يعني أن سيبويه قد اعتبرهما مصطلحين لمعنى واحد وقد ترتّبت عنده دلالات أخرى لمعنى الكلام" فقد يَرِد هذا المصطلح ويُراد به النّثر في مقابل الشّعر، كأن يقول مثلا:" قد يجوز في الشعر وهو ضعيف في الكلام"، وقد يكون مستعملا بمعنى اللغة كقوله:" ولكنه كثر النصب في كلامهم"... وقد يستخدم لفظ "الكلام" ويراد به النظام اللغوي المركوز في عقل الجماعة اللغوية..وقد يرد بمعنى الاستعمال الصحيح، كأن يقول:"وهو حد الكلام"..وتتبع هذا المصطلح في كتاب سيبويه يكشف عن معان أخرى"[4]، فقد استعمل سيبويه مصطلح الكلام وكان يريد به الجملة كما أنه اتسعت دائرة "الكلام" في كتابه إلى دلالات كثيرة، أما المبرد(ت285ه) فقد استخدم مصطلح الجملة بعينه فقال:"إنما كان الفاعل رفعا لأنه هو والفعل جملة لحسن السكوت عليها وتجب فيها الفائدة للمخاطب"[5]، ولعلّه أوّل من استخدم مصطلح "الجملة"، فمن النحاة من جمع بين المصطلحين، ومنهم من فرق بينهما، ورغم هذاالتّداخل بينهما فقد استقل كل منهما على يد جمال

[1]- أبو محمد جمال الدين بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن هشام الأنصاري المصري: مغني اللبيب عن كتاب الأعاريب، طبعة دار الشام للتراث، بيروت،(دت)، ص: 490.

[2] ـ الزمخشري، جار الله: المفصل في صنعة الإعراب، ت علي بوملحم، دار مكتبة الهلال، بيروت، ط1 ،ص: 21.

[3] ـ محمد حماسة عبد اللطيف: بناء الجملة العربية، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة، 2003م،ص: 22.

[4] ـ المرجع نفسه، ص22.

[5] ـ المبرد: المقتضب، ج1 ،تح : عبد الحسين عقيمة، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة ،ط2 ،1979م،ص: 8.

الدين بن هشام[1]، حيث كان الكلامعنده هو القول المفيد بالقصد، والجملة عبارة عن الفعل والفاعل، والمبتدأ والخبر، وما كان بمنزلة أحدهما"[2].

وتعرّف الجملة كونها "بناء لغوي يكتفي بذاته، وتترابط عناصره المكونة ترابطا مباشرا أو غير مباشر بالنسبة لمسند إليه واحد أو متعدد"[3]، وأنها" نسق ثلاثي التركيب يتمثل في المسند، والمسند إليه، والتكملة، ونسق نحوي يعتمد على تمام التكوين، وصحة التأليف.وهي أيضا ذات نسق متصرف، إذ تقبل التحليل والتحويل والإعراب"[4]، كما أنها "وحدة مجردة تؤسّس لكي تقدّم بيانا عن الاطّرادات التـّـــوزيعية لمكوّناتها"[5].

ويعرّفها جون لاينز(**john lyons**)*أنّها" الشّكل اللّغوي المستقلّ، غير متضمّن عن طريق أيّ تركيب نحوي في أيّ شكل لغويّ أكبر"[6]ومن الملاحظ أن مفهوم الجملة قد حظي بتعريفات كثيرة، وقد اعتمدت "دراسة التّراكيب اللّغوية جميعها على وجه التّقريب منذ نشأتها في العصور السّحيقة على مفهوم الجملة دون غيره"[7] فإن هذا العدد الكبير من التّعريفات الذي ذهب إليه الباحثون، يبيّن مدى الصّعوبة في تحديد مفهوم موحّد للجملة،لأنّهم استعملوا مصطلحات كثيرة، رغم ذلك لم يستطيعوا الوصول إلى تحديد تعريف يميزها، وقد اعتبر دي بوجراند(**Robert De Beaugrand**) أنّ"الجملة كيان قواعدي خاص يتحدّد على مستوى

---

[1]- محمد حماسة عبد اللطيف: بناء الجملة العربية، ص: 22 .

[2] ـ أحمد عفيفي: نحو النص، اتجاه جديد في الدرس النحوي، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 2001م، ص: 17.

[3]- جوزيف ميشال: دليل الدراسات الأسلوبية ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1984م، ص:40.

[4]- عبد السلام سليمي: دراسة في التركيب، كلمات للنشر والطباعة والتوزيع، سلا ،ط1 ، 2010م، ص:19 -21.

[5]- مصطفى حميدة،:نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة العربية، لونجمان، القاهرة ،1997م،ص:147 .

*جون لاينز(**john lyons**): من مواليد 23 ماي 1932م، هو عالم لسانيات انجليزي، يعمل على مجال السيميائيات بين سنتي 1965و 1969 ، أصبح رئس تحرير جريدة اللّسانيات بين سنتي 1964و 1984، عمل أستاذا للسانيات بجامعة إدنبرة وجامعة ساسكس، له كتاب معروف بعنوان: مبادئ السّيميائيات (بالإنجليزية:Element of semantic)، ينظر الموقع الإلكتروني:جون ـــ ليونز/ /https://ar.wikipedia.org/wiki.

[6]-John Lyons : linguistique generale (introduction a linguistique theorique) –traduction-Duboi Charliere et Robinson-Larousse-imprimerie herissey- France- Paris-1983-p :133.

[7] ـ روبرت دي بوجراند: النص والخطاب والإجراء، ترجمة تمـــــــام حسان، عالم الكتب، القاهـــرة، ط1 ،1418ه ـــــ 1998م، ص :90

النحو فقط"[1]، وهي ذات الفكرة الّتي وقف عندها النّحويون القدامى في اهتمامهم بالجملة من خلال العلاقات القائمة بين الوحدات النحوية و"أن الجملة عبارة عن فكرة تامة"أو" تتابع من عناصر القول ينتهي بسكتة" أو "نمط تركيبي ذو مكونات شكلية خاصة"[2].

يركّز مفهوم الجملة من خلال هذه التعريفات على العلاقات القائمة بين عناصرها من جهة وعلى الجانب الشّكلي من جهة أخرى، ويرى مصطفى حميدة بأنّ "الجملة وحدة تركيبية تؤدي معنى دلاليا واحدا، واستقلالها فكرة نسبيّة تحكمها علاقات الارتباط والرّبط والانفصال في السّياق"[3]، فهو يحدد مفهومها من منطلق دلالي وأن استقلالية الجملة مرتبطة بالسّياق، و"هذا الاستقلال النّسبي ربما يكون لمنطق الدراسة؛ فهو إذن حكم مؤقت"[4]، لأنّ الجملة "بنية قارّة في الكلام، وقرارها هذا جعل النّظرياتالتي اشتغلت بوصفها وتقنينها، متينة متانة نسبيّة، ونسبيتها متأتّية من طبيعة الكلام نفسه"[5]، فبنية النّص الكليّة تقتضي نسيجا معينا يقوم عليه النّص، والجملة جزء من هذا النّسيج، وعليه فالجملة نوعان:

1/جملة نظام: وهو شكل الجملة المجرد الذي يولّد جميع الجمل الممكنة والمقبولة في نحو لغة ما.

2/جملة نصيّة:وهي الجملة المنجزة فعلا في المقام، وفي هذا المقام تتوفر ملابسات لا يمكن حصرها، يقوم عليها الفهم والإفهام"[6]، فالنّوع الأول يعطي للغة استقلاليتها بعيدا عن السّياق ويهتمّ بالعلاقات القائمة بين العناصر اللّغوية وفق ما يقتضيه التّركيب النّحوي، أما النّوع الثّاني فالجملة الّتي يتمّ مدلولها في سياق معيّن والّتي تكون جزءا من نصّ ما، ذلك كونها تتواصل مع جمل أخرى، وهذا المدلول يكون نتيجة لملابسات لا يمكن حصرها تؤدي إلى الفهم والإفهام، ولقد تعرّض النّحاة والبلاغيون العرب في دراسة الجمل وخاصّة المستقلّة منها للكشف عن وسائل الترابط المختلفة التي تخضع لها"فبعضها يعتمد على الفهم والإدراك

---

[1]ـ المرجعالسّابق، ص: 90 .

[2] ـالمرجع نفسه، ص: 88.

[3] ـ مصطفى حميدة: نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة العربية، لونجمان ، القاهرة، 1997م،ص: 148.

[4] ـ أحمد عفيفي: نحو النص، اتجاه جديد في الدرس النحوي، 2001م، ط1، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ص: 18.

[5] ـ الأزهر الزناد: نسيج النص، بحث في ما يكون به الملفوظ نصا، المركز الثقافي العربي، ط1 ، 1993م، بيروت، ص: 14.

[6] ـ المرجع نفسه، ص: 14.

الخفي للعلاقات، وبعضها الآخر يعتمد على الوسائل اللغوية المحسوسة"[1]، وكانت دراستهم لهذه الوسائل دراسة دقيقة.

وتجدر الإشارة في هذا المقام إلى أنّ الرغبة في تقويم اللسان في نطق الجملة والتقعيد لها بضوابط تضمن سلامتها بمستوياتها المختلفة: الصوتية والصرفية والنحوية والدّلالية،جعل رواد النحو العربي ينطلقون من الجملة وصبوا تحليلاتهم النحوية في إطارها، ولا يمكن اعتبار ذلك قصورا لأن عمل النحو يقتضي اجتزاء الجمل من النص لأنه يقوم على العلاقات بين الإشارات اللغوية لذلك كانت الجملة محور الدرس اللغوي، وقد احتوت اهتمام الدارسين ردحا من الزمن، ولكن دراسة ما فوق الجملة، ومحاولة الوقوف على نحو جديد يسمى نحو النص، هذا العلم الجديد يستعين بما جاء في علم البلاغة والأدب والنقد الأدبي والشعر والعروض في تناوله للنصوص.

1 ـ 2 مفهوم النّص لغة واصطلاحا عند العرب القدماء:

1ـــ النّص لغة:

جاء في المعاجم العربية تعريفات للنّص(TEXT) من خلال الحديث عن كلمة "نص" في دلالات متعدّدة،حيث يعرّفها صاحب القاموس المحيط في مادة (نصص)بقوله:"نص الحديث رفعه، وناقته استخرج أقصى ما عندها من السّير، والشّيء حركه، ومنه فلان ينصّ أنفه غضبا وهو نصاص الأنف،والمتاع: جعل بعضه فوق بعض، وفلانا:استقصى مسألته عن الشيء، والعروس أقعدها على المنصة بالكسر، وهي ما ترفع عليه فانتصت،والشيء أظهره، والشواء ينص نصيصا:صوّت على النار،والقدر غلت،..والنص الإسناد إلى الرئيس الأكبر والترقيات والتعيين على شيء ما، وسير نُصٌّ ونصيص جدٌّ رفيع."[2]

وجاء في أساس البلاغة لجار الله الزمخشري قوله:"ومن المجاز:نصَّ الحديث إلى صاحبه"[3]، وفي لسان العرب لابن منظور:"النص رفعك الشيء، نص الحديث ينصه نصا: رفعه وكل ما أظهر فقد نصّ.ووضع على المنصة: أي على

[1] ـمحمد حماسة عبد اللطيف: بناء الجملة العربية، ، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1416هـ ـ 1996م،ص: 74.

[2]- الفيروز أبادي: القاموس المحيط،دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1997م، ج1، مادة(نص)،ص:858

[3]-الزمخشري: أساس البلاغة، تحقيق محمد باسل عيون السود، مادة (نصص)،ج2،ص:275.

غاية الفضيحة والشهرة والظهور ومنه منصة العروس "[1]، يتّضح من خلال هذه التّعاريف اللّغوية أنّ كلمة نّص أريد بها الرفع والإظهار والشّهرة.

2 ــ تعريف النّص اصطلاحا عند القدماء:

جعل العرب القدامى للنّص والبيان مدلولا واحدا،فنجد النّص كمفهوم قد تناوله القدماء في كتبهم، ورغم أن اهتمام النّحاة بظاهرة الإعراب جعلتهم يقتصرون رعايتهم على الكلمة والجملة على حساب الوحدات الكبرى في دراساتهم الصّرفية والنّحوية، إلا أن المفسّرين قد بذلوا جهودا في تفسير القرآن الكريم،حيث تعاملوا مع النص القرآني على أنه نصا منسجما متكاملا. قد أثار هذا اهتماما كبيرا واستجابة جادّة في الحضارة الإسلامية حتى أضحت حضارة النّص، ذلك أنّ"الحضارة اليونانية هي حضارة العقل، أما الحضارة الإسلامية فهي حضارة النّص"[2]، وهذا النّص إما أنه يحتمل التّأويل أو أنّه يسري على المعنى الصّريح ففي تعريف آخر له أنّ النّص"ما ازداد وضوحا على الظاهر، لمعنى في المتكلّم، وهو سوق الكلام لأجل ذلك المعنى.. والنّص ما لا يحتمل إلا معنى واحدا، وقيل ما لا يحتمل التأويل"[3] .

ذهبت التعريفات المذكورة إلى المعنى اللّغوي بغية الرّفع والإظهار، فالكاتب أو صاحب النّص لابد له من إظهار نصّه ورفعه للمتلقي حتّى يتمكّن من استيعابه والوقوف على كل كبيرة وصغيرة فيه، سواء كان باحثا أو متلقيا عاديا.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ العرب القدامى كانت لهم إسهامات علميّة في مجال التنظير والتطبيق النصي، فقد دعوا إلى النظرة الشمولية للنصوص على الرّغم من عدم ورود هذا المصطلح لديهم، فقد أدرك الباقلاني كيفية سبر أغوار النص، فقبل أن يبحر في نظم القرآن، ذهب إلى الشعر الذي هو ديوان العرب، وتناول قصيدتين أولها لامرئ القيس، والثانية للبحتري، ويبدو بأن اختياره للشاعرين لم يكن اعتباطا. ويرجع اختياره لامرئ القيس إلى أنّ معلّقتههي خير ما

---

[1]- ابن منظور،أبو الفضل جمال الدين بن محمد: لسان العرب،دار صادر، ط3، بيروت، 1414ه-1994م مادة (نصص)،ج13،ص:97.

[2]- نصر حامد أبو زيد: نقد الخطاب الديني،مصر ، القاهرة،مطبعة سينا،1994م،ص: 11.

[3]- الشريفالجرجاني: التعريفات، دار الكتاب اللبناني/المصري ، بيروت /القاهرة،ط1991،1م،ص:251.

قاله في الشّعر، كيف لا، وهو الأبلغ في نظرهم، ومبدع فصيح" فيتناولها جملة وتفصيلا للتّعرّف على فنون التّعبير والتّصرّف في القول فيها"[1].

أمّا عن البحتري " فالكُتّاب يفضّلونه على أهل دهره، ويقدّمونه على من في عصره؛ منهم من يدعي له الإعجاز غُلُوًّ، ويزعم أنه يناغي النجم في قوله علوّا، والملحدة تستظهر بشعره، وتتكثّر بقوله، وترى كلامه من شبهاتهم، وعباراته مضافة إلى ما عندهم من تُرَّهاتهم، فبيذنا قدْر درجته، وموضع رُتبته، وحدّ كلامه" [2]، يرى الباقلاني بأنّ شعره يوازن بشعر شاعر من طبقته، ومن أهل عصره، ومن هو في مضماره أو في منزلته، وقد تناول قصيدته جملة وتفصيلا ، لا أبياتا متفرّقة مفردة كما فعل مع معلقة امرئ القيس، وقد تناول كلتا القصيدتين من المطلع حتى النّهاية واقفا على مواطن الجمال والضعف والخلل، يعلل، ويقدم آراء للعلماء في الشعر، فيقبل بعضها ويرفض بعضها الآخر، إضافة إلى أنه قد طرح آراءه الخاصة مبينا مواقفه إزاء تحليله للقصيدتين.

أما عبد القاهر الجرجاني(ت471ه) صاحب نظرية النظم التي برزت قيمتها النصية حيث جمعت بين علوم كثيرة منها النّحو والبلاغة والتّفسير من أجل بيان إعجاز القرآن الكريم،فقد كانت نظرته أكثر شمولية للنّص، لأنّ هدفه كان بيان أهمية التأليف اللساني في تشكيل الجوانب الفنية في النّص، وهذه الدّراسة الفنيّة هي توَجُّه جديد قام الجرجاني من خلاله إعطاء نظرة جديدة للنّحو مضيفا للمنحى المعياري له منحى فنيّا من خلال كتابيه "أسرار البلاغة"و "دلائل الإعجاز"، حيث قام ببيان وضع اللفظ وقيمته الفنية باستغلال العلاقة القوية بين اللّغة وفنية التأليف ليمكّن القارئ المتلقي للخطاب من الوقوف على جمالياته، واستطاع ذلك بقدرته اللغوية والبلاغية، وقد خرج بنظريّة إلى الوجود هي نظرية النظم التي وظّف فيها النّحو والبلاغة معا في قالب خاص،يبيّن الجرجانيأنّ النّصّ يشكّل كلّا واحدا فتراه يقول في هذا المقام:" واعلم أن مَثَل واضع الكلام مثلُ من يأخذ قطعا من الذهب أو الفضة فيذيب بعضها في بعض حتى تصير قطعة واحدة"[3]، ويذهب في حديث عن تماسك النص كلحمة واحدة إلى ذكر ذلك في تعليقه على بيت لبشار بن برد:

كَأَنَّ مُثَار النَّقْعِ فَوْقَ رُؤُوسِنَا وَأَسْيَافُنَا لَيْلٌ تهَاوَى كَوَاكِبُه.

[1] ـ محمد زغلول سلام،: أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع الهجري، قدم له: محمد خلف الله أحمد، ط1 ، مكتبة الشباب، مصر، ص: 287.

[2] ـ الباقلاني، إعجاز القرآن،ص: 373 .

[3] ـالمصدر السابق، ص: 412 ــ 413.

عندما قال:"فبيت بشار إذا تأمّلته وجدته كالحلقة المفرغة التي لا تقبل التّقسيم، ورأيته قد صنع في الكلم الّتي فيه ما يصنعه الصّائغ حين يأخذ كِسَرا من الذّهب فيذيبها ثم يصبُّها في قالب، ويخرجها لك سوارا أو خلخالا، وإن أنت حاولت قطع بعض ألفاظ البيت عن بعض، كنت كمن يكْسر الحَلْقة ويفصم السوار"[1]، أي أنّ النّص يشكّل وحدة دلالية من جهة، وهو بذلك لديه نفس المفهوم الذي نجده عند" هاليداي، ورقية حسن" عندما تحدثا عن الوحدة الدلالية للنص، ومن جهة أخرى النص نسيج تتكامل أجزاؤه وتترابط، وتبنى بعضها ببعض، وتجعل هذه بسبب تلك.

يمكن القول أن الجرجاني قد أشار إلى الدّراسة النّصية، من خلال الإشارة إلى العوامل المؤديّة إلى ترابط النّصوص، إضافة إلى أنّه نظر إلى النّص كلّا متكاملا، مشيرا في ذلك إلى مبدأ هذا التّماسك الّذي حدّده في فكرة النّظم الذي يقصد به صناعة النّص، فهو يرى" أنّ النّص لا يتكوّن إلا حسب قوانين النّحو، ومناهجه، وهو هنا يدرك تماما أنّ علم نحو النّص، ليس نحو الجملة فقط؛ إذ يرى أن نحو الجملة من علم النحو"[2].

وفي ذات المنحى ذهب الأصوليون، فمفهوم النّص عندهم أخذ المعنى نفسه عند اللّغويين وهو الرفع والإظهار وضم الشيء وبلوغ الشيء منتهاه، والنص المقصود هو ما يكون في منتهى البيان، وهو "النّص الّذي نجد فيه زيادة وضوح؛ إذ يفهم منه معنى لم يفهم من الظاهر"[3] ويقصد من هذا التّعريف أنّه نصّ يقبل التّأويل، وهو نص في أعلى درجات البيان وهذا ما أفاد الرّفع والبيان والظّهور الّذي ذهب إليه المعنى اللغوي.

اهتم علماء الأصول بمفهوم النّص وفي مقدمتهم الإمام" الشافعي"(ت204ه) بحيث يعتبر أوّل من تطرّق إلى المفهوم وذلك من خلال نظريته عن البيان فيقول عن النص:"أنّه ما أتى الكتاب على غاية البيان فيه، فلم

---

[1]ـ الباقلاتي: إعجاز القرآن، ص: 414.

[2]ـ عمر محمد أبو خرمة: نحو النص ـ نقد النظرية وبناء أخرى، 1425ه/2004م، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، الأردن، ص: 44.

[3]- السيد أحمد عبد الغفار: التصور اللغوي عند الأصوليين،مكتبات عكاظ للنشر، الإسكندرية، ط1 ،1401ه-1981م، ص: 144.

يحتج مع التنزيل فيه إلى غيره"[1] ومعنى ذلك أن النص هو " ما رفع في بيانه إلى أبعد غاياته" [2] .

لقي مفهوم النّص عند اللسانيين اختلافا كبيرا،وخاصة في وضع تعريف موحّد له بشكل مطلق " فإنّ جلّ الدّراسات اللّسانيّة النّصيّة اعتمدت التّداخل بين النّص والجملة حيث: بَنَوا تعريفهم للنص ولسانيات النص على الجملة ونحو الجملة، واتّخذوا النّص مطيةً للانتقال إلى الحديث عن ظواهر الانسجام والترابط بين الجمل المنجزة في إطار مقام معيّن، وتحدثوا عن حدود النص أي بدايته ونهايته عن عنوانه واستهلاله وعلامات نهايته"[3]، و بذلك فإن نحو الجملة هو الركيزة التي انطلق منها نحو النّص، وأسس بعد ذلك قواعده بما يخدم النص كوحدة أكبر لأن نحو الجملة ولم يعد قادرا على معالجة وحدات أكبر منها.

2 ـ 1 مفهوم النّص عند العرب المحدثين:

يذهب فريق من الباحثين إلى أنّالنّصوص هي المادّة الأساسيّة التي يبنى عليها البحث والتّحليل والتّفسير والفهم لأن تداخل النّص مع مصطلحات أخرى كالخطاب مثلا، شكّل إشكالية معقّدة في النّقد الحديث،لكنه عند أغلب الدّارسين العرب اقترن مفهومه عندهم بالمعنى اللّغوي " وقد توهّم أغلب دارسي النّص من الباحثين العرب المعاصرين ..أنّ أصل معنى النّص في الثّقافة قائم على فكرة الرّفع والإظهار"[4]،كما أنّه-النّص- عند العرب" يرتبط ارتباطا وثيقا بفكرة الوضوح والانكشاف"[5]،وقد ذهب أحد الدّارسين إلى أنّ للنّص مميّزات حددها من خلال حديثه عن المعنى اللغوي للنّص في اللّسان وتحليله حسب الأمارات التي تفيد كثيرا في وصول إلى مراد العربية بالنص وفق معني النص في اللسان، وحصر هذه المميزات في هذه النقاط:" الظهور، والثبات ، وعلو المصدر، والاستقصاء التام،

---

[1]- محمد بن إدريس الشافعي: الرسالة، تحقيق أحمد محمدشاكر، بدون بيانات، ص: 32.

[2]-أبو الوليد الباجي: المنهاج في ترتيب الحجاج، تحقيق عبد المجـــــيد تركي، دار الغـــــرب الإسلامي، بيروت، ط3، 2001م، ص :12.

[3]- ينظر:بن يحي طاهر ناعوس: تحليل الخطاب القرآني في ضوء لسانيات النص(دراسة تطبيقية في سورة البقرة)،دار القدس العربي، 2014م،ص:17.

[4]- عمر أبو خرمة، نحو النص(نقد النظرية...وبناء أخرى)، ص: 24.

[5]-المرجع نفسه، ص: 24.

والتركيب، والترتيب، والاقتصاد"[1]، وهذه المعاني كلها تدل على معنى واحد شامل وجامع وهو الارتفاع.

ويلاحظ في المدوّنات العربية الحديثة التي اهتمت بالنّصّ قد قدّمت تعريفات مختلفة له نلمس فيها الأثر الغربي في المفهوم، وهذا يعود إلى أنّ بعض الدّارسين عمدوا إلى محاولة عقد صلة بين المفهوم الغربي والعربي للنص، إذ جعلوا من المفهومين العربيين "النص" و "النسيج" معنى واحدا يُقابل به المفهوم الغربي " texte"، فالنص إذن "علامة كبيرة ذات وجهين: وجه الدال ووجه المدلول"[2] ويتضمن مصطلح"نص"في العربية،وكذلكفي مقابله في اللغات الأعجمية(**Text**)معنى"النسيج"،"فالنّص نسيج من الكلمات يترابط بعضها ببعض، هذه الخيوط تجمع عناصره المختلفة والمتباعدة في كل واحد هو ما نطلق عليه مصطلح"نص"[3]، والكلام عند العرب يكون نصّا، إذا كان نسيـــــجا، والنـــّص تركيب والنّسيـــــــــــج ضمّ وتنظـــيمونظـــــــم وتأليـــف علىطريقة معيّنة وخاصّـــــة،وكلاهما وجهان لعملة واحدة، فما يستحضره الكاتب من مكوّنات لنصّه المتمثّلة في تلك الجمل المترابط والمنسجمة والمتداخلة مكوّنة انسجاما واضحا واتّساقا دقيقا فتقدم في سلسلة مفيدة للمستمع، وذلك هو النّص باتّساق ألفاظه وانسجام معانيه وترابطها.

وقد عرّفه محمد مفتاح على أنّه:"مدوّنة كلاميّة، وإنّه حدث يقع في زمان ومكان معيّنين، يهدف إلى توصيل معلومات، ونقل تجارب إلى المتلقي"[4]، ونفهم من هذا القول أنّ النّص لم يأت من العدم،فهو وليد أحداث لغوية وتجارب تنقل إلى المتلقي في قالب لغوي .

والملاحظ أن مفهوم النّص عند الكثير من المفكّرين العرب المحدثين نحا نحو المفهوم الغربي حيث استفاد هؤلاء من الأبحاث والعلوم الغربية في هذا المجال، فهو يشترك عند الغرب والعرب معا بصفات وخصائص واحدة إذ يحمل "مفهوم النّسيج أو الحياكة لما يبذله الكاتب من جهد في تنظيم أجزائه، والرابط

---

[1]-المرجع نفسه، ص: 29.

[2]- الأزهر الزناد: نسيج النص،بحث في ما يكون به الملفوظ نصا،ط1،المركز الثقافي العربي،1993م،ص: 12.

[3]- المرجع نفسه، ص: 12.

[4]- محمد مفتاح:تحليل الخطاب الشعري(استراتيجية التناص)، المركز الثقـــافي العربي، الدار البيضاء المغرب ،ط1986،2م،ص: 120.

بينهما بما يكون كلا منسجما ومترابطا"[1]، وذلك يعني أنّ مكوّنات هذا النّص تتشابك فيما بينها وتتعالق كالنسيج، هذه العلاقات التي تجمع الكلمات بأنواعها ترسم لنا دلالات محدّدة يرمي إليها صاحب النص، وبذلك تشكل قصدية معينة تصل إلى المتلقي فتوضّح خلفيات هذا المعطى، وتحدد دقائق هذا النّسق الّذي ارتأى له صاحبه أن يخرج كلّا متكاملا يحكمه الانسجام والترابط،فالوحدة والترابط والانسجام عناصر ضروريّة في إنتاج دلالات النّصوص مهما اختلفت أبعاد هذه الدّلالات، فالنّصّ" بمعناه الاصطلاحي يقتضي وجود انسجام بين أجزائه[2]فالاتساق بين عناصر النص وانسجام عناصره ضروري ليكون النص نصا،وهذا الترابط بين أجزاء النص يسمى النصية(**textuality**).

ولقد ذهب بعض الباحثين إلى الربط بين الدلالة المعجمية لكلمة (نص) في العربية والفرنسية والانجليزية، حيث نجد خليل الموسى يقول:"لا شك في أن معاني (نص) في القديم غيرها في الحديث، وعند العرب غيرها عند سواهم، وهذا أمر طبيعي تقتضيه التّطورات والتّغيرات الزّمنيّة والمكانية التي تطرأ على معاني الألفاظ"[3] نجده يدرج هذا القول مع تمام إدراكه بوجود فوارق دلالية بين المعاجم كما أنه اعترف بذلك، وحاول الباحث أن يجد بعض ما يتقارب بين المعنيين اللّغويين عند العرب والغرب معا فيضيف قائلا:"لكن بعض هذه المعاني وبخاصة الثوابت منها تتقاطع وتتلاقى، فالرفع مثلا يعيد النص إلى صاحبه، والتحريك صفة من أهم صفات النّص الأدبي، فهو حوار بالدّلالة، أما الإظهار ففيه معنى الإنجاز والتّمام، وإذا كانت العروس تنص على المنصّة لترى في أجمل حلّة وصورة لها، فكذلك شأن النّص الّذي لا يخرجه صاحبه إلى النّاس إلا في حالته الّتي يراها جميلة، ومن هنا كان معنى الحوليات في الشّعر الجاهلي، ثمّ إن من معاني النّص: الافتضاح والإشهار، ومنها قولهم: وضع فلان على المنصّة أي افتضح واشتهر، ومن ذلك التّحديد والوصول إلى الغاية والمنتهى في الجودة والبلاغة"[4] .

ويذهب صلاح فضل إلى ما آل إليه "بول ريكور" (**P.RICOEUR**)في مفهومه للنّص وقد أورد مقولته"لنطلق كلمة نص على كل خطاب، تم تثبيته بواسطة الكتابة وأن هذا التثبيت، أمر مؤسّس للنص ذاته ومقوّم له، وعلى هذا

---

[1]- محمد الأخضر الصبيحي: مدخل إلى علم النص، الدار العربية للعلوم، ط1، 2008م، ص: 20.

[2]- محمد مفتاح: ديناميكية النص(تنظير وإنجاز)، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط2 ،1990م، ص: 162.

[3]- خليل الموسى: النص لغة واصطلاحا، جريدة الأسبوع الأدبي، عدد823، ص:20.

[4]-المرجع السابق، ص: 20.

فمفهوم النّص ينطوي على أنّ الرّسالة المكتوبة، مرّكبة مثل العلامة، فهي تضمّ من جهة مجموعة من الدّوال بحدودها المادية من حروف متسلسلة في كلمات وجمل متتاليات، ومن جهة ثانية تضمّ المدلول بمستوياته المختلفة "[1]،ونفهم من هذا القول مدى اقتران النّص بالكتابة، فكلّ ملفوظ مثبت بكتابة فهو نصّ، فالحروف بتسلسلها والكلمات بتناسقها والجمل بتآلفها تمثّل دوالا، والمدلول يكون بمستويات مختلفة .

إنّ من أهمّ الخصائص التي تَسِمُ النّص بالنّصية هي التّرابط بين أجزاء النص، فالنص ليس "مجموعة جمل فقط لأن النص يمكن أن يكون منطوقا أو مكتوبا، نثرا أو شعرا، حوارا أو مونولوغا، يمكن أن يكون أي شيء من مثل واحد حتى مسرحية بأكملها، من نداء استغاثة حتى مجموع المناقشة الحاصلة طوال اليوم في لقاء هيئة، والنصية تميز النص عما ليس نصا، فالنصية تحقق للنص وحدته الشاملة، ولكي تكون لأي نصّ نصيّة، ينبغي أن يعتمد على مجموعة من الوسائل اللّغوية التي تخلق النّصية، بحيث تسهم هذه الوسائل في وحدته الشّاملة، ولتوضيح ذلك نضرب المثل الآتي:(اقطف قليلا من الزهور، ضعها في مزهرية قاعة الاستقبال)، غني عن البيان أنّ الضّمير (ها) في الجملة الثّانية يحيل قبليا إلى (الزهور) في الجملة الأولى، وما جعل الجملتين متّسقتين هو وظيفة الإحالة القبلية للضمير(ها)، وبناء على ذلك فإن الجملتين تشكّلان نصّا"[2]، فلا يكون النّص نصّا إلّا إذا توفّرت فيه الوسائل التي تحقّق نصيّته مما يجعله مترابطا كامل الأجزاء.

وهناك من الباحثين من أقرن مفهوم النّص بثقافة معيّنة،فيذهب عبد الفتاح كيليطو في رؤيته أنّ"كلاما ما لا يصير نصا إلا داخل ثقافة معيّنة، فعمليّة تحديد النّصّ ينبغي أن تحترم وجهة نظر المنتمين إلى ثقافة خاصة، لأنّ الكلام الذي تعتبره ثقافة ما نصّا، قد لا يعتبر كذلك من طرف ثقافة أخرى، بل هذا ما يحدث في الغالب وفي هذا الإطار أشار بعض السّيميائيين إلى أنّه من وجهة نظر ثقافة معيّنة تظهر الثقافات الأخرى كخليط من الظواهر العشوائية التي تتواجد دون رابط يجمع شتاتها، ويجعل منها نظاما موحدا ومتلاحم الأجزاء"[3]،فهو بذلك يحدّد

[1]- صلاح فضل: مناهج النقد المعاصر، دار إفريقيا الشرق، 2002م، المغرب/ بيروت،ص:133.

.

[2]- ينظر نور الدين السد: الأسلوبية وتحليل الخطاب، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر ،1997م، ص:70.

[3]- عبد الفتاح كيليطو: النص والأدب، مقال أورده عبد السلام المسدي، قضية البنيوية، دار الجنوب للنشر، 1995م، ص:150.

وجهة نظره اتجاه هذا النص، فلا يصير الكلام نصّا إلا داخل ثقافة الأفراد التي ينتمي إليها، وعندما يكون المتلقي بعيدا عن منشإ النّص وأبعاده الفكريّة والثقافيّة فلا يكون الكلام نصّا في هذه الحالة. .

نلاحظ من خلال هذه التّعاريف أنّ مفاهيم النّص قد تعدّدت بتعدّد التوجهات المعرفيّة والنّظريّة والمنهجيّة المختلفة، فاختلاف التّصوّر أدّى إلى هذا الاختلاف حول ماهية النّص، وما أجمع عليه الباحثون هو أنّ النّص وحدة لغويّة يجمع بين عناصرها روابط وعلاقات تجعل النّص منسجما ومترابطا وتشكّله كلّا متكاملا.

2 ـ 2 ـ النّصّ عند الغرب

اختلف مفهوم النّص عند اللّسانيين الغربيين، فهو عند فانديك(**Van Dyck**): "بنية سطحيّة توجّهها وتحفّزها بنية عميقة دلالية، والبنية العميقة لديه هي البني الموضوعية للنص"[1]، لأنّ البنيّة السّطحية والبنية العميقة لهما أهمية محوريةللتوصل إلى فهم النّصوص الّتي تتجاوز حدود الجملة، وهذه الدّراسة للبيانات النّسقية تساعد على إدراك مفهوم الخطاب على شكل متوالية من تركيب الجمل [2]، كمّا يعرّفه بول ريكور (**Paul Recouer**)*بقوله:"لنطلق كلمة نصّ على كل خطاب تم تثبيته بواسطة الكتابة، وهذا التّثبيت أمر مؤسّس للنّص ذاته ومقوّم له"[3]، إذن فكتابة الخطاب هي تأسيس للنّص في حد ذاته، وكل خطاب يقيّد ويثبّت بالكتابة فهو نصّ لأنّ الكتابة هي السّمة الأساسيّة له بحكم أنّها تصونه وتحافظ على

---

[1]- زتسلاف، ووارزنياك: مدخل إلى علم النص: مشكلات بناء النص، تر:سعيد حسن البحيري، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2003، ص: 56 .

[2]- ينظر،سعيد حسن بحيري: علم اللّغة النّص، المفاهيم والاتجاهات، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجان، مكتبة لبائر ناثرون،ط1، 1997 م، ص: 116 –117.

*بول ريكور (**Paul Recouer**) فيلسوف فرنسي، وعالم إنسانيات، ولد في القرن العشرين للعام 1913م، وتوفي في مطلع القرن الواحد والعشرين من سنة 2005م، وهو من روّاد المذهب التّأويلي، كان مذهبه منصبا على التأويل ثمّ البنيوية، ومن أشهر مؤلفاته"نظرية التّويل"، ينظر عبد الرحمن الأوتاني: نبدة عن بول ريكور، تدقيق : أزهار عبد الغني، 25 يوليو 2020م، الموقع الإلكتروني: نبدة ــ عن ــ بول ــ ريكور//http.sotor.com.

[3]- سعيد يقطين: انفتاح النص الروائي، المركز الثقافي العربي، بيروت الدار البيضاء، ط1 ، 1989م، ص:5.

استمراريته عبر الأزمنة المختلفة حتّى لا يدخل في طيّات النّسيان.ولقد كان لبارث(**R. BARTHES**)* نفس الرأي فيما يتعلّق بتثبيت الخطاب بالكتابة حيث يقرر "أنه نسيج كلمات منسقة"[1] في تأليف معيّن، وهي نظرة للنّص في جانبه الشّكلي وبالتالي فهو نسيج مرتبط بالكتابة، وهنا يظهر الجهد المبذول من طرف الكاتب لكي يشكل عملا مترابطا ومنسجما ومتسقا.

ويعرف ديبوجراند(**Robert de beaugrand**) النّص"أنّه تشكيلة لغويّة ذات معنى تستهدف الاتّصال ويضاف إلى ذلك ضرورة صدور أيّنص عن مشارك واحد ضمن حدود زمنيّة معيّنة وليس من الضّروري أن يتألّف النّصّ من الجمل، فقد يتكوّن النّصّ من جمل أو كلمات مفردة، أو أية مجموعة لغوية تحقق أهداف الاتصال، ومن جهة فقد يكون بين بعض النصوص من الصلة ما يؤهله لأن تكون مقال"[2]، فالنص عند ديبوجراند هو وحدة دلالية قد تتجسد في جملة واحدة أو أقل لأنه يتميّز بقيمته الاتصالية، فالقارىء يقوم بإعادة بناء النّص من جديد عند كل قراءة له، فيكون النّص ذو قابلية للعطاء المتجدد كلما تعرض لظاهرة القراءة.كما يشير ديبوجراند في كتابه "النص والخطاب والإجراء" إلى أن "النصية" تحكمها معايير ستة وهي: معيار الاتساق، معيار الانسجام، معيار المقصدية، معيار المقبولية، معيار المقامية و معيار التناصية. وهذه المعايير هي التي تعطي للنص صفة الشمولية كما أنها تميّز النّص من اللّانص، وهذه الوسائل تقوم بالمساهمة في وحدته الشّاملة لأنّ تكامل هذه العناصر المكوّنة للنّص في جميع مستوياته سواء من حيث الاستعمال أو الإنجاز تحقّق نصيّته.

وقد عرّفه كلّ من هاليداي (**Halliday**)*ورقية حسن(**Ruqaia hassan**)*بقولهما:"إن كلمة نصّ تستخدم في علم اللّغويات لتشير إلى أيّ فقرة

---

*رولان بارث(**R. BARTHES**): فيلسوف فرنسي شهير وناقد ومنظّر في الأدب ومنظّر اجتماعي، ولد في 12 نوفمبر1915م، اشتملت أعماله على البنيويّة وما بعد البنيويّة، توفي عام 1980م، ينظر: رولان بارث
https://ar.wikipedia.org/wiki//

[1]- عدنان بن ذريل: النص والأسلوبية، دراسة منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1989، ص:60.

[2]- محمد الأخضر الصبيحي: مدخل إلى علم لغة النص/ مجالاته وتطبيقه، ط1، الدار العربية للعلوم، بيروت،2008 م، ص:9.

*هاليداي(**Halliday**):ولد اللّغوي مايكل ألكسندر كيركوود هاليداي في المملكة المتّحدة في 13 أفريل 1925م، وهو العالم اللغوي الانجليزي المعروف بتطويره لنموذج اللغويات الوظيفية اللغويّة، توفي في 15 أفريل 2018م، ينظر: ندين حميدان: اللّعوي مايكل هاليداي، الموقع الإلكتروني: اللغوي مايكل هاليداي.**https://e3arabi.com**

*رقية حسن(**Ruqaia hassan**): ولدت في 3 يوليو 1913م، عملت بتدريس اللغويات، وشغلت مناصب أستاذ زائر في جامعات عدّة في انجلترا، وأصبحت أستاذا متمرّسا منذ عام 1994م، قامت بالكثير

مكتوبة أو منطوقة مهما كان طولها، شريطة أن تكون وحدة متكاملة"[1]، وهذه الوحدة تعمل على تحقيق غاية عامّة تتمثّل في تفسير العلاقات النّسقيّة بين النّصّ وبين السّياق التّداولي، وقد قدّم كلّ من "هاليداي" و" رقية حسن" هذا التّصور حول النّص مقرونا بإبراز عنصر الانسجام في تركيبته، فهما يعتبران النّص "وحدة دلالية "[2] لأنّهما ركّزا على وظيفة لغتة داخل السياق.ونجده عند "هيلمسليف""هو ملفوظ مهما كان منطوقا أو مكتوبا، طويلا أو موجزا، قديما أو جديدا، فكلمة "قف" هي نصّ مثل رواية طويلة؛ فكلّ مادّة لسانية تشكّل نصّا كونه قابلا للتّحليل إلى صفات هي نفسها قابلة للتجزئة إلى أقسام وهكذا إلى أن تَنْتَه إمكانا للتقسيم"[3]، أما البلغارية "جوليا كريستيفا*JULIAKRISTIVAفهي ترى النّص بأنه"جهاز عبر لساني يعيد توزيع نظام اللّسان بالربط بين كلام تواصلي يهدف إلى الإخبار المباشر وبين أنماط عديدة من الملفوظات السّابقة عليه أو المتزامنة معه، فالنّص إذن إنتاجية"[4]، يحدّد لنا هذا التّعريف النّص كإنتاجية وعلاقته باللّسان الّذي يحصل فيه،ولقد عقّب صلاح فضل على تعريفها قائلا:" والنّص بذلك يعتبر عملية إنتاجية تعني أمرين:

أ-علاقة النّص باللّغة التي يتموقع فيها إذ تصبح من قبيل إعادة التّوزيع عن طريق التّفكيك، وإعادة البناء مما يجعله صالحا لأن يعالج بمقولات منطقيّة، ورياضيّة.

ب-يمثّل النّص عمليّة استبدال من نصوص أخرى، أي عمليّة تناص، ففي فضاء النّص تتقاطع أقوال عديدة، مأخوذة من نصوص أخرى مما يجعل بعضها يقوم بتحييد البعض الآخر ونقضه"[5]، وبذلك تنتهي مهمته.إنّ رؤية كريستيفا للنّص

من الأبحاث في مسيرتها المهنية في مجالات الفن الملفوظ، والثقافة، وعلاقة النص والسياق، وعلاقة النّص والنسيج النصي..توفيت في 24 يونيو 2015م عن عمر يناهز 83 سنة، ينظر الموقع الإلكتروني:رقية ــ حسن /ar.wikipedia.org/wiki

[1]-Halliday،M.A.K، and Ruqaia Hassan ،cohesion in english،London1976 ، P :1.

[2]-الأزهر الزناد: نسيبج النص بحث فيما يكون به الملفوظ نصا، ص:12.

[3] ــ بشير إبرير: السيميائية وتبليغ النص الأدبي، ضمن كتاب(السيميائية والنص الأدبي)، منشورات جامعة عنابة باجي مختار، الجزائر، 1995م، ص: 232.

*جوليا كريستيفا: من مواليد24 يونيو 1941م بمدينة سليفن ببلغاريا، هي أديبة وعالمة لسانيات ومحللة نفسية وفيلسوفة فرنسية من أصل بلغاري، ولها تأثير في التحليل النقدي الدّولي، أنتجت كميّة هائلة من الأعمال وتشمل الكتب والمقالات التي تعالج التّناص، والسّيميائيّة والتّهميش، في مجالات اللسانيات، ونظرية الأدب والنقد...ولها دور في الفكر ما بعد البنيوي، ينظر: الموقع الإلكتروني:انعطاف ــ لغوي.https://ar.unionpedia.org

[4] ــ كريستيفا: علم النص، ترجمة فريد الزاهي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ص:28.

[5] ــ صلاح فضل: مناهج النقد المعاصر، دار إفريقيا الشرق، 2002 م ، المغرب/ بيروت، ص:128 .

بهذا التّصور جعلها"تقترح رؤية نقديّة جديدة، تؤكّد انفتاحيّة النّص الأدبي على عناصر لغويّة، وغير لغويّة(إشارات ورموز) متجاوزة بذلك التّصور البنيويّ"[1] .

إن مسألة محاولة إيجاد تعريف اصطلاحي للنص تمثل إشكالية معقدة لأن دلالته لا تتضح بسهولة بسبب تداخله مع العديد من المصطلحات المجاورة له، فالتعاريف المتعددة بتعدد المناهج والنقاد والأدباء شملت تعريفات شاملة لمفهومه وعامة، وأخرى خاصة لكل ناقد حسب التوجهات والرؤى، فمجمل التعريفات التي توصل إليها الباحثون للنص قد راعت جوانب مختلفة منها الدلالية والتداولية والسياقية والوظيفية، إضافة إلى مراعاة شكل النص ونوعه، والاهتمام بالمعايير النصية التي تجعل من النص نصا.

2 ـــ 3 مفهوم الخطاب:

قام بعض المنظّرين باستعمال مصطلح الخطاب مقابلا للنّص أو مرادفا له، لما فيه من تداخل بينهما يصعب التفريق بينهما، لقد وردت لفظة "الخطاب" في القرآن الكريم في عدة مواضع منه قوله تعالى: ﴿**وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ**﴾(سورة هود:الآية٣٧)وقوله أيضا: ﴿**وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا**﴾(سورة الفرقان: الآية٦٣) ،كما وردت الكلمة على أصلها في قوله تعالى: ﴿**رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَٰنِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا**﴾ (سورة النبأ: الآية٣٧) وكذلك قوله عز وجل: ﴿**بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ**﴾ (سورة ص: الآية٢٠)،وكذلك قوله تعالى: ﴿**إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ**﴾ (سورة ص: الآية٢٣)، إن المفهوم القرآني للخطاب يحيل على الكلام، ولا تختلف دلالة هذه اللفظة في المعجم العربي عن هذا المعنى لأن دلالتها تأسست على التفسير القرآني ضمن السياق الذي وردت فيه لفظة الخطاب في القرآن الكريم.

ويقال خطب فلان إلى فلان فخطبه و أخطبه أي أجابه. والخطاب والمخاطبة: مراجعة الكلام، وقد خاطبه بالكلام مخاطبة خطابا، فهما يتخاطبان، قال الجوهري:خطبت على المنبر خُطبة بضم الفاء، وذهب أبو إسحاق إلى أن الخطبة عند العرب هي الكلام المنثور المسجوع ونحوه، وفي التهذيب والخطبة مثل الرسالة التي لها أول بآخر[2].

---

[1] ـ عبد القادر بقشي: التناص في الخطاب النقدي و البلاغي، إفريقيا الشرق، المغرب، ط1، 2007م، ص:19.

[2]- ابن منظور: لسان العرب، طبعة دار صادر، ط3،بيروت مادة (خطب)، : 360.

والخطاب:"مصدر خاطب: المواجهة بالكلام، ويقابلها الجواب: الرسالة. والخطابة مصدر خطب: عملالخطيب وحرفته. والخُطب: مصدر خطب: الحال والشّأن.قال تعالى: : **قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ**)سورة الذاريات:الآية ٣١(الأمر الشديد يكثر فيه التخاطب، وغلب استعماله للأمر العظيم المكروه، (ج) خطوب:الخطبة: مصدر خَطَب: ما يخطب به من الكلام.[1]

وردت جملة من التعريفات لمفهوم الخطاب فهو"مقول القول، يطلقه صاحبه بلغته القومية وضمن الأفق الفكري الذي يتعامل معه"[2]،كما أنه"توجيه الكلام نحو الغير للإفهام"[3]،وعليه فالخطاب هو المقول ، وهو الكلام الذي يهدف إلى إفهام الغير من خلال الرسالة المقدمة للمتلقي،وهو أيضا "مجموعة من النصوص لها جانبان: ما يرسله المرسل وهو (الخطاب) وما يصل إلى المتلقي وهو (التأويل)"[4]،لقد زاوج مفهوم الخطاب في هذا التعريف بين رسالة المرسل وقراءة المتلقي لهذه الرسالة إذا كانت مكتوبة وتأويلها بعد سماعها إذا كانت منطوقة لأنّ المرسل إليه يتلقى الخطاب حسب معجمه الذي يمتزج مع معجم مرسل الخطاب وبالتالي يتولد لديه خطابا مؤوّلا أضاف إليه المتلقي لمسة التأويل في ظل إبداع جديد.

لقيلفظ" الخطاب" إقبالا واسعا لدى الدّارسين والباحـــثين، لكنه رغم شيوعه في حقل الدراسات اللغوية، وكثرة تداوله لم يحظ بتعريف مستقر،وجذور هذه الكلمة متأصلة في الثقافة العربية وممتدة فيها من حيث أصولها المقترنة بالنطق،ومن الملاحظ أن هذا المصطلح قد تعاقب في الاستعمال رفقة مصطلح "النص"، وقد ارتأت المنطلقات الأدبية واللّسانية أنّ مفهوم الخطاب" يتكوّن من وحدة لغوية قوامها سلسلة من الجمل"[5]،فهو تتابع للجمل وتسلسلها في تنظيم محكم و"هذا التنظيم يجعله يبدو وكأنه رسالة(**message**)"[6].

وفي المعاجم الأجنبيّة فهو" مصطلح ألسني حديث يعني في الفرنسية**Discours** وفي الإنجليزية **Discourse** ، وتعني حديث، محاضرة، خطاب، خاطب، حادث،

---

[1]- محمد الباشا: الكافي، معجم عربي حديث، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، 1992م، ص: 414 .

[2]- سيار الجميل: الخطاب التاريخي العربي، مجلة المستقبل العربي، بيروت ، العدد(148)، 1991م، ص:23.

[3]- محمد علي التهانوي: كشاف إصطلاحات الفنون، تقديم وإشراف ومراجعة: رفيق العجم ،القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب، ج2، 1972، ص: 175.

[4]-محمد عابد الجابري: الخطاب العربي المعاصر، بيروت ، دار الطليعة،1982 م، ص :35 .

[5]-دومينيد مانقونو: المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، تو: محمد يحياتن، ط1،منشورات الاختلاف، الجزائر، 2005م، ص:35 .

[6]-سامية أحمد: التحليل البنيوي للسرد، مجلة أقلام، بغداد، العدد(3)، 1978م،ص:4.

حاضر، ألقى محاضرة، وتحدث إلى"[1] وهذه المصطلحات تشير جميعا إلى معنى الخطاب.

وينظر إلى الخطاب أيضا على أنّه تلك" الصّياغة لفكرة مقصودة في تتابع لغويّ وفق ما تقتضيه القواعد اللّغوية للغة معيّنة، ومن الضّروري هنا ضبط الصّحة والسّلامة في التّأليف اللّغوي، لأن سوء التّأليف قد يؤدّي إلى الاضطراب في العمليّة الإبلاغيّة، ليتمّ بعد ذلك إرسال (الخطاب) في الهواء إلى المتلقي، إذا كانت الرّسالة منطوقة أو تدوَّن في المدّونة الكتابية"[2]، ويفهم من هذا القول على أن تبليغ الرسالة إلى المتلقي لابد أن يُصحب بسلامة التأليف اللّغوي لتيسَّر العمليّة الإبلاغية، وحتّى يتمكّن المتلقي السّامع أو القارئ من استيعابها جيّدا وفهم ما يرمي إليه هذا الخطاب.

ويرى عبد الهادي بن ظافر الشهري أن"للمجتمع سياقات كثيرة، تتطلب خطابات متنوعة، لترضي أهداف الناس المتباينة،...وعليه فتعدد هذه السياقات مدعاة لتعدد الخطابات اللغوية...، فالوظيفة التعاملية هي ماتقوم به اللغة من نقل ناجح للمعلومات، تبرز من خلاله قيمة الاستعمال اللغوي، فيركز المرسل جهده نحو بناء الخطاب ليستطيع المرسل إليه أن يأخذ منه المعلومات الصحيحة والدقيقة. أما الوظيفة التفاعلية، فهي التي يقيم بها الناس علاقاتهم الإجتماعية، ويحققون لأنفسهم غاياتها، وتتمثل في قدر كبير من المعاملات اليومية التي تحدث بينهم، فقد يقتصر دور اللغة في بعض السياقات على إقامة العلاقات وتثبيتها، وقد يتجاوز إلى التأثير وغيره" [3]،فالوظيفة الأولى حسبه تعد إحدى مزايا اللغة الطبيعية الّتي تمكن الناس بها من تطوير ثقافاتهم وذلك من خلال المعلومات المتناقلة، وكذلك من تحقيق التواصل بينهم سواء كان ذلك بغرض التّوجيه، أو التّعليم أو غيره.أمـــا عن الوظيـــفة التّفاعلية فهو يرى بأن دورها يكمن في التعبير عن المقاصد التي ينويها المتكلّم لأنّ دور اللغة لا يقتصر على وظيفة مرجعية تحيل إلى مدلول فحسب،"بل تؤدي وظيفة تداولية تتفاوت بحسب القصد أو الهدف الّذي من أجله يسوق المتعلم خطابه"[4].

---

[1]- إلياس أنطون إلياس:، قاموس إلياس العصري، دار الجليل، بيروت، 1972م، ص: 191.

[2]- عبد الحليم بن عيسى: الاتصال اللغوي بين الدقة والغموض، مقال، مجلة اللغة والاتصال، جامعة وهران، العدد1، أكتوبر 2005م، ص: 23.

[3]-عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2004م، بيروت، لبنان، ص:3-5.

[4]- المرجع نفسه، ص:5.

وما يلاحظ على مصطلح الخطاب أنّه استعمل مقرونا بصفات أخرى منها: الخطاب السياسي، الخطـــاب الأدبي، الخطاب الديني، الخطاب الثقافي، الخطاب العلمي...،كما أنه تداول في مجالات مختلفة كعلم الإجتماع وعلم النفس الإجتماعي ونظرية النقد وغيرها .وكيفما كان الخطاب فلابد من توفر عناصره الأساسية المتمثلة في المرسل، والمرسل إليه، والسياق، فهذه العناصر في اجتماعها تشكل لنا خطابا.

لقد ظهر مفهوم الخطاب واتخذ أبعادا إبستيمولوجية مستقلة في مؤلفات **M.Foucault** لأنه بحث في الخطاب وعلاقته بالمجتمع إذ "إن الخطاب لم يعد طريقة للتعبير أو حديثا متساوقا، أو مجموعة عمليات فكرية مترابطة، أو تحليلا لذات واعية، تتأمل وتعرف وتعبر، وإنما أصبح إمكانا وشرط وجود ونظاما.أصبح حقلا تتمفضل فيه الذوات، ومجموعة علاقات تجد فيها مرتكزا له.وهذا التحول الإبستيمولوجي في تناول أقاويل البشر يعتبر رائده المفكر الفرنسي ميشال فوكو الذي هو أول من أنشأ نظرية في وصف المقال كميدان مستقل"[1].

وهو يرى بأنّ الخطاب هو" مجموعة من المنطوقات بوصفها تنتمي إلى ذات التشكيلة الخطابية، فهو ليس وحدة بلاغية أو صورية، قابلة لأن تتكرر إلى ما لا نهاية، يمكن الوقوف على ظهورها واستعمالها خلال التاريخ... بل هو عبارة عن عدد محصور من المنطوقات التي تستطيع تحديد شرط وجودها"[2]، نلاحظ بأنه يركز علة المنطوق باعتباره جزء من التشكيلة الخطابية، وهذا الأخير يستطيع تحديد شرط وجوده.ويعرفه"بنفنست"(**Benveniste**)(ت1902م)على أنه"كل قول يفترض متكلّما ومخاطبا ويتضمن رغبة الأول بالتأثير في الثاني بشكل من الأشكال"[3]، فعامل التأثير عنده ضروري لاستمالة المتلقي بشكل أو بآخر، كما أن المنطوق عنده يستوجب حضور الطرفين المتكلم والمستمع معا.وهذا ما ذهب إليه علماء النّص والمحللون للخطاب أنّه"محكوم بوحدة كلية واضحة، بحيث يتألّف من صيغ وجمل متراصة منسجمة ومتوالية، تصدر عن المخاطِب الذي يود تبليغ الخطاب وإيصاله إلى المخاطَب"[4]، فهو أشمل من الجملة وقد تجاوزوها إلى

---

[1]-علي حرب: الموسوعة الفلسفية العربية، مج1، معهد الإنماء العربي، ط1، 1986م، ص:1771، مادة مقال.

[2]- ميشال فوكو: حفريات المعرفة، ت:سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ص: 111 .

[3]- لطيف زيتوني: معجم المصطلحات، نقد الرواية، دار النهار للنشر، ط1، بيروت، 2002م، ص: 88.

[4]- فاتح زيوان: مصطلحا الخطاب والنص، الدلالة في الثقافة العربية، مجلة كتابات معاصرة ع(70) م(18) بيروت، 2008م، ص: 97 .

النّص، وفي مجمله فهو نظام من الملفوظات يميّزها التّتابع والانسجام ويشكّل مفهوما قائما على حضور طرفين المخاطِب والمخاطَب.

ويرىذات العالمبأنّ الخطاب هو كلّ تلفظ يفترض متحدّثا ومستمعا بحيث يؤثر الطّرف الأوّل في في الطّرف الثّاني وأبسط تعريف عنده هو كلّ قول يفترض متكلّما ومخاطبا ويتضمّن رغبة الأوّل التّأثير في الثّاني بشكل من الأشكال[1]، إذن فالخطاب يستدعي طرفين هامين هما المتكلم والسامع تجمع بينهما خاصية التأثير في المتلقي، فالخطاب عنده هو الملفوظ من جهة اشتغاله في التواصل وأنه اللغة لحظة استعمالها.

أصبح مفهوم الخطاب شائعا وتعدّدت تعاريفه،ولقد تناوله الدّارسون بالتّعريف والتّحليل سواء عند العرب أو الغرب حسب مرجعياتهم الفكريّة.

2 ــ 4 الفرق بين الخطاب والنّص:

إن التّداخل القائم بين الخطاب والنّص، جعل الدّارسين في مجال النّص يحاولون التّمييز بينهما، وكانت الانطلاقة في ذلك بطرح الإشكاليتين الآتيتين، هل النص هو الخطاب؟ أم هناك فرق بينهما؟

لوحظ بأنّه هناك تباين في مواقف النّقاد والدارسين في رصد العلاقة بين النص والخطاب، والكشف عن التّداخل القائم بينهما مع محاولة لحصر التقاطع والتّكامل بين مدلول اللّفظين "النّص" و"الخطاب"، حيث وقع الخلط في استعمال المصطلحين في الدّلالة على الإنتاج الأدبي عموما"لأنّ النّص ما هو إلا وحدة معقّدة من الخطاب، إذ لا يفهم منه مجرّد الكتابة فحسب، وإنمّا يفهم منه عمليّة إنتاج الخطاب في عمل محدد"[2]، ولقد ظهر موقفان للنّقاد والدّارسين، منهم من استعمل المصطلحين بالمعنى نفسه، فأطلقوا على العمل الأدبي"الخطاب"، ومنهم

[1] ــ لطيف زيتوني: معجم المصطلحات ، نقد الرواية، دار النهار للنشر، ط1 ،بيروت، 2002م، ص :88.
[2]- منذر عياشي: مقالات في الأسلوبية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط1، 1990م، ص :241 .

من تبنى مصطلح"النص"، والأساس القائم في ذلك هو أنّ الحطاب كان أصلا نصّا، والنّص لابدّ أن يصبح خطابا لتحقّق فيه خاصيّة الإعلامية.

ومن الذين لم يجدوا فرقا بين المصطلحين، هو الناقد محمد خطابي،حيث يقول:" يحتل اتساق النص وانسجامه موقعا مركزيا في الأبحاث والدراسات التي تندرج في مجالات تحليل الخطاب، ولسانيات الخطاب/ النص، ونحو النص، وعلم النص..."[1]، فهو بذلك يشير إلى أنّ النّص والخطاب لا فاصل بينهما فكلاهما وجهان لعملة واحدة، كما أنّ النّص يستهدف وجهة إنسانية، أمّا الخطاب فوجهته اجتماعية حاضرة ومشخصة، فالعلاقة بين الكاتب والقارئ في "النص" علاقة انفصالية غير تواصلية، والوجهة الاجتماعية في "الخطاب" تجعل العلاقة بين طرفي الخطاب (المخاطِب والمخاطَب) علاقة تواصليةمن خلال التفاعلات والحوار والجدل، وهذه المواقف جميعها تعبر عن المعنى الاجتماعي.

ويعتبر "فان ديك" من الذين جمعوا بين المصطلحين "النّص" و"الخطاب" في صيغة ترادفية واحدة، بحيث يرى بأنه"توجد فوارق متّسقة الاطّراد بين الجملة المركّبة وانتظام توالي الجمل وتسلسلها، وخاصّة من نوع المستوى التّداولي، ثمّ إنّ الجمل يمكن أن تتعلق بدلالة أو بمعنى جمل أخرى من العبارة نفسها حتى ولو كان ذلك ليس دائما مشابها في شيء لمعاني القضايا في تركيبها أو الجمل المؤلفة، وهناك أسباب أدت بنا إلى أن نسلم بأن العبارات المنطوقة يجب أن تعاد صياغتها تبعا لوحدة أوسع ما تكون وأعني بذلك المتن أو النص، وهذا الاصطلاح الأخير إنما استعمل هنا ليفيد الصياغة النظرية المجردة المتضمنة لما يسمى عادة بالخطاب"[2]، وهو بذلك يجعل النص والخطاب كينونة واحدة حيث رادف بينهما.

وذهبت "جوليا كريستيفا" إلى أنّ النّص أكثر من مجرد خطاب أو قول، وحسبها فإنّ النّص يتجاوز الخطاب، ويتميّز بخاصيّة الإنتاجية، لأنّه قابل للتّفكيك وإعادة البناء، فهي ترى أنّ "النّص ليس مجموعة من الملفوظات النحوية واللانحوية، إنّه كلّ ما ينصاع للقراءة عبر خاصيّة الجمع بين مختلف طبقات الدلالية الحاضرة، داخل اللّسان والعاملة على تحريك ذاكرته التّاريخية، هذا يعني أنّه ممارسة مركب، يلزم الإمساك بحروفها عبر نظرية للفعل الدّال الخصوصي

[1]- محمد خطابي: لسانيات النص: مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، بيروت،1991م، ص:5.

[2]- فان دايك: النص والسياق، تر عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2000م، ص:19.

الّذي يمارس لعبته داخلها بواسطة اللسان"[1]، فوجود النّص واستمراريته يتوجّب وجود قارئ يضمن له هذا الوجود وهذه الاستمرارية.

وقد جمعت جملة من الفروقات الأوّليّة الّتي ينعقد عليها الإجماع نظريا بين النّص والخطاب ومن أهمّها مايلي:

- ينظر إلى النّص في الأساس من حيث هو بنية مترابطة تكون وحدة دلالية، وينظر إلى الخطاب من حيث هو موقف ينبغي للّغة فيه أن تعمل على مطابقته.
- يحصل من ذلك القول بأنّ الخطاب أوسع من النّص؛ فالخطاب بنية بالضّرورة ولكنّه يتّسع لعرض ملابسات إنتاجها وتلقيها وتأويلها، ويدخل في تلك الملابسات ما ليس باللّغة كالسّلوكيات الحركيّة المصاحبة إيجابيا للاتصال.
- النّص في الأصل هو النّص المكتوب، والخطاب في الأصل هو الكلام المنطوق، ولكنه يتلبس بصورة الآخر على التوسع؛ إذ يطلق النّص على المنطوق، كما يطلق الخطاب على المكتوب؛ كالخطاب الروائي.
- يتميّز الخطاب بالطّول؛ وذلك أنّه في جوهره حوار أو مبادلة كلاميّة، أما النّص فيقصر حتى يكون كلمة مفردة(مثل: سكوت) ويطول حتى يصبح مدوّنة كاملة (مثل: رسالة الغفران).
- يرتبط ميل الخطاب عادة إلى الطّول والامتداد والحوارية بتمكينه من التّعبير عن وجهات النّظر والمواقف المختلفة.إذا اتّخذنا من خطاب الرّواية مثالا رأينا أنّ دراسة الخطاب تجري ضمن كلّ مظاهر الرّواية الّتي تتّصل بها مفاهيم مثل: الحوار ووجهة النّظر والموقف ورؤية العالم ونبرة الخطاب واعتقادات المؤلّف، وأنواع الأحكام الّتي يصدرها، وشبكة العلاقات التّواصلية بين المؤلّف والشّخوص والقارئ الضّمني...الخ[2].

نخلص من طرح هذه الفوارق بين النّص والخطاب بأنّ اللّبس بينهما لا يزال واقعا، فقد تداخل مصطلح الخطاب مع مصطلح النّص، والحدود الفاصلة بينهما ضئيلة جدا، ممّا أدى بالبعض إلى اعتبارهما مفهوما واحدا لقوة العلاقة بينهما"فالخطاب مجموعة من النّصوص ذات العلاقات المشتركة أي أنّه تتابع مترابط من صور الاستعمال النّصي يمكن الرجوع إليه في وقت لاحق، وإذا كان

[1]- جوليا كريستيفا: علم النص، تر فريد الزاهي،مراجعة: عبد الجليل ناظم، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط2، 1997م، ص: 14.

[2]ـ محمد العبد: النص والخطاب والاتصال، 2014م، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة،ص:10 – 11.

عالم النّص هو الموازي المعرفي للمعلومات المنقولة والمنشطة بعد الاختران في الذاكرة من خلال استعمال النّص، فإنّ عالم الخطاب هو جملة أحداث الخطاب ذات العلاقات المشتركة في جماعة لغوية أو مجتمع ما...أو جملة الهموم المعرفية التي جرى التعبير عنها إطار ما"[1]، ومثال ذلك أنّ الكلمة التي يلقيها الرئيس على الرعية فهي نص لأنها قيلت على نية الاتصال، ويكمن عالم هذا النص في جملة المفاهيم التي وصلت إلى المتلقي من خلال هذه الكلمة التي تنشط الأفكار و التي كانت مختزنة في الأذهان بعد هدوئها، وبالعودة إلى هذه النصوص التي يقوم الرئيس بمطابقتها سواء في إطار الدين أو القانون إضافة إلى ما تصادق عليه وسائل الإعلام أو تختلف فيه، في ذلك الحين نكون في مواجهة ما يدل عليه مصطلح "الخطاب" أي مجموعة من النصوص التي يربط بينها مجال معرفي واحد.أما عالم الخطاب فهو جملة الهموم المعرفية التي جرى التعبير عنها في هذا الإطار[2].

3 ـــ مفهوم التّماسك النّصي:

ظهر مصطلح التّماسك النّصي في إطار لسانيات النّص، ويعبّر من خلاله عن ذلك التّلاحم بين العناصر اللّغوية وما يترتّب عنها من ترابط لتشكيل النّصوص كي تظهر كقطعة واحدة تحمل خصائصها الذّاتية والنّوعية التي تميّزها عن غيرها من النّصوص الأخرى،وقد كثرت منابعه ومشاربه المعرفيّة الأمر الّذي جعل الاتّفاق على مفاهيمه ومناهجه أمرا صعبا مما جعل الباحثين يقفون أمام كم هائل من المصطلحات والمفاهيم والتصورات النظرية، بحيث يشكل النص فضاء يشتغل فيه كل مفهوم بآليته الخاصة، وهذا التّماسك "ولد من رحم البنيوية الوصفية القائمة على أجرومية الجملة"[3]لأنّ الوصول إلى المعنى الكلي يقتضي تجاوز الجملة إلى وحدة أكبر وهي النّص وذلك بتوظيف الآليات النّحوية في الربط بين أجزائه لما للنّحو من أهمية كبيرة في تشكيل المعنى .

وبالعودة إلى المعاجم العربيّة نجدها قد حصرت التّماسك في ثلاثة معاني هي : الاحتباس والاعتدال والارتباط، جاء في لسان العرب:" ومسك بالشيء ومسك وتمسّك وتماسك واستمسك ومسّك، كله بمعنى احتبس...وفي حديث ابن أبي هالة في صفة النبي صلى الله عليه وسلم: بَادِنٌ متماسك؛ أراد أنّه مع بدانته

---

[1] ـ روبرت دي بوجراند: النص والخطاب والإجراء، ترجمة تمام حسان، عالم الكتب، ط1، 1998م، القاهرة، ص:6.

[2] ـ ينظر المرجع السابق،ص:6.

[3] ــ سعد عبد العزيز مصلوح: في البلاغة العـــربية والأسلوبيات اللسانية أفاق جديدة، عالم الكتب، القاهرة، ط1 ،1997م ص:1.

متماسك اللّحم ليس بمسترخيه ولا مُنْفَضِجِه أي أنه معتدل الخلق كأن أعضاءه يمسك بعضها بعضا"[1]،ولقد أشار العلماء العرب إلى تماسك النّصوص بمصطلحات أخرى تدخل كلّها في الرّؤية الشّاملة للنّص ووقفوا على عناصر اتّساق النّصوص وتماسكها دون التّنظير لما يسمّى بلسانيات النّص الحديثة، فقد أوردوا مصطلح"السّبك"و"الحبك" و"النظم" و"التأليف"..

اقترن مفهوم التّماسك النّصي بالخلفيات الثّقافية والفكريّة للباحث في أغوار النّص والمعرّف للمصطلح، فاختلفت الرؤى حسب اختلاف الاتجاهات وتزاوجت بين الشكل والمضمون أي بين عناصر خارجية نحوية معجمية وأخرى داخلية دلالية تداولية، بحيث تكشف الدراسة عن بناء النّص انطلاقا من الكلمة وصولا إلى النّص كوحدة كبرى، مع مراعاة ظروف إنتاجه ومتلقيه، ويكون ذلك عن طريق تحليل الوسائل التي تؤدي إلى تماسكه، وهذه الوسائل شغلت حيّزا واسعا في الدّراسات النّصيّة المعاصرة بحيث أخذ "علماء النّص يولون التّماسك عناية قصوى،.. ويذكرون أنّه خاصيّة دلاليّة للخطاب، تعتمد على فهم كل جملة مكوّنة للنّص في علاقتها بما يفهم من الجمل الأخرى ويشرحون العوامل التي يعتمد عليها التّرابط"[2]، وذلك بقصد معرفة ما بين هذه الجمل من علاقات التّماسك حتى نتمكّن من إطلاق عليها نصّا، فتعليق الجمل بعضها ببعض تؤدي دلالة معيّنة يصبو إليها صاحب النّص والّتي يحدّدها السّياق،فهذا الاهتمام بالتّماسك من قبل العلماء هو الأساس الذي يرتكز عليه النّص "فقد تجسّدت أمامهم فائدة التّرابط والتّلاحم بدءا بالرّبط بين المستويات اللّغوية المختلفة في النّص الواحد، فكان هذا الإصرار من نحاة النّص على رفض الفصل بين المستويات اللّغوية، فظهر أن من أهم ملامح نحو النّص دراسة الرّوابط مع التّأكيد على المزج بين المستويات اللّغوية المختلفة، وكل هذا يؤدّي إلى الاتّساق الّذي يتّضح في تلك النّظرة الكليّة إلى النّص دون فصل بين أجزائه"[3].

4ـــ إعجاز القرآن:

يعتبر موضوع إعجاز القرآن من أهم الموضوعات التي شهدت حملة ضارية من اليهود والنّصارى والعلمانيين والشّيوعيين لأنّ بيان إعجازه هو إقرار بحقيقة القرآن التي يرفضها هؤلاء، فقد تشعّبت الآراء واختلفت، وجادت أقلام

[1] ـابن منظور: لسان العرب،ص:487 ، 488 مادة (مسك).

[2] ـ صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة،1992 م، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ص:244

[3] ـ علي أبو المكارم: الظواهر اللغوية في التراث النحوي، الظواهر التركيبية، ، القاهرة الحديثة للطباعة، 1968م ،ص:325.

العلماء في هذا المجال من مختلف الزّوايا وذلك دفاعا عن كتاب الله، فموضوع الإعجاز "ليس مجرد مبحث من مباحث العقيدة أو البلاغة "بل إنه من الممكن أن يكون علما قائما بذاته يضاف إلى علوم العقيدة والفلسفة"[1]، لأنه أساس من أسس نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم.

4 ــ 1 العجز والإعجاز:

1/العجز لغة:

قال الإمام ابن فارس:"العين والجيم والزاي: أصلان صحيحان، يدلّ أحدهما على الضّعف، والآخر على مؤخّر الشيء، فالأول: عَجَز عن الشيء، يعجز عجزا فهو عاجز، أي ضعيف، ويقال أعجزني فلان إذا عجزت عن طلبه وإدراكه.يقولون : عَجَزَ بفتح الجيم، قال ثعلب: سمعت ابن الأعرابي يقول: لا يقال "عجِزَ" إلّا إذا عظمت عجيزته. ومن الباب: العجوز وهي المرأة الشيخة، ويقال: فلانا عاجز فلانا إذا ذهب فلم يوصل إليه.

والأصل الثاني: العجُز: مؤخّر الشيء والجمع أعجاز، وأعجاز الأمور أواخرها، وعجيزة المرأة مؤخّرتها إذا كانت ضخمة"[2].

وقد جاء في لسان العرب لابن منظور:"العجْزُ نقيض الحزم، عَجَزَ عن الأمر يَعجِزُ وعجِزَ عجْزا فيهما؛ ورجل عجِزٌ وعجُز: عاجز، ومرَة عاجز: عاجزة عن الشيء} عن ابن الأعرابي: وعجّز فلان رأي فلان إذا نسبه إلى خلاف الحزم كأنه نسبه إلى العجز.. عجّ الرجل وعاجز: ذهب فلم يوصل إليه"[3] ولا يذهب صاحب " مفردات ألفاظ القرآن" بعيدا عن "ابن فرس" و"ابن منظور" حيث يتوافق معهما في معنى الجـذر اللّغـــوي"عجز" وهو ضعف القدرة على فعـــل الشيء فيـــقول:" والعجز أصله التّأخر عن الشيء، وحصوله عند عجُز الأمر، أي مؤخره، وصار في التّعارف اسما للقصور عن فعل الشيء وهو ضد القدرة، وأعجزت فلانا، وعجّزته، وعاجزته: جعلته عاجزا"[4].

2/الإعجاز لغة:

---

[1] ــ سعد الدين السيد صالح: المعجزة والإعجاز في القرآن الكريم، ط2 ، دار المعارف، القاهرة،1993م ، ص:8.

[2] ــ أحمد بن فارس بن زكريا: مقاييس اللغة، تحقيق شهاب الدين أبو عمرو، دار الفكر، بيروت، 1994م، ص:738 – 739 .

[3]ــ ابن منظور: لسان العرب، المجلد الخامس،ص: 369 مادة"عجز".

[4] ــالراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق صفوان داوودي، دار القلم، دمشق، 1992م ،ص:547.

الإعجاز هو مصدر الفعل الرّباعي "أعجز"،وهو"مصدر قولنا في كل أمر يريد الرجل أن يفعله أو يأتيه، ويسقط عندئذ في العجز، وهو عدم القدرة على فعل ما يريد، تقول أعجزه هذا الأمر يعجزه إعجازا، أي انقطعت قوّته دونه، فوقه العجز غي مطيق لفعله، غير قادر على إتيانه، ويوصف هذا الأمر عندئذ بأنه معجز أي هو غير مقدور عليه البتّة، هذا هو مجاز اللغة في تفسير الإعجاز"[1] ويراد به"الفوت والسّبق، ويطلق على الفائز السّابق لخصمه، الذي جعل خصمه عاجزا على إدراكهولذلكيقول الخصم المغلوب العاجز: أعجزني فلان إعجازا، بمعنى سبقني وفاتني، وجعلني عاجزا على طلبه وإدراكه"[2] .

4 ــ 2 مفهوم إعجاز القرآن:

يبدو أن مصطلح"إعجاز القرآن" قد تحقّق فيه هذا المعنى لأنّ القرآن عندما نزل أعجز الكافرين، فلم يكن لهم القدرة على الإتيان بمثله، وقد تحدّاهم الله في آيات واضحة تدعوهم إلى تأليف مثيله انطلاقا من عشر سور لينزل التحدي إلى السّورة الواحدة، لكن رغم ذلك وقع العجز وهذا معناه"أنّ القرآن صار معجزا لهم، حيث أوقع بهم العجز والضعف والقصور والتأخر، وهو قد تفوّق عليهم، وفاتهم وسبقهم"[3] وبما أنّهم عجزوا عن معارضته دليل قاطع على إعجازه، وعلى أنّه منزّل من رب عظيم على رسول كريم عليه أفضل الصلاة والسلام، وهو دليل آخر على نبوّته صلّى الله عليه وسلّم.

والمتأمّل لعبارة"إعجاز القرآن" يجد أنّها مكوّنة من كلمتين:"إعجاز"و"القرآن"، "وهذا المركّب الإضافي خبر لمبتدأ محذوف، تقديره : هذا إعجاز القرآن"[4]، فكلمة إعجاز كما رأينا، يقصد بها عدم قدرة الغير على الإتيان بمثل القرآن بحكم ارتباط اللفظتين حيث أوقع بهم العجز والقصور رغم أنهم أصحاب البيان والبلاغة، وقد كان كلام القرآن من الحروف نفسها التي يستعملونها في بيئتهم وقد سبقهم وتفوّق عليهم، أمّا القرآن فهو الكتاب المنزه المنزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وعليه فإنّ معنى "إعجاز القرآن" هو:"عدم قدرة الكافرين على معارضة القرآن، وقصورهم عن الإتيان بمثله، رغم

---

[1] ـ أبو فهر محمود محمد شاكر: مداخل إعجاز القرآن، مطبعة المدني، مصر، ص:16 .

[2] ـــــ صلاح عبد الفتاح الخالدي: إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني، دار عمار للنشر والتوزيع ، الأردن، ط1، 1421ه – 2000م ، ص: 15 – 16.

[3] ـ المرجعنفسه، ص:16.

[4] ـ المرجع نفسه، ص: 13.

توفر ملكتهم البيانية، وقيام الداعي على ذلك، وهو استمرار تحدّيهم، وتقرير عجزهم عن ذلك"[1].

5 ـــ مفهوم **البلاغة النبوية:**

كان لعلم البلاغة الفضل الكبير في تبيان أساليب العرب، والوقوف على تراكيب لغتهم، فركزوا على اللفظ والمعنى وعلى جمال الأسلوب، والأهمّ من ذلك فهم الإعجاز من القرآن.ولذلك اعتبرت البلاغة " قرآنية المولد، درجت ونمت في رحاب كتاب الله، تستهدي آياته، وتتشرّب معانيه، قبل أن تتناول الأدب العربي بوجه عام"[2]،ومعنى هذا القول أنّ البلاغة قد أخذت منعطفا آخر في ظل الإسلام على الرغم من أنّ البيئة الجاهلية اشتهرت بأرباب الفصاحة والبلاغة والبيان وخاصة في مجال الشّعر الذي كان ديوان العرب فما معنى البلاغة ؟ وما سر البلاغة النبوية؟.

1/البلاغة لغة:

وردت كلمة"بلغ" في لسان العرب"بلَغَ الشّيْء يَبْلُغُ بُلُوغا وبَلَاغاً: وصل وانتهى، وأبلغه هو إبلاغا وبلَّغَه تبليغا.. ونقول: له في هذا بلاغ وبُلغة وتَبَلُّغ أي كفاية. والإبلاغ: الإيصال، وكذلك التبليغ، والاسم منه البلاغ .

والبلاغة: الفصاحة، والبَلْغ والبِلْغ: البليغ من الرجال ورجل بليغ وبَلْغ وبِلْغ: حسن الكلام فصيحه يبلغ بعبارة لسانه كُنْهَ ما في قلبه، والجمع بلغاء، وقد بَلُغ بالضم بلاغة أي صار بليغا، وقول بليغ، بالغ وقد بَلْغ والبلاغات كالوشايات.

وفي الحديث أنّ عائشة قالت لأمير المؤمنين علي رضي الله عنهما، حين أُخِذَت يوم الجمل: قد بَلَغْت منَّا البُلَغَيْن؛ معناه أن الحرب قد جهدَتْنا وبلغت منا كلّ مبلغ..والبُلْغة ما يُتَبَلَّغ به من العيش، زاد الأزهري ولا فضل فيه، وتبَلَّغَ بكذا أي اكتفى به، وبلّغ الشيب رأسه: ظهر أوّل ما يظهر..، والبالِغاء الأكارع في لغة أهل المدينة"[3]، ومما ورد من التعريف اللغوي فإن البلاغة هي الوصول والانتهاء.

2/ البلاغة اصطلاحا:

[1] ـ المرجع نفسه، ص:17.

[2] ـ بن يحي الطاهر نعوس: تحليل الخطاب القرآني في ضوء لسانيات النص، دراسة تطبيقية في سورة البقرة، دار القدس العربي، 2014م،وهران،ص: 152.

[3] ـ ابن منظور: لسان العرب، المجلد الثامن، ص:240 – 241.

يذهب الخطيب القزويني إلى أن بلاغة الكلام"هي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته"[1]، إنّ مقتضى الحال مختلف ومقامات الكلام تتفاوت، وقد يكون الكلام منحطا إذا لم يتطابق مع الاعتبار المناسب،"فمقتضى الحال هو الاعتبار المناسب"[2]، ولقد نقل الجاحظ عن الفارسي من أن البلاغة" معرفة الفصل من الوصل"[3]، ومعنى ذلك معرفة مواطن ذكر العطف أو تركه بحيث يقول الجرجاني:" اعلم أن العلم بما ينبغي أن يصنع في الجمل من عطف بعضها على بعض، أو ترك العطف فيها والمجيء بها منثورة، تستأنف واحدة منها بعد أخرى من أسرار البلاغة"[4]، لقد جعل الجرجاني هذا الباب هو الأساس في فهم البلاغة كلها، وأشار الجاحظ في قول مرّة*، من أنّ "جماع البلاغة التماس حسن الموقع، والمعرفة بساعات القول، وقلة الخَرَق بما التبس بما التبس من المعني أو غمُضَ، وبما شرد عليك اللفظ أو تعذر"[5]، وهذا الأمر يتوافق مع قول البلاغيين لكل مقام مقال وهو"الإطار العام للبحث البلاغي الذي دار حوله النزاع الغامض أول الأمر"[6]، ويقصد هنا المقام أو الحال، أمّا أبو هلال العسكري فيرى أنّ البلاغة" كل ما تُبَلِّغ به المعنى قلب السامع فتمكنه في نفسه كتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن"[7].

لقد تعرض البلاغيون لمفهوم البلاغة وقدّموا في ذلك تعاريف كثيرة تهدف إلى إيضاح المعنى مع اختيار الألفاظ المناسبة حتّى يكون الكلام بليغا، فإذا ما كان دون ذلك لا يمكننا تصنيفه ضمن الكلام البليغ حتّى ولو كان المعنى مفهوما، لذلك وجب في الكلام حسن العرض ومقبوليّة الصّورة، ذلك أنّ اللّفظ والمعنى ثنائيّة متلازمة فإذا انطبق الفهم على المعنى انطبق القبول على اللفظ.

5 ــ 1ـ البلاغة النّبويّة اصطلاحا:

---

[1] ـ الخطيب القزويني، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن بن عمر بن أحمد بن محمد(ت739هـ): الإيضاح في علوم البلاغة ، المعاني والبيان والبديع، وضع حواشيه إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1 ، 1424هـ ـ 2002م، ص:20.

[2] ــ المصدر نفسه، ص:20.

[3] ــ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ،، البيان والتبيين، تحقيق وشرح عبد السلام عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ص 88.

[4] ـــــ عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص: 222.

* ــ هو محمد بن حسان بن سعد التميمي، ينظر الجاحظ: البيان والتّبيين، ص:88.

[5] ــ الجاحظ: البيان والتبيين، ص: 88 .

[6] ـ مصطفى ناصف: اللغة والبلاغة والميلاد، دار سعاد الصياح ، ط1 ، 1992م، الكويت، ص: 146.

[7] ـ أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري: كتاب الصناعتين، الكتابة والشعر، تح: محمد علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط2، دار الفكر العربي ،ص:16.

إن بلاغة النّبي صلى الله عليه وسلم وفصاحته من المسلّمات الّتي لا اختلاف فيها، وقد اقترن المصطلحين"البلاغة"و"النبوية" لما يوحي ببلاغة أسمى من البلاغة الإنسانية، فأمّا الأول فهي البلاغة بمفهومها الواسع، وأما الثّاني كل ما صدر عن الرسول صلى الله عليه وسلم من أقوال وأحاديث وخطب وغيرها في المعاملات الخاصة والعامة، لقد أوتي عليه الصلاة والسلام جوامع الكلم، وهي أنّ الله بلّغه بكل الأمور الكثيرة التي كانت تكتب قبله في الكتب في الأمر الواحد، وكان النّبي صلى الله عليه وسلم يقول المعنى الكثير باللّفظ القليل، وهذا واضح فيما يريد أن يعلمه للبسطاء والمتفوقين على وجه سواء، فأسلوبه عليه أفضل الصلاة والسلام من أساليب البيان والبلاغة، وهو ما جعل العلماء يشيدون بفصاحته الساحرة واقفين معجبين ومذهولين في آن واحد.

ويستخدم النبي صلى الله عليه وسلم في بلاغته التصوير البياني، المعاني والبديع الذي يحبّر الكلام ويزينه لأن الكلمة هي مفتاح القلوب، والكلمة الواحدة التي يتكلم بها تجعل العلماء يبذلون أعمارهم وأرواحهم في مدارستها لأن بيانه وبلاغته نفحة من نور القرآن فتجد أسلوبه سلسا ومنطقه فصيحا وبيانه سمحا يتميز بقوة العبارة وفصاحة اللفظ وجزالة المعنى وروعة الحكمة وبلاغة الكلام، وهذا البيان راجع إلى سموه الروحي وبذلك كان أفصح العرب"على أنه لا يتكلف القول ولا يقصد إلى تزيينه، ولا يبغي إليه وسيلة من وسائل الصنعة، ولا يجاوز به مقدار الإبلاغ في المعنى الذي يريده"[1]فكلامه عليه الصلاة والسّلام كما جاء في وصف البلاغة مطابقا لمقتضى الحال، وقد سبقه الجاحظ(255هـ) في حديثه عن كلام النّبي صلى الله عليه وسلم قائلا:" وهو الكلام الّذي قلّ عدد حروفه، وكثر عدد معانيه، وجُلّ من الصنعة، ونُزّه عن التكلف... واستعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشيّ، ورغِب عن الهجين السوقيّ، فلم ينطق إلا عن ميراث وحكمة، ولا يتكلم إلا بكلام قد حُفّ بالعصمة، وشُيّد بالتّأييد، ويُسِّر بالتّوفيق"[2]، هذه هي البلاغة النّبويّة الّتي وقف عندها العلماء حائرين ومتعجبين من القدرة البيانية والملكة اللسانية التي حظي بها سيّد الأمة صلى الله عليه وسلم والّتي تأتي في المرتبة الثانية بعد القرآن الكريم لما فيها من مميزات جعلتها تفوق بلاغة سائر البشر.

[1] ـ مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت، 1410هـ ـ 1990م ، ص: 282

[2] ـ الجاحظ: البيان والتبيين، تح: عبد السلام هارون، ج2 ، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط7 - 1418ه ـ 1998م، ص: 16 – 17.

الفصل الأول:

التّماسك النّصّي بين المفهوم العربي والغربي :

- مفهوم لسانيات النّصّ
- نحو الجملة ونحو النّصّ
- التّماسك النّصّي
- التّماسك النّصّي عند الغرب
- التّماسك النّصّي في الدّراسات اللّسانيّة العربيّة
- التّماسك النّصّي عند القدماء في الإعجاز.

يتطلّب الدّرس النّصي أدوات مختلفةً ومتشعّبةً والّتي تتطلب جهودا كبيرة للتّمكن منها، وذلك راجع لصعوبة البحث النّصي حسب رأي الباحثين في أنّه عمليّة معقّدة، ومن المعلوم أنّ الدّراسات اللسانيّة قد احتوت جيلين مختلفين في الدّراسات اللّغويّة، أمّا الأوّل فقد جعل من الجملة الوحدة الكبرى للتّحليل أمّا الجيل الثاني فيرى بأنّ النّصّ هو الوحدة الكبرى للتّحليل كونه يؤدّي غرض التّواصل والتّبليغ، من أجل ذلك ظهر علم جديد يهتم بدراسة النّصوص وتحليلها واستكشاف بنياتها الدّاخلية، وتماسكها وانسجام عناصرها وهو ما يعرف "بلسانيات النّص" فقد أخذ هذا العلم مصطلحات أخرى منها" نحو النص"، "علم اللّغة النّصي"...وكلّها تنظر إلى النّص النّظرة نفسها ويرجع ذلك إلى اختلاف الرؤى في اختيار المصطلح الأنسب وتوحيده.

1 ــ مفهوم لسانيات النّص:

لسانيات النّص(Linguistics of the text)هي فرع من فروع اللّسانيات العامّة الّتي وضعها "فرديناند دوسوسير(F.DeSaussure)*"، هذه اللّسانيات قامت بدراسة الجملة ضمن مستويات مختلفة: صوتية، وفونولوجية وصرفيّة وتركيبية ودلالية وتداولية، ويبدو أنّ لسانيات النّص قد تجاوزت الجملة إلى دراسة النّصوص كوحدة متراصة ومتكاملة يسودها الانسجام والاتساق، وفي دراستها لهذه النّصوص تستخدم جملة من المقاييس لتتمّ عمليّة تحليلها كيفما كانت نوعيّة هذه النّصوص "فلسانيات النّص هي التي تدرس بناء النّص وكيفيّة تركيبه وتوليده وتحويله من جملة نووية صغرى إلى خطاب نصّي مسهب وممطّط، بمعنى معرفة كيف تتوسع البؤرة المحورية دلاليا وتركيبيا وسياقيّا لتتحوّل إلى فقرات ومقاطع ومتواليات حتى تصبح نصّا متّسقا ومنسجما"[1]، ذلك أنّ نحو الجمل لم يعد قادرا وحده على استنطاق وحدات أكبر من الجملة، فجاء هذا العلم كبديل يبيّن ما يمكن أن يقدّمهمن "جديد في تحليل النّص واستكشاف بنياته الدّاخلية والوقوف على بلاغة تماسكه وجماليات انسجام عناصره"[2].

---

*"فرديناند دوسوسير(**F.DeSaussure**):عالم لغوي سويسري ولد بمدينة جنيف عام 1857م، وتوفي عام 1913م، عن عمر يناهز 56سنة،يعدّه الباحثون المؤسس الأوّل لعلم اللغة الحديث، درس اللغة دراسة وصفية حديثة، ويعتبر الأب الرّوحي للسانيات.ينظر:محمد الحايك: نبذة عن دي سوسير، تم التدقيق بواسطة: أنوار عبد الغني،30سبتمبر2020م، الموقع الإلكتروني: نبذة عن دي سوسير/sotor.com

[1]ــ محمود عكاشة: تحليل النص، دراسة الروابط النصية في ضوء علم اللغة النصي، ط1 ، مكتبة الرشد ناشرون، 1435هـ ــ 2014م، ص:3.

[2] ــ عبد الرحمن بودرع: في لسانيات النص وتحليل الخطاب، نحو قراءة لسانية في البناء النصي للقرآن الكريم، المؤتمر الدولي لتطوير الدراسات القرآنية، المملكة العربية السعودية، 1434هـ ــ 2013م، ص:10.

إنّ الشّيء الّذي يميّز لسانيات النّص أنّها قد أفادت من نحو الجملة، سواء من حيث المبنى أو المعنى، ومن النّقد والبلاغة والنحو، والدّراسات الأسلوبيّة وغيرها من المناهج والمعارف الّتي سبقت، فنجده يتميز بخاصية التداخل مع هذه العلوم ولا يمكنه الانفصال عنها انفصالا كاملا"فلا خلاف حول استقائه أكثر أسسه ومعارفه من علوم تتداخل معه تداخلا شديدا، بحيث يمكن أن يشكّل أدواته في حريّة تامّة، ثمّ تصبّ نتائج تحليلاته في هذه العلوم، فتزيدها ثراء، وتكشف عن كثير من ألوان الغموض في مسائلها وقضاياها"[1]، ويؤكّد هذا القول أنّ هذا العلم لم ينشأ من العدم، حيث كان للعلوم الأخرى التي يتواشج معها دورا في تشكيل الأسس الّتي أقيم عليها،وبما أنّه علم متشعّب المنابع الّتي استقى منها مفاهيمه ومناهجه وتصـــــوّراته، استطاع من هذا التّركيب العجيب أن يخرج لنفسه أسسا وقواعد تجعله يتميّز عن غيره"إذ إنّ السّمة الجوهرية الفارقة له عن البحوث الأخرى تكمن فيما أطلق عليه التّداخل المعرفي... واتّسم هو نفسه بقدرة فائقة على استيعاب كلّ ذلك الخليط المتباين، بل وتشكيل بنية منسجمة قادرة على الحفاظ على ذلك التّداخل من جهة، وإبراز جانب التّفارق بينه وبين العلوم الأخرى من جهة ثانية"[2].

وبناء عليه فالبحث يتحقّق على ثلاثة مستويات أساسية، وهي المستوى النّحوي والدّلالي والتّداولي، فلا يمكن الفصل بين هذه المستويات، ويمكن في إطار ذلك التصور"إدراك مواضع التّماس بينه وبين علوم الأدب والبلاغة والشعر والأسلوب"[3]،وعلى الرغم من أنّ لسانيات النّص قد استقت معارفها من تلك العلوم، إلّا أنّها تميّزت ببعض القواعد الّتي لم تعرف في علوم أخرى، وهذا سعيد البحيري يقول:" نحو النّص يراعي في وصفه وتحليلاته عناصر أخرى لم توضع في الاعتبار من قبل، ويلجأ في تفسيراته إلى قواعد دلالية ومنطقية إلى جوار القواعد التركيبية، ويحاول أنيقدّم سياقاتكلية دقيقة للأبنيّة النّصيّة وقواعد ترابطها وبعبارة موجزة قد حدّدت مهام بعينها لا يمكن أن ينجزها بدقّة إذا التزم حدّ الجملة"[4].

وممّا نلاحظه هو تعدّد مفاهيم لسانيات النّص فقد أخذت عدّة تعريفات، والمعلوم عن هذا العلم هو تجاوزه مستوى الجملة، وجعل النّص بديلا لها بحكم

---

[1] ــ سعيد حسن بحيري: علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات، مكتبة لبنان ناشرون، الشركة المصرية للنشر، لونجمان، 1997م ، القاهرة، ص2: ــ3

[2] ــ المرجع نفسه: ص: أ.

[3] ـ المرجع نفسه: ص: أ .

[4] ـ أحمد المتوكل: قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، بنية الخطاب من الجملة إلى النص، ط1 ، الرباط، المغرب، دار الأمان للنشر والتوزيع، 2001م، ص: 84 .

أنّها لم تعد كافية للوصف اللّغوي "ومصطلح نحو النّص واحد من المصطلحات الّتي حدّدت لنفسها هدفا واحدا وهو الوصف والدّراسة اللّغوية للأبنيّة النّصيّة، وتحليل المظاهر المتنوّعة لأشكال التّواصل النّصي، اشترك مع مصطلح نحو النّص في تحقيق هذا الهدف بعض المصطلحات الّتي تعنى بذلك أيضا وهي:"علم النص"،و"علم اللغة النصي"، و"نظرية النص"[1]، وقد أشار حسن بحيري إلى أنّ"المصطلح الّذي استخدمه هارفج(**Harwig.R**)للدّلالة على الاتّجاه الجديد في بحث النّص، وهو مصطلح(**Textologie**)أكثر قبولا، وأما التقسيم الذي قام به درسلر(**R.Dressler**)وهو علم دلالة النص وعلم نحو النص والتداولية النصية فهو أفضل..على الرغم من أنه غير كاف لكي يشيع مصطلح "علم لغة النص"، غير أنه قد صار مصطلحا جامعا لكل البحوث المتعلقة بالنص ونموذج النّص داخل علم اللّغة"[2]، وإن كان مصطلح نحو النّص يقترب أكثر من تحقيق الهدف وتوضيح صور التّماسك والتّرابط النّصي.

ونجد من الباحثين من أقرّ بتحويل البلاغة إلى نظريّة النّص وفي مقدّمتهم "فان ديجك" الّذي بشر في بحوثه عن علم اللّغة النصي في مطلع السبعينيات"بتحويل البلاغة إلى نظريّة النّص حتّى وصل هذا الباحث الهولندي ومدرسته إلى أهم نتائج دراسة الأبنية النّصيّة الكبرى وتماهيها مع البحوث البلاغيّة، وهو المسار الّذي كانت تتّخذه أعمال مجموعات أخرى من الباحثين في ألمانيا على رأسهم"سبلنر(**ASpiliner.B**)"[3].

ذهب إبراهيم الفقي إلى أنّه لم يجد خلافا حول هذا المفهوم "علم اللّغة النّصي" بالصّورة نفسها التي وجدت في تعريفات مصطلح النّص، وقد عرّفه جاك ريتشاردز(**J.Richards**) بأنّه فرع من فروع علم اللّغة يدرس النّصوص المنطوقة والمكتوبة...وهذه الدّراسة تؤكد الطريقة التي تنتظم بها أجزاء النّص، وترتبط فيما بينها لتخبر عن الكل المفيد"[4]، ويذكر(**Nils**) أن علم لغة النص"يعنى في ـ العادة ـ الدراسة للأدوات اللّغوية للتّماسك النّصي، الشّكلي والدّلالي"[5]، مؤكدا على أهميّة السّياق، كما أنّ المتلقي للنّص لابدّ أن تكون له خلفيّة توجّهه في تحليل الخطاب.

---

[1] ـ برند شبلنر: علم اللغة والدراسات الأدبية، دراسة الأسلوب، البلاغة، علم اللغة النصي، ترجمه وقدم له وعلق عليه، محمد جاد الرب، الدار الفنية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1 ،1987م، ص:183.

[2] ـ سعيد حسن بحيري: علم لغة النص، ص:52.

[3] ـ صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص،ج1، ص:232.

[4] ـ صبحي إبراهيم الفقي: علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، ص:35.

[5] ـ المرجع نفسه، ص:35.

وقد قامت لسانيات النّص بضمّ عناصر لم تكن في لسانيات الجملة، فدرست النّص وكلّ ما يحيط به من سياق وفضاء مركزة على الظروف المحيطة به، كما اهتمت بتماسك أجزائه وتعالق معانيه القبلية والبعدية، فلم تهمل جانبا يتعلق به، إضافة إلى مراعاة دور المتلقي وظروفه وثقافته في تعامله مع هذا النّص، كما وقفت على معايير النّصية الّتي تسهم في تماسكه وتحقيق نصيّته، وهذا التّطور والرّواج الّذي حقّقته لسانيات النّص جعلها في مقدّمة العلوم الّتي تحيط بأسرار النّصوص، وفي هذا الصّدد يقول اللّغوي الألماني"روك"(**Rook**) :"أخذت اللّسانيات النّصيّة بصفتها العلم الّذي يهتمّ ببنية النّصوص اللّغوية وكيفيّة جريانها في الاستعمال شيئا فشيئا مكانة هامّة في النّقاش العلمي للسّنوات الأخيرة، فلا يمكن اليوم أن نعدّها مكمّلا ضروريّا للأوصاف اللّغوية التي اعتادت أن تقف عند الجملة معتبرة إيّاها أكبر حدّ للتّحليل، بل تحاول اللّسانيات النّصيّة أن تعيد تأسيس الدّراسة اللّسانية على قاعدة أخرى هي النّص ليس غير، لكن هذا لا يعني أنّنا نعتمد المعنى المتداول بين النّاس للنّص(نص مكتوب عادة ما يأخذ شكل منتوج مطبوع) بل ينبغي أن ندرج في مفهومنا للنّص كلّ أنواع الأفعال التّبليغيّة التي تتّخذ اللّغة وسيلة لها"[1]، وهذه الانطلاقة الجديدة في الدّراسات اللّغوية تعتمد على النّص كركيزة أساسية يقف عليها هذا العلم .

ويرى سعيد بحيري أنّ اتّجاهات البحث في هذا العلم قد أخذت أشكالا عدّة، وذلك تبعا للأسس التي يستند إليها علماء علم اللغة النصي فيقول:"نجد مثلا اتجاها يعتمد على رصيد علم اللغة الوصفي، ولكن بعد إضافة عدد من المفاهيم والتّصورات الجديدة إليه، حتّى يمكن معالجة المستوى الأكبر الّذي يمتاز به هذا العلم، أعني مستوى النّص، ونجد اتّجاها آخر يستند إلى رصيد علم اللّغة الوظيفي، وثالثا يقوم على رصيد علم اللغة التركيبي أو البنائي، ورابعا على رصيد علم اللّغة التّحويلي التوليدي...الخ"[2]، إنّ تعدّد هذه الأشكال في اتّجاهات هذا العلم وَسَمَتْه بالتّشعب إلى حدّ بعيد، وجعلته يستوعب قدرا وافرا من المفاهيم، ولكنّ المعضلة كانت في تلك المفاهيم المختلفة لجوهره الأصلي وهو النّص، إذ طرحت هذه الاتجاهات تعريفات مختلفة للنص"فلكل إنسان مثقّف ـــ إلى حدّ ما ــ تصوّر للنّص مرتبط لغويا بالمحيط الّذي يعيش فيه، ومع ذلك يظل هذا التّصوّر قاصرا علميّا؛ حيث إنّه لم يتكوّن إلّا من خلال خبرات ذاتيّة، وعلى نحو أدنى من خلال قواعد وعلامات يمكن تحديدها بدقة"[3]، ذلك أن النص وليد بيئته، واقترن بثقافة

[1] ــ خولة طالب الإبراهيمي: مبادئ في اللسانيات، دار القصبة، الجزائر، 2000م، ص:167 –168.
[2] ـ سعيد حسن بحيري: علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات، ص:2.
[3] ــ المرجع نفسه، ص:3.

الأفراد وعلاقتها بالمحيط الذي تنبع منه، مما جعل هذا التصور قاصر علميا لأنه يعتمد على تجارب وخبرات ذاتية.

حدّد **"روبرت دي بوجراند"** مفهوما للنّص يميّزه عن الجملة وبيّن كيفية معرفته انطلاقا من عناصر محدّدة، فهو يرى بأنّ "النّص نظام فعال على حين نجد الجمل في عناصر من نظام افتراضي...والجملة كيان قواعدي خالص يتحدّد على مستوى النّحو فحسب، أما النّص فحقه أن يعرف تبعا للمعايير الكاملة للنصية"[1]،كما اقترح دي بوجراند المعايير التّالية لجعل النصية أساسا مشروعا لإيجاد النصوص واستعمالها وهي: السّبك، الالتحام، القصد، القبول، رعاية الموقف، التناص، الإعلامية، ويعترف بأنّها ليست جديدة، ولكنّ علاجها حتى هذه اللّحظة جاء مفرّقا ومدمجا، ومن هذه"المعايير السبعة معياران تبدو لهما صلة وثيقة بالنّص (السّبك والالتحام) واثنان نفسيّان بصورة واضحة(رعاية الموقف والتناص)، أما المعيار الأخير(الإعلامية) فهو بحسب التّقدير، ولكن يظهر من النّظرة الفاحصة أنّه لا يمكن لواحد من هذه المعايير أن يُفهم دون التّفكير في العوامل الأربعة جميعا: اللغة، والعقل، والمجتمع، والإجراء"[2]، وليس شرطا أن تتحقق جميع العناصر في النص للحكم على تماسكه وترابطه، إذ يمكن الاكتفاء بوجود بعضها وتصبح بذلك معايير هامّة تسهم في نصيّة النّص.

2 ــ نحو الجملة ونحو النص:

إنّ نحو النّص يهدف إلى رؤية أكثر اتّساعا وشموليّة، ولعلّ أنّ أشكال النّقد الّتي وجهت إلى نحو الجملة ليس استنقاصا من جهود الأوائل في البحث على مستوى الجملة(SENTENCE) بقدر ما هي نظرة متطوّرة في الدّراسة اللّغوية، تعمل على استكشاف الوحدات الكبرى بتلك النّقلة التي انتهجها علماء اللّغة النّصيّون من أجل استيعاب تصوّراتهم بقدر ما هي عاجزة على تحليل ما هو أكبر من الجملة "وكان التّراث النّحوي السّابق بكلّ ما يضمه من تصوّرات ومفاهيم وقواعد وأشكال وصف وتحليل وغير ذلك ـ الأساس الفعلي الذي بنيت عليه هذه الاتّجاهات النّصيّة بكل ما تتَّسِم به من تشعّب أفكارها وتصوّراتها ومفاهيمها، ورأوا أنّ الدّراسات النّحويّة ــ مثلاـ قدّمت تحليلات جزئيّة مهمّة لبعض الجوانب الخاصة بين أجزا الجملة والمتواليات الجملية، وشروط الفصل والوصل، ومعاني الأساليب وأشكال السياقات و الدلالات الخاصة، وغير ذلك من الظواهر التي

[1] ـ روبرت دي بوجراند: النص والخطاب والإجراء، ترجمة: تمام حسان، ط1، عالم الكتب، 1418هـ ـ 1998م، القاهرة ، ص:89 ـ90.
[2] ـ المرجعنفسه، ص:106.

يختص بها نحو الجملة"[1]، فهذا العلم الجديد يدرس التّماسك النّصي من خلال دراسة الرّوابط بين الجمل وتحديد العلاقات فيما بينها ومظاهر انسجامها، ومن أجل ذلك قام هؤلاء برصد أوجه الاختلاف بين النّحوين، وقد قد تمثّلت الفوارق عندهم في النّقاط الآتية:

1 ـــ تنتمي الجملة إلى نظام افتراضي(النحو)، في حين يعدّ النّص نظاما واقعيّا تكوّن من خلال عمليات اتخاذ القرارات والانتخابات من بين مختلف خيارات الأنظمة الافتراضية.

2 ـــ تتحدّد الجملة بمعيار أحادي(علم القواعد) من نظام معرفي وحيد(علم اللغة) في تتحّدد نصيّة النّص بمعايير عدّة من مختلف الأنظمة المعرفيّة.

3 ـــ تكون الجملة قواعديّة أو لا تكون جملة البتّة، أمّا النّص فلا تنطبق عليه معايير النّصية بمثل هذه الحدّة.

4 ـــ يتأثّر النّص بالأعراف الاجتماعيّة والعوامل النّفسيّة وبموقف وقوع النّص بوجه خاص في حين يضعف تأثّر الجملة بهذه المؤثّرات.

5 ـــ يستند استغلال الجمل إلى المعرفة القواعديّة التابعة لنظام افتراضي له صفة العموميّة، أمّا استغلال النّص فيستند إلى معرفة خبرات بوقائع فعليّة خاصة[2].

6 ـــ هناك معايير خمسة تعتبر صفات "يختصّ بها نحو النّص، ولا تعنى نحو الجملة وهي: القصد، التناص، رعاية الموقف(المقامية)، الإعلامية، القبول"[3]، لأنّ نحو الجملة مستقلّ عن رعاية المواقف اللّغوية، فهو يقوم بدراسة الجملة بمعزل عن سياقها، إذن فهذا النحو"يؤمن باستقلالية الجملة، وبالتّالي فهو نحو تحليل لا تركيب"[4]، أمّا نحو النّص فلا يعتدّ فيه تجزئة النّص وإنّما الوحدة الكليّة ليتسنّى للدارس أو الباحث الوقوف على العلاقات بين أجزائه كاملا .

---

[1] ـ سعيد حسن بحيري: علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات، ص:134.

[2] ـ روبرت دي بوغراند، ولفغانغ دريسلر: مدخل إلى علم لغة النص، إلهام أبو غزالة، علي خليل حمد، مطبعة دار الكاتب، ط1 1413هـ ـ 1992م، ص:10.

[3] ـ أحمد عفيفي: نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي، ص:77.

[4] ـ المرجع نفسه، ص:77.

7 ـــ يعد النص حدثا يوجهه المرسل إلى المستقبل؛ لإنشاء علاقات متنوعة، وتوصيل مضامين يعينها المنتج، ولا تقتصر على العلاقات القواعدية، في حين لا تعنى الجملة إلا بالعلاقات القواعدية، ومن ثم فهي لا تشكل حدثا.[1]

8 ـــ لا يمكن النّظر إلى النّص بزعم أنّه مجرّد صورة مكوّنة من الوحدات الصّرفية أو الرّموز، لأنّ النّص تَجَلّ لعمل إنساني ينوي به شخص أن ينتج نصا ويوجّه التّوجيه مسبّبا لأعمال إجرائية، والنّصوص تراقب المواقف وتوجهها وتغيّرها، وليست الجملة عملا؛ ولهذا كانت ذات أثر محدود في المواقف الإنسانيّة، لأنّها تستعمل لتعريف النّاس كيفيّة بناء العلاقات النّحوية فحسب.[2]

9 ـــ النّص يحتوي الجملة وما يفوقها وما دونها؛ فإذا ما حصل التّطابق بين النّص والجملة في الكميّة، فَلِقائل أن يقول: ما الفائدة من نحو آخر يدرس الموضوع نفسه؟ وهذه قضية مطروحة في كثير من المواضيع ضمنيا أو صراحة...والمستويات الثلاثة(ما هو دون الجملة، والجملة، وما فوقها) في دلالتها ترتبط بالمقام ارتباطا واحدا؛ وهذا الارتباط يعتمده طرفا التّواصل في تركيب الكلام وتحليله، لكن نحو الجملة قاصر عن بيان وجود هذا الارتباط"[3]، وبذلك تكون الدّراسة بصدد البحث عن جهاز وصف يتجاوز حدود الجملة من أجل الوقوف على دلالة النّصوص وبنيتها.

10 ـــ يذهب نحو النّص في تحليله إلى قواعد جديدة منطقية ودلالية وتركيبيّة ليقدّم شكلا جديدا من أشكال التّحليل لبنية النّص، وتصوّر معايير التّماسك والترابط والانسجام، ولهذا تضافرت تقريرات اللسانيين من أمثال بيك وهارتمان و جليسون وساندرز ولونجاكر وفان دايك وغيرهم على أنّ نحو النّص بالنّسبة لأيّ لغة بعينها هو أكثر شمولا وتماسكا واقتصادا من النّحو المصوّر في حدود الجملة[4].

11 ــ إنّ النّصوص تشير إلى(PRESUPPOSES) نصوص أخرى بطريقة تختلف عن اقتضاء الجمل لغيرها من الجمل، ويعتمد متعلمو اللّغة في استخدامهم للجمل على معرفة القواعد من حيث هي نظام افتراضي عام، أمّا من أجل استعمال النّصوص فإنّ النّاس بحاجة إلى معرفة عمليّة بالأحداث الجارية بخصوصها،

[1] ـ بن يحي طاهر نعوس: تحليل الخطاب القرآني في ضوء لسانيات النص، دراسة تطبيقية لسورة البقرة، ص:20.

[2] ـ النص والخطاب والإجراء: روبرت دي بوجراند، ص:92.

[3] ـ الأزهر الزناد،: نسيج النص، بحث فيما يكون به الملفوظ نصا، ص:16.

[4] ـ أحمد عفيفي: نحو النص، اتجاه جديد في الدرس النحوي، ص: 39 .

وتنطبق هذه الحالة من التّناص على الملخصات وموادات(**Prorocols**) الموضوعات والاستطرادات والإجابات ومحاكاة النّصوص(**parodies**).[1]

12 ـ يختصّ نحو الجملة بمجموعة من المبادئ الحاكمة منها الاطّراد وهو "ثبات القاعدة في الحكم على الفصحى، وما خرج عنها عُدَّ شاذا مع ملاحظة أنّهم يحكمون في كثير من الأحيان للشذوذ بالفصاحة لوجوده على لسان أحد الناطقين خلال عصور الاستشهاد، والملاحظ أنّ نحو النّص ينأى عن الاطراد"[2]، كون أنّ هذا العلم"يعترف بالمؤشرات الأسلوبية، وهي تصرّفات فرديّة يلجأ إليها منشئ النّص ليدلّ بها على لفتات ذهنيّة، أو ليثير بها انتباه المتلقي، والمعروف أنّ المؤشرات الأسلوبيّة لا تأتي على نسق واحد"[3].

13 ــ النّص توال(**PROGRESSION**) من الحالات(**STATES**)، فالحالة المعلومية (**Knowledgestate**)والحالة الانفعالية(**emotional state**) والحالة الاجتماعية(**social state**)..إلخ لمستعملي النّص عرضة للتغير(**CHANGE**) بواسطة النّص، ويأتي إنتاج النّص في صورة توال من الوقائع، وفي كلّ نقطة من نقاط هذا التّوالي تطبق الضّوابط السّائدة (**Current controls**)الّتي لا تدعو ضرورة ما إلى كونها من قبيل المبادئ التّجريدية للصّياغة، فضوابط بدايات النّصوص على سبيل المثال تختلف عن ضوابط استمرارها ونهاياتها، وفي المقابل يجري النّظر إلى الجمل بوصفها عناصر من نظام ثابت متزامن(**CHRONIC SYSTEM**) أي نظام يرى في حالة واحدة مثالية مفارقة للتّطوّر لتنطبق الضّوابط انطباقا مطّردا (**CATEGORICALLY**)على سبيل الوجوب والصّواب أو لا تنطبق[4]

14 ــ لا يبحث علم نحو الجملة في الجملة من البلاغة وأثره في السّامع، "بينما نحو النّص فجلّ عمله هو البحث في تلك الأمور"[5].

ويستنتج من خلال هذه الاختلافات بين نحو النّص ونحو الجملة بأنّه "لا يتناسب مع الواقع الفعلي لأنّهما متكاملين"[6]، وهذا ما جعل دارسي علم اللّغة النّصي ينقسمون إلى رأيين ، فيذهب الرأي الأوّل إلى أنّه هناك اختلاف بين النّص

---

[1] ـ روبرت دي بوجراند: النص والخطاب والإجراء، ص: 94.

[2] ـ أحمد عفيفي: نحو النص، اتجاه جديد في الدرس النحوي، ص:73.

[3] ـ سعد مصلوح: العربية من نحو الجملة ونحو النص، الكتاب التذكاري لقسم اللغة العربية، جامعة الكويت، عبد السلام هارون معلما ومؤلف ومحققا، إعداد د.وديعة النجم، د.عبده بدوي، 1990م، ص:1.

[4] ـ روبرت دي بوجراند: النص والخطاب والإجراء، ص:92.

[5] ـ أحمد عفيفي: نحو النص، اتجاه جديد في الدرس النحوي، ص:74.

[6] ـ بن يحي طاهر ناعوس: تحليل الخطاب القرآني في ضوء لسانيات النص، دراسة تطبيقية في سورة البقرة، ص:21

والجملة وبالتّالي لابد من رؤية للنّص في الدّراسة والتّحليل تخالف تلك الرّؤية الّتي أحيطت بدراسة الجملة، بحكم أنّها عاجزة عن الوصف اللّغوي، السّبب الّذي أدّى بهؤلاء إلى وضع نحو جديد بأبعاد ورؤى مخالفة ومغايرة لنحو الجملة، وفي المقابل يظهر الرّأي الآخر الّذي يجعل منهما بنية متماثلة بمعنى"تماثل بنيتي الجملة والنّص تماثلا يجعل من الممكن أن يوسع بنحو الجملة ليشمل مجال النص"[1]، وهناك من جعل من نحو النّص امتدادا لنحو الجملة، وعلى رأسهم فان دايك الذي يرى بأنّ "نحو الجملة يشكل جزءا(كمّا) غير قليل من نحو النّص"[2]، وأنّ الصّلة بينهما وثيقة إلى الحدّ الّذي لم تنجح معه كلّ محاولات التّمييز بينهما[3]، وهذا التّطوّر المنهجي في الدّراسات الّتي دعت للانتقال من تحليل الجملة إلى تحليل النّص نتج عنه نحو عام

للنّص يدعو إلى الأخذ بعين الاعتبار كل ما يحيط به، ومن هنا" تغيّرت الأهداف وتحدّدت أهداف كبرى جديدة نصيّة حيث عُنِيَ علم اللّغة النّصي في دراسته لنحو النّص بظواهر تركيبيّة نصيّة مختلفة"[4]، وهذه النّقلة ما هي إلّا تغيير في الأهداف"بتعديلها، أو بوجود أهداف جديدة لم تكن موجودة في نحو الجملة فالتّحليل النّحوي اتجه إلى النّص وبالتّالي جاء تغيّر المنهج والأهداف عاملا أساسيّا لضرورة الحاجة إلى نحو النّص"[5]، لذلك نجد حسن بحيري قد حصر الفرق بين نحو الجملة ونحو النص في الموضوع والمنهج والغاية[6]، فلا يجوز أن تنفصل العلاقة بينهما كما لا يجوز أنيتداخلا، والأرجح أن يكون نحو الجملة والدّراسات الّتي شملته تمهيدا للنّحو الجديد، الّذي تجاوز الجملة وهو دراسة النّصوص "ومن ثمّ فهما متكاملان"[7]، وهذا التّكامل يجعل نحو النّص يقوم على قواعد نحو الجملة التي تمثّل ركيزة له.

3 ــ التّماسك النّصي:

إنّ الدّراسات النّصية ليست وليدة الدّراسات اللّغوية الحديثة، بل لها امتدادات وجذور في الدّراسات السّابقة لها، وقد ارتبطت هذه الدّراسات بعلوم

---

[1] ــ أحمد المتوكل: قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، بنية الخطاب من الجملة إلى النص، ط1 ،الرباط المغرب، دار الأمان للنشر والتوزيع، 2001م، ص:83.

[2] ــ سعيد حسن بحيري: علم لغة النص ، المفاهيم والاتجاهات، ص:135.

[3] ــ المرجع نفسه، ص:135.

[4] ــ أحمد عفيفي: نحو النص، اتجاه. جديد في الدرس النحوي، ص:39.

[5] ــ المرجع نفسه، ص:40.

[6] ــ سعين حسن بحيري: علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات، ص:15 ــ ص20.

[7] ــ فولفجانج هاينه من، وديتر فيهفيجر: مدخل إلى علم اللغة النصي، ترجمة: د فالح بن شبيب العجمي، جامعة الملك سعود، الرياض، ط1419،1هـ ــ 1999م ، ص:8.

أخرى كعلم البلاغة وعلم النحو وغيرها، ويرى الباحثون بأنّ قضيّة التّماسك النّصّي كان لها السّبق عند اللّغويين والنّحويين والمفسّرين القدامى وخاصّة العرب، فهي ليست وليدة الفكر الغربي على الرغم من أنّهم يدركون أنّ هذه الإرهاصات لا تمثّل نظرية كالّتي ذهب إليها الباحثون المحدثون في دراستهم للتّماسك النّصي، فقد ذكر السّابقون وجوب التّعامل مع النّصّ كوحدة واحدة إضافة إلى أنّهم عبّروا عن ذلك بعبارات تنمّ عن حسّهم اللّغوي الصّحيح.

لقد اقترن مفهوم التّماسك النّصي كما ذكرنا سابقا ـــ إثر الحديث عن مفهومه ـ بالنّص، وقد تأثّر تعريفه بالخلفيات التي يميل إليها معرّفه سواء كانت فلسفية أو فكرية أو ثقافيّة، وهذه النّزعة الطّاغية على المعرّف للتّماسك تجعله يعطي تعريفا للنّص بصبغة تناسب توجّهه وخلفيته، لذلك كثرت الرّؤى بكثرة الاتّجاهات، فلا وجود للتّماسك دون النّص، ولا يتحقّق للنّص نصّيته إن لم يكن متماسكا، ويعنى بالتّماسك ذلك التّرابط والتّلاحم بين الوحدات المكوّنة للنّص فيصبح نسيجا واحدا من خلال العلاقة بين كلّ مكوّن من مكوّناته وبقيّة أجزائه، وهو عبارة عن خاصيّة تتميّز بها الوحدات التي تفوق الكلمة والجملة معا، وقد أولته الدّراسات النّصيّة عناية شديدة لما له من الأثر البالغ في تحليل النّص والكشف عن العلاقات القائمة بين عناصره.

4 ــ التّماسك النّصي عند الغرب:

تحتلّ الدّراسات اللّسانيّة النّصية مركزا مهمّا في مجال الأبحاث اللّغويّة الحديثة، خاصّة بعد التّطوّرات الّتي شهدتها الدّراسات اللّغوية في ميدان لسانيات النّص باعتمادها على النّص متّخذة إيّاه وحدة للمعالجة وهدفا للبحث، متجاوزة في ذلك مستوى الجملة، وكان للعلماء الغربيين الانطلاقة الأولى في التّحليل النّصي واقفين في ذلك على الترابط الحاصل بين أجزاء النّص، هذا التّرابط الّذي اعتبروه عنصرا مهمّا وأساسيّا في بناء النّصوص من خلال تحليلهم لها، فالتّرابط و الانسجام يحقّق لها استمراريتها، وقد بلغ التّماسك هذا القدر من الأهميّة في الدّراسات الغربيّة لكونه الرّكيزة الأساسيّة في التّفريق بين النّص واللانص.

وكثرت الأعمال في هذا العلم، وأسهم رواده إسهاما كبيرا من خلال مؤلفاتهم، وقد بيّن هؤلاء نظرتهم للتّماسك النّصي واقفين في ذلك على العناصر التي تسهم في تحقيق هذا الترابط، وتمثّل أعمالهم قفزة نوعية في تطوّر نحو النّص، سواء في الدّراسات الغربية أو العربيّة على حد سواء، وكان لمفهوم التّماسك اتّجاهين مختلفين نظرا لعدم القدرة على إيجاد مفهوم واحد متّفق عليه، هذا التّعدد خلق وجهتين متباينتين، فأنصار الرأي الأوّل يرون بأنّ التّماسك خاصيّة

نصيّة تتحقّق من خلال النّص ذاته، أمّا أنصار الرأي الثّاني فيرون بأنّ حضور المتلقي له دور كبير في الحكم على تماسك النّص، إذ لا يمكن وصف نص بأنّه متماسك أو غير ذلك بعيدا عن المتلقي" أي ليس هناك نص منسجم في ذاته ونص غير منسجم في ذاته باسقلال عن المتلقي، بل إنّ المتلقي هو الّذي يحكم على نص بأنه منسجم وعلى آخر بأنه غير منسجم" [1]فللترابط النّصي وجهين:"ظاهر النص(**Surface text**) وهو ما يكون مبنيّا بعضه على بعض تركيبا ويدرسه معيار الاتّساق، وعالم النص(**Textuelword**)وهو ما يكون مبنيّا بعضه على بعض دلالة ويدرسه معيار الانسجام"[2].

4 ـــ 1ـ التّماسك النّصي عند فان دايك(Van Dijk):

يعتبر فان دايك من رواد لسانيات النّص الّذين كانت لهم العناية البالغة بهذا العلم، فهو يستعمل مفهوم التّرابط للإشارة إلى علاقة خاصّة بين الجمل، و يرى بأنّ هناك شروطا تحكم هذا التّرابط أوّلها هو العلاقة بين معاني الكلمات الواردة فيها، بمعنى أنّ التّرابط يتطلّب تعالق الوقائع الّتي تشير إليها القضايا، وأنّ الجمل تكون مترابطة إذا كانت الوقائع التي تشير إليها قضاياها متعالقة في عوالم متعالقة[3]، ومن بين شروط تعالق الوقائع هو علاقة السّبب والنّتيجة، فكلّما كان السّابق شرطا كافيّا للناتج كانت الوقائع متعالقة، وقد اختزل فان دايك الفكرة في مفهوم "موضوع التخاطب"،بحيث أنّ الشّرط الأدنى لترابط القضايا التي تعبّر عنها جملة أو متتالية هو ارتباطها بموضوع(موضوعات) التّخاطب نفسه[4] ،كما يعتبر الباحث أن "تحليل الانسجام يحتاج إلى تحديد نوع الدّلالة التي ستمكننا من ذلك. وهي دلالة نسبيّة، أي أننا لا نؤول الجمل أو القضايا بمعزل عن الجمل والقضايا السّابقة عليها، فالعلاقة بين الجمل محدّدة باعتبار التأويلات النسبية"[5]، وعليه فقد قام دايك بالوقوف على عناصر التّماسك النّصي التي تساهم في انسجام مقاطع النّص ثم العلاقات بين هذه المقاطع، نذكر منها:

1 ـــ التّطابق الذّاتي وهو تطابق واضح بين الاسم وبين الضمير المحيل إليه.

2 ـــ علاقات التّضمن والعضويّة، الجزء ـــ الكلّ، ثمّ الملكيّة، ومثال علاقة الجزء بالكّل: يمكن تكون غرفة العمل جزءا من مكتب.

---

[1] ـ محمد خطاني: لسانيات النص، ص:51.

[2] ـ سالم بن محمد المنظري: الترابط النصي في الخطاب السياسي، دراسة في المعاهدات النبوية، البرنامج الوطني لدعم الكتاب، بيت الغشام للنشر والترجمة، ص:44.

[3] ـ ينظر،محمد خطابي: لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، ص:31، 32.

[4] ـ ينظر المرجع نفسه، ص: 34.

[5] ـ المرجع نفسه، ص: 34.

3 ــــ الحالة العادية المفترضة للعوالم التي يشتمل عليها الخطاب، وهو شرط معرفي ويعنى به أنّ توقعاتنا حول البنيات الدلالية للخطاب تحدّدها معرفتنا حول بنية العوالم عموما والحالات الخاصة للأمور أو مجرى الأحداث[1].

4 ــــ مفهوم الإطار الّذي يميّز معرفتنا للعالم.

5 ــ التّطابق الإحالي يكون ذلك بواسطة الضّمائر.

6 ــ تعالق المحمولات: وهنا يشير فان دايك إلى أنّه هناك تغيرا في موضوع الخطاب، أي أنّ الخطاب يدور حول شيء مختلف عن السّابق، فإمكانية الوصول إلى هذا الموضوع الجديد من خلال السّابق يكون من خلال الرابط بين الموضوعين كأسماء الإشارة وغيرها.

7 ــــ العلاقات الرّابطة بين المواضيع الجديدة بواسطة علاقة التذكّر والاسترجاع علاقة الرؤية.....[2].

ويعلق محمد خطابي على ما أشار إليه فان دايك"بما يتعلّق بترتيب الوقائع وترتيب المتتالية؛ هو العلاقات التي تحكم هذا الترتيب، وهي علاقات تخضع لمبادئ معرفية كالإدراك والاهتمام..."[3]، وقد حصرت فيما يلي:

*العام ــــ الخاص: وذلك أنّنا نرى عادة مجموع الشّيء قبل أجزائه، كما أنّنا نرى شيئا كبيرا قبل أن نرى شيئا أصغر منه، فالتّرتيب الخاضع لهذه العلاقات يمكن أن يحدث فيه تغيير ما، إذ يمكن أن يفسر شيء خاص بشيء عام.

*الكل ــــ الجزء:يمكن أن يتقدّم الجزء على الكلّ، ويتمّ ذلك لأغراض ومقاصد يهدف المتكلّم/ الكاتب إلى تحقيقها... .

* المجموعة ــ المجموعة الفرعية ــ العنصر.

*المتضمِّن ــــ المتضمَّن

* الكبير ــ الصغير.

* الخارج ــ الداخل.

* المالك ــ المملوك[1].

[1] ــ ينظر محمد خطابي: لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب ، ص: 35 .
[2] ــ ينظر: المرجع نفسه، ص: 37 .
[3] ــ المرجع نفسه، ص: 39 .

ونخلص إلى أنّ الخطاب إذا أغفل هذه العلاقات فإنّه لن يكون منسجما "فالتّرتيب يقوم بدور أساسي في انسجام الخطاب، وكلّما حدث تغيير في التّرتيب دون أن يحقّق أعراضا معيّنة، محدّدة سلفا، كان الخطاب غير منسجم"[2]، فيمكن أن تقع وحدات معجمية ما في علاقة تتبع بعضها بعضا، بحيث يتضمن قسم نحوي أكبر وحدتين، ومن ثمّ تشترك في علامات، أي أنّه بين الوحدتين سمات مشتركة تجعلهما في مستوى واحد، بحيث تدخلان معا تحت وحدة نحوية ثالثة أكبر[3].

لقد فرّق فان دايك بين الترابط والانسجام فجعل من الأوّل وجود علاقة سبب ونتيجة في التركيب، وجعل من الثاني مرتبطا بالدلالة، وأضاف إلى هذا الانسجام خاصيّة التّرتيب" وركّز على التّرتيب المقيّد دون الحرّ؛ إذ هو الّذي يظهر قصديّة النّاص، وحدوثه ـــ أي التّرتيب المقيّد ـــ دون أثر دلالي، أو تداولي يخل بالانسجام من وجهة نظره"[4]، فالتّرتيب الحرّ لا يظهر للمتلقي دليل على أصله نحو:

كان معي علي وسليمان وتوفيق.

بالنسبة للمتلقّي هذا لا يختلف عن الترتيب التّالي:

كان معي توفيق وعلي وسليمان، إذا كان يسمع الجملة الأولى مرّة.

أمّا التّرتيب المقيّد فيظهر مباشرة أنّ التّرتيب فيه اختلاف عن الأصل نحو:

صليت ركعتين ثم توضأت ودخلت المسجد. فسيسأل المتلقي: الأصل أن يتوضأ ثم يدخل المسجد فيصلي...[5].

ويرى سعيد بحيري أنّ فان دايك "لا ينطلق من نموذج نحوي صارم للنّص، على الرّغم من إصراره على أنّ نهجه يدخل تحت ما يسمّى بنحويّة النّص، وذلك لأنّه يوسّع من إطار النّحو ليضمّ مفاهيم أخرى تتيح له تجاوز الأطر الضّيقة الّتي تعجز عن تفسير دقيق للنّصوص، وتقتصر على السّلامة النّحوية بوصفها هدفا نهائيّا"[6]، وهذه الرّؤية الواسعة التي امتلكها جعلته يُلِمّ إلى حدّ كبير بجوانب يضمّها النّص أو الخطاب مستعينا في ذلك بصياغة منطقيّة لبعض القواعد والقيود

---

[1] ـ ينظر محمد خطابي: لسانيات النص، ص:39 .

[2] ـــ المرجع نفسه، ص: 40 .

[3] ـ سعيد حسن بحيري: علم لغة النص ، المفاهيم والاتجاهات، ص:245.

[4] ـــ عمر أبو خرمة : نحو النص، نقد النظرية... وبناء أخرى، عالم الكتب الحديث، أربد ، الأردن، 1425ه – 2004م، ص:88

[5] ـــ المرجع السابق، ص:88.

[6] ـ سعيد حسن بحيري : علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات، ص: 243.

من جهة ومن جهة أخرى يستند إلى مفاهيم دلاليّة تواصليّة أساسا مثل معرفة العالم أو العوالم الممكنة أو المحتملة والعوالم الفعلية والإطار وغير ذلك[1].

على الرّغم من ذلك نجد بأنّ فان دايك قد قارب قضايا نحو النّص في جزئيّة من جزئياتها، وعنصر من عناصرها، دون أن يصل إلى نظريّة دقيقة شاملة لمفهوم النّص ونحوه، قابلة للتّطبيق على جميع النّصوص، لا على التي اختارها هو أو صنعها[2]، حيث نفهم من هذا القول أنه من العسير تحديد تفسير دقيق للنصوص، وما وصلنا من مفاهيم ما هي إلّا اجتهادات، قام أصحابها من خلالها التّغلغل في أغوار النّص محاولين في ذلك الكشف عنه،بالتّطرق إلى كل الجوانب التي يضمّها، لتصبح هذه المحاولات قاصرة على تحديد مفهوم شامل للنّص كما آل إليه الأمر مع فان دايك.

من جانب آخر يقارب فان دايك مظهرا آخر من مظاهر انسجام الخطاب(أو عدم انسجامه) وهو الخطاب التّام والخطاب النّاقص، ويعلق محمد خطابي حوله قائلا:"لانعتقد أنّ محلّلي الخطاب وعلماء النص يولونه اهتماما معينا"[3]، والمقصود لدى فان دايك بالخطاب التّام أنّ"كلّ الوقائع المشكّلة لمقام معيّن توجد في الخطاب، ولأنّ الوقائع الّتي تصف مقاما ما غير قابلة للحصر فإنّ الخطابات ليست تامّة ولا تحتاج إلى أن تكون كذلك، بمعنى أنّ المعلومات الواردة في خطاب ما تخضع لعمليّة انتقاء بحيث لا نجد في الخطاب إلّا المعلومات الضرورية(التي يعتبرها طرفا التخاطب ضرورية)[4]، والّتي تتمّ على إثرها عمليّة التّواصل بين مُلْقي الخطاب ومستقبله بطريقة تجعل المتلقي فاعلا متميزا، ومشاركا فعّالا في تماسك النّص وترابطه.

4 ــ 2ــ التّماسك النّصي عند هاليداي ورقية حسن (Ruqaia – Halliday Hasan):

التّماسك النّصي عند هاليداي ورقية حسن من خلال كتابهما (الاتّساق في اللّغة الإنجليزية،Cohesion in English) هو "الكيفية التي يتماسك بها النص"[5]، ولكثرة تأكيدهما على التّماسك في مؤلفهما جعل إبراهيم الفقي يعتقد بأنّ "النّص ماهو إلا تماسك"[6]، ذلك دليل على أنّه نال اهتماما كبيرا من علماء النّص، بداية بتوضيح

[1] ــ برند شبلنر: علم اللغة والدراسات الأدبية، ترجمة محمود جاد الرب ، الدار الفنية، 1987م، ص:173.

[2] ــ عمر أبو خرمة: نقد النحو، نقد النظرية... وبناء أخرى، ص:80.

[3] ــ محمد خطابي: لسانيات النص، ص:40.

[4] ــ المرجع السابق، ص:40.

[5] ــ محمد خطابي: لسانيات النص، ص:12.

[6] ــ صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي، الجزء1، ص: 93.

مفهومه، ومرورا ببيان أدواته أو وسائله، وعوامله، وشروطه، والسّياق المحيط بالنّص، وعلاقته بالنّص،...انتهاء بوضع نماذج تحليلية، توضّح هذه الأمور كلها[1]، كما رأى ذلك الباحثان اللّذان اعتبرا أنّ"كلّ نصّ يتوفّر على خاصيّة كونه نصّا يمكن أن يطلق عليها النّصيّة، وهذا ما يميّزه عما ليس نصّا"[2]، وهذه النّصية لا تتحقق لأيّ مقطع لغوي إلّا إذا توافرت فيه خصائص من خلالها نستطيع تحديد النّص مما ليس نصّا، إنّها وسائل تساهم في تحقيق وحدته وترابطه وانسجامه، تلك الخصائص تعتبر سمة جوهرية في النّصوص ولا توجد في غيرها، وهذا الرسم التخطيطي الذي اقترحه محمد خطابي يوضّح ما طرحه الباحثان:

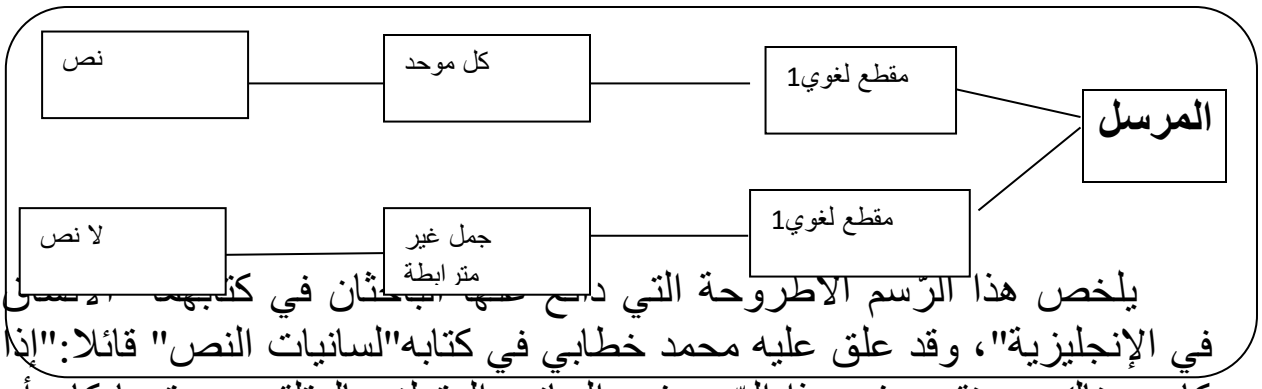

يلخص هذا الرّسم الأطروحة التي دافع عنها الباحثان في كتابهما "لسانيات النص في الإنجليزية"، وقد علق عليه محمد خطابي في كتابه"لسانيات النص" قائلا:"إذا كان هناك من نقص في هذا الرّسم فهو الجانب المتعلق بالمتلقي، مستمعا كان أو قارئا، وهو جانب لم يهتم به الباحثان رغم ماله من أهمية بالغة"[3]،ولقد أشارا إلى المتلقي ضمنيا من خلال إشارتهما إلى السّامع/ القارئ، وهذه الإشارة لا يُعتدّ بها إذا لم يكن الباحثان على وعي تام بالدور الأساسي الذي يقوم به المتلقي في الحكم على النص إن كان متسقا أو غير ذلك، وأقل ما يقتضيه الوعي بهذا الدور هو افتراض"قدرة نصية لدى المتلقي، لها ضوابط ومكونات[4]، لأنّ "النّص مفتوح ينتجه القارئ في عمليّة مشاركة، لا مجرّد استهلاك"[5]، ففي حديثهما عن السّامع أو القارئ، يَرى كل منهما بأنّ هذا الأخير حين "يحدّد بوعي أو بدون وعي وضعية عيّنة لغويّة يستدعي بنيتين: خارجية وداخلية إذ تتمثّل البنيّة الداخليّة في اعتماد الوسائل اللّغوية الّتي تربط أواصر مقطع ما، وتكمن الخارجيّة في مراعاة المقام، أي المتلقي يضع في اعتباره كلّ ما يعرفه عن المحيط"[6]، وبذلك يعتبر الباحثان من أنصار الرأي الأوّل الّذين لم يجعلوا للمتلقي دورا في ترابط النّص وتماسكه، إذ لا

[1] ـ المرجع نفسه، ص:93.
[2] ـ محمد خطابي: لسانيات النص، ص:13.
[3] ـ محمد خطابي: لسانيات النص، ص13.
[4] ـ ينظر، المرجع نفسه، ص:13.
[5] ـ صلاح فضل : بلاغة الخطاب وعلم النّصّ، ص:214.
[6] ـ محمد خطابي: لسانيات النص، ص:14.

بدّ أن نمنح له"دورا أساسيا في تكييف الخطاب"[1]، لأنّه عامل فعال في عمليّة إنتاج النّصّ.

5 ــ التّماسك النّصي في الدّراسات اللّسانيّة العربيّة:

ألقت الدّراسات العربيّة الحديثة الضّوء على ما جاءت به الدّراسات اللّسانية النّصيّة الغربيّة، ويظهر ذلك جليّا من خلال محاولتهم دراسة الآراء الغربيّة وتبيانها، وتتبّع التّطور الحاصل عندهم في مجال اللّسانيات النّصية، مشيرين في ذلك إلى ظاهرة التّماسك النّصي، كما استقرّ كلّ واحد منهم على رأيه الخاص بعد طرحه لجملة من القضايا إمّا مؤيّدا أو معارضا لها، وقد كثرت الآراء النّقديّة، وظهرت وجهات النّظر في عناوين كتبهم مثلما ظهر ذلك عند الغرب، خاصّة عند اهتمامهم الشّديد

بهذه الظّاهرة، وسنحاول طرح بعض الرّؤى لدى بعض الأعلام، وذلك بتتبّع أعمالهم النّقديّة في مجال الدّراسات النّصيّة وما آلت إليه قرائحهم في طرح الموضوعات من أجل الخروج بفكرة عامّة يستهدي إليها القارئ لتتّضح لديه تلك الرّؤية في التماسك النصي.

5 ـــــ 1 ــ التّماسك النّصي عند محمد خطابي:

استخدم محمد خطابي مصطلح الانسجام بدلا من التّماسك، ويظهر ذلك جليّا من عنوان مؤلَّفه (لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب)، وقد قام بتأسيس خطابه النّقدي حول الإجابة عن السّؤال الّذي استهدف بحثه وهو: كيف ينسجم الخطاب الشعري؟ وهل تكفي الأدوات والمفاهيم المقترحة من قبل الغربيين لدراسة ــ وصف انسجام الخطاب الشعري الحديث؟[2]، وهذا دليل على أنّ النّاقد قد فضّل الانسجام على الاتّساق من حيث المصطلح، كما أنّه يعرّف الاتّساق قائلا:"يقصد عادة بالاتّساق ذلك التّماسك الشّديد بين الأجزاء المشكّلة لنص/ خطاب ما، ويهتمّ فيه بالوسائل اللّغويّة (الشّكليّة) الّتي تصل بين العناصر المكوّنة لجزء من خطاب أو خطاب برمته..."[3]، غير أنّ التّماسك الذي يلاحظ فيها لا يزال يتّسم بأنّه خطّي أي أفقي[4]، فمحلّل الخطاب يسلك طريقة خطيّة من أجل وصف نص/ خطاب ما، يعمل تدريجيّا من بداية الخطاب إلى نهايته على رصد تلك

[1] ــ محمد مفتاح : دينامية النّصّ، ص: 195.
[2] ــ محمد خطابي: لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، ص:6.
[3] ــ المرجع نفسه، ص: 5 .
[4] ــ ينظر صلاح فضل : بلاغة الخطاب وعلم النّصّ، ص:236.

الرّوابط القائمة بين عناصر النّص من ضمائر وأسماء إشارة، والعطف وغيرها ليبيّن بأنّ النّص المدروس يشكّل كلّا موحّدا.

بيد أنّ الإنجاز اللّغوي المكتوب خاصّة(وكذا المتكلّم) لا يسلك دوما هذه السّبل"إذ كثيرا ما يجد المتلقي نفسه أمام نص/ خطاب لا توظّف فيه الوسائل الّتي أسلفنا الإشارة إليها وإنّما توضع الجمل بعضها إلى جوار بعض دونما أدنى اهتمام من الكاتب بالرّوابط التي تجسّد الاتّساق...حين يحدث هذا فإنّ الاهتمام يتغيّر من اتّساق النّص/ الخطاب إلى انسجامه، أي أنّ على المتلقي، في هذه الحالة، أن يعيد بناء انسجام النّص" الممزقة أوصاله"[1]، لذلك يرى علماء النّص أنّ التّماسك اللّازم للنّص ذو طبيعة دلاليّة[2]، فالانسجام بالنّسبة إلى محمد خطابي أعمّ من الاتّساق، كما أنّه يغدو أعمق منه بحيث يتطلّب بناء الانسجاممن المتلقي، "صرف الاهتمام جهة العلاقات الخفية الّتي تنظّم النّص وتولده، بمعنى تجاوز رصد المتحقق فعلا (أو غير المتحقق) أي الاتّساق،إلى الكامن(الانسجام). ومن ثم، وتأسيسا على هذا التّمايز، تصبح بعض المفاهيم، مثل موضوع الخطاب والبنيّة الكليّة، والمعرفة الخلفيّة بمختلف مفاهيمها، حشوا إن أردنا توظيفها في مستوى اتّساق النّص/ الخطاب، والعكس صحيح"[3]، ومعنى ذلك أنّ وسائل الاتّساق غير قادرة على مقاربة بناء موضوع الخطاب، والبنية الكلية لمعطى لغوي، لذلك نجد تركيزه في الدّراسة انصب على الانسجام بوصفه خاصيّة تحقّق للنّص/ الخطاب نصيّته.

ويبرّر محمد خطابي في إشارته إلى أنّ الانسجام أهمّ من الاتّساق خاصّة في تحليل اتّساق النّص الشّعري، فالاتّساق شيء معطى لا يصعب تتبّعه في النّص ومن ثمّ يسهّل على القارئ إرجاع الضّمير إلي صاحبه والإشارة إلى ما تشير إليه وهلم جرا. ولكنّ المشكلة التي تصادف القارئ أثناء مواجهة الخطاب الشّعري المعاصر هي أساسا مشكّلة العلاقات القائمة بين العناصر المشكّلة لجملة شعريّة ومتواليّة من الجمل الشعريّة، وعموما مجموع المقاطع التي تشكّل القصيدة الشّعرية، أي الإشكال مطروح في المحور العمودي للنّص أساسا، وليس الإشكال الأفقي إلّا خلفيّة له[4]،فالتّماسك يتحدّد على مستوى الدّلالات عندما تكون العلاقات قائمة بين المفاهيم والذّوات، والمشابهات والمفارقات في المجال التّصوّري، كما يتحدّد على مستوى المدلولات أو ما تشير إليه النّصوص من وقائع وحالات[5]، والغرض الّذي يعتمد عليه علم النّصّ كمنطلق لتحديد ذلك هو أنّ متتاليات الجمل

[1] ـ محمد خطابي: لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، ص:5 .
[2] ـ صلاح فضل : بلاغة الخطاب وعلم النّصّ، ص:236.
[3] ـ محمد خطابي: لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب ، ص: 6.
[4] ـ المرجع نفسه، ص:387.
[5] ـ حسن سعيد بحيري: علم لغة النّصّ، المفاهيم والاتجاهات، ص:126.

الّتي تمتلك أبنيّة كبرى هي وحدها التي تسمى من الوجهة النّظرية نصوصا[1]، وهذه الأبنية الكبرى ذات صبغة دلالية وهي ذات طابع شمولي.

ويعرض محمد خطابي في بداية مؤلّفه مظاهر النّص، وطبيعته انسجامه كما تجلّت في دراسة لأعمال الرّواد في علم اللّغة النّصي(هاليداي ورقية حسن) في كتابهما الاتّساق في الانجليزية(Cohesion in English)، ليعزّز بحثه بأعمال رائد آخر من رواد لسانيات النّص (تون فان دايك) في كتابه النّص والسّياق (Text and Context) الّذي يطوّر فيه دايك أطروحاته السّابقة من أجل "إنشاء مقاربة أكثر وضوحا وتنظيما للدّراسة اللّسانية للخطاب"[2]، ويقسّم الخطاب إلى قسمين رئيسيين، الدّلالة والتّداول، وتحوي الوظيفة الدّلاليّة التّرابط، الانسجام، والبنيات الكليّة، بينما الوظيفة التّداولية فتحوي السّياقات والأفعال الكلامية، تداوليات الخطاب، والأفعال الكلامية الكلية[3]، لأنّ المشكلة الأساسية "التي تقوم عند مواجهة مفهوم تماسك النّص تنبثق من طبيعة النّص ذاته؛ إذ تنصب عليه بحوث متعدّدة الاختصاصات والتّوجهات ممّا يجعل تحديد مفهوم عام للتّماسك أمرا عسيرا...فالتّماسك هو الذي يبرز خواص أيّ نظام للتّفكير، سواء كان نظريّة أو نصّا"[4]، فأجزاء هذا النّظام لابدّ أن تكون محكمة الترابط فيما بينها، بحيث يعتبر"التماسك خاصيّة دلاليّة للخطاب؛ تعتمد على فهم كلّ جملة مكوّنة للنّصّ في علاقتها بما يفهم من الجمل الأخرى"[5]، وقد بيّن علماء النّص الوسائل الّتي تعمل على التّرابط السّطحي، كما بيّنوا أهم العناصر التي تعمل على انسجام النّص،ولم ينس محمد خطابي فضل القدماء في تحقيق التّماسك النّصي فوقف عند بعض العلماء وعرض أعمالهم في مجال لسانيات النّصّ من منطلقات بلاغيّة وخاصة في تفسير القرآن وإعجازه.

استطاع النّاقد عرض الاقتراحات الغربيّة في مجال تحليل الخطاب، فيما يخصّ انسجام النّص و الاهتمام بالمعلومات والمعطيات المتوافرة في بعض المباحث البلاغيّة القديمة كالبلاغة والنّقد الأدبي والتفسير وعلوم القرآن فوجد بأنّ هذه المباحث مادّة غنيّة خصبة ينبغي أن يعاد ترتيبها وتصنيفها من أجل إلحاقها(ربطها) بالمفاهيم التي اقترحها الغربيّون في هذا المجال، من جانب آخر أنّ بعض

---

[1] ــ صلاح فضل :بلاغة الخطاب وعلم النّصّ، ص:237.
[2] ــ محمد خطابي: لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، ص:27.
[3] ــ المرجع نفسه، ص: 27 .
[4] ــ صلاح فضل : بلاغة الخطاب وعلم النّصّ، ص: 243 ـــ 244.
[5] ـ المرجع نفسه، ص:244.

المعطيات يمكن أن تضيف أشياء كثيرة إلى المقترحات الغربية[1]، وهو بذلك لا يلغي التّراث برمته كما أنّه لا يستنسخ كلّ معطيات الفكر الغربي اللّساني والنّقدي.

ومثال ذلك ما ذهب إليه "هاليداي" في اهتمامه بتكرير الكلمات(التّكرير المعجمي) هو ذاته ما اهتم به "السّجلماني" (ت903ه)كبلاغي، ولكن المفسرين اهتموا ببنية أكبر من الكلمة وهي تكرير الجملة دون إغفال وظيفة التكرير. وكمثال ثان، اهتم "فان دايك" بترتيب الخطاب رابطا بين ترتيب الوقائع في الخطاب وترتيب حدوث هذه الوقائع في الزّمان والمكان، بينما اهتمّ المفسّرون بأسباب التّرتيب، أي بمقتضيات الأحوال التي تجعل المتكلم يحدث تغييرا في الترتيب الطبيعي مخرجا الخطاب مخرجا تمليه تلك المقتضيات[2]، فمحمد خطابي وهو يعرض مجمل هذه الأعمال بين التراث والحداثة نجده قد أعطى لكل دوره في مجال الدّراسات اللّسانية النّصية، والقدماء لم تخل أعمالهم من مظاهر الانسجام في النصوص، كما أشار الناقد إلى أعمال اعترف لها بالسّبق في التّعامل مع النّص كوحدة كبرى، أكبر من الجملة، وخاصّة الذين خاضوا في القرآن الكريم، وقد ختم الباحث آراءه بالبحث التطبيقي عن كيفية انسجام النص وذلك من خلال قصيدة "فارس الكلمات العربية "لأدونيس.

5ــ 2 ــ التّماسك النّصي عند صبحي إبراهيم الفقي:

يرى صبحي إبراهيم الفقي أنّه نظرا لأهميّة التّماسك النّصي (Cohesion) فقد نال اهتماما كبيرا من علماء النّص، بداية بتوضيح مفهومه، ومرورا ببيان أدواته أو وسائله، وعوامله، وشروطه والسياق المحيط بالنص، وعلاقته بالنص...وانتهاء بوضع نماذج تحليلية، توضح هذه الأمور كلها[3]وأوضح الفقي أنه نظرا لأهمية هذه الخاصية جعل بعض العلماء يعنونون بها كتبهم ضاربا مثالا على ذلك "الاتساق في الإنجليزيه"لهاليداي ورقية حسن، مشيرا إلى تأكيدهما على هذا المصطلح في مؤلفهما، مما جعله يعتقد"أن النص ما هو إلا تماسك"[4].

يرى الفقي أنّه قد أصبح للتّماسك حضور واجب في النّص، وذلك من خلال العلاقات القائمة بين الجمل ، فقد ترتبط الجملة مع سابقتها أو لاحقتها وبالتّالي تشكّل تماسكا داخل النّص، وإذا خلا النّص من هذه الأدوات، سواء أكانت شكلية، أم دلالية، فإنه يصبح جملا متراصة لا يربط بينها رابط، ويصبح النّص ــ إذا

[1] ــ ينظر محمد خطابي: لسانيات النص، ص:387.
[2] ــ ينظر المرجع نفسه، ص: 387-.
[3] ــ صبحي إبراهيم الفقي: علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، ج1، ص: 93.
[4] ــ المرجع نفسه، ص:93.

عددناه حينئذ نصا ــ جسدا بلا روح[1]، وهو الرّأي ذاته الّذي ذهب إليه الباحثان هاليداي ورقية حسن حين قالا:"لكي تكون لأيّ نص نصيّة ينبغي أن يعتمد على مجموعة من الوسائل اللّغوية الّتي تخلق النّصية، بحيث تساهم هذه الوسائل في وحدته الشّاملة"[2].

ونظرا للاختلاف القائم حول المسمّيات الّتي حظي بها مصطلح التّماسك، نجد إبراهيم الفقي يعرض بعض المصطلحات التي اتفق حولها أصحابها، فسعد مصلوح يترجم (Coherence) بمعنى الحبك ويعرفه بأنه"الاستمرارية الدلالية، التي تتجلى في منظومة المفاهيم والعلاقات الرابطة بين هذه المفاهيم"[3] كما يعتمد هاليداي ورقية حسن مصطلح الاتساق(Cohesion) ويجعلانه متضمّنا علاقات المعنى العام لكل طبقات النّص، والّتي تميّز النّصي من اللانصي، ويكون علاقة متبادلة مع المعاني الحقيقية المستقلة للنّص مع الآخر[4]، فهما لم يستخدما(Coherence) للتّماسك الدّلالي مع أن غيرهم قد جعلوه كذلك، في حين اعتبروا (Cohesion) خاصية تعنى بالعلاقات النّحوية أو المعجمية.

يبدو أنّ صبحي إبراهيم الفقي قد اعتمد مصطلح (Cohesion) على الرّغم من أنّه يعتبر كلا المصطلحين يناسب التّماسك فيقول:" ونرى ــ بدلا من هذا الاختلاف ــ أن المصطلحين يعنيان التّماسك النّصي، ومن ثمّ يجب التّوحيد بينهما باختيار أحدهما، وليكن Cohesion، ثم نقسّمه إلى التّماسك الشّكلي والتّماسك الدّلالي، فالأوّل يهتمّ بعلاقات التّماسك الشّكليّة، بما يحقّق التّواصل الشّكلي للنّص، والثّاني يهتمّ بعلاقات التّماسك الدّلاليّة بين أجزاء النّص من ناحية، وبين النّص وما يحيط به من سياقات من ناحية أخرى"[5]، ذلك يعني أنّ التّماسك النّصي أهمّ عناصر الموضوع ولا تتحقّق نصيّة النّص إلّا به، وهو يهتمّ بالعلاقات داخل الجملة، وبين أجزاء النّص وما يحيط به، ولا يهمل الفقي دور المتلقّي الّذي يعمل على فكّ شفرة النّص، فحكم التّماسك قائم عليه.

ومن هنا، فإن المتلقّي يعتبر ركنا أساسيّا من أركان التّحليل النّصي، فهو القراءة الثّانية للنّص[6]، ويشير الفقي إلى أنّ العلماء قد أدركوا أهمية المتلقي الّذي يشارك في النّص ، ومشاركته ليست سلبيّة"هذه المشاركة لا تتضمّن قطيعة بين

---

[1] ــ المرجعالسابق، ص:93.
[2] ــ محمد خطابي، لسانيات النص (مدخل إلى انسجام الخطاب)، ص:13 .
[3] ــ سعد مصلوح: نحو أجرومية للنص الشعري،دراسة في قصيدة جاهلية، دار المنظومة، المجلد10، ع: 2 ، 1 يوليو ــ أغسطس،1991م، ص: 154.
[4] ــ ينظر صبحي إبراهيم الفقي: علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، ج1، ص: 95.
[5] ــ المرجع نفسه، ص: 96 .
[6] ــ صبحي إبراهيم الفقي: علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، ص: 110.

البنيّة والقراءة، وإنّما تعني اندماجهما في عمليّة دلاليّة واحدة، فممارسة القراءة إسهام في التّأليف"[1]، لذلك يجعل العلماء للقارئ مكانا جوهريا في عمليّة التّفسير لا يقلّ عن مكان أو دور المنتج[2]، إذ لابدّ أن تتوفّر في هذا المتلقّي الكفاءة الّتي تمكّنه من استيعاب النّص المقدّم له، وذلك من خلال معرفة لغة النّص، وأسلوبه، وسياقه، فحرية القارئ بذلك لن تكون مطلقة، فدور المتلقيّ يحتاج إلى معالجة "لإبراز إمكانات النّص وقواعد التّفسير، وما تسفر عنه المقابلة بين كفاءة المنتج وكفاءة المتلقّي ومحاولة الوصول إلى قواعد الإنتاج وقواعد التلقي"[3] فالقارئ شريك للمؤلف في تشكيل بناء النّص وإحكام تماسكه، ولا يتأتى ذلك إلا بإدراكه لجملة الوسائل التي تحقق ترابطه .

ويتّضح جليّا أنّ عمليّة التّماسك النّصي من أهمّ القضايا والخصائص الّتي يمتاز بها النّص اللّغوي، وقد حاولنا الوقوف على بعض روادها من الغرب والعرب المحدثين، ولا تسعنا دائرة البحث إلى التعريج على كل الأعلام حتى لا يأخذ البحث منحى آخر، فظاهرة التّماسك النّصي ليست مبحثا جديدا، فقد شغلت العلماء على مر العصور، وقد تعاملوا مع النّصوص على اختلاف تخصّصاتهم ووجهاتهم، فالقدماء والمحدثون ــ على حدّ سواء ـــ من بلاغيين ولغويين ونحويين ومفسّرين ونقاد وقفوا على هذه الظّاهرة النّصيّة بطرق مختلفة، لذلك سنرجع إلى التّراث، ونقف على التّماسك النّصي عند علماء كانت دراساتهم في خدمة للقرآن الكريم في مجال الإعجاز القرآني لمعرفة نظرتهم إلى الترابط النصي.

6 ـــ التّماسك النّصي عند القدماء في الإعجاز:

قامت الدّراسات اللّغوية على إنتاج العلماء القدامى ونظرتهم للدّراسة التّحليليّة للنّصوص، خاصّة عند البلاغيين والمفسّرين وحتّى النّحويين، فوجدوا أنّ ما توصّل إليه علماؤنا يقترب كثيرا مما جاءت به الدّراسات الحديثة. يرى صبحي إبراهيم الفقي "أنّ إغفال أربعة عشر قرنا من العمل الجاد في مجالي البلاغة والتفسير ثمّ في مجال اللّغة يعدّ أمرا في غاية الخطورة"[4]، ثم إننا نؤمن"أنّ البدء من الصّفر المنهجي في هذا المقام يعني إهدار أربعة عشر قرنا من النّتاج اللّساني المتميّز، الّذي هو إنجاز قوم من أعلم النّاس بفقه العربية، وأسرار تركيبها،

[1] ـ ينظر: سعيد حسن بحيري، علم لغة النّصّالمفاهيم والاتّجاهات،ص:113.
[2] ـ المرجع نفسه، ص: 113.
[3] ـ المرجع نفسه، ص: 113..
[4] ـ صبحي إبراهيم الفقي: علم اللغة النصي بين النّظرية والتّطبيق، ج1،ص: 83.

وذخائر تراثها، وما يكون لنا حقا، إذا كنّا من أولي الألباب، أن نلوي رؤوسنا إعراضا عن كنوز هي عمر هذه الأمّة، ومركب جوهري من مركّبات ثقافتها" [1].

إنّ الدّراسات النّصية ليست وليدة الدّراسات اللّغوية الغربيّة الحديثة، بل لها امتدادات وجذور في التّراث، ويرى بعض الباحثين أنّ هناك ارتباطا وثيقا بين البلاغة وعلم النّص، فقد عدّت البلاغة"السابقة التاريخية لعلم النص إذا نحن أخذنا في الاعتبار توجّهها العام، المتمثّل في وصف النّصوص وتحديد وظائفها المتعددة"[2]، فالعلماء الذين تناولوا بحثهم من منظور بلاغي، قد كانت لهم تلك الرؤية التي تعمد إلى تماسك النصوص، وقد دفع القرآن الكريم هؤلاء إلى البحث في سر إعجازه، وروعة نظمه، فكانت لهم رؤى مختلفة في مفهوم النظم وكلّها تركّز على فكرة التّماسك.

كانت الرّؤية المبكّرة في إدراكهم أنّ النّص يجب أن يكون وحدة واحدة، ووظّفوا مصطلحات كالسّبك والحبك الّتي اهتمّت بها الدّراسات النّصية الحديثة، وأقامت عليها تماسك النّصوص وترابطها، وهذا ما أثبتته الدّراسات اللّسانية المعاصرة أنّ علماء العربية القدامى كان عندهم حسّ لغوي صحيح، وظهرت لديهم بوادر الدّراسة النّصيّة، فقد ذكروا بعض أسس التّماسك النّصي في مؤلفاتهم، وفي ذلك يقول أشرف عبد البديع:"نال الإعجاز اللّغوي والبلاغي حظّا موفورا من الباحثين باعتباره مناط الإعجاز الحقيقي، حسب رأي جمهور الباحثين فيه، وبالتّالي جاءت المؤلّفات في هذا الجانب كاشفة عما يمكن أن يمثل سبكا وحبكا للنص القرآني من جهة، وتضافر عناصره من جهة أخرى"[3]، وقد وردت عند الباحثين في الإعجاز بعض المصطلحات"كالائتلاف والتّلاؤم أو ما اصطلح عليه بالحبك والارتباط والرّبط أو ما سمي بالسّبك والاقتناص أو ما يطلق عليه بالتّناصيّة والقصديّة...إلخ، هذه العناصر الحاكمة والجامعة لقضايا النّص، بناء على تصوّر بوجراند/درسلر"[4].

6 ـ 1 ــ التّماسك النّصي عند الخطابي(ت388ه):

لمعرفة أهمّ البذور النّصية الّتي جاءت في "بيان إعجاز القرآن" للإمام الخطابي، لابدّ من اقتطاف بعض النّصوص من رسالته الّتي تقف على ظاهرة التّماسك النّصي بتقديم تلك المفاهيم الّتي تخدم النّص في ضوء لسانيات النّص

[1] ـ سعد مصلوح: نحو أجرومية للنّصّ الشّعري، ص:153.
[2] ـ سعيد حسن بحيري: علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات، ص: 6.
[3] ـ أشرف عبد البديع عبد الكريم: الدّرس النحوي النصي في كتب إعجاز القرآن الكريم، مكتبة الآداب، القاهرة، 2008م، ص: 19.
[4] ـ المرجع نفسه، ص:3 .

الحديثة، وكيف أنّ الأوائل من علماء البلاغة قد تنبّهوا لمثل هذه العناصر الّتي نجدها مبثوثة في مؤلّفاتهم، وهاهو الخطابي يشير إلى بعض هذه المعايير من خلال النّصوص التالية:

النّص الأوّل:

"وإنّما تعذّر على البشر الإتيان بمثله لأمور: منها أنّ علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللّغة العربيّة وبألفاظها الّتي هي ظروف المعاني والحوامل لها؛ ولا تدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ، ولا تكمل معرفتهم لاستيفاء جميع وجوه النّظوم التي بها يكون بها ائتلافها وارتباط بعضها ببعض، فيتوصلوا باختيار الأفضل عن الأحسن من وجوهها إلى أن يأتوا بكلام مثله"[1].

النّص الثّاني:

" وإنّما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثّلاثة: لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم، وإذا تأمّلت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشّرف والفضيلة حتّى لا ترى شيئا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظما أحسن تأليفا وأشدّ تلاؤما وتشاكلا من نظمه"[2].

النّص الثّالث:

"وأمّا رسوم النّظم فالحاجة إلى الّثقافة والحذق فيها أكثر لأنّها لجام الألفاظ وزمام المعاني وبه تنتظم أجزاء الكلام، ويلتئم بعضه ببعض فتقوم له صورة في النّفس يتشكّل بها البيان"[3].

نلاحظ في النّص الأوّل :"الائتلاف/التّأليف، الارتباط، التّلاؤم و التّشاكل، وجامع هذه العناصر كلّها" النّظم" وبالتّالي يمكننا القول "إنّ التّلاؤم، الارتباط، التّشاكل مظاهر مختلفة لمعنى واحد..وإذا كان النظم هو العنصر الرّابط لكل هذه العناصر،أو بتغيير أدق لمعياري السّبك والحبك المختصّان بالنّص"[4]، وهذه العناصر جميعها من المعايير الأساسية التي تسهم في ترابط النّص وتحقّق تماسكه.

---

[1]ـ أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي: البيان في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز، حققها وعلق عليها: محمد خلف الله، د.محمد زغلول سلام، ط2، دار المعارف، مصر، ص:27 .

[2] ـ الخطابي: البيان في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز، ص:27.

[3] ـ المصدر نفسه، ص: 36 .

[4] ـ أشرف عبد البديع عبد الكريم: الدرس النحوي النصي في كتب إعجاز القرآن، ص:80 .

أمّا النّص الثّاني فنجد تلك العلاقة المتراصّة بين اللّفظ ومعناه، واتّساق الألفاظ فيما بينها، مناسبة لما تحوي معانيها، منسجمة ومترابطة في ضوء نظريته في النّظم، ويلاحظ في هذا النص، أن حسن النّظم يتوجب عناصر مهمة وهي التأليف، التّشاكل، التّلاؤم، وهو الرّابط لها، وفي هذا الصّدد هناك الرّؤية نفسها عندسعيد البحيري الّذي يرى أنّ مصطلح النّظم مرتبط بالتّأليف والتّلاؤم والتّشاكل[1].

ويلاحظ من النّص الثّالث أنّ"النّظم عنده يشتمل على خاصـيتين، الأولى التـــلاؤم(حبك)،الثّانية الارتبــاط(سبك)،أو ما يمكن أن نطلق عليهما معا سبكا وحبكا، ومن هنا يأتي الائتلاف كمقابل للحبك والارتباط مقابلا موضوعيا للسبك"[2].

ونخلص من خلال هذه المقتطفات من النّصوص في رسالة الخطابي، أنّنا إذا أمعنا النّظر وتعمقنا في التّحليل نجد أنّ تماسك النّصوص وفق ما جاء به، يقوم على ميزتين مهمّتين في الدّراسات اللّسانية النّصيّة،وهما الائتلاف والارتباط،"فالأولى:(الائتلاف)، وبه تتّسق الكلمة مع ما قبلها وما بعدها داخل إطار الجملة على هذا النّحو لصياغة جمل وفقرات ونصوص مترابطة الأجزاء معنويا والثّاني: أنّ هذا الائتلاف المعنوي لابدّ أن يوازيه عنصر آخر متمثل في العناصر اللغوية/ الجملية"[3]، ومن الملاحظ أنّمصطلح النظم الذي استخدم منذ وقت مبكر في الدّراسات البلاغية واللغوية، تميز بخصوصيات لابد للباحث في هذا المجال أن يقف على دقائقها في كتب الإعجاز،وحسب الخطابي فإنه لابد من تحقق خاصيتي(الائتلاف والتّرابط) في النّص اللّغوي أو الجملة حتّى يتحقّق فيهما عنصر التّواصل والتّعبير.

6ــ 1 ــ 1ــ الإعجاز النّفسي وأثره في خلق التّماسك النّصّي عند الخطابي:

لقد خالف الخطابي سابقيه لاهتمامهم بفنون القول، وموضوع علوم البلاغة والبيان والبديع، وأضاف إلى ذلك لمسة طريفة أشار إليها والتي تمثّلت في وجود وجه آخر للإعجاز، وهو إدراكه للأثر النّفسي في أسلوب القرآن، ليبيّن ما للقرآن من أثر عميق في النفوس ويضمه لوجوه الإعجاز حيث يقول:"قلت في إعجاز

[1] ـ ينظر سعيد البحيري: القصد والتفسير في نظرية النظم(معاني النحو)،عند عبد القاهر الجرجاني ضمن كتاب: دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة،1999م، ص:165.

[2] ــ أشرف عبد البديع: الدرس النحوي النصي في كتب إعجاز القرآن، ص:80.

[3] ـالمرجع نفسه، ص: 81.

القرآن وجها آخر ذهب عنه النّاس فلا يكاد يعرفه إلّا الشّاذ من آحادهم، وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره في النّفوس، فإنّك لا تسمع كلاما غير القرآن منظوما ولا منثورا، إذا قرع السّمع خلص له إلى القلب من اللّذة والحلاوة في حال، ومن الرّوعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه، تستبشر به النّفوس وتنشرح له الصّدور، حتى إذا أخذت حظّها منه عادت مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق، وتغشّاها الخوف والفرق، تقشعر منه الجلود، وتنزعج له القلوب، ويحول بين النّفس وبين مضمراتها وعقائدها الرّاسخة فيها؛ فكم من عدوّ للرّسول صلى الله عليه وسلم من رجال العرب و فتّاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله فسمعوا آيات من القرآن، فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحوّلوا عن رأيهم الأول، وأن يركنوا إلى مسالمته، ويدخلوا في دينه، وصارت عداوتهم موالاة، وكفرهم إيمانا"[1].

وهذا جانب هام في أسلوب القرآن، قد تنبّه له العرب قديما وذلك ما أشار إليه الخطابي بطريقة غير مباشرة، عند حديثه عن أعداء الرّسول صلى الله عليه وسلم عندما حاولوا قتله، فبمجرد سماعهم للقرآن تختلف تلك النّظرة لهذا الدّين، وحتّى أنّهم يدخلون في دينه لما كان من وقع هذا القرآن على أسماعهم واستقراره في قلوبهم، لكن"لم يفرد له جانب في الدراسات القرآنية"[2]، رغم أنّ الرماني(ت384ه) قد اعتمد في تحليل نصوص الكتاب المحكم على "تلك الآثار النفسية الّتي أبدع القرآن في استخدام وسائلها ليبلغ في التأثير مداه"[3]، ولعلّه أول من تنبه إلى ذلك الجانب تنبها واعيا، وحاول أن يتتبعه، ويضع له القواعد والمقاييس، وهاهو الخطابي يتنبه له ويعرضه عرضا عاما[4]، ويشير إلى أن هذا النوع من الإعجاز، قد غفل عنه الكثير من الناس، فلا يعرفه إلّا الشّاذ من آحادهم، ولا يكاد يعتدّ به إلّا القليل من المتبصّرين.

6 ــ 2 ــ التّماسك النّصي عند الباقلاني (ت 403هـ):

إنّ فهم النّـص القرآني الفهم الصّحيح يتوجّـــب بنـا العـــودة إلى ما توصّـــل إليه علماء العربية واللّغة والبلاغة وغيرها من مناهج البحث والطرق المعتمدة في ذلك، حيث أنّ الباحث في هذا المجال لابدّ له من الوقوف على جهود

[1] ــ الخطابي: بيان إعجاز القرآن، مصدر سابق، ص:70.
[2] ــ محمد زغلول سلام: أثر القرآن في تطور النقد العربي، ص:264 .
[3] ــصلاح الدين محمد عبد التواب: النقد الأدبي دراسات نقدية وأدبية حول إعجاز القرآن، الكتاب الأول، دار الكتاب الحديث، 1423ه ــ 2003م، القاهرة، ص:96.
[4] ــ محمد زغلول سلام: أثر القرآن في تطور النقد العربي، ص: 264.

السّابقين للأخذ بالمصطلحات الّتي اعتمدوها في مؤلّفاتهم ليؤسس لبحثه،ومن أراد الغوص في أغوار القرآن ودراسته "فلابد أن يتناول النّص القرآني الكريم بمصطلح هؤلاء العلماء؛ لأنّه لا يستطيع أن يستخرج حقائق التّحليل العلمي إلّا بواسطة المصطلحات المذكورة"[1]، وما سيتمّ الحديث عنه في "إعجاز القرآن"عند الباقلاني لا يخرج عن ما يتناسب والمنهج اللّساني النّصي، وذلك باستخراج هذه المفاهيم والأدوات من أجل بناء مقاربة نصيّة بين القديم والحديث، والكشف عن مدى التقارب والالتقاء بين الكثير من النّظريات اللّغوية العربيّة القديمة، وبين ما أسّست له الدّراسات اللّسانيّة النّصيّة الحديثة من مفاهيم، ذلك لأنّ"مناهج التّحليل اللساني تعدّ قاعدة كبرى من قواعد المعرفة، وأساسا مكينا من أسس استكشاف أعماق النّص ودلالاته البـــادية والخفـــيّة"[2]،ولأنّ علماء علـــوم القرآن والمفسّرين والبلاغيين للقرآن الكريم، كان لهم النّصيب الأوفـــر في مقاربة النّص القرآني، وذلـــك بتوظيف كثير من الآليات والأدوات والعلوم التي تحيط بالنّص القرآني في جوانب متعدّدة من أجل الكشف عن مزاياه الجمالية و قيّمه الدّلالية، إضافة إلى علاقاته الكليّة، لذلك وجب أن يكون هذا النهج أقرب لما ذهبت إليه لسانيات النّص وتحليل الخطاب، والنّظر إلى النّص كوحدة كليّة، حيث أنّ الكثير من الأفكار التي قامت عليها لسانيات النّص، إنّما هي في الواقع من نتاج"بحوث البلاغة القديمة؛ فالبحث في ممارسة الخطاب(الكلام) في البلاغة القديمة يضمّ عددا من النّظرات والقواعد الخاصّة بتنظيم نصوص موحدة، إذ أنه قد استخدمت في المباحث المتعلّقة بترتيب الأفكار وزخرفتها، قواعد بناء محدّدة للنصوص، لأهداف بلاغية محددة.."[3].

على الرغم من شيوع النظرة الجزئية للنّص في أكثر الدّراسات القديمة، إلّا أن الباقلاني قد تفطّن إلى النّظرة الشّموليّة للقرآن الكريم، لأنّ سرّ إعجازه يكمن في تفرّده عن أساليب كلام البشر فنجد الإمام قد خرج عن التّقليد الّذي كان سائدا قبله، عندما اكتفوا في دراساتهم النّقدية والأدبيّة بالآية أو العبارة،وهذا الخروج ظهر جلياّ في " تناوله للسّورة أو القصيدة بتمامها، أو بمعظمها، وهو يتدرج في تحليلها، ليظهر ما تنطوي عليه من خصائص في النظم... وفيما يتعلّق بقضيّة الإعجاز بيّن أنّ هذا الإعجاز منصب على القرآن في جملته، بمعنى أنّ السّورة لا

[1] ـ تمام حسان: مفاهيم ومواقف في اللغة والقرآن، عالم الكتب، القاهرة، ط1 ،2010م، ص: 274 .

[2] ـ عبد الرحمن بودرع: في لسانيات النص وتحليل الخطاب، نحو قراءة لسانية في البناء النصي للقرآن الكريم، بحث مقدم للمؤتمر الدولي لتطوير الدراسات القرآنية، 1434ه/2013م، المؤتمر الدولي لتطوير الدراسات القرآنية، ص:15 .

[3] ـ محمدالأخضر الصبيحي: مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه، ط1، ص: 59.

الآية، هي أصغر وحدة فنية في القرآن يمكن الحكم عليها بإعجاز النّظم وروعة البيان...وأبرز المظاهر هو ذلك الرّباط القوي المحكم بين الآيات وبعضها، وروعة الانتقال فيما بينها على ما قد يكون بين بعضها البعض من تباعد في المقاصد والأغراض"[1]، ذلك أنّ" النّص القرآني يمتلك قوّة إثارة على مستويات إبلاغية متعدّدة في صيغته الإيحائيّة الموغلة في الأدبيّة يتجلى في المعنى متدفّقا بشكل لا يمكن حصره أو تحديدكيانهوأسلوبه"[2].

وهذا ما يجعلنا نلاحظ أنّه أدرك قيمة النّص وتحليله متجاوزا الجملة،ولو أنّ مصطلح النّص لم يذكر عنده، إلّا أنّ المفهوم اكتسح كتابه في تلك الصّورة الذّهنية الدّالة على استيعابه للنّص دون التّلفظ به، ورغم ذلكنجد أنّ الباحثين في مجال الدّراسات النّصية قد اكتشفوا أنّ هؤلاء العلماء، وعلى رأسهم الباقلاني قد تفطنوا إلى الوحدة الكليّة للنّصوص، وذلك في تعاملهم مع النّص القرآني وكذا النصوص الأخرى، وهذا الأمر يتّضح جليا فيما ذهب إليه الباقلاني عند تعرّضه في الدّراسة لمعلقة "امرئ القيس" وقصيدة "البحتري" ليبرز مواطن الضّعف في هاتين القصيدتين اللّتين تعتبران من أرقى الشّعر العربي من حيث النّظم والصّياغة والتّأليف، ليعود بعدها إلى النّقطة التي انطلق منها وهي تفرّد القرآن بالإعجاز نظما ومعنى، من خلال تلك المقارنة بين النّظم القرآني والنّظم البشري شعرا كان أم نثرا.

لقد تناول الباقلاني قصيدة "امرئ القيس" جملة وتفصيلا، وهو بذلك خرج عن المعهود من الّذين تناولوا الجمل وتقيّدوا بدراستها، دون النّظر إلى النّص ككلّ، وفي اختياره لمعلّقة هذا الشّاعر كونها "قصيدة متّفق على كبر محلّها، وصحّة نظمها، وجودة بلاغتها، ورشاقة معانيها، وإجماعهم على إبداع صاحبها فيها، مع كونه من الموصوفين بالتّقدم في الصّناعة، والمعروفين بالحذق في البراعة"[3]، وهو يريد بذلك الوقوف على مواطن خللها، وعلى تفاوت نظمها، وعلى اختلاف فصولها، وعلى كثرة فضولها، وعلى شدّة تعسّفها ، وبعض تكلّفها، وما تجمع من كلام رفيع، يقرن بينه وبين كلام وضيع، وبين لفظ سوقي، يقرن

[1] ـ صلاح الدين محمد عبد التواب: النقد الأدبي، دراسات نقدية وأدبية حول إعجاز القرآن، ص:127.

[2] ـ علي ملاحي: عن ولادة النص الجديد من أجل طمأنينة القارئ، مجلة اللغة والأدب، معهد اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر، الجزائر،العدد12، 1997م، ص: 225 ، 226.

[3] ـ أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني: إعجاز القرآن،تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر،2009م، ص:238.

بلفظ ملوكي، وغير ذلك من الوجوه[1]، وبذات الطّريقة تناول قصيدة البحتري، ولم يكن اختياره للشاعرين اعتباطا فقد وازن بين شعرهما وأشعار آخرين من أهل زمانهما، فرجحت الكفّة إلى شعر امرئ القيس والبحتري.

تناول الباقلاني أيضا قصيدة البحتري"أهلا بذلكم الخيال المقبل"جملة وتفصيلا، لا أبياتا متفرّقة مفردة كما فعل مع معلقة امرئ القيس،وقد تناول كلتا القصيدتين من المطلع حتّى النّهاية واقفا على مواطن الجمال والضعف والخلل، يعلل،ويقدم آراء للعلماء في الشعر، فيقبل بعضها ويرفض بعضها الآخر، إضافة إلى أنه قد طرح آراءه الخاصة مبينا مواقفه إزاء تحليله للقصيدتين، كان يوازن بين ما جاء من فنون التعبير في قصيدة امرئ القيس، ونظم الكلام فيها، وما جاء شبيها أو مقاربا لها في القرآن، ثم" ينتهي إلى نتيجة هامّة هي أنّ الشّعر مهما بلغت درجته، وعلت مكانة صاحبه واقتداره لا يصل إلى درجة الإعجاز، بل إنّ بين الشّعراء من يلحق به في فنّه أو يسبقه أحيانا، ذلك أنّ المورد الّذي يرده الشّعراء واحد مباح للجميع، وللمجتهد الحاذق فيه مجال التّجويد والإبداع"[2]، ليبيّن في الأخير أنّ النّظم الإلهي يعجز أيّ شخص عن معارضته مهما بلغت فصاحته، ومهما كانت بلاغته، فلابدّ أن يكون فيها من التّقصير ما ذهب في توضيحه في القصيدتين مبينا اختلال نظميهما، فهو يعتمد معرفيّا" على النّص بصفته مصدرا من مصادر المعرفة المقدّمة عنده على العقل"[3].

ولا نغالي إذا قلنا أنّ الباقلاني قد كان له السّبق في النّظرة الشّمولية للنّص وتجاوز بذلك الجملة التي اعتاد غيره الوقوف عليها، فبعد تحليله للقصيدتين، ينتقل إلى القرآن الكريم لأنّ إعجاز القرآن في نظمه وبيانه منصب عنده على القرآن كلّه كوحدة، وجملة لا تفصيلا، كنّص كامل له ميزاته وصفاته التي تميزه عن أقوال العرب وفنون كلامهم، لهذا نراه يعارض فكرة الإعجاز البلاغي الّذي يتعرض للتحليل الجزئي للعبارة، والبحث فيها عن ضروب البيان والبديع، ومجاز القول ، ثم لا يأخذ بالقول بفصاحة الألفاظ وحدها فهو يرى "أنّ القرآن معجز بأسلوبه ونظمه البديع وألفاظه وبأثره في النفوس لا بما فيه من محسنات بلاغية، أما طريقة الشعر فهي " شريعة مورودة، ومنزلة مشهودة، يأخذ منها أصحابها على مقادير أسبابهم، ويتناول منها ذووها على حسب أحوالهم...فأمّا نهج القرآن ونظمه، وتأليفه ورصفه، فإن العقول تتيه في جهته، وتحار في بحره، وتضلّ دون

[1]ـــالمرجع نفسه، ص: 238.

[2] ـ محمد زغلول سلام: أثر القرآن في تطور النقد العربي، ص:287.

[3] ـ أحمد يوسف علي: قراءة النص في الموروث النقدي، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط2 ،2008م، ص: 211 .

وصفه"[1]، ويدعو إلى دراسة السّورة كاملة لا أجزاء متفرّقة قائلا:"واقصد إلى سورة تامّة، فتصرف في معرفة قَصَصها، وراع ما فيها من براهينها وقصصها، وتأمّل السّورة التي يذكر فيها النّمل، وانظر في كلمة كلمة، وفصل فصل"[2]، لقد تناول السّورة جملة، وأخذ يبيّن ما فيها من بديع النظم، وجمال اللّفظ والمعنى ، ويفسر غريبها، ويربط في تحليله لسورة النّملبين النّظم والتّأليف والرّصف[3]، فيقول:"انظر فيها آية آية، وكلمة كلمة: هل تجدها كما وصفنا، من عجيب النّظم، وبديع الرّصف، فكلّ كلمة أُفردت كانت في الجمال غاية، وفي الدّلالة آية، فكيف إذا قارنتْها أخواتها، وضامّتها ذواتها، مما تجري في الحسن مجراها، وتأخذ في معناها، ثمّ من قصّة إلى قصّة، ومن باب إلى باب، من غير خلل يقع في نظم الفصل إلى الفصل، وحتى يصوّر لك الفصل وصْلاً، ببليغ التّأليف، وبليغ التّنزيل"[4].

نلاحظ من كل ما ذكرناه أنّ مصطلح النّص لم يكن حاضرا في الأعمال النّقدية للباقلاني، لكنّه استطاع أن يصل إلى دراسة النّصوص و تحليلها انطلاقا من الوحدة الكبرى وهي النّص، فنجد هذا المعنى حاضرا في الممارسة الفعليّة في موازنته بين النص القرآني والنّصوص البشرية الأخرى، وتظهر الممارسة النّصية جليّة في دراسته للنّص القرآني والقصيدتين التّراثيتين لامرىء القيس والبحتري، حيث وقف على عدّة مرتكزات للتّماسك النّصي في التّحليل ، وذلك طبعا من وجهة نظره .

يقول أشرف عبد البديع:" على الرّغم من أنّ الباحثين في الإعجاز بشكل عام، يرون أنّ الباقلاني لم يكن له إسهام فعلي، زيادة على ما جاء عن السّابقين، كالجاحظ والخطابي والرماني، بيد أنّني لا أتّفق معهم، إذ نرى معالجة متكاملة لبعض السور القرآنية والقصائد الشعرية والخطب النّثرية التي تشير ضمنا إلى الملامح الفارقة بين اتّجاه الباقلاني واتّجاه السّابقين له في تحليل جوانب الإعجاز بدأت ملامحه تتّضح. ومن ثمّ نلاحظ توسيعا للجوانب الأساسيّة لمفهوم البلاغة، خلافا لما جاء عند الخطابي والرماني بشكل خاص، وهكذا نلاحظ سمات خاصة لدى الباقلاني، وإن لم يستطع أن يبلور نظريته في شكلها النّهائي الصّحيحرؤية أكثر تقدّما، بيد أنّه استطاع ـــ على الرغم من مسايرته للسّابقين ـــ أن يطوّر

[1] ـ الباقلاني: إعجاز القرآن، ص:279.

[2] ـ المصدر السابق، ص:287.

[3] ـ ينظر: عز الدين هبيرة: مصطلح التماسك النصي في التراث اللغوي العربي: مقاربة نصية، مجلة العلوم الإنسانية، المجلد ب، ع49 ، جامعة الإخوة منتوري، قسنطينة، الجزائر، 2018م، ص:99 .

[4] ـ الباقلاني: إعجاز القرآن، ص: 289.

جوانب التّحليل والكشف عن جوانب الإعجاز، وهكذا بدأت ملامح الكشف والتّحليل في القرآن تخطو خطوات حثيثة على يد الباقلاني، في أنّها ولت وجهتها شطر"نحو النص" ضمنا، وإن لم يصرح به مباشرة"[1]، والواضح أنّ أشرف عبد البديع ثمّنأعمال الباقلاني في الإعجاز مقـــارنة مـــع سابقيه، وأن ما قدّمــه من دراسة في هذا المجال يقترب من الدّراسات اللســـانية النصية الحديثة رغـــم أنـــّه لم يصـــرّح بذلك.

قام الباقلاني بتفسير انسجام النص القرآني، مستشهدا بالآيات القرآنية لتأييد موقفه، رغم تعدّد مواضعه، والانتقال من معنى إلى آخر، وكلّ هذه النّصوص تأتلف وتتقارب، وما يلاحظ على المصطلحات الواردة عنده، أنّها من صميم الدّراسة اللّسانية النّصيّة، كالضّم والوصف والنّظم والانسجام، دون أن نجد لها تفسيرا لغويّا في كتبه، بل يكتفي بالإشارة إلى موضع الظاهرة، مستخدما المصطلح المناسب[2]، الأمر الذي جعلنا نعتبر دراسته تندرج ضمن اللّسانيات النّصية بتحليله للنّصوص والكشف عن معايير النّصية التي تسهم في تماسكها.

كما أشار الباقلاني إلى مظهر من مظاهر انسجام الخطاب في مؤلّفه فيما يخص الإعجاز القرآني وهو ترتيب الخطاب"ويسميه فان ديك التّرتيب العادي للوقائع في الخطاب، ذلك أنّ ورود الوقائع في متتالية معينة يخضع لترتيب عادي تحكمه مبادئ مختلفة على رأسها معرفتنا للعالم"[3]، وهذا التّرتيب يكون من أعلى الأشياء إلى أدناها، ويبدو أنّ الباقلاني كانت له تلك النّظرة الثاقبة التي توصّل إليها المحلّلون في الدّراسات اللّسانية النّصيّة الحديثة كما أشار إليها فان دايك، لقد طبقه على النّظم القرآني والغرض من ذلك هو النّزول بالموضوعات من الأعلى إلى الأسفل حسب المعاني وطريقة تدرجها وكذلك أهمّيتها.

ويقدّم آية من سورة النّساء وهو قوله تعالى: "حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا"(سورةالنساء، الآية ٢٣)، فيقول في هذا الموضع:" ليس من القبيل الذي يمكن إظهار البراعة فيه، وإبانة الفصاحة عليه وذاك يجري عندنا مجرى ما يحتاج إلى ذكره من الأسماء والألقاب، فلا يمكن إظهار البلاغة فيه، فطلبها في

[1] ـ أشرف عبد البديع عبد الكريم: الدرس النحوي النصي في كتب إعجاز القرآن، ص:89 .

[2] ـ عز الدين هبيرة: مصطلح التماسك النصي في التراث اللغوي العربي: مقاربة نصية، ص:99

[3] ـ محمد خطابي: لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، ص:38.

نحو هذا ضربٌ من الجهالة، بل الّذي يعتبر في نحو ذلك تنزيل الخطاب، وظهور الحكمة في الترتيب والمعنى، وذلك حاصل في هذه الآية، إن تأملت"[1].

راح يحلّل هذا التّرتيب،ويفكّك جزئياته، محاولا في ذلك اكتشاف حسن النّظم في هذا التّنزيل الّذي يهتمّ بترتيب موضوعاته من الأعلى إلى الأسفل، فيرى أن البداية كانت بذكر الأم لعظم حرمتها، وإدلائها بنفسها، ومكان بعضيتها، فهي أصل لكلّ من يدلي بنفسه منهنّ، ولأنّه ليس في ذوات الأنساب أقرب منها، ولما جاء إلى ذوات الأسباب، ألحق بها حكم الأم من الرضاع؛ لأن اللحم ينشره اللبن بما يَغْذُوه، فيتحصّل بذلك أيضا لها حكم البعضيّة، فنشر الحُرمةبهذا المعنىوألحقها بالوالدة. وذكر الأخوات من الرضاعة، فنبّه بها بكل ما يدلى بغيرها، وجعلها تلو الأم من الرضاع..فلم تنفك هذه الآية من الحكم التي تَخْلُفُ حكمة الإعجاز في النظموالتأليف، والفائدة التي تنوب مناب العدول عن البراعة في وجه الترصيف[2]، وتُرِينا مناقشة النّص القرآني من خلال هذه الآية"تصنيفا للحالات المحرّمة بدرجة القرابة العصبيّة والتّرتيب النّزولي: الأم والبنت، والأخت وبنت الأخ وبنت الأخت من القرابة المباشرة ـــ والمرضعة ـــ وأخت الرّضاعة من القرابة الرّضاعية، ولا يحل للمرء أن يتزوج أم امرأته، أو ابنتها أو أختها: فدرجة القرابة هنا مقيسة بالنسبة للمرأة، ويمكن أن نلحظ في هذا التّصنيف أفضلية رباط الذّكر على رباط الأنثى، فابنة الأخ تذكر قبل ابنة الأخت، والقرابة المتصلة بالزوج قبل القرابة المتصلة بالزوجة مع أسبقية رباط الذكورة"[3]، نؤكّد بذلك مدى إدراك الباقلاني أهمية تنزيل الخطاب في تماسك النص وعدّه من سبيل النّظم.

ولقد لاحظ الباقلاني في زمانه هذا التّرتيب العجيب، وهذا النّزول من أعلى مرتبة إلى أدناها في الموضوعات المطروحة وخاصّة من قبيل هذه الآيات، وأقرّه في كتابه وعدّه من حسن النّظم وهو ينظر إلى القرآن كلّه على هذه الوتيرة وهذا التّرتيب فيقول:"ارفع طرف قلبك، وانظر بعين عقلك، وراجع جليّة بصيرتك، إذا تفكرت في كلمة كلمة مما نقلناه إليك، وعرضناه عليك،ثم فيما ينتظم من الكلمات، ثم إلى أن يتكامل فصلا وقصة، أو يتم حديثا وسورة، بل فكر في جميع القرآن على هذا الترتيب، وتدبّره على نحو هذا التنزيل، فلم ندّعِ ما ادعيناه لبعضه، ولم نصف ما وصفنا إلا في كله، وإن كانت الدّلالة في البعض أبين وأظهر، والآية أَكْشَف

[1] ـ الباقلاني: إعجاز القرآن، مصدر سابق، ص: 316.

[2] ـ ينظر المصدر نفسه، ص :317 .

[3] ـ مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، مشكلات الحضارة، تقديم، محمد عبد الله دراز/ محمود محمد شاكر،دار الفكر،دمشق ـ سوريا، ط4، (1987م)، إعادة، 1420ه ـ2000م ، ص: 184 ـــــ 185.

وأَبهرَ"[1]، ويفهم من قول الباقلاني أنّ تنزيل الخطاب لم يقتصر على آية أو سورة أو سورتين لأنّه يطالالقرآن الكريم كلّه، ولحكمة بالغة اقتضت أن يكون تنزيل الخطاب على ما آلت إليه النّصوص القرآنيّة ووقع التّرتيب فيها .

6 ــ 3 ــ التّماسك النّصي عند عبد القاهر الجرجاني (ت471):

أثبتت جلّ الدّراسات الحديثة لكتب عبد القاهر الجرجاني وخاصّة "دلائل الإعجاز"أنّ جهوده كانت سبّاقة، وذلك من خلال نثره بعض ملامح نحو النّص دون قصد، إضافة إلى آرائه الّتي تعتبر بذورا تأسيسيّة لما يعرف بعلم النّص أو علم قواعد النّص، لقد أحاط الجرجاني في كتابه ببعض جزئيات هذا العلم في حديثه عن السّياق والنّسق، والوصل والفصل، وعن الإحالة ، الرّبط بالضّمير، وبالتّعريف،وعن التّقديم والتّأخير، وعن الحذف والتّكرير...، وهذه الأفكار والآراء المطروحة تعدّ من صميم لسانيات النّص الحديثة، وخاصّة أنّه أبان على دراسة النّص كلحمة واحدة، وكوحدة كبرى، وهذا يبيّن مدى تجاوزه للنّحاة القدامى الّذين ركزوا على الجملة واستقلاليتها في وضع قواعدهم النّحويّة.

لقد اهتمّ بالنّسق الّذي ترد فيه الألفاظ والجمل مركّزا على ظاهرة الانسجام فيما بينها، والعلاقات التي تربط بعضها بعضا، ووقعها في نفس السّامع، ومدى تقبّل السّامع لها، وفي هذه النّقاط يلتقي مع الدّراسات اللّسانية النّصيّة الحديثة الّتي نادت بها لسانيات النّص، وما ذهب إليه المحدثون المهتمّون بنحو النّص.

أشار الجرجاني إلى أنّ تتابع الألفاظ لا يشكّل نصّا" وأنّك إذا عمدت إلى ألفاظ فجعلتها تُتبع بعضها بعضا من غير أن تتوخّى فيها معاني النّحو، لم تكن صنعت شيئا تدعى به مؤلّفا، وتُشَبَّهُ معه بمن عمل نسجا أو صنع على الجملة صنيعا"[2]، فضمّ الألفاظ إلى بعضها البعض لا يشكّل نصّا إلّا إذا توخّينا معاني النّحو، وبيّن أيضا أنّ النّص يشكّل كلّا واحدا فتراه يقول في هذا المقام: "واعلم أنّ مَثَل واضع الكلام مثلُ من يأخذ قطعا من الذّهب أو الفضّة فيذيب بعضها في بعض حتّى تصير قطعة واحدة"[3]، ذلك أنّ ضّم الألفاظ لبعضها البعض لابدّ له من أساس قائم، بحيث يكون هذا التّعالق مبنيّا على أحكام نحويّة ليتحقّق النّظم، فمجرّد تتابع الألفاظ لا يشكّل نصّا "وأنّك إذا عمدت إلى ألفاظ فجعلت تُتبع بعضها بعضا من غير أن تتوخى فيها معاني النحو، لم تكن صنعت شيئا تُدعى به مُؤلَّفا، وتُشَبَّهُ معه بمن عمل نسجا أو صنع على الجملة صنيعا، ولم يتصوّر أن تكون قد تُخُيِّرتَ لها

[1] ـ الباقلاني: إعجاز القرآن، ص:307 ــ 308.

[2] ــ الإمام أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي: دلائل الإعجاز، قرأه وعلق عليه: أبو فهر محمود محمد شاكر، الناشر مكتبة الخانجي ، القاهرة، ص: 370 ـ 371.

[3] ـ المصدر نفسه، ص: 412 ــ 413.

المواقع"[1]،وراح يضرب لنا مثلا حول الأمر فيقول:" إنّه لو جاز أن يكون لمجرد ضم اللفظ إلى اللفظ تأثير في الفصاحة لكان ينبغي إذا قيل(ضحك ــ خرج) أن يحدُث في ضمّ"خرج" إلى "ضحك" فصاحة ! وإذا بطل ذلك، لم يبق إلا أن يكون المعنى في ضمّ الكلمة إلى الكلمة توخّي معنى من معاني النحو فيما بينهما"[2]،فالعلاقات التي تكون بين الكلم هي الّتي تشكّل الوحدة الكليّة للنّص من خلال ذلك التّآلف والانسجام بين عناصره.

يمكن القول أنّ الجرجاني قد أشار إلى الدّراسة النّصيّة، من خلال الإشارة إلى العوامل المؤدّية إلى ترابط النّصوص، إضافة إلى أنّه نظر إلى النّص كلا متكاملا،مشيرا في ذلك إلى مبدأ هذا التّماسك الذي حدّده في فكرة النّظم الّذي يقصد به صناعة النّص، فهو يرى" أنّ النّص لا يتكوّن إلّا حسب قوانين النّحو، ومناهجه، وهو هنا يدرك تماما أن علم نحو النص، ليس نحو الجملة فقط؛ إذ يرى أن نحو الجملة من علم النحو"[3]، وتحسن الإشارة هنا أن مساعي القدماء وجهودهم في الدّراسات النّصيّة ولو أنّها لم تكن بنفس فهم المعاصرين إلّا أنّهم قد تنبّهوا إلى النّظرة الكليّة للنّص، فنظرتهم الشّموليّة له تجعلهم أصحاب السّبق، وذلك من أجل الوصول إلى معانيه الحقيقيّة، ودلالاته الصّحيحة .

لقد كثر الكلام عن النظم والتأليف قبل عبد القاهر الجرجاني، وقام العلماء بتقديم دراساتهم حسب ما أملته عليهم قرائحهم، وحسب ما رأوا فيه الصواب، فاتفقت بعض الآراء تارة، واختلفت تارة أخرى،إلى أن جاء الجرجاني ليصوغه صياغته النّهائية في التراث، لأنّ دارسي الإعجاز بما في ذلكعبد القاهر الجرجاني انطلقوا من دراسة بلاغيّة التي احتوت على الكثير من المعايير النّصيّة، والّتي بحث فيها علم نحو النّص الحديث، وكان للبلاغة علاقة وطيدة بالنّص الأدبي في شتّى مظاهره، وتشكّلاته الأدبيّة والفـــــنيّة، فـــــهي مجـــــال واســـع رحب، استطاعت أن تضع لنفسها موقعا في الحقول المعرفيّة المختلفة، فهي البحر الّذي لم يصل أحد إلى نهايته مع استنفاذ الأعمار،حيث أجمع الباحثون على أنها "هي الأفق المنشود والملتقى الضروري للتداولية وعلم النص والسيميولوجيا"[4].

ولعلّ الباحث في كتاب "دلائل الإعجاز" لعبد القاهر الجرجاني لا يكاد يرى إلّا الحديث عن النّظم، الذي جعله المؤلّف عمدة كتابه في الوقوف على حقيقة الإعجاز، يبدو أنّه " تصور موضوع الإعجاز جزءا من ظاهرة أوسع وهي طريقة

---

[1]ـ المصدر نفسه، ص: 370 – 371.
[2]ـ المصدر نفسه، ص: 394.
[3]ـــ عمر محمد أبو خرمة: نحو النص: نقد النظرية وبناء أخرى، ص: 44.
[4]ـ صلاح فضل: بلا غة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة، أغسطس،1992 م، ص: 232.

نظم البيان عامة، ومن ثم جاء كتابه"دلائل الإعجاز" بحثا عامّا في ركن من أهمّ أركان النّظريّة الأدبية، هي أسلوب تأليف الكلام، وقد عالج فيه طريقة نظم الكلام وترتيب معانيه، وما يعرض لهذه الطريقة من تقدم وتأخير، وذكر وحذف، وفصل ووصل، وغير ذلك من طرائق التعبير، محاولا في ثنايا كل ذلك، أن ينقل الاهتمام من جانب اللفظ إلى جانب المعنى، ومنبها إلى أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وإنما تثبت لها الفضيلة من عدمها، في ملاءمة اللفظة لمعنى التي تليها؛ أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ"[1]، وبذلك فهو يثبت بأنّ التّأليف يكون بحسب المعاني التي تختلجه والسّياق الّذي يقتضيه،ومن ثمّ يصل إلى مراده بانتهاج كلا من السبيلين: الشكلي(اللفظي)، والنفسي(المعنوي)، وهنا يبدو عبد القاهر مقتفيا أثر مذهبه السني الأشعري[2]، فالأشاعرة يرون أن"الكلام نوعان نفسي ولفظي"[3]، فجوهر الكلام هو ذلك الكلام النّفسي، والكلام اللّفظي هو الصّورة العاكسة لهذا الجوهر.

لذلك فإنّ المنشئ إذ ينظم الكلم"إنّما يقتفي في نظمها آثار للمعاني، ويرتّبها على حسب ترتيب المعاني في النفس، فهو ـ إذا ــ نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، وليس هو النّظم الّذي معناه ضمّ الشّيء إلى الشّيء كيفما جاء واتّفق، ولذلك كان عنهم نظيرا للنّسج والتّأليف والصّياغة والبناء والوشيّ والتّحبير"[4]، فالصّياغة التركيبية لكل أجزاء الكلام لابدّ أن تكون محكمة السّبك، دقيقة النّسج ومتقنة، تؤدّي معاني ودلالات والنّظم الّذي يقصده الجرجاني قد عرّفه بقوله:"واعلم أنّ ليس "النظم" إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه "علم النحو"، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت، فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرّسوم التي رسمت لك، فلا تخل بشيء منها"[5]،فهو يربط النّظم بالتركيب النّحوي، لأنّ صحّة الكلام أو فساده تعود إلى معاني النّحو، ويبدو أنّ الجرجاني قد نظر إلى النّحو من أوسع أبوابه فلم يقتصر على الإعراب مثلا أو أنواع الجمل وغيرها، وهو بذلك قد أخرج النّحو من تلك النّظرة الشّكليّة، كما أنّ النّظم لا يظهر على الكلمة المفردة إلا داخل سياق معيّن، والجملة لا يظهر حسن

---

[1]ـ صلاح الدين محمد عبد التواب: النقد الأدبي، دراسات نقدية وأدبية حول إعجاز القرآن، ص: 138 ـ 139.

[2] ــ سمية ابرير: مفاهيم لسانيات النص وتحليل الخطاب في دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني"دراسة في ضوء علم المصطلح"، مذكرة مقدمة لنيل درجة الماجستير، تخصص علوم اللسان، 2010م /2011م، ص: 66 .

[3] ــ درويش الجندي: نظرية عبد القاهر الجرجاني في النظم، مكتبة النهضة، مصر، (دط)، 1960م، ص: 47.

[4]ـ المرجع نفسه، ص: 139.

[5]ـ عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص: 81.

ائتلافها إلّا بتماسكها مع جاراتها، وهي قضيّة مهمّة جدّا تؤكّد حضور اللّسانيات النّصيّة في التّراث المتمثّل في التّأليف على مستوى الجمل، ويكون ذلك عن طريق الفصل والوصل.

الواضح أنّ الجرجاني قد أدرك إدراكا تامّا طبيعة علم النّحو ممّا جعله يفهم النّصوص فهما علميّا محكما ودقيقا، والفصل الذي أورده في حديثه عن الفصل والوصل له علاقة بيّنة بلسانيات النّص الحديثة، وقد أرهص لهذه النّظرية الحديثة في زمانه عندما ربط النّظم بتوخي أحكام النّحو،حيث تناول العديد من القضايا النّحوية، وكانت وجهته في ذلك بلاغيّة، وبالتّالي فقد خالف النّحاة في دراسته من حيث المنهج المتّبع، وخاصّة عند تعامله مع النّص القرآني للكشف عن وجوه الإعجاز، فقد تعلّق النّحو عنده بالحسّ اللّغوي، فهو مقياس به يستقيم الكلام، وإدراك للفروق بين أساليبه، وبالاعتماد عليه يكشف عن الدّلالات الخفيّة ومختلف المقاصد لأنّه صنعة تدرك بالفهم الثّاقب، وقد أشار الجرجاني في ذلك إلى عدم تعلق الفكر بمعاني الكلم مجردة دون إلزامها وتوخيها معاني النحو"واعلم أنك تجد هؤلاء الذين يشكّون فيما قلناه، تجري على ألسنتهم ألفاظ وعبارات لا يصحّ لها معنى سوى توخّي معاني النّحو وأحكامه فيما بين معاني الكلم"[1].

يبدو أنّ الجرجاني قد أدرك إدراكا تامّا طبيعة علم النّحو مما جعله يفهم النّصوص فهما علميّا محكما ودقيقا، والفصل الّذي أورده في حديثه عن الفصل والوصل له علاقة بيّنة بلسانيات النّص ، وقد أرهص لهذه النظرية الحديثة في زمانه عندما ربط النّظم بتوخي أحكام النّحو،حيث تناول العديد من القضايا النحوية ، وكانت وجهته في ذلك بلاغيّة، وبالتّالي فقد خالف النّحاة في دراسته من حيث المنهج المتّبع، وخاصة عند تعامله مع النّص القرآني للكشف عن وجوه الإعجاز، فقد تعلّق النّحو عنده بالحسّ اللّغوي، فهو مقياس به يستقيم الكلام، وإدراك للفروق بين أساليبه، وبالاعتماد عليه يكشف عن الدّلالات الخفيّة ومختلف المقاصد لأنّه صنعة تدرك بالفهم الثّاقب، وقد أشار الجرجاني في ذلك إلى عدم تعلّق الفكر بمعاني الكلم مجردة دون إلزامها وتوخيها معاني النحو"واعلم أنّك تجد هؤلاء الذين يشكون فيما قلناه، تجري على ألسنتهم ألفاظ وعبارات لا يصح لها معنى سوى توخي معاني النحو وأحكامه فيما بين معاني الكلم"[2].

وبذلك كان النّحو كاشفا عن المعاني، كما كان على ارتباط وثيق بالبلاغة، وتعتمد معانيه على الذوق الرفيع والحس المرهف "وتصبح من وسائل التّصوير والصياغة، ومن المقاييس التي يهتدى بها في البراعة، ويتفاوت الحال في التّسابق

[1]ـ المصدر السابق، ص: 405.
[2]ـ المصدر نفسه، ص: 405.

بين شاعر وشاعر أو بين الأديب والأديب بوجه عام"[1]، فهو ليس علما جافا يبحث في ضوابط الكلمات أو قواعد وقوانين يقاس عليها، أي أنّه يهتمّ بالعلاقات الدّاخلية الكامنة في عالم النّص،وهنا تظهر مرّة أخرى النّظرة الشّمولية للنّص لأنّ العلاقة غير قاصرة على جملة وأخرى، وإنما بين عدة جمل في تعالقها ببعضها بانسجام وتناسق منتظم، وقد بين عدة قرائن التي من شأنها أن تكون فاعلا في النص حسب ورودها منها التقديم والتأخير والحذف، ومحاسن الحذف والإظهار، وقضايا متعلقة بالعطف...ومن جانب آخر مراعاة صورة المعنى في الكلام لأن "اللفظ تبع للمعنى في النظم، وأن الكلم تترتّب في النطق بسبب ترتّب معانيها في النّفس، وأنّها لو خلت من معانيها حتى تتجرّد أصواتا وأصداء حروف، لما وقع في ضمير ولا هَجَس في خاطر، أن يجِب فيها ترتيبٌ ونظم، وأن يُجْعل لها أمكنة ومنازل، وأن يجب النّطق بهذه قبل النطق بتلك"[2].

لقد تحدّد مفهوم النّظم مع عبد القاهر حتّى غدا مصطلحا واضح المعالم محدّد الأركان، وبلغت هذه النّظرية الذروة في تحليل النّصوص، والنّظم" يحتوي على عنصرين يكمل كل منهما الآخر؛ ودليلنا على ذلك أن معاني النحو المعادل الموضوعي للنّظم، وهو يحتوي على عنصرين:

الأوّل: عنصر معنوي، يتمثّل في المعاني.

الثّاني:عنصر لفظي، يتمثّل في الجانب النّحوي الظّاهري "[3].

وهكذا تتكامل المعاني وتتداخل الجمل من خلال هذين العنصرين"فالحسن عنده موقوف على الموضع الّذي تأخذه الألفاظ في سياقها المعنوي، والغاية الكلاميّة هي الّتي تحدد لأدبية التبليغ إطارها السياقي، من حيث صلة المفردات فيما بينها...فالمساوقة بين الدلالات(وهي عنده المعاني)، قصدا للمرام الخطابي، هي أساس الأدبية، وسبيلها الذي منه تتحقق"[4]، فالمادة الخطابية بما تحمله من دقّة المعاني وملاءمتها مع بعضها البعض وفق المنطق النّحوي تجعل من النّظم مؤثرا وفعالا، وبذلك تقع المعاني في النّفس وقعا حسنا.

لقد ذكر الجرجاني أمورا تتعلق بالتّحليل النّصي، تبدأ بنظرته الشّمولية للنّص عند التحليل، إضافة إلى أنّه وظف في مدوّنته "دلائل الإعجاز" مصطلحات

---

[1]ـ صلاح الدين محمد عبد التواب، النقد الأدبي: دراسات نقديو وأدبية حول إعجاز القرآن، ص: 146.
[2]ـ عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص: 56.
[3]ـ أشرف عبد البديع عبد الكريم: الدرس النحوي النصي في كتب إعجاز القرآن الكريم، ص: 101.
[4]ـ سليمان عشراتي: الخطاب القرآني، مقاربة توصيفية لجمالية السرد الإعجازي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1998م، ص:29.

متداولة في علم النّص الحديث مثل التّماسك والالتئام، ولم يقف عند حدّ التّماسك الشّكلي إذ ذكر التّماسك الدّلالي أيضا، وهذان الجانبان هما كل ما يتعلق بالتّحليل النّصي، بكلّ ما يتّصل بهما من جوانب متعدّدة[1]، والتّماسك عنده يقابل ما جاء في الدّراسات الغربية المعاصرة "مصطلح Coherenceإذ ارتبط بالجوانب الدّلالية المتعلّقة بما يحيط بالنّص والإحالات الخارجيّة"[2]، لذلك ذكر مصطلح الالتئام وهو يقابل التّماسك النّصي.

7 ــ التّماسك النّصي وقضيّة اللّفظ والمعنى:

شغلت قضيّة اللّفظ والمعنى النّقاد والبلاغيين العرب منذ زمن بعيد، حيث انقسمت الآراء وتفرّقت، فمنهم من انزاح للفظ دون المعنى، ومنهم من اهتمّ بالمعنى وأغفل اللّفظ، ورأي آخر ساوى بينهما، ومنهم"من نظر إلى الألفاظ من جهة دلالتها على معانيها في نظم الكلام"[3]، فقد رأى الجرجاني أنّ بعضهم قد أسرفوا في تعظيمهملشأناللّفظ مما جعلهم يرجعون الفضل له في البلاغة والفصاحة والبيان والبراعة"وكلّ ما شاكل ذلك، مما يعبّر به عن فضل بعض القائلين على بعض، من حيث نطقوا وتكلّموا، وأخبروا السّامعين عن الأغراض والمقاصد...لامعنى لهذه العبارات وسائر ما يجري مجراها، مما يُفْرد فيه اللّفظ بالنّعت والصّفة، ويُنسب فيه اللّفظ والمزيّة إليه دون المعنى"[4].

بيّن فساد الأمر بالأدلّة والحجج، وأنّه لا مزيّة للفظ ولا تفاضله على المعنى، لأنّه لا يستقيم أن يقال أنّ إعجاز القرآن يعود إلى اللفظ، فألفاظ القرآن ليست بالجديدة على أهل الفصاحة والبلاغة، والإعجاز يكمن في صياغة هذه الألفاظ، وإقامة تلك العلاقات فيما بينها بما يخدم المعنى المراد، وعلى هذا الأساس يقول الجرجاني:"ينبغي أن ينظر إلى الكلمة قبل دخولها في التأليف، وقبل أن تصير إلى الصورة التي يكون بها الكلم إخبارا وأمرا ونهيا واستخبارا وتعجبا، وتؤدي في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها إلّا بضم كلمة إلى كلمة، هل يتصوّر أن يكون بين اللّفظتين تفاضل في الدّلالة حتى تكون هذه أدّل على معناها الذي وضعت له من صاحبتها على ما هي موسومة به"[5]، وراح يقارع أصحاب

---

[1]ــ ينظر:صبحي إبراهيم الفقي: علم اللغة النصي، ص: 126 – 127.

[2] ــ المرجع نفسه، ص:127.

[3]ــ حاتم صالح الضامن: نظرية النظم، تاريخ وتطور، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، 1979م،ص: 32.

[4]ــ عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص:43.

[5]ــ المصدرالسابق، ص:44.

هذا الادّعاء بالحجّة العقلية واللّغوية، فاستعمال أيّ لفظ خارج سياق الجمل سواء في لغة العرب أو غيرها، فلا يتعلّق فضل كلمة على أخرى إلا بموقعها من الكلام، فلا اللّفظ بمفرده، ولا المعنى مفردا يقوم عليه الإعجاز وإنّما الفضل يعود إلى النّظم.

ففضل الكلمة مرهون بحسن جوارها بأخواتها، "وهل تجد أحدا يقول: هذه اللّفظة فصيحة، إلّا وهو يعتبر مكانها من النّظم وحسن ملاءمة معناها لمعاني جاراتها، وفضل مؤانستها لأخواتها، ...وتحضرك عند تصوّرها هيبة تحيط بالنّفس من أقطارها تعلّقا باللّفظ من حيث هو صوت مسموع وحروف تتوالى في النطق، أم كلّ ذلك لما بين معاني الألفاظ من الاتساق العجيب"[1]، فالألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وإنما تفاضلها يكمن في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها، وبالتالي لا يمكن أن يكون الإعجاز في هذه الألفاظ المعروفة عند كل العرب، ولكن حقيقة الإعجاز في النّظم أيّ تلك الصّورة التي تركب فيها هذه الألفاظ في صياغة محبوكة تؤدّي معنى معيّن، فاختيار الألفاظ وتحركها حيث ما قام المعنى ، تجعل المتلقي يدرك تماما ذلك المعنى المختوم في النّفس، لأنّ الكلام هو معبر إلى النّفس لسبر أغوارها.ولو كان مرجع الأمر للفظ لما اختلف النّاس في استحسان كلام غيرهم أو عدمه"لو كان القصد بالنّظم إلى اللفظ نفسه، دون أن يكون الغرض ترتيب المعاني في النّفس، ثمّ النّطق بالألفاظ على حذوها لكان ينبغي أن يختلف حال اثنين في العلم بحسن النّظم أو غير الحسن فيه، لأنّهما يحسّان بتوالي الألفاظ في النّطق إحساسا، ولا يعرف أحدهما في ذلك شيئا يجهله الآخر"[2].

إنّ الجرجاني لم ينكر اللّفظ بقدر ما أنكر أن يكون الإعجاز فيه مفردا، وهذا الأمر الغالب الّذي كان عند الأنصار الّذين رأوا أنّ الإعجاز يكمن في اللّفظ، وأرجع المزيّة إلى النّظم وتوخي معاني النحو،فالألفاظ عنده "رموز للمعاني المفردة، وهي أوعيّة لها تتبعها في مواضعها في السّياق، والمعاني هي الأصل؛ لأنّ الألفاظ سمات للمعاني وخادمة لها وضعت لتدلّ عليها"[3]،كما أرجع الفصاحة والبلاغة وسائر ما يجري في طريقهما أوصاف إلى المعاني وإلى ما تدلّ عليه الألفاظ دون أنفسها "لأنّ الألفاظ عبارة عن صورة صوتيّة تحمل المعاني رموز تحركها داخل الذّهن، من أجل هذا ظنها البعض أنهّا الأصل في عمليّة التّعبير،

[1]ـ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز ، ص: 44 ـ 45 ــ 46.
[2]ـالمصدر نفسه، ص:51.
[3]ـ وليد محمد مراد: نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية عند عبد القاهر الجرجاني، دار الفكر، ط1، 1403هـ ـ 1983م،دمشق، سوريا، ص:121.

فالألفاظ المسموعة الموجّهة نحو المخاطب تحمل في طيّاتها المعاني المطلوب إيصالها للسّامع، فتحلّ في نفسه وفكره بعد سماعه للألفاظ[1].

فالألفاظ تكون مرتّبة بحسب ترتيبها في النّفس،أي أنّ المعاني تترتب في النّفس أوّلا، وتحذو حذوها تراتب الألفاظ في النطق فلو كان"القصد بالنّظم إلى اللفظ نفسه، دون أن يكون الغرض ترتيب المعاني في النفس، ثم النطق بالألفاظ على حذوها لكان ينبغي أن لا يختلف حال اثنين في العلم بحسن النظم"[2]، ويقول في موضع آخر:" إن الألفاظ إن كانت أوعية للمعاني، فإنها لا محالة تتبع المعاني في مواقعها، فإذا وجب لمعنى أن يكون أولا في النفس، وجب للفظ الدال عليه أن يكون مثله أولا في النطق"[3]، فاللّفظ يخدم الموقف الّذي يثار، وبذلك تعتبر الألفاظ وسيلة لإثارة المواقف لأنّ الكاتب المبدع لايقوم بجمع الألفاظ وضمّها إلى بعضها البعض كيفما اتّفق ذلك، وإنّما يعبّر عن معان قائمة في النّفس.

إنّ ثنائية اللّفظ والمعنى تحضّر المبدع في الشّعر أو النثر دون تجاهل أيّ عنصر منهما، ذلك أنّ العمليّة الإبداعيّة تقتضي كلاهما معا، فالمواقف المعبر عنها تحتاج إلى ألفاظ مناسبة ذات دلالة مخصوصة لما تستدعيه النفس، فالإحساس هو الذي يولد هذه الألفاظ، ولكن دون صنعة مشروطة، ولقد جمع عبد القاهر بين اللفظ والمعنى نسبة إلى ذلك التلاحم بينهما في الصياغة والتصوير،وحس يستشف المتلقي هذا الكلام، وبعد شرح مستفيض قدم العديد من الحجج والبراهين، يجعل المتلقي لخطابه يدرك ذلك بنفسه"فينبغي أن ينظر في الفكر، بماذا تلبّس؟ أبالمعاني أم بالألفاظ؟ فأيّ شيء وجدته تلبّس به فكرك من بين المعاني والألفاظ، فهو الذي تحدث فيه صنعتك"[4]، فالصّورة التي تطبع في النفس لابد لها من كلام يعكسها، يتمثل في حسن الألفاظ التي تعبر عنها، يبنى في صياغة محبوكة،فهذا التصور في اللفظ يجعل المعنى بائنا .

نستنتج من كل ما ذكرناه أنّ التّماسك النّصي له أصول ليست حديثة العهد، وإنمّا تمتدّ جذورها إلى أعماق التّراث، فهذه المسافة الزّمنيّة الطّويلة لهذا المصطلح بيّنت بأنّ العرب القدامى قد أرهصوا للدّراسات النّصيّة، ويظهر ذلك جليّا في مؤلفاتهم ومنهم من بلغ الذّروة من حيث قيمة المصطلحات الّتي أوردها، والّتي تقترب كثيرا من البحث اللّساني النّصي الحديث، وهذه الجهود تنمّ عن مدى

---

[1]ـ وليد محمد مراد: نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية عند عبد القاهر الجرجاني،ص:132.

[2]ـ عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص: 51.

[3]ـ المصدر نفسه، ص: 52.

[4]ـ عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص: 51 .

إدراك هؤلاء للوحدة الكليّة للنّصوص، وعندما نتحدّث عن القدماء العرب فقد أدرجنا بعض العلماء كنموذج للكشف في مؤلفاتهم عن تلك الرّؤية المبكرة في البحث اللّغوي النّصي، من خلال ما تناولوه في مجال إعجاز القرآن، إذ يعتبر هذا المجال حقلا واسعا للدّراسات اللّغوية حيث ظهرت فكرة الانسجام النّصي واضحة في أذهان هؤلاء وضوحا متميّزا، فوصفوا الطّرق والوسائل الّتي يتمّ بها انسجام النّص وتماسكه كطريقة الوصل والفصل، "والّتي فيها يتمثّل التّماسك الشّكلي والتّماسك الدّلالي وصولا إلى التّماسك الكلّي"[1]، لذلك نجدهم قد تعرّضوا لعناصر الرّبط التي تسهم في اتّساق النّص.

وما يلاحظ أنّ تجاوزنا من العلماء القدامى المفسّرين والأصوليين والنّحويين واللّغويين، وهذا ليس استنقاصا لما قدّموه، وإنّما حتى لا يأخذ البحث منحى آخر فاكتفينا بهذه الإشارة البسيطة لهذه الأعمال العظيمة والجهود الكبيرة التي دعت إلى التّماسك النّصي، لقد حاول القدماء "أن يصلوا إلى قيّم فنيّة لنقد النّصوص، ولم يكن البحث اللّغوي واقفا عند حدّ الجملة كما يحلو لبعض الباحثين المحدثين أن يصوّره؛ لكنّه لم يكن يبحث النّص بالمفهوم الّذي تناولها به"[2]، قاموا بانتقاء النّصوص الجيّدة السّبك قصد الدّراسة لتكوين نظريّة لنقد النّصوص ودراستها، فللمفسّرين دور هام في بحث التّماسك النّصي وتطبيقه، ذلك أنّ نظرتهم للنّص القرآني لم تقتصر على الجزء بل كانت شمولية "فأكّدوا التّماسك الصّوتي، والنّحوي، والصّرفي، والمعجمي، والدّلالي، وكذلك التّماسك النّصي، وبحثوه في المناسبة والتّناسب بين حروف الكلمة الواحدة، وكلمات الجملة الواحدة، والآية الواحدة، وجمل النّص الواحدة، والسّورة والّتي قبلها، وما بعدها، ونصوص القرآن كله"[3]، ويبدو واضحا بأنّ عملهم يقوم على النّظرة الكليّة إلى النّص، فقد بحثوا في ائتلاف الكلام وانسجامه، والنظم والإعجاز، وقاموا بتحليل النص القرآني، حيث التمس كل واحد طريقته الخاصّة، وسلكوا طرائق منهجيّة مختلفة في فهمه، والتّماسك النّصي في القرآن يكون في السّورة الواحدة من بدايتها لنهايتها، فتترابط المفردات في الآيات مع ما قبلها وما بعدها وتتساوق مع بعضها البعض تركيبا ودلالة، ويمكن القول أنّ عدد هائل من المفسّرين قد اهتموا بفكرة التّماسك في مدوّناتهم سواء من القدماء أو المحدثين، فالتّعامل مع النص كوحدة كبرى سبق

[1] ـ الطيب العزالي قواوة: التماسك النصي بين الدرس البلاغي القديم والدرس اللساني الحديث، مجلة البحوث والدراسات/ المجلد 15، العدد01، 1 جوان، 2018م، ص:475

[2] ـ تارا فرهاد شاكر: التماسك النصي بين التراث والغرب، مجلة جامعة بابل/ العلوم الإنسانية، المجلد22، العدد6، 2014م، ص: 1338.

[3] ـ خالد خميس مصطفى فراج: التماسك النصي في سورة التوبة، دراسة تطبيقية في ضوء لسانيات النص، قدمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات درجة الدكتوراه في نخصص اللغة والنحو، جامعة اليرموك، إربد- الأردن،15 شعبان 1430هـ ـ 6 أوت 2009م، ص:47.

إليها هؤلاء العلماء وتركوا بصمتهم في تناولهم للنّصوص، بحيث كان الأمر سبقا منهم لما يعرف ببوادر علم النص عند المفسرين.

ومن جانب آخر فإنّ الأصوليين والفقهاء قد تميّزوا في استخدام مصطلح النّص والبحث في دلالاته"فقد وردت كلمة نص في اصطلاح الأصوليين بمعان مختلفة تعكس مستويات دلالية متباينة، تحددها درجة الظهور أو الخفاء في النص"[1]، وحظي عندهم باهتمام كبير باعتباره معادلة بين اللّفظ والمعنى، ويبدو أنّ دلالاته عندهم عرفت"غنى فقد أشاروا إلى عبارة النّص ودلالته ، وهذه الأخيرة هي التي ولّدت المقولة "لا اجتهاد مع النّص" فالدّلالة تشير إلى ثبوت حكم المنطوق المفهوم والمسكوت عنه"[2].

أمّا عن النّحويين واللّغويين، شهد تماسك النّصّ عندهم اهتماما كبيرا ، فالنّحاة على الرّغم من اهتمامهم بالجملة مناط دراستهم إلّا أنّهم قد أشاروا إلى التّماسك، وأخذ عندهم مسمّيات مختلفة: السّبك والانسجام، والنّظم، والتّعليق، والارتباط، والضّم، والنّسج، والتّأليف، والبناء، والصياغة، واعتنوا بالوقف؛ دلالة على إدراكهم لكليّة النّصّ؛ فالرّوابط عندهم لا تتأتّى أهميّتها في معانيها فحسب، وإنّما تظهر عن طريق نسجها داخل رسالة أو خطبة أو بيت شعر"[3]، ووردت عندهم إشارات تدلّ على النّصيّة، كما أنّهم اهتمّوا بالتّماسك داخل الجملة الواحدة، وكانت لهم رؤية خاصّة حول دور المتلقّي في تلقي الخطاب /النّصّ، ومن بين العلماء الذي أدرجوا التّماسك كقاعدة أساسيّة تبنى عليها النّصوص سيبويه(ت180هـ)، المبرد(ت286ه)، ابن هشام الأنصاري(761ه)... لأنّ بعض اللّغويين والنّحاة القدامى هم من المفسّرين والفقهاء، فالدّراسات البلاغيّة وعلم التّفسير وبعض الإشارات في الدّراسات النّحويّة، لم تكن بمنأى عن الدّراسات النّصّيّة، غير أنّ هذا لم يكن ليصبح علما متكامل الأركان، ولم يصلح لتكوين نظريّة مستقلّة ذات قواعد ووسائل وأهداف، بل كان أغلبها مجرّد إشارات قد تطول وقد تقصر[4]، فشرط أيّ دراسة أن تتحقّق هذه الخاصيّة بين عناصر النّص.

إنّ التّماسك النّصي بوصفه مقولة جوهريّة في مفاهيم اللّسانيات النّصيّة أخذ له موقعا هامّا في الدّراسات الّتي اهتمّت بتحليل النّصوص وعلى رأسها الأبحاث

---

[1] ـ المرجع نفسه، ص:68.

[2] ـ بن الدين بن خولة: الإسهامات النصية في التراث العربي، أطروحة دكتوراه، تخصص معجميات، 2015م / 2016م ،ص:5

[3] ـ خالد خميس مصطفى فراج: التماسك النصي في سورة التوبة، دراسة تطبيقية في ضوء لسانيات النص، ص: 57 .

[4] ـ صبحي إبراهيم الفقي: علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، ج2 ،دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة،ط1، 1431ه ــ 2000م، ص:251.

الّتي عنيت بإعجاز القرآن، حيث عدّت هذه الظّاهرة وجها من وجوه الإعجاز، الأمر الّذي جعل الدّارسين ينصبّون على الاهتمام بقضيّة النّظم واللّفظ والمعنى والمناسبة والفصل والوصل وغيرها من القضايا التي تعرّض لها العلماء الذّين خاضوا في إعجاز القرآن الكريم ووجوه إعجازه.

بناءً عليه، يعتبر "إعجاز القرآن" من أهمّ القضايا الّتي أثارت الدّراسات اللّغويّة واللّسانيّة، وقد سلّط الباحثون الضّوء على بعض خفاياها، فكانت رحلة زمنيّة طويلة منذ التّراث إلى العصر الحديث، حيث قامت كلّ الدّراسات في هذا المجال بمختلف اتّجاهاتها الوقوف على عظمة كتاب الله من أجل إبراز وجوه الإعجاز فيه، ولم تقف الدّراسات عند ما ذهب إليه المتقدّمون، بل تواصلت في استمراريّة عبر الزّمن لتصل إلى العصر الحديث أين لقيت قضية"إعجاز القرآن" اهتماما من طرف المحدثين أيضا، فمنطلقاتهم لم تكن من عدم، لقد عادوا إلى مدوّنات التّراث ودرسوها، وقاموا بالبحث والتّنقيب فيها مؤيّدين أفكارا ومنتقدين أراء أخرى، مبيّنين الجديد الّذي توصّلوا إليه مخالفين في ذلك الأوائل المتقدّمين غير ناكرين لتلك الجهود الّتي بذلت في حقل الإعجاز، لأنّها كلّها تعمل على الدّفاع عن القرآن الكريم من الّذين طعنوا فيه.

الأديب مصطفى صادق الرافعي (1880م ـــ 1937م) من بين هؤلاء العلماء الّذي كان له باع كبير في مجال إعجاز القرآن بمؤلّفه"إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة" الّذي حاول من خلاله الوقوف على حقيقة الإعجاز من جهة والبلاغة النّبويّة من جهة أخرى، فكان لفكرة التّماسك النّصّي مكانا ظاهرا في مدوّنته، وسنقف على مظاهر الاتّساق عنده على أن يفرد لمظاهر الانسجام في الإعجاز عنده فصلا خاصّا، وذلك من أجل الوصول إلى معايير النّصية المنتشرة في مؤلّفه وتحليلها ودراستها على ضوء الإسهامات المعرفيّة والمنهجية المعتمدة لدى أقطاب ورواد اللّسانيات النّصّية الغربيّة والوقوف على المفاهيم والتّصوّرات الأساسيّة في الإعجاز عند الرافعي وعلاقتها بلسانيات النّصّ.

الفصل الثاني:

مظاهر الاتّساق النّصي عند الرّافعي في الإعجاز :

- مفهوم الاتّساق
- وسائل الاتّساق
- حقيقة الإعجاز عند الرّافعي
- أسلوب القرآن عند الرّافعي
- ملامح التماسك في أسلوب القرآن عند الرّافعي
- التّماسك النّصّي من منظور الرّافعي
- آليات الاتّساق النّصّي عند الرّافعي

إنّ البحث في إعجاز القرآن على حدّ قول أشرف عبد البديع "إنّما يقع على محورين، الأوّل: أفقي، والمقصود به بيان مذهبهم النّحوي ومنطلقاتهم الفكريّة فيما يتعلّق بالكشف عن أوجه الإعجاز، والثّاني رأسي، ونقصد به تلك التّتابعات الواردة لهذه المعايير البلاغيّة والنقديّة، ومن خلال هذين المحورين تتبدّى قسمات معايير النّصّ لديهم، ومن ثمّ فإنّ عملهم واقع ـ لا ريب ـ بين هذين التّيارين"[1]، وللوقوف على معايير النّص عند الرّافعي لابد معرفة المنطلقات الفكريّة للأديب ورصد تلك التّتابعات الواردة في النّصّ القائمة على اتّساقه وانسجامه، وعلى الرّغم من أنّ عمل الرّافعي اقتصر على الجانب النّظري أكثر من التّطبيقي، وليس كما رأينا في مؤلفات الإعجاز عند السّابقين، إلّا أنّ في القلّة التي أوردها نستطيع توضيح تلك الرّؤية الّتي أرادها في اتساق النص القرآني، ولا يخفى" أنّ معنى**Cohesion** هنا يرتبط بالرّوابط الشّكليّة، عكس المصطلح **Coherence** الّذي يهتمّ بالرّوابط الدّلاليّة"[2]، وقبل الوقوف على عناصر التّماسك النّصي عند الرافعي علينا أن نتعرّف على مفهوم الاتّساق.

1ــ مفهوم الاتّساق:

الاتّساق هو "مفهوم دلالي، إنّه يحيل إلى العلاقات المعنويّة داخل النّص، والّتي تحدّده كنصّ"[3] ويمكن تسميّة هذه العلاقة"تبعية خاصّة عندما يستحيل تأويل عنصر دون الاعتماد على العنصر الّذي يحيل إليه، ويرى الباحثان(هاليداي ورقية حسن) أن الاتساق "يبرز في تلك المواضع التي يتعلق فيها تأويل عنصر من العناصر بتأويل العنصر الآخر، يفترض كل منهما الآخر مسبقا، إذ لا يمكن أن يحلّ الثّاني إلا بالرجوع إلى الأوّل، وعندما يحدث هذا تتأسّس علاقة اتساق"[4]، ويمكن أن يتمّ الاتساق في مستويات أخرى كالنّحو والمعجم لا على المستوى الدّلالي فحسب، ويرجع ذلك إلى ذلك التّصور للغة كنظام ثلاثي الأبعاد من طرف الباحثين وهي كالآتي:مستويات الدّلالة(المعاني)، والنّحو ـ المعجم(الأشكال)، والصّوت والكتابة (التّعبير)، ويعني هذا التّصور أنّ المعاني تتحقّق كأشكال،

---

[1]ــ أشرف عبد البديع عبد الكريم: الدرس النحوي في كتب إعجاز القرآن الكريم، ص: 6 .

[2]ـ صبحي إبراهيم الفقي: علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، ج1، ص: 45.

[3] ـ المرجع نفسه، ص:15.

[4] ـ المرجع نفسه، ص: 15 .

والأشكال تتحقّق كتعابير، وبتعبير أبسط: تنقل المعاني إلى كلمات والكلمات إلى أصوات أو كتابة[1].

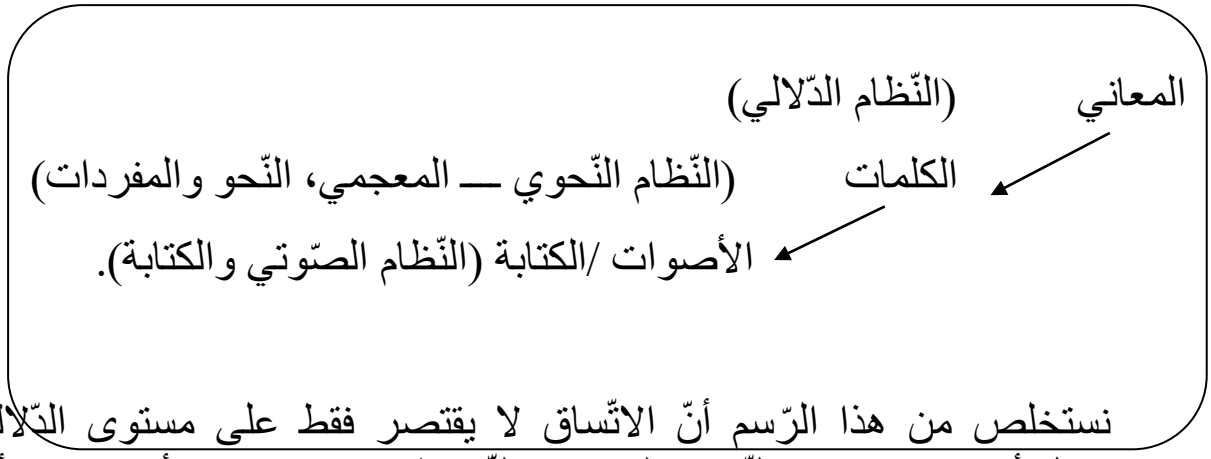

نستخلص من هذا الرّسم أنّ الاتّساق لا يقتصر فقط على مستوى الدّلالة فحسب بل أيضا يتجسّد في النّحو والمعجم، فالتّرابط قد يكون نحويّا أو معجميّا أو صوتيّا، وعلى الرّغم من أنّ مصطلح الاتّساق(Cohesion) الّذي يرتبط بالعلاقات الشّكليّة في النّصوص، ومصطلح الانسجام (Coherence) الّذي يهتمّ بالعلاقات الدّلاليّة، فإنّنا نجد أنّ هاليداي ورقية حسن لم يستخدما هذا الأخير ــ أعني Coherence ــ للتماسك الدّلالي في حين نجد أنّ من علماء النّص من جعله للدّلالة على هذا النّوع من التّماسك، بالنّسبة للباحثين قد اختارا مصطلح (Cohesion) الّذي جعلاه "متضمّنا علاقات المعنى العام لكل طبقات النّص، والّتي تميّز النّصّي من اللانصّي، ويكون علاقة متبادلة مع المعاني الحقيقيّة المستقلّة للنّص مع الآخر، فالتّماسك إذن لا يركز على ماذا يعني النّص بقدر ما يركز على كيفيّة تركيب النّصّ باعتباره صرحا دلاليّا"[2]، ومن أجل وصف اتّساق الخطاب / النّصّ يسلك المحلّل ــ الواصف طريق خطيّة، متدرّجا من بداية الخطاب(الجملة الثّانية منه غالبا) حتّى نهايته، راصدا الضّمائر والإشارات المحليّة، إحالة قبلية أو بعدية، مهتمّا أيضا بوسائل الرّبط المتنوّعة كالعطف، والاستبدال، والحذف، والمقارنة والاستدراك وهلم جرّا، كلّ ذلك من أجل البرهنة على أنّ النّص/ الخطاب(المعطى اللّغوي بصفة عامة) يشكّل كلّا متآخذا [3].

ولا يرتبط التّماسك بالكلمات المكتوبة فحسب، بل يرتبط أيضا ببناء القراءة، وبهذا يختلف عن التّماسك الّذي يحدّد مدى ملاءمة الجملة لسياقها اللّغوي، بينما يؤدّي التّماسك إلى الدّخول في مناقشة أكبر[4]، لأنّ عامل القراءة يجعل المتلقّي

[1]ـ ينظر صبحي إبراهيم الفقي:علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، ص:15.
[2] ـ المرجع نفسه، ص: 95 .
[3] ـ محمد خطابي: لسانيات النص، ص:5 .
[4]Duval Fredric :La Traduction Du Romulion ؛Librairie Droz Geneve.2001.P330

يسهم بشكل أو بآخر في عمليّة اتّساق النّصّ وانسجامه، فالكلّ يتّفق بشكل أو بآخر على أنّ التّماسك هو مبدأ عام لتفسير الخطاب[1]، لما له من أهميّة كبرى في الكشف عن أسرار النّص.

2 ــ وسائل الاتّساق:

لكي تتحقّق في النّص خاصيّة الاتّساق، وجب توّفر أدوات تسهم في ترابطه يقف عندها محلّل الخطاب/ النّص، وقد أوردها كل من هاليداي ورقية حسن متمثّلة في العناصر الآتية:

2 ــ 1ــ **الإحالة(Reference)***: فقد استعملها الباحثان استعمالا خاصّا، فكلّ لغة تملك هذه الخاصيّة متمثّلة في الضّمائر وأسماء الإشارة، وأدوات المقارنة، باعتبارها علاقة دلالية، وللإحالة دور كبير في خلق سمة النّصيّة لأنّ "قيود ترابط التتابعات متباينة، فهي تقوم أحيانا على العلاقات بين معاني الجمل وأحيانا أخرى على العلاقات بين إحالة الجمل[2]، ويرى روبرت دي بوجراند (Robert De Beaugrande) أنّ "تعريف الإحالة يتمّ في العادة بأنّها العلاقة بين العبارات من جهة وبين الأشياء والمواقف في العالم الخارجي الذي تشير إليه هذه العبارات"[3]، وتطلق تسميّة العناصر الإحالية على قسم من الألفاظ لا تملك دلالة مستقلّة، بل تعود على عنصر أو عناصر أخرى مذكورة في أجزاء أخرى من الخطاب، فشرط وجودها هو النّصّ، وهي تقوم على مبدأ التماثل بين ما سبق ذكره في مقام ما وبين ما هو مذكور بعد ذلك في مقام آخر[4]، وهي نوعان: المقاميّة وتكون خارج النصّ(Exophara) والنصيّة داخل اللّغة أو داخل النّص(Endaphara)، أمّا الثّانية فتنقسم إلى إحالة قبليّة(Anaphora) وأخرى بعديّة (Cataphora)كما هو موضّح في الرّسم أدناه:

[1] Michel Charolles : Enseignement De Reci:Et Coherence De Texte.Langue Francaise.n38.Larousse Paris. 1978. P.128

[2] ــ ر ترجمة المصطلح، أحمد ن نحو النّص، اتّجاه جديد في الدّرس النّحوي، ص

[2] ــ : علم النص(مدخل متداخل الاختصاصات)، ترجمة وتعليق سعيد حسن بحيري، دار القاهرة للكتاب، القاهرة، ط1، 1421هـ ــ 2001م، ص: 48 .

[3] ــ روبرت دي بوجراند: النص والخطاب والإجراء، ترجمة: تمام حسان، ط1 ، 1418هـ ــ 1998م، الناشر عالم الكتب ، القاهرة، ص: 14 .

[4] ــالأزهر الزناد: نسيج النص، بحث في ما يكون به الملفوظ نصا، المركز الثقافي العربي، ط1، 1993م، بيروت، ص: 118.

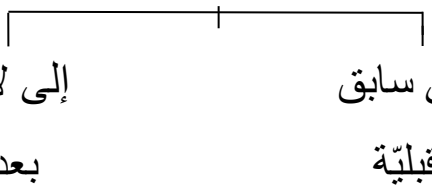

إنّ الاستعمال الخاص للإحالة من طرف الباحثين يتمثّل في أنّ العناصر المحيلة كيفما كان نوعها لا تكتفي بذاتها من حيث التّأويل، إذ لابدّ من العودة إلى ما تشير إليه من أجل تأويلها، وتتوفّر كلّ لغة طبيعية على عناصر تملك خاصية الإحالة، وهي حسب الباحثين:"الضّمائر وأسماء الإشارة وأدوات المقارنة" كما ذكرنا آنفا، وتعتبر الإحالة علاقة دلاليّة، ومن ثمّ لا تخضع لقيود نحويّة، إلا أنها تخضع لقيد دلالي وهو وجوب تطابق الخصائص الدلالية بين العنصر المحيل والعنصر المحيل إليه"[1].

وكما هو موضّح في الرّسم أعلاه فإنّ الإحالة تنقسم إلى نوعين رئيسيين: الإحالة المقاميّة والإحالة النّصيّة، وتتفرّع الثّانية إلى: إحالة قبليّة، وإحالة بعديّة، ومن أجل إبراز ما تقوم به الإحالة من دور فعّال في تماسك النص، وكقاعدة عامّة يمكن أن تكون عناصر الإحالة مقامية أو نصيّة، وإذا كانت نصيّة فإنّها يمكن أن تحيل إلى السّابق أو إلى اللاحق، أي أنّ كلّ العناصر تملك إمكانية الإحالة والاستعمال وحده يحدد نوع إحالتها.

رغم الاختلاف الملحوظ بين نوعي الإحالة المقاميّة والنصية، فإنّ ما يعدّ أساسيّا بالنسبة لكلّ حالة من الإحالة هي "وجود عنصر مفترض ينبغي أن يستجاب له، وكذا وجوب التعّرف على الشيء المحال إليه في مكان ما"، لكن هل معنى هذا أنّ نوعي الإحالة(المقاميّة والنّصيّة) متساويان بحيث تلغى جميع الفروق بينهما؟ يذهب هاليداي ورقية حسن، بهذا الخصوص، إلى أنّ الإحالة المقاميّة"تساهم في خلق النّص، لكونها تربط اللّغة بسياق المقام، إلّا أنّها لا تساهم في اتّساقه بشكل مباشر، بينما تقوم الإحالة النّصيّة بدور فعال في اتّساق النّص، ولذا يتّخذها الباحثان معيارا للإحالة"[2].

[1] ـ محمد خطابي: لسانيات النص(مدخل إلى انسجام الخطاب)، ص: 16 – 17.
[2] ـ المرجع السابق، ص:17 – 18.

ومن هنا نستنتج بأنّ الإحالة النّصيّة لها دور فعّال في اتّساق النّص، لذلك نجد أنّ الباحثين يوليانها أهميّة بالغة في بحثهما، وتتحقّق داخل النّصوص كما يمكن الكشف عنها من خلال رصد وسائل الاتّساق الإحالية الثّلاث والّتي أسلفنا ذكرها"الضّمائر وأسماء الإشارة وأدوات المقارنة".

أ/**الضمائر:** وهي الوسيلة الأولى من وسائل الاتّساق الإحالية التي تعمل على اتّساق النص، وذلك دليل على الدور الكبير والمهم الذي تقوم به داخل النص، ليتجسّد الترابط بين المتتاليات الجملية لذا "يشترط توفّر بعض الضمائر العائدة صحبة الكلمات التي تعود عليها، فالإحالة تكون تبادلية بين الضمائر والكلمات التي تحيل إليها أي الاثنين يحيلان إلى الشيء ذاته"[1]، وتنقسم الضمائر إلى وجودية مثل: أنا، أنت، نحن، هو، هم، هن،...إلخ، وإلى ضمائر ملكية مثل: كتابي، كتابك، كتابهم، كتابه، كتابنا...إلخ(mine، yours، theirs، his، ours...)[2].

إذا نظر إلى الضّمائر، من زاوية الاتساق، أمكن التمييز فيها بين أدوار الكلام(Speech roles) التي تندرج تحتها جميع الضمائر الدالة على المتكلم، والمخاطب، وهي إحالة لخارج النّص بشكل نمطي، ولا تصبح إحالة داخل النّصّ، أي اتّساقيّة، إلا في الكلام المستشهد به، أو في خطابات مكتوبة متنوّعة من ضمنها الخطاب السردي" وذلك لأنّ سياق المقام في الخطاب السّردي يتضمّن"سياقا للإحالة"، وهو تخيّل ينبغي أن يبنى انطلاقا من النّصّ نفسه، بحيث أنّ الإحالة داخله يجب أن تكون نصية"، ومع ذلك لا يخلو النّصّ من إحالة سياقيّة(إلى خارج النّصّ) تستعمل فيها الضّمائر المشيرة إلى الكاتب(أنا، نحن) أو إلى القارئ(القراء) بالضّمائر(أنت،أنتم...) هذا بالنّسبة"لأدوار الكلام"، أمّا الضّمائر التي تؤدّي دورا هامّا في اتّساق النّصّ فهي تلك التي يسمّيها المؤلفان "أدوارا أخرى"(**other rules**)، وتندرج ضمنها ضمائر الغيبة إفرادا أو تثنية وجمعا(هو، هي، هم، هن، هما) وهي على عكس الأولى، تحيل قبليا بشكل نمطي، إذ تقوم بربط أجزاء النّصّ، وتصل بين أقسامه[3]..

ب/**أسماء الإشارة**: أمّا الوسيلة الثّانية من وسائل الاتّساق الإحاليّة والّتي تعمل على ترابط النّصّ وتماسكه، وجعله وحدة واحدة فهي أسماء الإشارة، والتي يرى الباحثان هاليداي ورقية حسن بأن هناك عدّة إمكانيات لتصنيفها: إمّا حسب الظّرفية الزّمانية أو المكانية أو حسب الحياد أو الانتقاء، أو البعد أو القرب.. ;وهي

[1] ـ بن يحي طاهر ناعوس:تحليل الخطاب القرآني في ضوء لسانيات النص(دراسة تطبيقية في سورة البقرة)، ص:53 .

[2] ـ ينظر محمد خطابي، لسانيات النص(مدخل إلى انسجام الخطاب)، ص:18.

[3] ـ محمد خطابي: لسانيات النص، ص:18.

تحدّد مواقعها في الزمان والمكان داخل المقام الإشاري كما أنها لاتفهم إلا إذا ربطت بما تشير إليه [1]، "وبدل تتبع التفاصيل نشير إلى أنّ أسماء الإشارة تقوم بالرّبط القبلي والبعدي، وإذا كانت أسماء الإشارة بشتى أصنافها محيلة إحالة قبلية، بمعنى أنها تربط جزءا لا حقا بجزء سابق ومن ثم تساهم في اتساق النص، فإن اسم الإشارة المفرد يتميز بما يسميه المؤلفان"الإحالة الموسعة"أي إمكانية الإحالة إلى جملة بأكملها أو متتالية من الجمل"[2]، فالعناصر الإشارية تنظّم الفضاء انطلاقا من نقطة مركزية هي الذّات المتكلّمة أو "الأنا"، ويجري هذا التنظيم وفق عدد من المعايير أو المقولات، هي المسافة الفاصلة بين المتكلم أو المخاطب من جهة وبين المشار إليه من المركز، كأن يكون إلى الوراء أو القدّام أو الفوق أو اليمين أو الشمال..وهي حضور المشار إليه أو غيابه، وينحصر دور هذه العناصر في تعيين المرجع الذي تشير إليه، وهي بذلك تضبط المقام الإشاري[3]، وهكذا تسهم أسماء الإشارة في لحمة النص وتماسكه، وهذه الوظيفة الاتّساقية تبيّن الدّور الفعال لهذه الأسماء داخل النص لتحقيق نصّيته.

ج/**المقارنة:**النّوع الثّالث من أنواع الإحالة هو المقارنة، وتنقسم إلى عامّة يتفرّع منها التّطابق(ويتم باستعمال عناصر مثل:**same**) والتّشابه(وفيه تستعمل عناصرمثل : **similar**...) والاختلاف (باستعمال عناصر مثل:(**other**، **otherwise**)، وإلى خاصّة تتفرّع على كميّة(تتمّ بعناصر مثل:(**more**...) وكيفية(أجمل من، جميل مثل....) أمّا من منظور الاتّساق فهي لا تختلف عن الضّمائر وأسماء الإشارة في كونها نصيّة، وبناء عليه فهي تقوم، مثل الأنواع المتقدّمة، لا محالة بوظيفة اتّساقية[4]، ومعنى ذلك أنّ أدوات المقارنة كلمات مخصوصة في كلّ لغة تشير إلى مقارنة عامّة أو خاصّة، فالكلمات الّتي تشير إلى تطابق أو تخالف عام منها (يشبه، مثل، غير)، وكلمات نفي الشّبه نحو(لا يشبه، خلاف..)فهي أدوات مقارنة عامة،أما الكلمات التي تشير إلى الكمية أو الكيفية بين شيئين محددين نحو: صيغة التفضيل، فهي أداة مقارنة خاصة، وكل تلك الخاصة والعامة في وجهة نظر المؤلفان هي أدوات نصية لا تختلف عن الضمائر وأسماء الإشارة[5]، والّتي تقوم بوظيفة اتساقية داخل النص .

ومن ثمّ يمكن القول أنّه"يكتمل الملفوظ نصّا عندما تترابط أجزاؤه باعتماد الرّوابط الإحالية، وهذه الرّوابط تختلف من حيث مداها ومجالها؛ فبعضها يقف في

[1] ـ ينظر الأزهر الزناد: نسيج النص، بحث في ما يكون به الملفوظ نصا، ص:118.
[2] ـ محمد خطابي: لسانيات النص، ص:19.
[3] ـ الأزهر الزناد: نسيج النص، بحث في ما يكون به الملفوظ نصا، ص: 116 .
[4] ـ محمد خطابي: لسانيات النص، ص:19.
[5] ـ عمر أبو خرمة: تحو النص، نقد النظرية ... وبناء أخرى، ص :82

حدود الجملة الواحدة يربط عناصرها الواحد منها بالآخر، وبعضها يتجاوز الجملة الواحدة إلى سائر الجمل في النص فيربط بين عناصر منفصلة ومتباعدة من حيث التركيب النحوي؛ ولكن الواحد منها متصل بما يناسبه أشدّ الاتّصال من حيث الدلالة والمعنى. فالإحالة عامل(Operateur) يحكم النّصّ كاملا في توازٍ مع العامل التّركيبي والعامل الزمني"[1]، هنا تظهر أهميّة الإحالة واضحة في تعاملها مع النّصوص، وهذا بفضل هذه العناصر اللّغوية الّتي لا تكتفي بذاتها في دلالتها مما يجعلنا نعود إلى ما تحيل إليه من أجل تأويلها.

2ـــ 2ـ **الاستبدال**(substitution): وهو "عمليّة تتمّ داخل النّص، إنّه تعويض عنصر في النص بعنصر آخر"[2] وظيفته اتّساقية شأنه شأن الإحالة لأنّه وسيلة أساسيّة في اتّساق النّص، إلّا أنه يختلف عنها في كونه علاقة في المستوى النّحوي ــ المعجمي بين كلمات أو عبارات، بينما الإحالة علاقة معنوية تقع في المستوى الدّلالي، ويستخلص من كونه"عمليّة داخل النّصّ" أنّه نصّي، على أنّ معظم حالات الاستبدال النّصّي قبلية، أي علاقة بين عنصر متأخّر وعنصر متقدّم، وبناء عليه يعدّ الاستبدال مصدرا أساسيا من مصادر اتساق النصوص[3]، بحيث يعمل على ترابطها وتماسكها.

وينقسم الاستبدال إلى ثلاثة أنواع:

أ ـــ استبدال اسمي(Nominal Substitution)، ويتم باستعمال العناصر(same، ones، one).

ب ـ استبدال فعلي(Verbal Substitution)، ويمثله استعمال العنصر: do.

ج ـ استبدال قولي(Clausal Substitution)، ويستعمل فيه العنصران: so،Not.[4]

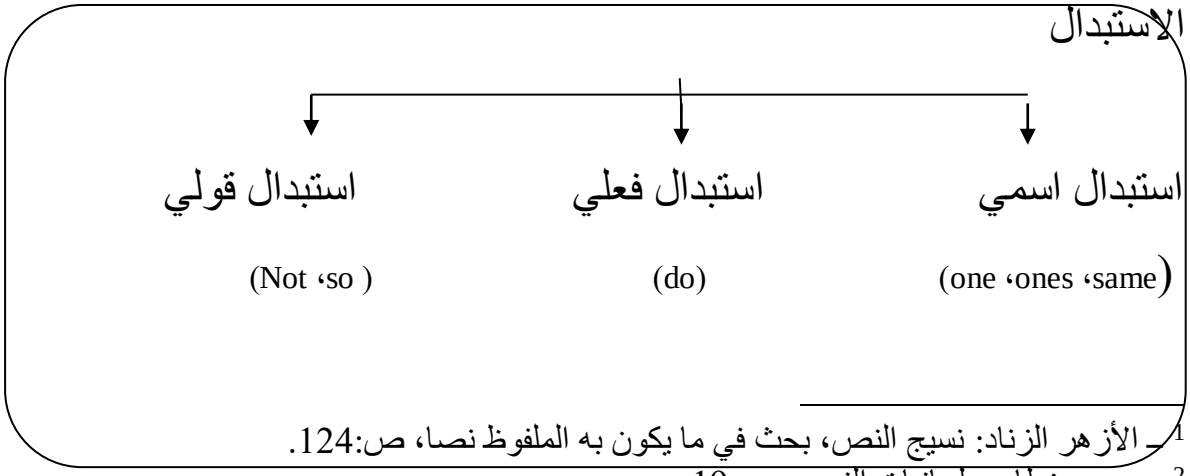

[1] ـ الأزهر الزناد: نسيج النص، بحث في ما يكون به الملفوظ نصا، ص:124.
[2] ـ محمد خطابي: لسانيات النص، ص:19.
[3] ـ ينظر المرجع السابق، ص: 19.
[4] ـ المرجع نفسه، ص:20.

من الضّروري التّساؤل الآن: كيف يساهم الاستبدال في اتّساق النّص؟ يكمن الجواب في العلاقة بين العنصرين المستبدِل والمستبدَل، وهي علاقة قبليّة بين عنصر سابق في النّص وبين عنصر لاحق فيه. ومن ثمّ يمكن الاستمراريّة أي وجود العنصر المستبدل، بشكل ما، في الجملة اللّاحقة، وهذا المثال سيوضّح القضيّة المطروحة:

استعرت سيارة فوجدتها جدّ قديمة فاستعرت أخرى(one) جديدة[1].

فإذا أخذنا العنصر سيارة كمستبدل للعنصر(one) فسوف نجد أن السيارة مستمرة في (one) وإن كانت سيارة مختلفة عن الأولى، إذ أنّ الأولى جدّ قديمة، بينما الثّانية جديدة"وهذا ما يدعوه الباحثان الاستمرار في محيط التقابل.

هنا يتّضح لنا كيف يختلف الاستبدال عن الإحالة في كونه يساهم في تماسك النّصّ على المستوى الشّكلي، بمعنى أنّه علاقة تتمّ على المستوى النّحوي والمعجمي، وكما أشرنا آنفا فمعظم حالات الاستبدال النّصّي قبليّة، أي علاقة بين عنصر متأخّر وآخر متقدم، ووظيفته الاتّساقية داخل النّصّ تجعل القارئ يتسلّح بالمعلومات الّتي تمكنه من تأويل العنصر الاستبدالي والّتي توجد في مكان آخر في النص، لذا ينبغي البحث عن الاسم، أو الفعل أو القول الذي يملأ هذه الثغرة في النص السابق[2]، فالعلاقة بين طرفي الاستبدال موجودة، فلئن كانت العلاقة بين عنصري الإحالة(المحيل والمحال إليه) علاقة تطابق، فإنّ العلاقة بين عنصري الاستبدال (المستبدِل والمستبدَل) علاقة تقابل تقتضي إعادة التحديد والاستبعاد[3]، ولعلّ أهمّ مزايا "هذه الظاهرة اللغوية، أنها تمكن كاتب النص من عرض أفكاره دون تكرار كلمات بعينها، ودون الاستعمال المفرط للضمائر، الأمر الذي قد ينعكس سلبا على مقروئية النص"[4] ،كما أنّها ظاهرة نصّيّة لها دورها في انسجام النّصّ والتحام عناصره.

2- 3 ــ الحذف(Ellipsis): يعتبر الحذف أداة من أدوات الاتّساق النّصي ، بحيث يقوم بدور فعّال في تماسك النّصّ وانسجامه، "وهو علاقة داخل النّصّ، وفي معظم الأمثلة يوجد العنصر المفترض في النّصّ السّابق، وهذا يعني أنّ الحذف عادة علاقة قبليّة، والحذف كعلاقة اتّساق لا يختلف عن الاستبدال إلّا بكون

---

[1]ـ بن يحي طاهر ناعوس: تحليل الخطاب القرآني في ضوء لسانيات النّص، دراسة تطبيقية في سورة البقرة، ص: 55.

[2] ـ ينظر محمد خطابي: لسانيات النص (مدخل إلى انسجام)، ص:20.

[3]ـ المرجع نفسه، ص: 21 .

[4] ـ محمد الأخضر الصبيحي: مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيـــــــــــــقه، الدار العربـــــــــية للعلوم ناشـــــرون، منشـــــورات الاختلاف، ص: 92

الأوّل "استبدالا بالصّفر"، أي أنّ علاقة الاستبدال تترك أثرا، وأثرها هو وجود أحد عناصر الاستبدال، بينما علاقة الحذف لا تخلّف أثرا، ولهذا فإن المستبدل يبقى مؤشرا يسترشد به القارئ للبحث عن العنصر المفترض، ممّا يمكنه من ملء الفراغ الذي يخلقه الاستبدال، بينما الأمر على خلاف هذا في الحذف، إذ لا يحلّ محلّ المحذوف أيّ شيء، ومن ثمّ نجد في الجملة الثّانية فراغا بنيويا يهتدي القارئ إلى ملئه اعتمادا على ما ورد في الجملة الأولى أو النّصّ السّابق بتعبير الباحثين"[1]. بمعنى أنّه لا يتمّ إلّا "إذا كان الباقي في بناء الجملة بعد الحذف مُغْنِيّا في الدّلالة، كافيّا في أداء المعنى، وقد يحذف أحد العناصر لأنّ هناك قرائن معنويّة أو مقاليّة تومئ إليه وتدلّ عليه، ويكون في حذفه معنى لا يوجد في ذكره"[2].

والحديث عن الحذف يقتضي التّسليم بمبدأ الأصليّة والفرعيّة في اللّغة، أي لابدّ من وجود تركيب أصلي أو صيغة أصليّة اعتراها الحذف، وهذا الأصل هو ما يسمّى بالبنيّة العميقة ، والوقوف عليه يكون من خلال عناصر البنية السطحية[3]، وللحذف كغيره من عناصر التّماسك النّصّي دور فعّال في اتّساق النّصّ، ولإدراك أهميّة هذا الدّور لابدّ أنّ البحث عنه لا يقتصر على الجملة الواحدة بل في العلاقة بين الجمل، وكما هو الحال بالنّسبة للاستبدال فقسمة هاليداي ورقيّة حسن إلى اسمي وفعلي وقولي، فإنّهما فعلا نفس الشّيء بالنّسبة للحذف(اسمي وفعلي وقولي)، ويعنى الحذف الاسمي حذف داخل المركّب الاسمي، ويقصد بالفعلي ذلك الذي يكون داخل المركّب الفعلي، أما القسم الثالث هوالحذف داخل شبه الجملة[4]، وذلك دليل على أنّ الكلام المحذوف سيكون مجرّد زيادة لا طائل منها لو بقي المحذوف قائما في النّصّ، وبالتّالي يشكل خللا فيه ويمكن أن نمثّل للحذف بالشّكل الآتي:

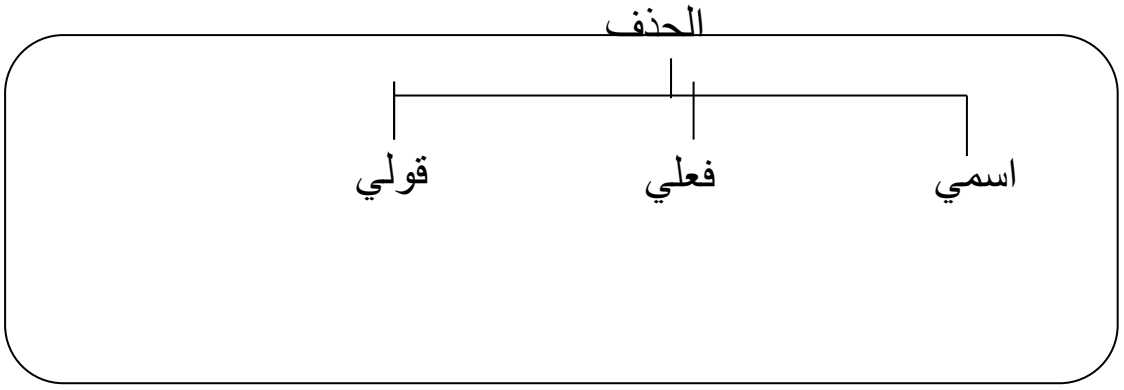

[1] ـ محمد خطابي: لسانيات النص (مدخل إلى انسجام الخطاب)، ص:21.
[2] ـ محمد حماسة عبد اللطيف، بناء الجملة العربية، ص: 208.
[3] ـ ينظر طاهر سليمان حمودة: ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي، الدار الجامعية للطباعة والنشـــــــر والتوزيـــــع، الاسكندرية،1998م،ص:17.
[4] ـ ينظرمحمد خطابي: لسانيات النص، ص:22.

يتّضح جليّا أنّ الحذف يقوم بدور معيّن في اتّساق النّصّ، وإن كان هذا الدّور مختلفا من حيث الكيف عن الاتّساق بالاستبدال أو الإحالة، ونظن أنّ المظهر البارز الّذي يجعل الحذف مختلفا عنهما هو عدم وجود أثر عن المحذوف فيما يلحق من النّصّ[1]،وهكذا يتمكّن الحذف من إحداث ذلك الاتّساق النّصّي بين العناصر اللّغوية المكوّنة للنّصّ، وبالتّالي تتحقّق نصيّة النّصّ من خلال العلاقات بين الجمل، وتتمّ هذه العلاقة بين عنصر وآخر وارد في جملة سابقة أو بين عنصر ومتتالية برمتها سابقة لأنّ الحذف عادة علاقة قبلية.

2ـــ 4ـ **الوصل**:هو "ربط عنصر سابق، بآخر لاحق، بواسطة عنصر دال: كالعطف والاستدراك، والإضراب، والتّعليل،والشّرط، والظّرف"[2]، وهو مظهر اتّساقي يختلف عن كلّ أنواع علاقات الاتّساق السّابقة، وذلك لأنّه لا يتضمّن إشارة موجّهة نحو البحث عن المفترض فيما تقدّم أو ما سيلحق،كما هو شأن الإحالة والاستبدال والحذف "إنه تحديد للطّريقة التي يترابط بها اللاحق مع السّابق بشكل منظّم، بمعنى أنّ النّصّ عبارة عن جمل أو متتاليات متعاقبة خطيا، ولكي تدرك كوحدة متماسكة تحتاج إلى عناصر رابطة متنوّعة تصل بين أجزاء النص"[3]، معنى ذلك أنّ هذا التّعاقب بين الجمل بفضله يتحقّق الوصل داخل النّصّ، فلكي تدرك هذه المتتاليات كوحدة متماسكة فلابدّ من توفّر عناصر رابطة متنوّعة تصل بين أجزاء النّصّ، ولما كانت وسائل الربّط في إطار الوصل متنوّعة فقد قسّم كلّ من الباحثين هاليداي ورقية حسن هذا المظهر إلى إضافي وعكسيّ وسببيّ وزمنيّ كما هو مبيّن في الشكل:

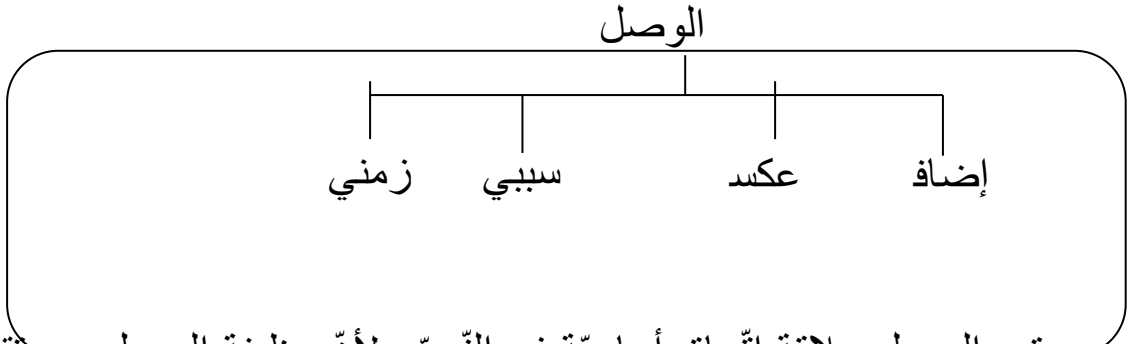

يعتبر الوصل علاقة اتّساق أساسيّة في النّصّ، لأنّ وظيفة الوصل هي تقويّة الأسباب بين الجمل وجعل المتواليات مترابطة متماسكة، فإذا كانت وظيفة أنواع الوصل المذكورة أعلاه متماثلة (نقصد بالوظيفة هنا الرّبط بين المتواليّات المشكّلة للنّصّ) فإنّ معانيها داخل النّص مختلفة، فقد يعني الوصل تارة معلومات مضافة

[1] ـ المرجع السّابق، ص:22.
[2] ـ عمر أبو خرمة: تحو النص، نقد النظرية ... وبناء أخرى، ص:82.
[3] ـ محمد خطابي، لسانيات النص، ص: 23.

إلى معلومات سابقة، أو معلومات مغايرة للسّابقة أو معلومات(نتيجة) مترتبة عن السّابقة(السّبب)، إلى غير ذلك من المعاني[1]، وبخصوص هذه الرّوابط، إن نسبة توظيف أدوات ذات طبيعة معيّنة، تحدّدها طبيعة النّصّ وموضوعه"فالنّص الفلسفي ــ مثلا ـ يقتضي توظيف أدوات تختلف عن تلك التي توظف ــ عادة ــ في نص أدبي سردي. ولكن أيا كان نوع النص، فإنّ الرّبط أو الوصل عن طريق هذه الأدوات، يعتبر عامل انسجام أساسيّا بما يتيحه من تقويّة العلاقات الجملية، وتمتين التّماسك بين المتواليات النصية"[2]، بحيث يعتبر الوصل من مقوّمات النّصّية الّتي لها صلة بالنّصّ وبعالمه الدّاخلي، لذلك فهو يسهم إسهاما فعّالا في تماسك النّصّ واتّساقه.

2- 5 ــ **الاتساق المعجمي**: وهو آخر مظهر من مظاهر اتّساق النّصّ، "وينقسم إلى قسمين: الاتّساق المعجمي التّكراري، والاتّساق المعجمي التّضامي، ويعرّف الأول، بأنّه إعادة عنصر معجمي، أو مرادفه، أو شبيهه، أو عنصر يشمله، ويعرّف الثّاني، بأنه توارد زوج من الكلمات بالفعل أو بالقوة؛ نظرا لارتباطهما بحكم علاقة ما"[3]، وحسب ما ذهب إليه كلّ من هاليداي ورقية حسن لتوضيح معنى التّضام فإنّ العلاقة النّسقية الّتي تحكم هذه الأزواج في خطاب ما هي علاقة التّعارض، مثلما هو الأمر في أزواج كلمات مثل: ولد، بنت، جلس، وقف، أحب، كره، الجنوب ، الشمال، أمر، خضع، إلخ.

إضافة إلى علاقة التّعارض هناك علاقات أخرى مثل الكلّ ــ الجزء، أو الجزء ـــ الجزء، أو عناصر من نفس القسم العام: كرسي، طاولة(وهما عنصران من اسم عام هو التّجهيز...) على أنّ إرجاع هذه الأزواج إلى علاقة واضحة تحكمها، ليس دائما أمرا هيّنا، هذا إذا كان ممكنا، مثال ذلك الأزواج التّالية: المحاولة، النجاح؛ المرض، الطبيب؛ النكتة، الضحك "[4]، تلك العلاقات الحاكمة للتضام متنوّعة تسهب كتب علم اللّغة الحديث في تفصيلها، وهي:

أولا: التّضاد، كلما كان حادا(غير متدرج) كان أكثر قدرة على الرّبط النّصّي، والتّضاد الحاد"قريب من النّقيض عند المناطقة، ويتّفق مع قولهم أنّ النّقيضين لا يجتمعان ولا يرتفعان"[5]، ومثال ذلك الأمثلة المطروحة آنفا، ويندرج تحت هذا التضاد أنواع أخرى مثل(العكس والتّضاد الاتّجاهي).

---

[1] ــ المرجع السابق، ص: 24 .
[2] ــ محمد الأخضر الصبيحي: مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه، ص:95 ــ 96 .
[3] ــ عمر أبو خرمة: تحو النص، نقد النظرية ... وبناء أخرى، ص:83.
[4] ــ محمد خطابي، لسانيات النص، ص:25.
[5] ــ أحمد مختار عمر: علم الدلالة، عالم الكتب، القاهرة، ط4، 1993م، ص: 102

ثانيّا:التّنافر، وهو مرتبط بفكرة النّفي مثل التّضاد مثل كلمات: خروف، فرس، قط، كلب، بالنّسبة لكلمة حيوان، وأيضا مرتبط بالرّتبة متل: ملازم، رائد، مقدم، عقيد، عميد، لواء، ويمكن أن يكون ذلك مرتبطا بالألوان مثل: أحمر،أخضر، أصفر...إلخ،وكذلك بالزّمن: فصول، شهور، أعوام...إلخ[1].

ثالثا: علاقة الجزء بالكلّ مثل علاقة اليد بالجسم، والعجلة بالسيارة[2]، وتقوم هذه العلاقات بين الكلمات داخل النّصّ بخلق خاصيّة التّضام الّتي تسهم في ترابطه واتّساقه بدلالاته المتناقضة.أمّا عن القسم الأوّل من الاتّساق المعجمي وهو التّكرار إنه "كظاهرة لسانيّة علامة على إعادة إنتاج نموذج ما ذي أهمية معرفية أو لغوية، فإنه يؤكّد مبدأ التّواصل المعرفي/ اللّغوي بين الخطابات عن طريق الاستيعاب، والتّمثل، وإعادة الإنتاج"[3]، إذ لا يمكن التّغافل عن الدّور الّذي يؤدّيه داخل النّصّ بحيث"يبدو تكرار العناصر المعطاة في الخطاب الواحد ضروريّا؛ لكونه يسهم في تكوينه الداخلي"[4]، وهو بذلك خاصيّة اتساقية فعّالة لا يمكن تجاوزها في دراسة النّصوص وتحليلها.

فالقارئ يتجاوز كلّ الصعوبات بخلق سياق تترابط فيه العناصر المعجمية معتمدا على حدسه اللّغوي وعلى معرفته بمعاني الكلمات وغير ذلك، وهذا يعني أنّنا لا نتوفر على مقياس آلي صارم يجعلنا نعتبر هذه الكلمة أقرب إلى هذه المجموعة أو تلك، ومن ثمّ فكلّ ما نستطيع قوله هو أنّ هذه الكلمة أشدّ ارتباطا بهذه المجموعة بارتباطها بمجموعة أخرى[5]، فالحدس اللّغوي للمتلقي، وإدراكه الجيّد لدلالة الكلمات، يجعله يدرك السّياق المناسب الّذي تشكّل فيه الوحدات اللّغوية ترابطا وانسجاما.

هذه هي وسائل الاتّساق الّتي تعتمدها النّصوص في تماسكها جملة فجملة، مقطعا فمقطعا في نظر الباحثين هاليداي ورقية حسن، وهي، كما نلاحظ ذلك، وسائل موجودة في النّص، ممّا يترتّب عنه أنّ الباحثين لا يعتبران دور القارئ في صنع اتساق النص"[6]، إذ لا يمكن إبعاد المتلقي عن النّصّ، ذلك لإنّ العلاقة التّواصلية بينه وبين منتج النّصّ لابدّ أن لا تنقطع ، فلكلّ دوره في استمراريّة هذا

---

[1] ـ ينظر المرجع نفسه، ص:103 ــ 106.

[2] ـ المرجع نفسه، ص: 101.

[3] ـ عبد الفتاح أحمد يوسف: لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة، فلسفة المعنى بين نظلم الخطاب وشروط الثقافة، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، 1413هـ ـ 2010م، لبنان، ص: 97 .

[4] ـ رشيد بن مالك: قاموس مصطلحات التحليل السيميائي للنصوص، دار الحكمة، الجزائر، 2000م، ص: 15 .

[5] ـ محمد خطابي، لسانيات النص، ص:25.

[6] ـ المرجع نفسه، ص: 25.

النّصّ لأنّ"الفهم المسبق الذي يصوغه منتج النّص..هو الجزء المخطط لفعل التّواصل، حيث ينشط مؤلّف النّصّ من خلال صياغات وصياغات معدلة (تصويبات وإصلاحات) عمليّة خلاقة للإفهام الذّاتي السّاري اجتماعيا، واللّغة بهذا المعنى.. نشاط اجتماعي لتطوّر البشر. وينتج الفهم المسبق الّذي يتنبّأ به المتلقي من جهة عن موقف التّوقع الخاص به، ومن جهة أخرى عن تجاربه النّصيّة المستلزمة من جهة لهجته الفردية، فكلّ جملة نصّ متحقّقة تنتج لدى متلقي النّص عددا معيّنا من توقعات الاستمرار الّتي تؤكّد أو لا تؤكّد في أثناء تلقي النّص"[1]، فالقارئ له دوره هو الآخر في صنع هذا الاتّساق النّصّي .

وبالنسبة للاتّساق وبنية الخطاب"ينبه الباحثان إلى أنّ الاتّساق ليس اسما آخر لبنية الخطاب، وذلك ّ هذا المفهوم الأخير يستعمل للإشارة إلى وحدة مفترضة أعلى من الجملة، كالفقرة مثلا، بينما يأخذ مفهوم الاتّساق بعين الاعتبار العلاقات في الخطاب، فهو يشير إلى مجموعة من الإمكانيات التي تربط بين شيئين، وبما أنّ هذا الرّبط يتمّ من خلال علاقات معنويّة، فإنّ ما يهمنا هو العلاقات المعنويّة الّتي تشتغل بهذه الطريقة: أي الوسائل الدّلالية الموضوعة بهدف خلق النّصّ"[2]، وهذه العلاقات ساهم في وجودها العناصر المذكورة أعلاه والّتي تحقّق للنصّ نصّيّته، كما أنّها تعمل على خلق النّصّ من خلال تجسيد ذلك التّرابط والالتحام بين عناصره.

3ـــ حقيقة الإعجاز عند الرافعي:

يرى الرّافعي أنّ الإعجاز أمران:

الأوّل:ضعف القدرة الإنسانيّة في محاولة المعجزة ومزاولته على شدّة الإنسان واتّصال عنايته.

الثّاني: استمرار هذا الضّعف على تراخي الزّمن وتقدّمه؛ فكأنّ العالم كلّه في العجز إنسان واحد ليس له غير مدّته المحدودة بالغة ما بلغت؛ فيصير من أمر المعجز إلى ما يشبه في الرّأي مقابلة أطول النّاس عمرا بالدّهر على مداه كلّه[3]، وهو بذلك يبيّن عجز الإنسان عن معارضة القرآن في أيّ عصر كان، ذلك أنّ الله تحدى العرب على الإتيان بمثله، وهذا التّحدي لا يقتصر على زمن معين وإنّما

---

[1] ـ زتسيسلاف واورزنياك: علم النص(مشكلات بناء النص)، ترجمه وعلق عليه: سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1 ،1424هـ ـ2003م، ص:84 ـ 85.

[2] ـ محمد خطابي: لسانيات النص، ص:16.

[3] ـ مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت، 1410هـ ـــ 1990م، ص: 139.

يبقي قائما إلى أن يرث الله الأرض وما عليها، غير أنّ البيئة الأولى كان أهلها أصحاب بلاغة وفصاحة لذلك أولى لهم أن يقبلوا هذا التّحدّي، فظهر العجز، وهذا الضّعف وعدم القدرة ذات استمرارية زمنيّة بحيث يظهر العالم كلّه في العجز إنسان واحد، فالإعجاز يفوق فطرة الإنسان، ونلحظ الدّقة التي توخّاها الأديب في حديثه عن مفهوم الإعجاز فربط عامل الزّمن وعلاقته بضعف القدرة الإنسانيّة، والمقدرة المقصودة من قوله تشمل الإنس والجن معا على حد سواء ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا.

ولكن مع ذلك، فإنّ اكتشاف بعض جوانب الإعجاز أمر ممكن بحسب تخصّص أهل العلم، كل في مجاله، وقد رأى الرافعي أن البحث في حقيقة الإعجاز ينبغي ألا يحصر في وجه بعينه، أو يرد إلى ناحية خاصة مثلما فعل بعض من سبقه، كأن يحصره "النظام"(ت221ه) في الصّرفة* أو "الرماني" (ت384ه)في الفصاحة أو"عبد القاهر الجرجاني" في النّظم، بل يجب النظر إلى الإعجاز من جوانب كثيرة كالجانب العلمي والإخباري والجانب الأدبي واللّغوي والجانب النّفسي، والجانب البلاغي[1].

ويبيّن الرافعي حقيقة الإعجاز التي توصل إليها من خلال ما حقّقه من بحثه، وبعد فترة من التّأمّل وتصفّح الآراء وإطالة الفكر ونضج الرّؤية، وما استخرجه من القرآن نفسه في نظمه ووجه تركيبه واطّراد أسلوبه، ثمّ ما تعاطاه لذلك من التّنظير والمقابلة واكتناه الرّوح التّاريخية في أوضاع الإنسان وآثاره، وبعد تتبّعه لكلام البلغاء، وردّ وجوه البلاغة إلى أسرار الوضع اللّغوي بالإبانة عن حياة المعنى بتركيب حيّ من الألفاظ يطابق سنن الحياة في دقة التّأليف وإحكام الوضع وجمال التّصوير وشدّة الملاءمة، حتّى يكون أصغر شيء فيه كأكبر شيء[2]، ليخلص في النّهاية ويسفر على أنّ "القرآن معجز بالمعنى الّذي يفهم من لفظ الإعجاز على إطلاقه، حين ينفى الإمكان بالعجز عن غير الممكن، فهو أمر لا تبلغ منه الفطرة الإنسانية مبلغا وليس إلى ذلك مأتى ولا جهة؛ وإنما هو أثر كغيره من

* الصّرفة: صرف الهمم عن المعارضة، وعل ذلك كان يعتمد بعض أهل العلم في أنّ القرآن معجز من جهة صرف الهمم عن المعارضة. ينظر:أبو الحسن علي بن عيسى الرّماني(ت386ه): النكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز، ص:110.

[1] ـ عز الدين بوبيش: حقيقة الإعجاز القرآني عند الرافعي، مجلة التراث العربي،ص: 112 .
[2] ـ المرجع نفسه، ص: 156 .

الآثار الإلهية"[1]، ويذهب إلى أنّ بيان إعجاز القرآن بالنّسبة إليه ليس من خلال الوجوه العامة الّتي لا تخالف الفطرة الإنسانية في شيء، فهذه الفطرة تعترف بأنّ القرآن معجز في تاريخه دون سائر الكتب؛ وفي أثره الإنساني؛ وفي حقائقه، فهذه الوجوه هي باقية ما بقيت، وهذا الأمر ليس ما يصبو إليه الرّافعي لأنه يريد أن يبين بيان إعجاز القرآن في نفسه من حيث هو كلام عربي[2].

ويشير الرّافعي إلى أنّ البيئة التي نزل فيها القرآن لم تخل من الفصاحة والبلاغة والبيان بل كانت عماد ذلك، ورأى بأنهم قد أطالوا الشعر وتفنّنوا فيه، فبعض شعرائهم يعتبر نابغة في تاريخه بما ما زاد من محاسنه وابتدع من أغراضه ومعانيه، كما كان لهم من تهذيب اللّغة ما يجعل الكلمة نافذة لا يصدّها اختلاف في اللّسان ولا يعتريها تناكر في اللّغة؛ فقامت فيهم بذلك دولة الكلام، ولكنها بقيت بلا ملك حتى جاءهم القرآن[3]، وكأنّ كلام العربي وتاريخه هو بساط مجهّز ليقف عليه القرآن الكريم، وتهيئة لظهوره.

4 ــ أسلوب القرآن عند الرافعي:

تفرّد القرآن الكريم بأسلوبه المتميّز الذي لا يضاهيه أيّ أسلوب بشري مهما بلغ من البيان والفصاحة والبلاغة، والعلماء أدركوا جيّدا أهمية هذا الأسلوب فقاموا بعدة دراسات حوله وأولوا له العناية البالغة، وقد بيّن الزركشي(ت794ه) رحمه الله أهميته قائلا:"هو علم شريف المحل، عظيم المكان، قليل الطلاب، ضعيف الأصحاب، ليست له عشيرة تحميه، ولا ذوو بصيرة تستقصيه، وهو أرقّ من الشّعر، وأهول من البحر، وأعجب من السّحر،و كيف لا يكون وهو المطلع على أسرار القرآن العظيم، الكافل بإبراز إعجاز النّظم المبين ما أودع من حسن التّأليف وبراعة التّركيب، وما تضمّنه في الحلاوة، وجلله في رونق الطلاوة، ومع سهولة كلمه وجزالتها، وعذوبتها وسلاستها"[4]، هذا الأسلوب الّذي يتضمّن ثراء المعنى، وعذوبة العبارة، والتّناسق بين الألفاظ والمعاني "وهو مادّة الإعجاز العربي في

---

[1] ـ المرجع نفسه، ص: 156.

[2] ــ ينظر، عز الدين بوبيش: حقيقة الإعجاز القرآني عند الرافعي، ص:157.

[3] ــ ينظر: عز الدين بوبيش: حقيقة الإعجاز القرآني عند الرافعي، ص:157 .

[4] ــ أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط1376،1ه ،ج2، ص: 382.

كلام العرب كله"[1]، بحيث مثّل لهم اليأس فلا طمع في معارضته، كما صوّر لهم العجز فلا مقدرة لهم على الإتيان بمثله.

ولما كان الكلام من نفس فنون القول وجنسه، كانوا لا يتناهون عن الإبداع وخاصة في مجال الشّعر، وشجّعتهم فطرتهم وسليقتهم على التّساجل في الكلام وتقارض الشّعر والتّناقض في أغراضه ومعانيه، ذلك أنّ أسلوب الكلام من جنس واحد، فكان كل شيء على السجية" حين لم يكن الفرق عند فصحائهم بين فن وفن من القول، وكان أسلوب الكلام قبيلا واحدا وجنسا معروفا، ليس إلّا الحر من المنطق والجزل من الخطاب، وإلّا اطّراد النّسق وتوثيق السّرد وفصاحة العبارة وحسن ائتلافها، لا يغتصبون لفظة، ولا يطردون كلمة، ولا يتكلفون لتركيب، ولا يتلوّمون* على صنعة"[2]، والكلام يخرج منهم مرصّعا كالدّرر، كأنّ الألفاظ وضعت خصّيصا لتلك المعاني دون سابقة تأليف أو نظم، وإذا ما استبدلت بغيرها مجّت الأسماع، هذه الصّفات هي ما بلغته فصاحتهم وبيانهم، ولما ورد عليهم أسلوب القرآن لم يكن بلغة مغايرة، أو بحروف غريبة عن الّتي ألفوها، ورغم ذلك وقع العجز لأنّه أسلوب يختلف كلّ الاختلاف عن الأسلوب البشري.

فهو"بليغ النّظم عجيب التّأليف، متناه في البلاغة، وهذا الإبداع لا يختصّ بموضوع دون آخر ولا يتفاوت من آية إلى أخرى، أي أنّ نظمه بديع في قصصه، ومواعظه، وتبشيره وتخويفه ووعده ووعيده، كما هو بديع على حد سواء في حكمه وأحكامه وفيما يشتمل عليه من أخلاق كريمة، وسِيَر مأثورة، وفيما يضربه من أمثال وما يأتي به من حجج ولا تفاوت في نظمه بين آياته الطويلة وآياته القصيرة، ولا تفاوت أيضا بين قصصه المكرّرة وهو ينتقل بك من معنى إلى معنى فلا تجد فيه ذلك الضعف الذي تجده عند البلغاء عندما ينتقلون من شيء إلى شيء ومن باب إلى باب"[3]، فهو أسلوب فريد من نوعه، أخاذ يجلي الحقائق ويقرر المعاني، يقيم الحجج ويدحض الشّبهات، يتَّسِم بثراء المعاني فلا نجد لها تناقضا مهما تجدّدت ، هذا الأسلوب الّذي شهد له أعداء الإسلام بهذا الفضل الكبير .

---

[1] ـ مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص: 188.

* ـ أي لا ينقحون ويحككون ويبطئون لذلك في عمل الكلام.

[2] ـ مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن، ص:188.

[3] ـ بغدادي بلقاسم: المعجزة القرآنية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص: 109.

وينبّه الرّافعي إلى أنّ الاختلاف القائم بين أساليب البلغاء راجع إلى مزاج كلّ منهم، فجوهر الاختلاف بين الأساليب الكتابيّة، في الطّريقة الّتي هي موضع التّباين لا في الصّنعة كالمحسنات اللّفظية ونحوها"إنما هو صورة الفرق الطّبيعي الّذي اختلفت به الأمزجة بعضها عن بعض على حسب ما يكون فيها أصلا أو تعديلا؛ كالعصبيّ البحت، والعصبيّ الدّموي، وغير ذلك مما هو مقرّر في الفروع الطبيّة، حتّى كأنّ الأسلوب في إنشاء كلّ بليغ متمكّن ليس إلا مزاجا طبيا للكلام، وما الكلام إلا صورة فكريّة من صاحبه"[1]، وهو بذلك يقرّ باستخلاص أوصاف الكاتب من أسلوب كتابته، وذلك من خلال الأوصاف النّفسيّة الّتي تنتج عن تلك الأمزجة، وراح يضرب لنا أمثلة عن أهمّ البلغاء كابن المقفع (ت142ه)وعبد الحميد الكاتب(ت 132ه) وسهل بن هارون (ت215ه)والجاحظ(ت 255ه)، على أنّ هؤلاء عجز علماء وأدباء البلاغة ووجوه الكلام على تهيّئة أسلوب كأسلوب أحد منهم، وذلك عائد إلى الأمزجة المختلفة، فالإخفاق كائن حتّى في التّقليد، وينبّه الرّافعي أنّ أحدهم "إذا استطاع تعديل مزاجه على وجه من الوجوه الطبية، ليكون بين المزاجين، فقد يستطيع تعديل أسلوبه على وجه يكون وسطا بين أسلوبين"[2]، وحتّى عبد الحميد الكاتب فضرب مثلا به، فهو رأس تاريخ الكتابة العربية وواضع طريقتها، الّذي حفظ كلام أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه، ورضي الله عنه وأرادها على طريقته، يرى الرّافعي بأن الكتابة جاءت"فنا آخر لم يستحكم اتفاق الأسلوب بينها وبين ما أُثِر من كلام الأمام علي"[3].

يريد الرّافعي من تقصّي أساليب البلغاء والنّظر فيها على هذا الوجه، ليبيّن أنّ القرآن الكريم ينفرد بأسلوبه، لأنّه ليس وضعا إنسانيّا، ولو كان كذلك لجاء على طريقة تشبه أسلوبا من أساليب العرب، أو من جاء بعدهم، مشيرا إلى أنّ العرب قد أدركوا ذلك مبكّرا واستيقنه بلغاؤهم، لأنّهم رأوا جنسا من الكلام غريب عن طباعهم، وظهرت فيه قدرة القادر على البشر، فوقع عجز معارضته.

5 ــ ملامح التّماسك في أسلوب القرآن عند الرافعي:

[1] ــ ـ مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص:202 .
[2] ـ المرجع نفسه، ص:203 .
[3] ــ المرجع نفسه، ص: 203.

يقول الرّافعي:"فلما ورد عليهم أسلوب القرآن رأوا ألفاظهم بأعيانها متساوقة فيما ألفوه من طرق الخطاب وألوان المنطق، ليس في ذلك إعنات ولا معاياة، غير أنهم ورد عليهم من طرق نظمه، ووجوه تركيبه، ونسق حروفه في كلماتها، وكلماته في جملها، ونسق هذه الجمل في جملته ما أذهلهم عن أنفسهم، من هيبة رائعة وروعة مخوفة، وخوف تقشعرّ منه الجلود؛ حتى أحسّوا بضعف الفطرة القويّة، وتخلف الملكة المستحكمة؛ ورأى بلغاؤهم أنّه جنس من الكلام غير ما هم فيه.."[1]، فالسبك كخاصيّة نصّيّة هي أهمّ العناصر الّتي ميّزت أسلوب القرآن الكريم بداية باتّساق الألفاظ، وهي ذات الألفاظ الّتي يتعامل بها العرب في خطاباتهم، فقد خانتهم فطرتهم عند مواجهة كلام الله وأصابهم الذّهول في طريقة نظمه، وذلك من خلال التّناسب بين حروفه وكلماته، وبين الكلمات وجمله، وبين الجمل في الوحدة الكليّة له، إضافة إلى الحبك هو ذلك الانسجام الّذي جعل هذا الأسلوب متفرّدا، ونراه واضحا من خلال العلاقات الدّلالية القائمة بين الكلمات مع سابقتها وما بعدها، وبين الجمل وما يسبقها وما بعدها أيضا، ذلك أنّ ثراء المعاني هي ميزة خاصّة بأسلوب القرآن، وهي تتجدّد والتي يتم استنباطها بتدبّر القرآن على أن لا يكون متدبّر القرآن "مقتصرا على مجرّد معنى اللّفظ بمفرده بل ينبغي له أن يتدبّر معنى اللّفظ، فإذا فهمه فهما صحيحا على وجهه نظر بعقله إلى ذلك الأمر والطّرق الموصلة إليه وما لا يتم إلا به وما يتوقّف عليه، وجزم بأنّ الله أراده، كما يجزم أنّه أراد المعنى الخاص، الدّال عليه اللفظ"[2].

فتناول الأسلوب القرآني لما يناسب تنوّع أفهام النّاس في مختلف العصور من أسباب هذا التجدّد والثراء..شريطة أن يكون هذا المعنى ضمن ما تسمح به تراكيب الكلام ويحتمله المعنى ولا يمنع من ذلك مانع صريح أو غالب من دلالة شرعية أو لغوية أو توقيفية[3]، ويبدو أنّ البلغاء في عصرهم لما نزل عليهم القرآن الكريم قد أدركوا حقيقة هذا الأسلوب الربّاني رغم كفرهم، وهم الّذين ملكوا اللّغة، وعرفوا أسرارها، وتحكّموا في البلاغة والفصاحة، فاستطاع القرآن بسموّ روحه أن يخترق نفوسهم، وشعروا بالعجز نحوه.

---

[1] ـ المرجع السّابق، ص:189 .

[2] ــ عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تح: عبد الرحمن معلا اللويحق، ط1 ، 1420هـ ،ص: 387 .

[3] ــ أبو بكر بن محمد فوزي البخيت: خصائص الأسلوب القرآني، كرسي القرآن الكريم وعلومه، ط1 ، ص1436هـ ، جامعة الملك سعود، الرياض، ص: 383.

ويواصل الرّافعي في بيان روعة ذلك التّماسك في الأسلوب من أنّه لا يمكن أن يعارضه أحد فكلام كهذا القرآن"أحكم دقيقه وجليله، وامتنع كثيره وقليله، وأخذ منافذ الصّنعة كلّها، واستبرأ المعنى الّذي هو فيه إلى غايته...وقد توثّقت علائقه، وترادفت حقائقه، وتواردت على ذلك دقائقه، ثمّ كانت جملته قد أحرزت عناصر الفطرة البيانية وجمعت فنونها، واحتوت من الكمال الفني ما كان إحساسا صرفا في نفوس أهله، يشعرون به وجدانا، ولا يقدرون على إظهاره بيانا"[1]، فإذا كانت أساليب العرب متفرّدة بنظمها وأساليبها وعباراتها ونماذجها الفذة؛ فهي بعيدة كلّ البعد عن ذلك الأسلوب المتميّز"بالتباس المعاني فيما بينها في العبارة الواحدة، وتماسكها واتّساقها وكأنّها صبّت في ذلك القالب اللّغوي إصبابة واحدة وسبكت سبكا واحدا"[2]، وبذلك يشير الرّافعي إلى البناء النّصّي للقرآن الكريم، فاللفظ الواحد وجوده مرهون بسابقه وتاليه، ولا يمكن التّصرّف في هذه الألفاظ على أسلوب بشري، ولو حدث ذلك لخرج الكلام من باب البلاغة إلى باب الكلام الذي ألفه سائر البشر، وألفاظ القرآن قد اختيرت لمواضعها فلو كانت في غير مكانها لارتبك التعّبير لأنّ الألفاظ هي التي"تسوس المعاني وتنزلها في منازلها، وتضعها على أقدارها، لا من حيث إنّ اللّفظ هو الّذي يوجد المعنى، فذلك ظاهر الاستحالة، ولكن على أنّه هو الّذي يخصّص المعنى إذا كان جنسا، وهو الّذي يؤكّد مبالغة في تلوين صورته النّفسية حتّى تنطق أجزاؤه، وحتّى يقوم كل جزء منها في البيان اللّغوي مقام الكلّ الّذي هو مادّة الشّعور الطّبيعي"[3]، إنّ القرآن جامع في أسلوبه لكلّ أوضاع البيان، والكمال اللّغوي يكمن فيه، معانيه كثيرة وأغراضه وفيرة"ففي كلّ جملة فيه جهاز من أجهزة المعنى، وفي كل كلمة منه عضو من أعضائه، وفي كل حرف منه جزء بقدره، وفي أوضاع كلماته من جمله، وأوضاع جمله من آياته سر

[1] ـ مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص: 190.

[2] ـ عبد الرحمن بودرع: في لسانيات النص وتحليل الخطاب، نحو قراءة لسانية في البناء النصي للقرآن الكريم، بحث مقدم للمؤتمر الدولي للدراسات القرآنية، المؤتمر الدولي لتطوير الدراسات القرآنية، 1434/4/6هـ – 2013/2/16م، ص: 24.

[3] ـ مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب، راجعه وضبطه، عبد الله المنشاوي، مهدي البحقيري، مكتبة الإيمان، ج1، ص:194 .

الحياة الذي ينتظم المعنى بأداته"[1]، وذلك دليل على أنّه من أوّله إلى آخره نص واحد مترابط الأجزاء، مؤتلف ومتماسك.

6 ـــ التّماسك النّصّي منمنظور الرّافعي:

المتفحص لكتاب "الإعجاز القرآني والبلاغة النبوية" للأديب الرّافعي يدرك كل الإدراك بأنّه لم يغفل فكرة التّماسك النّصّي في مؤلفه، فقد طرح عدّة قضايا لها صلة وطيدة بما بحثت فيه الدّراسات النّصيّة الغربيّة، ولو أنّ الرافعي انتهج هذا النّهج في الدراسة ليس تأسيسا لها كنظرية في حدّ ذاتها ولكنّه يتعامل مع النّص القرآني واقفا على وجوه الإعجاز كما يراها وتتبيّن له، وما يميّز مدوّنته أنّها لم تحفل كثيرا بالأمثلة التّطبيقية مقارنة مع كتب الإعجاز عند السّابقين، ولكن في القلّة الّتي أوردها إضافة إلى الدّراسات النّظريّة الّتي قدّمها نلمس مدى اتّساع فكره وبعد رؤيته، ولابدّ بأنّ الرّجل قد نحا نفس اتّجاه الجرجاني عندما ألّف كتابه"أسرار البلاغة"، حيث أنّه جعل الدّراسات التّطبيقيّة لإعجاز القرآن في كتاب آخر سماه"أسرار الإعجاز"، في هذا الكتاب حشد"أمثلة قرآنيّة بيّن فيها أسرار إعجازها في اللّفظ والمعنى والفكرة العامّة، وسمّاه"أسرار الإعجاز"، تماما كما حاول عبد القاهر من قبل في "دلائل الإعجاز"و "أسرار البلاغة"ولكن شاء الله ألّا يبرز كتاب الرّافعي في "أسرار الإعجاز" إلى الوجود"[2] .

ويبدو أنّ الرّافعي قد تأثّر بالدّراسات القديمة في مجال الإعجاز، وبدأ دراسته حيث انتهى الأوّلون، فقد تتبّع كلّ الدّراسات السّابقة تتبّعا دقيقا" ولم يكتف بهذا بل تجاوزه إلى استنباط مبادئ وأحكام تعلّل الظّاهرة الإعجازية بما يناسب عصره، كاشفا عن أدوات إجرائيّة مميّزة لقراءة الظّاهرة الإعجازيّة في القرآن"[3]، والّتي تعمل على مقاربة النّصّ القرآني"ففي المقاربة النّصّيّة ما يخدم الغرض ويفيد في الاستدلال على أسرار النّصّ القرآني وأعماقه الجماليّة والنّصّيّة، الّتي ترتكز على الاستمداد من بنيته النّصّية نفسها، الّتي تتوافق وسياقه الخارجي ومقاصده العليا ولا تعارضها"[4]، فالنّصّ القرآني من أوّله إلى آخره كيانا واحدا، وكلا مؤتلفا

---

[1] ـ محمد عبد الله دراز: النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، اعتنى به وخرج أحاديثه: عبد الحميد الدخاخني، دار طيبة للنشر والتوزيع،المملكة العربية السعودية، ط1، 1417هـ ـ 1997م/ط1421،2هـ ـ 2000م ،ص:141 .

[2] ـ صلاح الدين محمد عبد التواب: النقد الأدبي، دراسات نقدية وأدبية حول إعجاز القرآن، الكتاب الثاني، دار الكتاب الحديث، 1423هـ ـ 2003م، ص: 54.

[3] ـ حورية قادري: مفهوم النص في إعجاز القرآن والبلاغة النبوية عند مصطفى صادق الرافعي، مقال نشر بمجلة دراسات، العدد الرابع، ديسمبر 2013م، جامعة بشار، ص: 72.

[4] ـ عبد الرحمن بودرع: في لسانيات النص وتحليل الخطاب، نحو قراءة لسانية في البناء النصي للقرآن الكريم، ص:27 .

متجانسا، أي أنّه وحدة بنائيّة فهو "بكل سوره وآياته وأجزائه وأحزابه وكلماته يعتبر كأنه جملة واحدة"[1]، والرافعي نظر إليه كلّا منسجما واحدا، وفي ذلك دليل على مدى إدراكه لخاصتي الاتّساق والانسجام النّصّي في القرآن الكريم لأنّه من أولئك العلماء الّذين كانت الفرصة مهيّأة أمامهم"لأنّ يتجلّى المنهج على أيديهم بيانا ساطعا وخطى محددة أكثر من غيرهم، وأن يتّسع أمامهم البحث ليجاوز حدود الجملة إلى الخطاب؛ فقد وجدوا أنفسهم إزاء نصّ آمنوا بداية باتّساقه وانسجامه، وكان لهذا صداه في مقاربتهم"[2]، وخاصيتا الاتّساق والانسجام جعلهما روبرت دي بوجراندمن المعايير التي تتحقق بهما نصيّة النّص، وقد أشار إليهما بمصطلحي السّبك Cohesionوالالتحام Coherenceإضافة إلى معايير أخرى اقترحها لجعل النّصيّة أساسا مشروعا لإيجاد النّصوص، وباعتماد هذه العناصر الّتي حدّدها دي بوجراند سنقف عند عناصر معايير النّصية عند الرافعي لنرى نظرة الرافعي لتماسك النّص وفق ما حدّده ديبوجراند من آليات للتّماسك النصي وتحقيق نصية النصوص، وهي كالآتي:

1/السّبكCohesionوهو يترتّب على إجراءات تبدو بها العناصر السّطحيّةSurface على صورة وقائع يؤدي بها السّابق منها اللاحق progressive occurranceبحيث يتحقّق لها الترّابط الرّصفي، ويتحقّق ذلك بتوفّر عناصر كالإحالة والحذف والروابط والتكرار[3]، فالنّص عبارة عن وحدة تترابط أجزاؤها باستعمال أدوات خاصة وواضحة، وهذه الأدوات تعمل على تتابع الكلمات تتابعا منتظما من الوجهة النّحويّة والمعجميّة، فالاتّساق أو السّبك يعنى بالبنية الشّكليّة أو السّطحيّة للنّص.

2/ الالتحامCoherenceوهو يتطلّب من الإجراءات ما تتنشّط به عناصر المعرفة لإيجاد التّرابط المفهومي(conceeptuual conectivity) واسترجاعه، وتشتمل وسائل الالتحام على العناصر المنطقيّة كالسّببيّة والعموم والخصوص، معلومات عن تنظيم الأحداث والأعمال والموضوعات والمواقف والسّعي إلى التّماسك فيما يخصّ التّجربة الإنسانيّة[4]، وهناك من رأى إطلاق مصطلح الحبك على الانسجام بمعنى حبك عالم النّصّ، فهو يتعلّق بالعلاقات الدّلالية ويقابل السّبك الّذي يتعلّق بالعلاقات الشّكليّة داخل النّصوص.

---

[1] ـ طه جابر العلواني: الوحدة البنائية للقرآن المجيد، مكتبة الشروق الدولية، ط1 ،1427هـ ـ 2006م، ص: 13.

[2] ـ محمد عبد الباسط عيد: النص والخطاب، قراءة في علوم القرآن، تقديم: صلاح رزق، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 1420هـ ـ 2009م، ص: 19.

[3] ـ روبرت دي بوجراند: النص والخطاب والإجراء، ص: 103.

[4] ـ ينظر، المرجع السابق، ص: 103 .

3/القصد*INTENTIONALITY: وهو يتضمّن موقف منشئ النّصّ من كون صورة ما من صور اللّغة قصد بها أن تكون نصّا يتمتّع بالسّبك والالتحام وأنّ مثل هذا النّص وسيلة من وسائل متابعة خطّة معيّنة للوصول إلى غاية بعينها، وهناك مدى للتغاضي في مجال القصد، حيث يظل القصد قائما من النّاحية العمليّة حتى مع عدم وجود المعايير الكاملة للسّبك والالتحام، ومع عدم تأديّة التخطيط إلى الغاية المرجوّة، وهذا التّغاضي عامل من عوامل ضبط النّظام يتوسّط بين المرتكزات اللّغوية في جملتها والمطالب السائدة للموقف.

4/**القبول**ACCEPTABILITY :وهو يتضمّن موقف مستقبل النّصّ إزاء كون صورة ما من صور اللّغة ينبغي لها أن تكون مقبولة من حيث هي نص ذو سبك والتحام، وللقبول أيضا مدى من التغاضي في حالات تؤدّي فيها المواقف إلى ارتباك، أو حيث لا توجد شركة في الغايات بين المستقبل والمنتج.

5/**رعاية الموقف** SITUATIONALITY:وهي تتضمّن العوامل التي تجعل النّصّ مرتبطا بموقف سائد يمكن استرجاعه، ويأتي النّص في صورة عمل يمكن له أن يراقب الموقف وأن يغيرّه..إنّ مدى رعاية الموقف يشير دائما إلى دور طرفي الاتّصال على الأقل، ولكن قد لا يدخل هذان الطّرفان إلى بؤرة الانتباه بوصفهما شخصين[1].

6/**التّناص**INTERTEXTUALITY : وهو يتضمّن العلاقات بين نص ما ونصوص أخرى مرتبطة به وقعت في حدود تجربة سابقة سواء بوساطة أو بغير وساطة، وهو أهمّ عنصر من العناصر المحقّقة للنّصانية، فلا يخلو نص من حضور أجزاء أو مقاطع من نصوص أخرى، وأبرز أشكال هذا الحضور الاقتباسات والأقوال التي عادة ما يستشهد بها الكاتب[2]، فالتناص في أبسط صوره، يعني أن يتضمّن نص أدبي ما نصوصا أو أفكارا سابقة عليه عن طريق الاقتباس أو التّضمين أو التّلميح أو الإشارة أو ماشابه ذلك من المقروء الثّقافي لدى الأديب، بحيث تندمج هذه النّصوص أو الأفكار مع النّص الأصلي وتندغم فيه ليتشكّل نص جديد واحد متكامل[3].

7/**الإعلاميّة** INFORMATIVITY: وهي العامل المؤثّر بالنّسبة لعدم الجزم في الحكم على الوقائع النّصيّة، أو الوقائع في عالم نصي في مقابلة البدائل الممكنة،

*القصد INTENTIONALITY، ص:605. ينظر ترجمة جميع المصطلحات المذكورة : روبرت دي بوجراند: النّص والخطاب والإجراء،(ملحق الألفاظ والتّصورات (584 ــ 632) .

[1] ـ المرجع نفسه، ص: 103 ــ 104.

[2] ـ محمد الأخضر الصبيحي: مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه، ص: 100.

[3] ـ أحمد الزغبي: التناص نظريا وتطبيقيا، مؤسسة عمون للنشر والتوزيع، 2000م، عمان، ص: 11 .

فالإعلامية تكون عالية الدرجة عند كثرة البدائل، وعند الاختيار الفعلي لبديل من خارج الاحتمال[1]، وكلّ نص يحتمل قدرا معلوما من القدرات الإخبارية.

ويرى دي بوجراند أنّه من بين هذه المعايير السّبعة معياران تبدو لهما صلة وثيقة بالنّصّ وهما السّبك والالتحام، لذلك سنقوم بالبحث عن هذه المعايير في مدوّنة الرافعي ونقف على أهمّ الآليات الّتي استعملها الكاتب في دراسته لإعجاز القرآن حتّى يتمّ رصد كل الجوانب المتعلّقة بالدّراسة النّصيّة في مجال الإعجاز في مدوّنتة، ومن أجل الوقوف على أدوات الاتّساق النّصّي عند الأديب علينا أوّلا أن نتعرّف على نظرته للنّظم التي هي في حدّ ذاتها قضيّة التّماسك النّصّي الّتي تعرفها لسانيات النّص.

7 ـــ آليات الاتساق النصي عند الرافعي:

حاول الرّافعي أن يسلّط الضّوء على قضيّة يراها مهمّة في الإعجاز وهي النّظم، فأفرد له في مدوّنته فصلا خاصّا متحدّثا عن خصائص النّظم القرآني مبيّنا بأنّ سرّ الإعجاز هو في النّظم، والتّماسك يكون من أصغر وحدة إلى أكبرها"فالحرف الواحد من القرآن معجز في موضعه، لأنّه يمسك الكلمة التي هو فيها ليمسك بها الآية والآيات الكثيرة، وهذا هو السرّ في إعجاز جملته إعجازا أبديّا"،وبذلك تتحقّق نصيّته.

7 ـــ 1 مفهوم النّظم من منظور الرافعي:

إن الاهتمام بفكرة النّظم قديمة جدّا، وهو من أكثر قضايا اللّغة العربية جدلا، وقد كان للسّابقين الفضل في تعريفه بما جادت به قرائحهم، وبيّنوا بفضل جهودهم الفكريّة المتواصلة طبيعة هذا النّظم،كلّ واحد حـــــــسب وجهة نظره، فما تركوا فيه جانبا ولا وجها إلا وأخذوه بالبحث والدّراسة والنّقد، إلّا أنّ هذه الجهود لم تتّخذ منهجا علميّا إلّا في القرن الخامس الهجري، لتكتمل تلك الصّورة وتتّضح مع عبد القاهر الجرجاني (ت 471ه) الّذي أبرز معالمها وأخرجها إلى الوجود والتي يرى فيها "الإعجاز القرآني مع حقيقة العلاقة الرّابطة بين اللّفظ والمعنى واللّغة والفكر، بأنّها علاقة عضويّة قائمة، يمكن إدراكها بالفكر والذوق"[2]، ولأنّه عمد على خدمة القرآن الكريم وإبراز إعجازه، نجده قد ربط بين الإعجاز واللّفظ والمعنى وبين نظريّته في النّظم.

---

[1] ـ روبرت دي بوجراند: النص والخطاب والإجراء، ص: 105.

[2] ـ وليد محمد مراد: نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية عند عبد القاهر الجرجاني، ط1،دار الفكر، 1403هـ ـ1983م، ص: 6.

لم تتوقّفأقلامعلماء الإعجاز عن الإشـــادة بنظريّة النّظم بل واصـــــلوا على درب أســـــلافهم فقاموا بأبحاث ودراسات متأثّرين في ذلك بالسّابقين، وكذلك بما تذوّقوه وأدركـــوه بدورهـــم في دراســـتهم للإعجاز، وبيّنت البحوث البلاغيّة والنّحويّة أنّ قضيّة الإعجاز القرآني جعلت العلماء يخوضون في مسائل البلاغة العربيّة للكشف عن أسرار النظم القرآني، تبيان جمال الكلام بصفة عامة، حتى وصل علماء كالجرجاني والزمخشري والسيوطي ..حيث ازدهرت معهم الدراسات البلاغية، وأحرزت تقدما كبيرا، وقد حدد الجرجاني مفهومه للنّظم قائلا:"واعلم أنّ ليس النّظم إلّا أن تضع كلامك الوضع الّذي يقتضيه علم النّحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها وتحفظ الرّسوم التي رسمت لك فلا تُخلّ بشيء منها وذلك أنّا لا نعلم شيئا يبتغيه النظام بظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه..."[1]، فعلى هذا الأساس لم يهتم الجرجاني باللّفظ في إعجاز القرآن،

ولم يول له الاهتمام نفسه الذي ذهب إليه الرافعي،"فالرّافعي مثلا،لم يحصر النّظم في توخّي قواعد النّحو مثل عبد القاهر"[2]، ويرى الجرجاني بأنّ الألفاظ المفردة لا يقع فيها تفاضل دون أن تدخل في تركيب أو تأليف، وأنّ بلاغة الكلام لا تعود إلى ألفاظه وإنّما إلى ما بينهما من صلة الارتباط، وأنّ مدار إعجاز القرآن هو النظم، أمّا الرافعي فلم يهمل المعنى بدوره لكنّه أعطى أهميّة للناحية الصوتيّة فربط الألفاظ والأصوات بالعواطف.

لقد بيّن الجرجاني قبله فساد الأمر بالأدلة والحجج، وأنّه لا مزيّة للّفظ ولا تفاضله عن المعنى، لأنّه لا يستقيم أن يقال أن إعجاز القرآن يعود إلى اللّفظ، فألفاظ القرآن ليست بالجديدة على أهل الفصاحة والبلاغة، والإعجاز يكمن في صياغة هذه الألفاظ، وإقامة تلك العلاقات فيما بينها بما يخدم المعنى المراد، وعلى هذا الأساس يقول الجرجاني:"ينبغي أن ينظر إلى الكلمة قبل دخولها في التّأليف، وقبل أن تصير إلى الصّورة الّتي يكون بها الكلم إخبارا وأمرا ونهيّا واستخبارا وتعجّبا، وتؤدّي في الجملة معنى من المعاني الّتي لا سبيل إلى إفادتها إلّا بضمّ كلمة إلى كلمة، هل يتصوّر أن يكون بين اللّفظتين تفاضل في الدلالة حتى تكون هذه أدّل على معناها الّذي وضعت له من صاحبتها على ما هي موسومة به"[3]، وراح يقارع أصحاب هذا الادّعاء بالحجّة العقليّة واللّغويّة، واستعمال أيّ لفظ خارج سياق الجمل سواء في لغة العرب أو غيرها، لا يتعلّق فضل كلمة على

[1] ـ عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص: 55.
[2] ـ صلاح الدين محمد عبد التواب: النقد الأدبي، دراسات نقدية وأدبية حول إعجاز القرآن، ص: 44.
[3] ـ عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص: 44 .

أخرى إلّا بموقعها من الكلام، فلا اللّفظ بمفرده ، ولا المعنى مفردا يقوم عليه الإعجاز وإنّما الفضل يعود إلى النّظم.

هذا النّظم الذي اعتبره الرّافعي جهة من الجهات التي اختصّ بها أسلوب القرآن، والّذي كانت من أسباب انقطاع العرب دونه وانخذالهم عنه، "وكثير ممن ادعى على الرافعي كونه أفرد لنفسه الكشف عن أسرار النظم والإعجاز"[1]، لكّنه ينفي تماما ذلك من خلال هذا القول: "إنمّا تلك الجهات صفات من نظم القرآن وطريقة تركيبه، فنحن الآن قائلون في سرّ الإعجاز الّذي قامت عليه هذه الطّريقة وانفرد به ذلك النّظم، وهو سرّ لا ندّعي أنّنا نكشفه أو نستخلصه أو ننتظم أسبابه"[2]، ويبيّن الجهد الّذي بذله في هذا المجال على أنه يومئ إليه من ناحية، ويعيّن بعض أوصافه من ناحية أخرى، وراح يظهر الفروق بين أنواع البلاغة في القرآن وأنواعها في كلام البلغاء فرأى أنّ "نظم القرآن يقتضي كل ما فيه اقتضاء طبيعيّا بحيث يبنى هو عليها لأنهّا في أصل تركيبه، ولا تبنى هي عليه..فكأنّما البلاغة فيه إنّما هي وجه من نظم حروفه بخلاف ما أنت واجد من كلام البلغاء، فإن بلاغته إنما تصنع لموضعها وتبنى عليه، فربما وفت وربّما أخلفت، ولو هي رفعت من نظم الكلام ثم نزل غيرها في مكانها لرأيت النّظم نفسه غير مختلف"[3]، وذلك عائد إلى توازن حروف القرآن وائتلاف مخارجها وتناسب أصواتها.

7 ــ 2 ــ تركيب الكلام:

يتركّب الكلام عند الرّافعي من "ثلاثة حروف هي من الأصوات، وكلمات هي من الحروف، وجمل هي من الكلم"[4] ،كما هو موضّح في الرّسم أدناه:

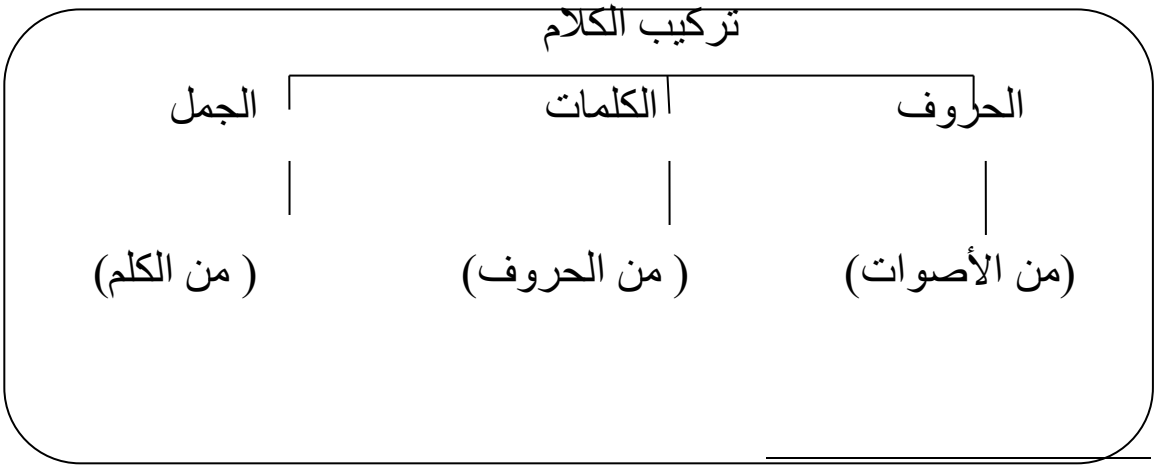

[1] ــ بن نعوم سعاد: أسس الإعجاز القرآني عند مصطفى صادق الرافعي، ص: 386.
[2] ــ مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص: 209.
[3] ــ المرجع السابق، ص: 210.
[4] ــ المرجع نفسه، ص: 209.

ويكمن سرّ الإعجاز في نظم القرآن في تناوله لهذه العناصر كلّها كما هو مبيّن في الشّكل أعلاه، وما نلحظه من هذا القول أنّ الرّافعي اعتمد في تناوله في النّص القرآني على نظام التّجزئة، فبدأ بالحروف الّتي هي اللّبنة الأولى لبناء الكلمة ثمّ الكلمات الّتي تتألّف منها الجمل وصولا إلى الجمل الّتي تبنى بها النّصوص، فكان منطلق الدّراسة هو"الّذي يعدّه الوحدة البنوية للكلام وللنّص بخاصّة" ويتّضح لنا أنّ الرّافعي انتهج هذه العمليّة التّسلسليّة في تعامله مع النّص القرآني، فأخذ يجزّئ الكلمات إلى حروف وما تدلّ عليه من معان، والجمل إلى كلمات الّتي هي في الحقيقة الوضعية "صوت النفس؛ لأنها تلبس قطعة من المعنى فتختص به على وجه المناسبة قد لحظته النّفس فيها في أصل الوضع حين فصلت الكلمة على هذا التّركيب"[1]، وهو بذلك يدرس النّصّ على مراحل متتابعة من أصغر وحدة إلى أكبرها،ومعلوم أنّ فكرة النّظم قد حدّدت معالمها مع السّابقين والّتي كان لعبد القاهر الجرجاني الحظ الأوفر في بيان هذه الفكرة، والرّافعي لم ينكر هذا السّبق، إنّه يعترف بأنّ كتاب"دلائل الإعجاز" لعبد القاهر قد ألمّ بكلّ المذاهب الكلاميّة الّتي بنيت عليها علوم البلاغة ووضعت لها أمثلة هذه العلوم، وبذلك يقرّ بأنّ الجرجاني صاحب الرّيادة في فكرة النّظم، وراح يبيّن أحد عناصر النّظم فيعرّفه قائلا:"فالحرف الواسع من القرآن معجز في موضعه لأنه يمسك الكلمة التي هو فيها ليمسك بها الآية والآيات الكثيرة، وهذا هو السّرّ في الإعجاز جملته إعجازا أبديّا، ولكنّه حاول أن يبيّن منهجه في هذا المجال قائلا:" ونحن إنّما نبحث في القرآن من جهة ما انفرد به في نفسه على وجه الإعجاز، لا من جهة ما يشركه فيه غيره على أي وجه من الوجوه وأنواع البلاغة مستفيضة في كل نظم سويّ وكل تأليف مونق، وكل سبك جيّد، وما كان من الكلام بليغا فإنه بها صار بليغا، وإن كانت هي بعدُ في أكثر الكلام إلى تفاوت واختلاف[2]، إن سـرّ الإعجاز عنده هو في النـّـــــظم، وجـــــــهاتهجمعها في عناصر ثـــــــلاث: في الحروف، والكلمات، والجمل وبعدها قام بالتّفصيل في كلّ جهة على حده مبيّنا دورها في النّظم بحيث ينطلق من الجزء إلى الكلّ مبيّنا الوظائف الدّلاليّة لكلّ من هده العناصر وأثرها في النّفس البشريّة.

ويرى أنّ هناك فرق بين بلاغة القرآن وبلاغة كلام البلغاء، كأنّ البلاغة في القرآن"إنمّا هي وجه من نظم حروفه"[3]، على خلاف ما هو متعارف عليه من بلاغة كلام البلغاء لأنّها تصنع لموضعها وتبنى عليه، فسرّ الإعجاز حسب الرّافعي لا يقتصر على الكلمة أو الجملة القرآنية فحسب بل يصل حتّى إعجاز الحرف في

[1] ـ مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص: 220 .
[2] ـ المرجع نفسه، ص: 210
[3] ـ المرجع نفسه، ص: 211 .

موضعه لأنّه كما يقول الرافعي:" يمسك بالكلمة التي هو فيها ليمسك بها الآية والآيات الكثيرة، وهذا هو السر في إعجاز جملته إعجازا أبديا، فهو أمر فوق الطبيعة الإنسانية إذ هو يشبه الخلق الحي تمام المشابهة"[1]،فنظم حروف القرآن وجه من وجوه البلاغة وسرّ من أسرار إعجاز القرآن، كما أنّ الحرف هو الأساس الّذي يبنى عليه النّص ككل ، بداية من الكلمة ثم الجملة ثم الآيات آية آية. فهو لا يختلف عن سابقيه كون سرّ الإعجاز يكمن في النظم ، لكن بالنسبة إليه أن لهذا النظم ما بعده، وذلك من خلال جهاته الثلاث: الحروف وأصواتها، الكلمات وحروفها، الجمل وكلماتها .

1/ الحروف وأصواتها:

1 ــ 1 ــ الحرف لغة: جاء في لسان العرب لابن منظور مادة(حرف) فالحرف: الأداة التي تسمى الرابطة لأنها تربط الاسم بالاسم والفعل بالفعل كعن وعلى ونحوهما، قال الأزهري : كل كلمة بنيت أداة عارية في الكلام لتفرقة المعاني واسمها حَرف، وإن كان بناؤها بحرف أو فوق ذلك مثل حتى وهل وبل ولعل، وكل كلمة تقرأ على الوجوه من القرآن تسمى حرفا[2]، ويعتبر الحرف الأساس الّذي تبنى عليه الكلمة، ومن المعلوم أنّ للحروف أصوات مختلفة يحمل كلّ منها دلالات معيّنة تعبر عن أغراض معيّنة عند ورودها في الكلمة متّسقة ومنسجمة، فتؤدّي دورا فعّالا داخل الكلمة وواضحا.

1 ــ 2 ــ الحرف اصطلاحا: يذهب سيبويه إلى القول أنّ "الكلم اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل، ويضيف إلى ذلك أن ما جاء لمعنى وليس باسم ولا فعل نحو ثم وسوف وواو القسم"[3]، كما يمثّل الصّوت أصغر وحدة إيقاعية في الكلمة.

تحدّث الرّافعي عن الحروف وصفاتها حينما تطرّق إلى الأسباب اللّسانية الّتي جرت عليها الفصاحة العربيّة وكان ذلك في كتابه"تاريخ آداب العرب" ليوطئ بها في حديثه عن الحروف وأصواتها فأصواتها كانت معدلا " لألسنة القوم بين الاستخفاف والاستثقال، وبين اللين في حرف والجسأة في حرف، وبين نظم مؤتلف ونظم مختلف، فانتزعوا بها وجوه التأليف والتركيب في ألفاظهم وجملهم على سنن لائح ونسق واضح، وأفضينا من كل ذلك إلى مخارج حروفهم

[1] ــ المرجع نفسه، ص: 211.
[2] ــ ابن منظور: لسان العرب، المجلد التاسع، ص: 41 .
[3] ــ سيبويه: الكتاب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مطبعة الخانجي، ط3، 1408هـ ــ 1988م ــ ج1، ص: 12 .

وصفاتها"[1]، وهذه المخارج والصّفات حسب الرافعي أخذ أكثرها من ألفاظ القرآن لا من كلام العرب وفصاحتهم لأنّ طريقة النّظم الّتي اتّسقت بها ألفاظ القرآن، وتألّقت لها حروف هذه الألفاظ، أنّما هي طريقة يتوخّى بها إلى أنواع من المنطق وصفات من اللّهجة لم تكن على هذا الوجه من كلام العرب، ولكنّها ظهرت فيه أول شيء على لسان النبي صلى الله عليه وسلم، فجعلت المسامع لا تنبو عن شيء من القرآن، ولا تلوي من دونه حجاب القلب، حتى لم يكن لمن يسمعه بدّ من الاسترسال إليه والتوفر على الإصغاء[2]، ويجدر الإشارة هنا إلى أنّ الرافعي قد تنبّه إلى الوظيفة الدّلالية وأثرها في النّفس البشريّة لأنّ الحرف في نظره هو الوحدة الصّوتيّة الأساسيّة للتّناغم الكلّي للنّصّ القرآني، ومن يستمع إلى القرآن الكريم حرفا حرفا وكلمة كلمة وآية آية، فيقع في أذنه" ضربا من الموسيقى اللغوية في انسجامه واطراد نسقه واتزانه على أجزاء النفس مقطعا مقطعا ونبرة نبرة كأنها توقعه توقيعا ولا تتلوه تلاوة"[3]، ذلك أنّ مثل هذا النّوع من التّأليف لم يملكه أبلغ البلغاء وأفصح الفصحاء وما تمكنوا منه إلّا قليلا متمثّلا في الجمل القليلة الّتي تضطرب لها النّفس من روعة الصّياغة"ذلك أنّ جميع الألفاظ العربية ترجع إلى نماذج من الأوزان الموسيقية... ولو أنك حاولت نقل أي كلام عربي أو صفحة من كتاب إلى رموز موسيقية وأوزان لوجدته يتركب من وحدات تتشابه وتختلف وتتكرر وتتناظر ويتألف من مجموعها قطعة موسيقية"[4]، وقد أشار الرّافعي إلى أنّ مواقع هذا الكلام من البلغاء والفصحاء ما كان في بعض مقامات الحماسة أو الفخر أو الغزل أو نحوها فيأخذ كلام المتكلم مسارا من أبعد موضع في قلبه مرورا بحلقه وهو نقطة إرساله من هناك إلى المتلقي وكأن هذه الألفاظ المرسلة عواطف تتغنّى.

وعند الحديث عن ألفاظ القرآن"فإذا ما اقتربت بأذنك قليلا قليلا، فطرقت سمعك جواهر حروفه خارجة من مخارجها الصّحيحة، فاجأتك منه لذّة أخرى في نظم تلك الحروف ورصفها وترتيب أوضاعها فيما بينها: هذا ينقر وذاك يصفر، وثالث يهمس ورابع يجهر، وآخر ينزلق عليه النفس، وآخر يحتبس عنده النفس، وهلم جرا، فترى الجمال اللغوي ماثلا أمامك في مجموعة مختلفة مؤتلفة"[5]، فإذا كانت هذه الألفاظ مؤتلفة لا تنافر فيها ينعكس هذا الائتلاف على النّص فيظهر متناسقا ومتساوقا، وبالتّالي يكون وقعها في نفس المتلقي ذا أثر بليغ إذ يتمكّن من

---

[1] ــ مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص: 212.

[2] ـــــ ينظر، المرجع السابق، ص: 212 .

[3] ــ المرجع نفسه، ص: 213 .

[4] ــ محمد المبارك: فقه اللغة وخصائص العربية، دار الفكر للطباعة والنشر، ط1981،7م، ص: 282.

[5] ـ محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، ص: 132.

استيعابه نظرا لخفة التّراكيب وأوزانها في النّفس "فترى الجمال اللّغوي ماثلا أمامك في هذا التّناغم الموسيقي المعجز، الّذي جعل منه القرآن قالبا لما حمله من معاني الرّسالة وحِكَمِها وأحكامها، وعقائدها وقواعدها، ومواعظها وزواجرها، وما امتاز به أسلوبها في عرض هذه المعاني من سائر الخصائص المعجزة"[1].

ويصوّر لنا الرافعي وقع القرآن على العرب الّذين كانوا يترسَّلون أو يحذمون*، في منطقهم كيفما اتفق لهم فقد كانوا يراعون تكييف الصوت دون تكييف الحروف التي هي مادة الصوت،فقد اهتموا اهتماما كبيرا بالألفاظ وموسيقاها وانشغلوا بالموسيقى اللّفظية"عن ملاحظة الفروق بين الدّلالات، ممّا أدى إلى أنّ كثيرا من الألفاظ التي كانت تعبّر عن معان متقاربة، قد ازدادت قربا واختلط بعضها ببعض، ونسيت تلك الفروق أو تنوسيت"[2]، ولكي يتمكّن العربي من نظم قوافيه وتنسيق أسجاعه ضحى بتلك الدّلالات رغم امتلاكه لتلك الأذن الموسيقيّة، ولكنّ حروف القرآن وألفاظه وجمله كان لها صدى آخر في نفوس هؤلاء "فلمّا قرئ عليهم القرآن، رأوا حروفه في كلماته، وكلماته في جمله، ألحانا لغوية رائعة؛ كأنّ لاتلافها وتناسبها قطعة واحدة، قراءتها هي توقيعها فلم يفُتْهم هذا المعنى، وأنه أمر لا قبل لهم به، وكان ذلك أبين في عجزهم"[3] .

ويشير الرافعي إلى أنّ كلّ الّذين يدركون أسرار الموسيقى وفلسفتها النّفسيّة، لا يرون في الفن العربي بجملته شيئا يعدل هذا التّناسب الّذي هو طبيعي في كلمات القرآن وأصوات حروفها، وما منهم أن يغتمز في ذلك حرفا واحدا ويعلو القرآن على الموسيقى أنه مع هذه الخاصة العجيبة ليس من الموسيقى، وراح يضرب في ذلك مثلا، مخاطبا المتلقي بأن يأخذ قطعة من نثر فصحاء العرب أو غيرهم، ويقوم بتلاوتها على طريقة القرآن مع مراعاة أحكام القراءة وطرق الآداء فإنه حتما سيجد ذلك النقص والانحطاط عن مرتبة القرآن بل ويعزز رأيه بقوله:"بل ترى كأنك بهذا التّحسين قد نكّرت الكلام وغيّرته، فأخرجته من صفة الفصاحة، وجردته من زينة الأسلوب، وأطفأت رُواءه وأنضبت ماءه، لأنك تزنه على أوزان لم يتسق عليها في كل جهاته، فلا تعدو أن تظهِرَ من عيبه ما لم يكن يعيبه إذا أنت أرسلته وأخذته على جملته"[4].

---

[1] ـ نور الدين عتر: علوم القرآن الكريم، مطبعة الصباح، دمشق، ط1، 1414هـ ـ 1993م، ص: 210.

* ـ يقال: حذم في قراءته، إذا أسرع، الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص:214.

[2] ـ إبراهيم أنيس: دلالة الألفاظ، الناشر مكتبة الأنجلو مصرية، 1976م، ط3، ص: 210 ــ 211.

[3] ـ مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص: 214.

[4] ـ المرجع نفسه، ص: 215.

وهنا يتحدث الرافعي عن موسيقى النّص القرآني، فالقارئ يتذوّق تلك الحروف من خلال أصواتها الّتي تؤدّي دلالات معيّنة، لذلك يعنى القراء بخصائص هذه الحروف وخاصّة الخصائص الموسيقية، من مدّ وغنّة وغيرها، ولابد من مراعاة اتّساق هذه الحروف فيما بينها، وترتيبها في نسق محدّد لتشكل الكلمة، كما أنّ هذه الكلمات بدورها تتآلف وتتناسق في جمل ، ويتعلّق بعضها ببعض، وبذلك نجد الرافعي يؤسس لمفهوم النّص ولكن من وجهة نظره الخاصّة لأنّ نظم القرآن عنده يقوم على العناصر الثلاثة:(الحرف، الكلمة، الجملة) الّتي لا يخلو منها أيّ نص كيفما كان نوعه.

يرى الرافعي أنّ أسلوب القرآن يمتاز بصفات مميّزة تساعده على التّفسير حسب كلّ عصر ويكون التّفسير بنقص من المعنى أو زيادة فيه، وهذه الصفات تتمثّل في اللّين والمطاوعة على التّقليب، والمرونة في التّأويل، فقد فهمه عرب الجاهلية، ومن جاء بعدهم من الفلاسفة وأهل العلوم، ثم زعماء الفرق المختلفة على ضروب من التّأويل، إضافة إلى العلوم الحديثة وما قدّمته من حقائق كانت مغيّبة، ويشير الرافعي إلى أنّ في علم الله ما يكون من بعد.

7 ــ 3 ــ الاستبدال:

الاستبـــدال عملية تتـــم داخل النص، إنه تعويـــــــض عنصر في النص بعنصر آخر1، وإذا أمعنّا النّظر في دراسة الرّافعي ندرك تمام الإدراك بأنّه يقف على دقائق الأمور، ويحاول أن يوصل للقارئ حقيقة الإعجاز بلمسته الخاصّة، وهذا ما لاحظناه عند وقوفه على الإيقاع الموسيقي في النظم، ومن خلال الأساس الذي حدده كمنطلق في النّظم لديه وهو الحروف وأصواتها على عكس عبد القاهر الجرجاني الّذي بدأ من الّتركيب الكلّي للنّصّ.

يرى الرّافعي في هذا الإطار أنّ القرآن الكريم مادة فوقالصنعة ومن وراء الفكر وكأنّها صُبّت على الجملة صبًّا، ذلك أنّ بعض الألفاظ في كتاب الله وردت مجموعا ولم يذكر لها صيغة في المفرد، فإذا احتاج إلى هذه الصّيغة استعمل مرادفها:

كلفظة(اللّب)، قال تعالى:**هَٰذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ** (سورة إبراهيم:الآية٥٢).

[1] ــ محمد خطابي: لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، ص: 19.

قال تعالى: ﴿ **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ** ﴾الزمر: ٢١)ونحوهما فلم تجئ لفظة الألباب مفردة بل جاء في مكانهـــا(القلب).

يسعى الرافعي في هذا المقام إلى تعليل ذلك مبيّنا "أنّ لفظ الباء شديد مجتمع، ولا يفضي إلى هذه الشّدّة إلّا من اللام الشديدة المسترخية، فلمّا لم يكن ثمَّ فصل بين الحرفين يتهيّأ معه هذا الانتقال على نسبة بين الرّخاوة والشدّة؛ تحسن اللّفظة مهما كانت حركة الإعراب فيها ؛ نصبا أو رفعا؛ أو جرّا؛ فأسقطها من نظمه بتة، على سعة ما بين أوّله وآخره، ولو حسنت على وجه من تلك الوجوه لجاء بها حسنة رائعة، وهذا على أن فيه لفظة(الجبّ)، وهي في وزنها ونطقها، لولا حسن الائتلاف بين الجيم والباء من هذه الشدّة في الجيم المضمومة"[1]، وكذلك لفظتي (الكوب) و (الأرجاء) لم يستعمل القرآن لفظهما إلّا مجموعا مستغنيا عن مفردهما، فالأولى لا يتهيّأ فيها ما يجعلها في النّطق من الظّهور والرّقة والانكشاف وحسن التّناسب كلفظ(أكواب) الذي هو الجمع، أمّا الثّانية فمفردها الرجا: أي الجانب ــ لعلة لفظه، وأنه لا يسوغ في نظمه كما ترى [2].

بعدها يأخذ الرّافعي في عرض أمثلة عن ألـــــــــفاظ وردت مفردة في محكم التّنزيل ولم ترد مجموعا، ومثال ذلك لفظة(الأرض) التي لم ترها في القرآن الكريم إلا مفردة، فإذا ذكرت السّماء مجموعا لحقت بها الأرض مفردة، ولمـــــــا احتاج إلى جمعـــــها خرجت في هذا التركيب المحكم، وهذه الـــــرّوعة، ﴿ **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ** ﴾الطلاق: ١٢ (،فقد احتيج إلى لفظة الأرض مجموعا ولكنها لم ترد كذلك فلم يقل : أرضين بحيث يرى الرافعي بأن هذه الجسأة التي تدخل اللفظ يختل بها النظم اختلالا.

وقد عدل القرآن الكريم عن ألفاظ نافرة ابتذلها طول الاستعمال، فنجّها الذّوق، وكرهها السّمع، ومن هذه الألفاظ لفظة (الآجر) وليس فيها من خفّة التّركيب إلّا الهمزة وسائرها نافرٌ متقلقل لا يصلح مع هذا المدّ في صوت ولا تركيب على قاعدة نظم القرآن، وبما أنها لفظة مبتذلة جدا لم يستعملها القرآن، فلما احتاج إليها لفظها ولفظ مرادفها وهو (القرْمد) وكلاهما استعمله فصحاء العرب ولم يعرفوا غيرها، ثم أخرج معناها بألطف عبارة وأرقها وأعذبها، وساقها في بيان مكشوف يفضح الصّبح[3]، وفي ذلك فال تعالى:(**وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ**

[1] ــ مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص: 234.
[2] ــ ينظر المرجع نفسه، ص: 234 ــ 235.
[3] ــ مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص: 233.

إِلَٰهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَالقصص: ٣٨ (.

يؤكّد الرافعي أنّه لا يوجد في سرّ الفصاحة وفي روعة الإعجاز أبرع أو أبدع من هذا، فقد عبّر القرآن عن الآجر بقوله: (**فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ**)القصص: ٣٨(، ويدعو إلى إمعان النّظر في موضع القلقلة الّتي هي في الدّال من قوله "وما يتلوها من رقّة اللّام، والّتي يرى بأنها "في أثناء التلاوة مما لا يطاق أن يعبّر عن حسنه، وتأثيرها في النّفس تأثيرا وكأنما تنتزع النفس انتزاعا"[1]، وتشير هذه العبارة إلى أن الوقع الصّوتي يرفرف بجناحين:

1/الإيقاع الصوتي المتولّد من التّشكيل الصّوتي.

2/الإيقاع المتولّد من التّلاوة.

وانتزاع النفس انتزاعا كما عبّر عنه ــ رحمه الله ــ يشير إلى تأثر المتلقي بما أحدثه النظم من تماسكه وانسجامه مع ما قبله وما بعده، وينبّئ عن حسن نظم الكلمات، وغاية الإحكام والتّرابط، حين عدل الذّكر الحكيم عن هذا اللفظ، واستعاض عنه بتعبير ساقه في موقعه المناسب2.

يرى الرافعي في هذا التّعبير الرباني حكمة أخرى جليلة؛ وذلك أنّ فرعون يريد أن يبني صرحا يبلغ به السّماء، فعبّر بالإيقاد على الطين تهكّما على فرعون، لأنّ البناء في مثل هذا لا يزال يرتفع بلا نهاية، وإعداد الآجر يجب أن يكون كذلك مستمرا باستمرار الإيقاد على الطّين، ثم تشعر العبارة أن النتيجة لا شيء، فكأنّه لم يخرج لا بناء ولا مبنيا به، وما هو إلّا البدء والاستمرار في البدء3.

7 ــ 4 ــ الاتّساق المعجمي:

يعدّ آخر مظهر من مظاهر اتساق النص إلا أنه مختلف عنها جميعا، وينقسم إلى قسمين:

1/ التكرير(Reiteration)

2/التضام(Collocation)

1ــ التكرارReiteration :

[1] ــ المرجع نفسه، ص: 234 .

[2] ــ سلمان بن محمد بن حسن القرني: جمالية المفردة القرآنية عند الرافعي بين التقليد والتجديد، أستاذ البلاغة والنقد المساعد بقسم اللغة العربية،، جامعة الباحة، مجلو جامعة الباحة للعلوم الإنسانية، العدد(16)، محرم 1440هـ، سبتمبر، 2018م، ص:155 .

[3] ــ المرجعالسابق، ص: 234.

يتعرّض الرّافعي في دراسته إلى شكل مهم من أشكال هذا الاتّساق المعجمي وهو التكرار(Reiteration)، وهو"عبارة عن تكرير كلمة فأكثر باللفظ والمعنى لنكتة"1، إذ يعتبر من الأساليب الرّائعة في القرآن الكريم، ولم يكن التّكرير إلا لفائدة يراد بها زيادة في المعنى، وجمالية في النبر2، وقد نال هذا المصطلح عناية كبيرة عند علماء النّصّ، ولعلّ الدّراسات حوله أثمرت تنوّعا في الاصطلاح من حيث المساحة الّتي شغلها هذا المصطلح في الدّراسات النّصيّة المعاصرة"حيث يقوم ببناء شبكة من العلاقات داخل المنجز النّصّي؛ مما يحقّق ترابط النّصّ وتماسكه، إذ إنّ العناصر المكرّرة تحافظ على بنية النّصّ، وتغـــــــــذي الجانب الدّلالي والتّـــــداولي فيه، وذلـــــك من خلال تـكاثر المفرداتوكثافتها؛ مما يحقّق سبك النّصّ وتماسكه وإعادة تأكيد كينونته، واستمراريته واطّراده"3، فهو تشاكللغوي يلفت الانتباه، ويسهم في تقوية النبرة الخطابية وتمكين الحركات الإيقاعية من الوصول إلى مراحل الانفراج، وذلك راجع إلى التدفق الغنائي الذي يوفره .

ونستطيع أن نذكر تعريفا للتكرار يضمن وظيفته النّصية بالقول أنّ التكرار هو إعادة ذكر لفظ أو عبارة أو جملة أو فقرة، وذلك باللّفظ نفسه أو بالتّرادف وذلك لتحقيق أغراض كثيرة أهمّها تحقيق التّماسك النّصّي بين عناصر النّصّ المتباعدة4، وهذه الخاصيّة لها دور مميّز في القرآن الكريم لأنّه يؤدّي وظائف دلاليّة معيّنة،كما يؤدّي إلى تحقيق التّماسك النّصّي"وذلك عن طريق امتداد عنصر ما من بداية النّصّ حتّى آخره، هذا العنصر قد يكون كلمة أو عبارة أو جملة أو فقرة، وهذا الامتداد يربط بين عناصر هذا النص"5، إضافة إلى العوامل الأخرى المساعدة في التّماسك النّصّي.

فالتّكرار يسهم في تجسيد الفكرة في تتبّع النّص"من خلال التركيز والإصرار على إعادة الفكرة ذاتها في الفقرة نفسها أو فقرة أخرى من العمل، فتشكّل بناء على هذا ما يعرف بالوحدة العضويّة"6، ولهذه الخاصيّة ميزة تعين المتلقي على الفهم

---

[1] ـ علي صدر الدين ابن معصوم المدني(ت 1120ه): أنوار الربيع في أنواع البديع، تحقيق: شاكر هادي، الناشر: مطبعة النعمان، النجف الشريف،1996م، ص: 345 .

[2] ــ علي حميد خضيّر: دلالة السياق في النص القرآني، ص: 112.

[3] ــ علي بوعلام: جماليات التكرار وآلياته في التماسك النصي، قصيدة مديح الظل العالي للشاعر محمود درويش أنموذجا، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في مشروع اللسانيات النصية، 1438هـ ــ 2017م)، ص: 52.

[4] ـ صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، ج2، ص: 20.

[5] ــ المرجع نفسه، ص: 22 .

[6] ـ جودة مبروك: التكرار وتماسك النص، قصائد القدس لفاروق جويدة نموذجا، مكتبة الآداب، ط1 ، القاهرة، 1429هـ ــ 2008م، ص: 26.

لأنّ"إعادة العنصر المعجمي ذاته أو بدلالته ــ حسب تقسيماته ــ يشكل إلحاحا على المتلقّي للتعايش مع الجو النّفسي والانفعالي المُحدَث من قِبل هذا الإجراء، وإذا توافر الصّوت المتكرّر، وأحدث نوعا من النغمة المتوافقة مع سابق لها، فإنها يكون أدعى إلى ملاحظته دون غيره من أنماط التماسك الأخرى"[1]، وبالتّالي يسهم إسهاما واضحا في ترابط النّصّ.

إنّ شواهد التّكرار ودوره في تماسك النّص القرآني كثيرة، والّذي يميّز هذا النّص أنّ هذه الظّاهرة فيه تخلو من كلّ ملل، أو مدّعاة للزيادة، بل تستشّف معانيه عندما تتّفق فيه عدّة عوامل تشترك فيما بينها كالنّبر والتّأكيد، والمقام الّذي أريد به استشعار دلالة النّصّ وخواتيم الجمل التي توحي باستنطاق النّصّ في السّياق القرآني، قد تتكرّر في القرآن الكريم الأصوات أو الكلمات أو الجمل بألفاظها كاملة، وفي هذا التّكرار دلالة يستشعرها المتلقّي من خلال سياق المعنى الّذي أريد به هذا المكرّر.

1ــ 2 . ظاهرة التكرار بين البلاغيين العرب وعلماء النص:

نشير في هذا الإطار إلى تمة مفارقات بين التكرار عند البلاغيين العرب وعلماء النص من خلال هذا الجدول2:

التّكرار عند البلاغيين العرب	التّكرار عند علماء النص
ــ معالجة الظاهرة من منظور بلاغي صرف. ـ التركيز على الكلام الأدبي والشعري، والقرآن من حيث الإعجاز. ـ ركزت المعالجة في مرحلة التقعيد على الجملة أو البيت، وإن جاءت عندهم شواهد تجاوزت هذا المستوى أحيانا. ــ وقف البلاغيون العرب على	ــ معالجة الظاهرة من منظور لساني صرف. ــ شملت هذه المعالجة النصوص بمختلف أنواعها، على أن منهم من حاول كشف نحو النص الأدبي/الشعري، مثل فان دايك. ــ تجاوز الجملة إلى الجمل والفقرة والنص بتمامه. ــ وقف علماء النّصّ على أربع درجات للتّكرار، وهم في هذا أفادوا

[1] ـ حسام أحمد فـــــرج: نظرية علم النـــــــص، رؤية منهجية في بنـــــاء النـــــص النثري، مكـــــتبة الآداب، ط1 ، القاهرة، 2007م، ص: 108.

[2] ـ جميل عبد المجيد: البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998م، ص:85.

درجتين للتكرار(إعادة العنصر المعجمي، والترادف أوشبه الترادف). ـــ سيطرة الغايّة التّقعيديّة التّعليميّة على البلاغة العربية، خاصّة مرحلة التقعيد.	من الدّراسات اللّغوية والدّلاليّة المعاصرة. ـــ سيطرة الغاية الوصفية التّشخيصية على علماء لغة النّصّ.

تجدر الإشارة هنا إلى أنّ الشّواهد التى أوردها البلاغيون العرب وتعليقات بعضهم عليها ما يفيد على رصد الدّرجة الثالثة في سلّم التكرار(الاسم الشامل)، وإن لم يصطلحوا على تسميتها1، وقد كشفوا عن جانب من جوانب دور هذه الظّاهرة في أدبيّة الكلام وشعريته على مستوى الجملة أو البيت غالبا، بينما كشف علماء النص عن دور هذه الظاهرة في السبك، والذي هو عندهم من أهمّ عوامل النّصية2، بناء عليه فإن البلاغيين استشعروا تلك اللميات النصيّة للتكرار، وإن لم تكن عندهم بالنظرة ذاتها عند علماء النّصإلّا أنّه يحقق غرضا بلاغيّا لا يخل دوره من إحداث ترابط نصّي، وله أثر عميق في نفس المتلقي لأنّه يحقّق بلاغة في التّعبير بما يحدثه من جوانب دلاليّة وجمالية في بناء النّصّ.

1ـــ 3ـ التّكرار عند الرّافعي:

يشير الرّافعي إلى ظاهرة التّكرار على أنّه معنى دقيق في التّحدي، وقد بلغ العرب منه مبلغا عجبا وهو الّذي يجيء في بعض آيات القرآن، فتختلف طرق الآداء وأصل المعنى واحد في العبارات المختلفة، كالّذي يكون في بعض قصصه لتوكيد الزّجر والوعيد وبسط الموعظة وتثبيت الحجّة ونحوها، أو في بعض عباراته لتحقيق النّعمة وترديد المنّة والتذكير بالنّعم واقتضاء شكره، إلى ما يكون في هذا الباب؛ وهو مذهب للعرب معروف، ولكنّهم لا يذهبون إليه إلّا في ضروب من خطابهم: للتّهويل والتّوكيد، والتخويف والتّفجّع وما يجري مجراها من الأمور العظيمة؛ وكلّ ذلك مأثور عنهم منصوص عليه في كثير من كتب البلاغة.

بيد أنّ وروده في القرآن الكريم مما حقّق للعرب عجزهم بالفطرة عن معارضته وأنهم يُخلُّون عنه أي يتركونه بلا معارضة لقوّة غريبة فيه لم يكونوا يعرفونها إلّا توهّما، ولضعف غريب في أنفسهم لم يعرفوه إلّا بهذه القوّة؛ لأنّ المعنى الواحد يتردّد في أسلوبه بصورتين أو صور كلّ منها غير الأخرى وجها أو

[1] ـ جميل عبد المجيد: البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، ص: 85.
[2] ـ ينظر، المرجع السابق: ص: 86.

عبارة، وهم على ذلك عاجزون عن الصّورة الواحدة، ومستمرّون على العجز لا يطيقون ولا ينطقون .

فهذا لعمرك أبلغ في الإعجاز وأشدّ عليهم في التحدّي؛ إذ هو دليل على مجاوزتهم مقدار العجز النّفسي الّذي قد تمكن معه الاستطاعة أو تتهيّأ الأعاريض حينا بعد حين، إلى العجز الفطري الّذي لا يتأوّل فيه المتأوّل ولا يعتذر منه المعتذرون ولا يجري الأمر فيه على المسامحة، وذلك دليل على أنّ البيان القرآني لا يضاهيه أيّ بيان بشري مهما بلغت بلاغته، الأمر الّذي جعل عجزهم أمرا لا محال عن معارضته في مختلف الأساليب بما في ذلك ظاهرة التّكرار.

يبيّن الرافعي من جانب آخر أنّ هذا المعنى(التّكرار) قد خفي على بعض الملحدة وأشباههم ومن لا نفاذ لهم في أسرار العربيّة ومقاصد الخطاب والتّأتي بالسّياسة البيانيّة إلى هذه المقاصد، فزعموا به المزاعم السّخيفة وأحالوه إلى النّقص والوهن، قائلين أنّ هذا التّكرار ضعف وضيق من قوّة وسعة، ويردّ عليهم الرّافعي في هذا المقام بأنّ التّكرار في النّص القرآني كان أبلغ وأبلغ وأسرى عن الفصحاء من أهل اللّغة والمتصرّفين فيها، ولو أعجزهم أن يجيئوا بمثله ما أعجزهم أن يعيبوه لو كان عيبا[1]، وفي ذلك دليل على سموّ الظّاهرة لما لها من أثر عميق في الدّلالات، ووقعه في نفسيّة المتلقي.

يضيف الرافعي أنّ في بعض ذلك التّكرار معنى آخر فطن إليه بعض علمائنا ولم يكشف لهم عن سرّه، وأوّل من نبّه عليه الجاحظ في كتاب الحيوان إذ قال:"ورأينا الله تبارك وتعالى إذا خاطب العرب والأعراب، أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي والحذف، وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم جعله مبسوطا وزاد في الكلام" ويعلق الرّافعي على هذا القول بأنّ ذلك كأنّه مبالغة في إفهامهم وتوسع في تصوير المعاني لهم وتلوينها بالألفاظ؛ إيجازا في موضع وإطنابا في موضع إذ كانوا قوما لا سليقة لهم كالعرب وليسوا في حكمهم من البيان، فلا يمضي كلامه لسننه بلا اعتراض من تنافر التّركيب وثقل الحروف وجفاء الطّبيعة اللّغوية، فلهذا ونحوه كان لابدّ في خطابهم من التّكرار والبسط والشّرح بخلاف العرب[2]، ذلك لأنّ الخطاب يقع إليهم على سنن كلامهم من الحذف، والقصد، والإشارة والاكتفاء باللّمحة الدّالة.

فالملاحظ أن للتّكرار في النّصوص القرآنية أثرا واضحا ومردودا نفسيّا مما يشكّل مردودا دلاليا ذلك لما له من تأثير في نفس المتلقي(السّامع/ القارئ)تتجلى

[1] ــ ينظر، المرجعالسابق، ص:194.
[2] ــ ينظر، المرجعنفسه، ص:195.

فيه"الصّورة والإيقاع وحركة الفكر والشعور فيوحي بمعنى دلالي قد يخرج المعنى السّياقي للنّص من المألوف، ولذلك كان القرآن الكريم يختلف من جماعة إلى جماعة، فمنه ما يستوجب تطويلا وتكريرا ومنه ما يكون مقتضبا وكلّا الأمرين له حكمته"[1]، ويأتي كل ذلك في تركيب محكم، وتناسق منتظم، تخدم ألفاظه المعاني متسقة غير متنافرة، ويكون للتّكرار جانبا من إحداث ذلك التماسك العجيب الذّي لا يتخلّله كلل أو ملل ، وتستهويه النّفس، فيقع فيها موقعا خاصّا.

مما تقدّم نخلص أنّ للتكرار أثـــــــــرا واضحا في تشكّل ظاهرة عند المستمع أو القارئ، وهذا ما يسعى إليه الرّافعي في دراسته، فهو يربط كل عنصر يشير إليه بالنفس البشرية وكيفية تفاعلها مع أصوات الحروف، وتناغم هذه الحروف في الكلمات، واتساق هذه الكلمات وتآلفها داخل الجملة، لذلك لابدّ من التّساؤل أو الاستفهام عن هذا التّكرار الحاصل في النّص"فالأثر النّفسي ظاهر ــ بلا شكّ ــ والنّبر في القول له دلالة أخرى إيحائية في السّياق، والتّطويل في الكلام له بعد معنوي دلالي آخر ولهذا يلاحظ أن التكرير في القرآن الكريم ليس قليلا وأن مواضع التكرير تشكّل أبعادا دلاليّة، فما يتعلّق بآيات التّحذير يعطي ظاهرة دلالية تجعل السّامع يتساءل، وفي مواضع التّرغيب تشكّل معنى دلاليّا يوقظ مشاعر التّسلية عند المتلقي"[2]، وهذا الأثر يوحي إلى القارئ أو السّامع معنى مغايرا عندما يتكرّر في السّياق.

ولما كان اقتصار الرّافعي على التّنظير في مجال التّكرار دون التّمثيل يمكن الاستشهاد في هذا المقام ببعض الأمثلة لبيان نظريته.

سورة الفاتحة أنموذجا:

قال الله تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (3) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (7)﴾ (الفاتحة: ١-٧)

يرد في هذه السّورة بعض أنماط التّكرار الّذي يسهم في تحقيق تماسك النّصّ، فلفظ الجلالة"الله" ورد في آيتين؛ أوّلها البسملة، وثانيها الآية الموالية للبسملة مباشرة، وما هو ملاحظ أنّه ورد باللّفظ نفسه، ثمّ تأتي ألفاظ الجلالة متراتبة (الرّحمن، الرّحيم، ربّ، الرّحمن، الرّحيم، مالك) مع ملاحظة أنّ"مالك" ليس من ألفاظه، بل "ملك"، وكذلك"رب"، لكنّهما، في النّهاية، إضافة إلى ألفاظ الجلالة، يحيل كلّ من

[1] ــ علي حميد خضيّر: دلالة السياق في النص القرآني، ص: 113

[2] ــ المرجعالسابق، ص:113 ــ 114.

هذه الأسماء إلى الله تعالى، وهو مذكور تصريحا في آية البسملة، ومن ثمّ فإنّ مرجعيّة هذه الأسماء داخليّة سابقة.

ويلاحظ أيضا أنّ الضّمائر الّتي تحيل إلى الله تعالى نوع من التّكرار؛ ذلك لأنّ الضّمائر تحلّ محلّ الأسماء الظّاهرة، فالضّمائر في (إيّاك، اهدنا، أنعمت)تعدّ نوعا من التّكرار للفظ الجلالة المذكور في آية البسملة، إذن تكرار لفظ الجلالة باللّفظ نفسه؛ وبصفاته، وبالضّمائر الّتي تحيل إليه إحدى عشرة مرّة " الله ـــ رب ـــ الرحمن ـ الرحيم ـ الرحمان - الرحيم ـ مالك ـ إيّاك ـ إيّاك ـ اهدنا ـ أنعمت". وهذه الكلمات كلّها تحيل إحالة داخليّة سابقة إلى لفظ الله تعالى، ذلك على الرّغم من قصر هذه السّورة المباركة[1] .

وكذلك تكرّر الضّميران المنفصلان"إيّاك ـــ إيّاك"، مع إسهام عطف النسق، لتخصيص الله بالعبادة والاستعانة دون غيره. وتكرار لفظ"الصراط" في الآيتين(٦، ٧). وواضح أنّ التكرار باللّفظ نفسه، ومن ثمّ تكرار في اللّفظ والمعنى، وكذلك تكرّرت شبه الجملة"عليهم" في قوله تعالى:"عليهم ولا الضّالين" (الفاتحة:٧)، ويظهر أنّ الآيات من البسملة حتّى الرّابعة هي تفسير للفظ الجلالة"الله" المذكور في البسملة، وذلك عن طريق ذكر صفاته تعالى، وذكر صفات المذكور سابقا، تعدّ نوعا من التّكرار له؛ لأنها تحقق تواصلا واستمرارية للنّص عبر هذه الصّفات، ومن ثمّ فإنّ الجمل التفسيرية لجملة سابقة أو كلمة سابقة، هي نـــــوع أو نمط من أنمــاط التّكرار بالمعنى لا باللـــفظ، وهذا ما حدث كذلك بين الآيتـــين(٦، ٧)حيث إنه ذكر الصراط المستقيم في السّادسة، ثم جاء التفصيل"صراط الذّين.."،ويتماسك قوله:" أنعمت عليهم" مع "غير المغضوب عليهم"و"ولا الضالّين"، وذلك عبر التّرادف؛ فهذه الجمل الثّلاث تتلاقى في معنى واحد.

ونمط آخر من أنماط التّكرار في هذه السّورة يتمثّل في "الاشتقاق" في البسملة "الرحمن ـــ الرّحيم"؛ ففيها تكرار كامل باللّفظ والمعنى، كما ذكرنا، وفيهما اشتقاق هذين اللّفظين من مادة واحدة"رحم"، وهذا يعد كذلك نوعا من التّكرار.[2]

إذن أسهم التّكرار إضافة إلى الضّمائر والتّوابع في تحقيق تماسك هذه السّورة عبر الأنماط التّالية:

ـ التّكرار الكامل .
ـــالاشتقاق.
ـــ التّرادف.
ـــ الجمل التفسيريّة.

[1] ـ ينظر: صبحي إبراهيم الفقي: علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، ج2، ص:25.
[2] ـــ ينظر :المرجع نفسه، ص: 26.

لقد جاء الصّوت في هذا النّص القرآني غنيّا ومثمرا للعمليّة التّواصلية، وقد شكّل تناسقه ظاهرة مميّزة خاصّة في أواخر الفواصل، فساهم في البناء النّصّي معجميّا ودلاليّا، وذلك راجع إلى الصّلة القائمة بين الصّوت وما يدلّ عليه، أو بين الرّمز ودلالته في ذهن المتلقّي، وقد أسهمت بنيات هذا النّصّ في جماليته لما فيها من اتّساق وانسجام صوتي، والّذي جاء في فواصل نهايتها بصورتين، فالفاصلة الأولى انتهت بصوت الميم والّتي تعود إلى البسملة، ثم توالت الفاصلة النّونية تعود الميم مرة أخرى لتختم السّورة بالفاصلة النّونية، فأطراف الآيات كلّها تنتهي بثلاثة حروف مكسور أوّلها، ممدود ثانيها، ثمّ يأتي ثالثها ليكون ميما أو نونا كما هو الحال في السّورة، وهذا التناسق في إيقاع الفواصل، اتّساق موسيقاها يعدّ جزءا من إعجاز النّظم القرآني بعامة.

يجد الرّافعي أنّ هذه الفواصل الّتي تنتهي بها آيات القرآن ما هي إلا صوّر تامّة للأبعاد الّتي تنتهي بها جمل الموسيقى، وهي متّفقة مع آياتها في قرار الصّوت اتّفاقا عجيبا يلائم نوع الصّوت والوجع الّذي يساق إليه بما ليس وراءه في العجب مذهب.

ويبيّن أنّ هذه القوافي كما هو واضح أكثر ما تنتهي بالنّون والميم، وهما الحرفان الطّبيعيان في الموسيقى نفسها؛ أو بالمدّ، وهو كذلك طبيعي في القرآن، فقد كثر في القرآن ختم الفواصل بحروف المدّ واللّين وإلحاق النون، وحكمة وجودها التطريب بذلك[1]، ولقد ألف العرب هذا النوّع من الكلام ذلك أنّهم (العرب) إذا ترنّموا يلحقون الألف والياء والنون، لأنّهم أرادوا مدّ الصّوت، لكن في القرآن ظهر الأمر مغايرا لأنّها تشبه في كتاب الله أن تكون أمر إعجازه الّذي يخاطب به كل نفس تفهمه، ثم لا يجد من النّفوس على أيّ حال إلّا الإقرار والاستجابة، ولأجل هذا التناغم بين الميم والنون فقد اجتمعتا وتعاقبتا في سورة الفاتحة، وهما كذلك في سور كثيرة.

2ـــ التّضام(Collocation)**:**

وهو توارد زوج من الكلمات بالفعل أو بالقوّة نظرا لارتباطها بحكم هذه العلاقة أو تلك[2]، وهذا الارتباط"يعتاد أبناء اللّغة وقوعه في الكلام، بحيث يمكن توقّع ورود كلمة محدّدة في النّصّ من خلال ذكر كلمة أخرى فيه، وتتميز تلك الظاهرة بعدم افتقارها إلى مرجعيّة سابقة أو لاحقة، كما هو الحال مع عناصر السّبك النّحوي"[3]، وقد تفطّن إليها العرب واعتبروه من الظّواهر الأساسيّة في البناء اللّغوي، وذلك لما لها من دور كبير في رصف العناصر اللّغويّة لتكوين

[1] ـ مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص: 317.
[2] ـ محمد خطابي: لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، ص: 25 .
[3] ـ يسري نوفل: المعايير النصية في السور القرآنية(دراسة تطبيقية مقارنة)، ص: 113 .

الجمل، ورصفها لتكوين النّصّ، فكان لهذه الظّاهرة في مصنّفاتهم مجالا معيّنا ، حيث جاء مبثوثا في مدوّناتهم بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

نجده عند اللّغويين العرب الّذين "ضربوا بسهم وافر في هذا المجال، وكشفوا عن المجالات المختلفة التي تستعمل فيها الألفاظ بأعيانها بحيث لو استعمل لفظ في غير ما يتلاءم معه لكان ذلك خطأ في فقه اللّغة"[1]، وعلى غرار القدماء اهتم علماء اللّسانيات بظاهرة التّضام، واختلفت الدّراسات حوله حسب التّوجّهات الفكريّة، فتنوّعت المجالات اللّغوية التي تناولت هده الظاهرة، فقد عولجت ضمن القرائن النّحويّة، وهناك من عالجها تحت ما يسمى علم الدّلالة ونظرية السّياق، وقد رأى علماء النّص أنّها أحد معايير النّصية التي تسهم في التّرابط النّصّي داخل النّص.

ظهر هذا المصطلح لأوّل مرّة سنة 1951م في بحوث اللّساني الإنجليزي فيرث(Firth)[2]، وهو عنده مجيء كلمة في صحبة كلمة أخرى على نحو يجعلنا بحكم العادة والإلف أن نتوقّع أن تجيء الكلمتان متصاحبتين، وهي شكل من أشكال العلاقة الأفقيّة على المستوى المعجمي، وهي تختلف عن شكل آخر من العلاقة الأفقيّة على المستوى النّحوي[3].

ما نلحظه في مدوّنة الرّافعي إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة أنّها لم تحفل كثيرا بالشّواهد القرآنية في مقامات كثيرة كما رأينا، لكن على القلّة التي استشهد بها الرافعي، نجده قد أشار إلى ظاهرة التّضام في الفصل التّطبيقي حين تناول فيه بالشرح والتفسير والتّعليل الآية الكريمة التالية، قال تعالى:**﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا 15 وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا 16﴾** (نوح: ١٥ـ ١٦)، يشير الرّافعي إلى أنّ هذه الآية يفهمها العرب، فبعضهم يفهم من نسقها أنّ القمر نور والشمس نور، ولكن اختلف اللّفظان ليكون في ذلك تنويع بليغ، ويعلو آخر عن هذه المنزلة، فيفهم أنّ القمر أضعف نورا من الشمس لأنّ هذه عبّر عنها بالسّراج، ولفظ السّراج يحضر في النّفس شعاعه المتّقد كأنه نور منبعث من نار،

---

[1] ـ عبد الفتاح عبد العليم البركاوي: دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث، "دراسة تحليلية: الصوتية والبنيوية والتركيبية في ضوء نظرية السياق"، دار المنار ، القاهرة، ط 1، 1411هـ ـ1991م، ص: 72.

[2] ـ ينظر : ردة الطلحي: دلالة السياق، جامعة القرى، ط1، 1424هـ، ص: 197.

[3] ـ ينظر: حمادة محمد عبد الفتاح حسيني: المصاحبة اللغوية وأثرها في تحديد الدلالة في القرآن الكريم(دراسة نظرية تطبيقية)، رسالة دكتوراه، جامعة الأزهر، 1428هـ ـ 2007م، ص: 74.

ويدقّق بعضهم فيرى أنّ الغرض هو التّعبير عن الشّمس بأنّها تجمع إلى النّور الحرارة، ولذلك فائدة في الحياة ولهذه فائدة أخرى، والنّور نفسه لا تكاد تحسّ فيه الحرارة، بل إنّما تحسّ في السّراج ووهجه، وكأن المفسرين لم يتعدّوا المنزلة الثانية، ولم يفطنوا حتى ولا الثالثة...

ثمّ يفهم أهل القلوب الحديثة مع كلّ هذه الوجوه أنّ المراد من الآية إثبات ما كشفته هذه العلوم، من أنّ القمر جرم مظلم، وإنمّا يضيء بما ينعكس عليه من نور الشّمس التي هي (سراجه) إذ النّور لا يكون من ذات نفسه ابتداء، ولابدّ له من مصدر يبعثه، فذكر السّراج بعد النور دليل على أن هذا مصدره ذاك.

فتأمّل، أيمكن أن يكون هذا في طاقة رجل من العرب منذ ثلاثة عشر قرنا في تلك الجزيرة؟ وإذا كان في طاقته وكان ينظر إلى حقيقة المعنى العلمي ــ مع أنّ هذا المعنى لم يعرفه المفسّرون في استبحار التّمدن الإسلامي ـــ فهل كانت تجيء العبارة إلّا على الأصل الّذي في نفسه فتخرج صريحة في المعنى، كما هي طبيعة الكلام الإنساني، إنّ بين الآية وبين كلام الناس، كالفرق بين نبيّ يوحى إليه وبين معلّم جغرافيا...[1]، وفي ذلك تأكيد من الرّافعي على بعد المدى للآية الكريمة، وأن ما تقف عليه صراحة المعنى هو إعجاز لفظي ومعنوي في آن واحد.

وعليه فإنّ العلاقة بين اللّفظتين(الشّمس، القمر) يجعل القارئ يلتمس هذا التّرابط من خلال التقابل، وقد ورد مثله في كتاب الله كثيرا، فلو عدنا إلى الآية الكريمة الّتي تحدّث فيها الرّافعي عن اللّفظ الغريب وعلاقته في عملية انسجام النّص القرآني، ﴿ **أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَىٰ** ﴾(النجم: ٢١ (، فاللفظتان(الذّكر، الأنثى) تجمعها علاقة تقابل الّتي تسهم في إحداث التّرابط والاستمرار على مستوى النّصّ.

يتّفق الرّافعي في هذا المقام مع ما ذهب إليه الباحثين(هاليداي ورقية حسن) في أنّ العلاقة النّسقية الّتي تحكم هذه الأزواج في خطاب ما فهي علاقة التّعارض[2](الذكر/الأنثى ــ السّموات/ الأرض...)، ويقوم القارئ بخلق سياق تترابط فيه العناصر المعجميّة معتمدا على حدسه اللّغوي متجاوزا في ذلك الصّعوبات الّتي يتلقّاها بإرجاع هذه الأزواج إلى علاقة واضحة تحكمها، ولابدّ للمتلقّي أيضا أن يدرك إدراكا تامّا لمعاني الكلمات، والفرق بين الرّافعي والباحثان هو أنّ الأوّل يجعل للمتلقي دورا مهمّا في عمليّة اتّساق النّص، ذلك من خلال التّفاعل الّذي يحدثه عند تلقّيه الخطاب/ النّص، باعتبار النّص القرآني نصّا منزّها، فإنّه يعمل على التّأثير في هذا المتلقّي من جميع النّواحي، وقد آثر الرّافعي الجانب النّفسي له، والإيقاع الموسيقي للنّص، إضافة إلى طريقة النّظم الّتي حدّدها في العناصر الثّلاثة : الحروف وأصواتها، والكلمات وحروفها، ثم الجمل وكلماتها.

[1] ــ الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص: 207.

[2] ــ محمد خطابي: لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، ص: 25 .

بلغ القرآن الكريم في هذا الفن ــ كما في غيره ــ الذّروة في وضع الكلمات الوضع الذي تستحقه في التّعبير بحيث تستقرّ في مكانها المناسب مع مراعاة للسياق الذي وردت فيه[1]، ولو أنّ الرافعي لم يورد الكثير من الشواهد في هذا الإطار إلا أنه يمكننا إسقاط ما ذهب إليه في حديثه عن التضام بين اللفظتين(الشّمس/ القمر)، على آيات أخرى من كتاب الله، فقد وردت في محكم تنزيله ثنائيات ضدّية من بينها المقابلة الكونية بين لفظتي(السّماوات، الأرض) في قوله تعالى: ﴿ **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا** ﴾(الطلاق: ١٢ (، وهذه الثّنائية من أبرز المتقابلات في القرآن الكريم، وهما من "الألفاظ التي لا تكاد تفترق في الاستعمال القرآني"[2]، ذلك لورودها في أكثر من موضع من كتاب الله معا.

8 ــ الإيقاع الصوتي في النّصّ:

إنّ الملفت للنّظر في كتاب الرّافعي لمسة خاصّة اختارها، وتوزّعت في دراسته للنّظم تتمثّل في الإيقاع الصوتي ومدى تأثيره في المتلقي،فالكاتب كان صاحب ذوق رفيع وخاصّة في تعامله مع النّصّ القرآني، حيث وقعت ألفاظ القرآن في نفسه على شكل مقاطع موسيقية، زخّت له حروفها وأصواتها نغما متناسقا منسجما، فتطرب الأفئدة في تماسكها، وتذهل العقول في تركيبها، وإن كان القرآن أرفع من الموسيقى إلاّ أنّ الرافعي كان يتذوّق النّصّ القرآني بجوارحه،وبيّن بأنّ العرب قد انتبهوا لذلك مع عجزهم عن الإتيان بمثله، "فلما قرئ عليهم القرآن، رأوا حروفه في كلماته وكلماته في جمله، ألحانا لغوية رائعة،كأنها لائتلافها وتناسبها قطعة واحدة"[3].

يرى الرّافعي أنّ بلاغة الصّوت في لغة الموسيقى الّتي تقع في نفس المتلقي عائد إلى قوة ائتلافه، ودقة تركيبه وترتيبه، فمن يسمعه" يسمع ضربا خالصا من الموسيقى اللّغوية في انسجامه واطراد نسقه واتّزانه على أجزاء النّفس مقطعا مقطعا ونبرة نبرة كأنّها توقعه توقيعا"[4].

وجد الرافعي في الإعجاز بالنّظم عن طريق الإيقاع الصّوتي مجالا واسعا للتّماسك النّصّي فالإعجاز يكمن في الاتّساق بين الحروف وأصواتها، إذ تعتبر

---

[1] ــ ينظر: فاضل صالح السامرائي: التعبير القرآني، دار عمار، عمان، الأردن، ط4 ، 1427هـ ــ 2006م، ص: 53.

[2] ــ محمد الطاهر ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج1 الدار التونسية للنشر، (دط)، (دت)، ص: 124

[3] ــ الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص: 214.

[4] ــ المرجع السابق، ص: 213 .

مادّة الصّوت مظهر الانفعال النفسي والّذي يعتبر بدوره سببا في تنوع الصّوت، وتناسق وائتلاف الحروف في كلماتها، ونسج الجمل بكلماتها، وفي تنسيق الآيات في السّور أو السّورة الواحدة نظاما صوتيّا يخترق الأسماع والنّفوسوبذلك يكون قد وقف على بعض معايير النّصية السّبعة الّتي نادى بها "روبرت دي بوجراند" والمتمثّلة في الاتّساق الّذي يندرج ضمن الائتلاف بين الحروف في اللّفظة المفردة، والكلمات التي تتشكّل منها الجمل، والانسجام القائم على تلك العلاقات الدّلاليّة بين العناصر اللّغويّة، حيث تجد اللّفظة القرآنيّة تحمل دلالتها في ذاتها قبل ورودها في السّياق، وتحمل معنى إضافيا داخل هذا السياق يختلف عن المعنى السّابق، ذلك أنّه من خصائص الخطاب القرآني تجدد دلالة اللفظ بتجدد السياق الذي ترد فيه، "ووظيفته نصية داخل الوظيفة العامة التواصلية للنص"[1]، وهي البنية الأساسية المكوّنة لأجزائه.

9ــ مفردات القرآن:

يتحدّث الرّافعي عن مفردات القرآن التي اصطلح عليها العلماء بالغرائب، ويرمي من وراء هذه اللّفظة هي تلك الّتي تكون حسنة مستغربة، وليس الغرابة بمعنى مُنكرة أو نافرة أو شاذة، لأنّ القرآن منزّه عن هذا كلّه، ذلك أنّ هذه الألفاظ لا يتساوى في العلم بها أهلها وسائر الناس.

ومنشأ الغرابة فيما عدّوه من الغريب أن يكون ذلك من لغات متفرقة، أو تكون مستعملة على وجه من وجوه الوضع يخرجها مخرج الغريب: كالظلم، والكفر، والإيمان، ونحوها مما نقل عن مدلوله في لغة العرب إلى المعاني الإسلامية المحدثة، أو يكون سياق الألفاظ، قد دلّ بالقرينة على معنى معيّن غير الذي يفهم من ذات الألفاظ، كقوله تعالى:ﱡﱐﱑﱒﱓﱔﱕﱖﱗﱘﱙﱚﱛﱜﱝﱞﱟﱠ)القيامة: ١٨(أي فإذا بيّناه فاعمل به.

وكان الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ يسمّون فنّ هذا الغريب(إعراب القرآن) لأنّهم يستبينون معانيه ويخلصونها، وقد قال العلماء في تلك الألفاظ المعربة التي اختلطت بالقرآن: إنّ بلاغتها في نفسها أنه لا يوجد غيرها يغني عنها في مواقعها من نظم الآيات، لا إفرادا ولا تركيبا[2].

كما يشير الرافعي إلى الوجوه والنظائر، والأفراد، فأمّا الوجوه والنّظائر فيرى بأنّها تلك الألفاظ التي وردت بمعاني مختلفة: كلفظ الهدي، فإنه على سبعة عشر وجها، بمعنى: الثّبات، والدّين، والدّعاء، ونحوها، ومن الألفاظ: الصّلاة،

---

[1] ــ أمينة بن عبد الله: أثر الربط المعجمي في اتساق الخطاب القرآني، سورة الشعراء أنموذجا، رسالة ماجستير، 2017م ـــ 2018م، مشروع: اللسانيات النصية،، جامعة وهران1 ــ أحمد بن بلة، ص: 186.

[2] ــ ينظر: مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص: 72 ــ73.

والرّحمة، والسّوء- والفتنة، والرّوح، وغيرها، وكلّها مما يتبسط في استعماله بوجوه من القرائن وسياسة القرينة في العربية شريعة من الشرائع[1].

ومع تتبع العلاقات القائمة بين مصطلح "الهدي" والمصطلحات التّابعة، تتكشف لنا مساحات جديدة من الخطاب القرآني، وباستكمال تتبع هذه العلاقات بين المصطلحات التّابعة والمفردات العادية المعجميّة الّتي تربطها وشائج خاصّة مع المصطلحات التّابعة، يمكن أن نصل إلى صورة متكاملة عن الخطاب القرآني لكنّه ليس بالضّرورة تحليلا شاملا وحصريّا له.

ولكن نودّ التّنبيه إلى أن استخدام المفردات في تحليل الخطاب لا يعني بالضرورة الاقتصار على أدوات تحليل معجمية بسيطة، بل إنّ ذلك يقتضي أن تكون المفردة هي نقطة الاستناد الرئيسة الّتي تستخدم أداة أولى لتحليل الخطاب تستصحب معها جملة أدوات منهجية أخرى؛ كالتّفسير التحليلي والتفسير الموضوعي وغير ذلك[2]، هذان المنهجان يعملان على دراسة القرآن الكريم، ويصبحان أداتين في تحليل الخطاب القرآني عبر المفردات.

وهكذا تقوم هذه المفردات بالقيام بوظائفها داخل النّصّ، فالمعاني المختلفة للفظ الواحد تسهم بشكل أو بآخر في اتّساق النّصّ، مراعيّة في ذلك سياق المقام الّذي يحتّم استعمال مفردة معيّنة، فيراعى مثلا استعمال الثّبات في موضع - والدّين في موضع آخر بما يترتّب عليه سياق النّصّ القرآني وبذلك نخلص إلى أنّ هذا التّوافق في توارد هذه الألفاظ يجعل النّصّ أكثر تماسكا وارتباطا .

وعلى قدر الأمثلة القليلة التي استشهد بها الرافعي في مدونته إلا أنه استطاع في كل الأحوال أن يوصل أفكاره إلى القارئ، ليذهب بعدها للحديث عن الأفراد والتي هي ألفاظ تجئ بمعنى مفرد غير المعنى الذي تستعمل فيه عادة، واكتفى بما ذهب إليه ابن فارس، في مواطن عدة من القرآن الكريم ، فاستشهد ببعض الألفاظ وردت عنده مرتبة على هذا الشكل:

ــ كلّ ما ورد في القرآن من ذكر الأسف فمعناه الحزن، إلا قوله تعالى: **فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ**)الزخرف: ٥٥)فمعناه أغضبونا.

ــ كلّ ما فيه من ذكر البروج فهي كواكب، إلى قوله: **وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ**)النساء: ٧٨)فهي القصور الطوال الحصينة.

ــ كل ما فيه من ذكر البحر؛ فالمراد بالبحر الماء، وبالبر التراب، إلا قوله: **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ** (الروم: ٤١) فالمراد به البرية والعمران.

---

[1] ــ ينظر، المرجع نفسه: ص: 73.

[2] ــ عبد الرحمن الحاج: المفردة بوصفها أداة لتحليل الخطاب القرآني، بحوث ودراسات، التجديد، المجلد الرابع عشر، العدد السابع والعشرين،1431هـ ــ 2010م، ص: 113.

وعدّ مثل ذلك، هو وغيره أشياء، فهذا ما يسمّونه في لغة القرآن بالأفراد[1]، فهذا المزيج المعجمي الّذي انفرد به القرآن الكريم أضفى عليه جماليّة في نظمه، وتبيّن حسن ذلك النّسيج والتأليف المميز للقرآن الكريم الذي يسهم بقدر كبير في اتّساقه وتآلفه بحيث تأخذ كلّ مفردة موقعها الذي وضعت له لتحقق بذلك المعنى، ولتشكّل تلك الصّورة السّمعيّة الرّنّانة في ذهن المتلقّي(القارئ/السّامع) ممّا يجعله في استمراريّة تواصليّة مع هذا النّصّ، فيقف على الظّاهر والمخبوء خاصّة إذا كان المتلقّي من أهل العلم.

10ـ أثر الكلمات الزّائدة في اتّساق النّصّ:

المعروف أنّ الكلمة ثلاثة أنواع: اسم وفعل وحرف، والكلمات المقصودة هنا هي الحروف الزّائدة في القرآن الكريم، يرى الرّافعي بأنّ هذه الحروف الّتي يُظنّ بأنّها زائدة حسب ما ذهب إليه النّحاة نحو قوله تعالى: : **فبما رحمة من الله لنت لهم** ﴿آل عمران: 159﴾، وقوله تعالى: : **فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا** ﴿يوسف: ٩٦﴾، فإن النّحاة يقولون بأن"ما" في الآية الأولى و"أن" في الآية الثانية ، زائدتان، أي في الإعراب، "والنّحاة لا فُتْيا لهم في مواقع الفصاحة والبلاغة، ولا عندهم معرفة بأسرارها من حيث إنهم نحاة"[2]، على عكس البلاغيين الّذين تميّزوا بوقفاتهم البلاغيّة، فقد بيّنوا أنّ الكلام البليغ ليس فيه "زيادة يُحكم عليها بأنّ دخولها كخروجها"[3]، لذلك نبّهوا على أنّ القرآن الكريم لا يحتوي على شيء زائد، و أنّ ما ذهب إليه النّحويون من ذكر الزيادة كان القصد من ورائه ضبط القوانين، وأنّ حذف هذه الحروف لا يخلّ بالإعراب.

المعروف على الرّافعي أنّه دارس للنّحو دراسة مستفيضة مثله مثل عبد القاهر الجرجاني، لكنّه اهتم أكثر بعلم المعاني والدّلالات ، وخرج بذلك من دائرة النّحو، لذلك يجد الرّافعي أنّ من لا بصر له أنهما كذلك في النّظم ويقيس عليه، ويقر في هذا المقام أهميّة هذه الحروف الّتي يظنها النّحاة زائدة ولها أثر في انسجام النّظم فيقول:" أنّ في هذه الزّيادة لونا من التّصوير لو هو حذف من الكلام لذهب بكثير من حسنه وروعته، فإنّ المراد بالآية الأولى، تصوير لين النبي صلى الله عليه وسلم لقومه، وإن ذلك رحمة من الله، فجاء هذا المدّ في "مـــا" وصفا لفظيا يؤكد معنى اللّين ويفخّمه، فإن لهجة النطق به تشعر بانعطاف وعناية لا يُبتدَأ هذا المعنى بأحسن منهما في بلاغة السّياق، ثمّ كان الفصل بين الباء الجارّة

[1] ـ الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص: 73.

[2] ـ ضياء الدين ابن الأثير(273هـ): المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر،تحقيق: أحمد الحوفي، د.بدوي طبانة، نهضة مصر، القاهرة، (دت)، ج3، ص: 13.

[3] ـ سلمان بن محمد بن حسن القرني: جمالية المفردة القرآنية عند الرافعي بين التقليد والتجديد، مجلة جامعة الباحة للعلوم الإنسانية، العدد(16)، محرم، 1440هـ، سبتمبر 2018م، ص: 141.

ومجرورها(هو لفظ رحمة) مما يلفت النفس إلى تدبّر المعنى وينبّه الفكر على قيمة الرحمة فيه، وذلك كله طبعي في بلاغة الآية كما ترى"[1]، هذه الحروف الّتي قالوا بزيادتها تعتبر سرّا من أسرار البيان القرآني، وقد تناول ابن الأثير(673ه) هذه المسألة وأفاض فيها القول حيث رفض القول أنّ في القرآن حرفا زائدا لا معنى له، وقد طرح في هذا المقام أمثلة من الآيات المختلفة في كتابه (المثل السائر).

يوضّح الرافعي الأمر في الآية الثّانية الّتي يراد بها تصوير الفصل الّذي كان بين قيام البشير قميص يوسف وبين مجيئه لبعد ما كان بين يوسف وأبيه عليهما السلام، وأنّ ذلك كأنّه كان منتظرا بقلق واضطراب، فقال قبل ذلك على لسان يعقوب:﴿**إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ**﴾(يوسف: ٩٤)، ولم يكن جاءه البشير فكان يحس به، وقد وصفت الطرب لمقدمه واستقراره، غنّة هذه النون في الكلمة الفاصلة؛ وهي "أن" في قوله:"أن جاء"[2]، فلا يوجد في القرآن حرف واحد إلّا ومعه رأي يسنح بالبلاغة، من جهة نظمه أو دلالته أو وجه اختياره، فكلام الله عزوجل منزّه عن الزّيادة والنّقصان، فيستحيل أن يكون فيه موضع قلق أو حرف نافر أو جهة غير محكمة أو شيء فيما تنفذ في نقده الصّنعة الإنسانية من أيّ أبواب الكلام.

وبعرض الرّافعي لهذين المثالين بآيات من القرآن الكريم، يتبيّن أنّ الكلمات الّتي اعتبرها النّحاة زائدة لها دور مؤثّر في اتّساق الكلمات وائتلافها داخل الجمل، وإنّ لها "تأثيرا في حسن النظم، وتمكينا للكلام في النفس، وبعدا به عن الألفاظ المبتذلة، فعلى هذا لا يكون حشوا لا يفيد"[3]، وبالتّالي تسهم هذه الحروف في تحقيق نصيّة النّصّ، لأنّ هذه الحروف تشير إلى حركة داخلية ذات حيوية متنامية[4]، تعمل على إثراء المعنى وجعله أكثر عمقا.

11 ـــ مزيّة النّظم في الأسماء الجامدة:

إنّ الطّريقة الّتي يتمّ فيها تركيب الألفاظ وترتيبها يعطي الكلام من القوّة والضّعف ما تزيد قيمة الألفاظ، فإمّا أن تكون فصيحة قويّة، فيعلو شأنها ويرتفع، وإمّا أن تكون دون ذلك، فتكون بعيدة عن الفصاحة، فتمجّها الأسماع وتصبح مستهجنة لا قيمة لها.

---

[1] ـ الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص: 231.

[2] ـ المرجع السابق، ص: 231.

[3] ـ أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي(466هـ): سر الفصاحة، شرح وتصحيح: عبد المتعال الصعيدي، مطبعة ومكتبة محمد علي صبيح وأولاده، القاهرة،، 1389هـ ـــ 1969م، ص: 147.

[4] ـ سلمان بن محمد بن حسن القرني: جمالية المفردة القرآنية عند الرافعي بين التقليد والتجديد، ص: 145.

ومن مظاهر النّسق الصّوتي القرآني استخدام الأسماء الجامدة داخل الجمل، وترتيبها ترتيبا محكما وخاصّا، بحيث يحسن بها النّظم، وتظهر نمطا من التآلف والاتّساق مع بعضها فتحقّق للنّص تماسكه وانسجامه دون أن يشعر القارئ بجماد هذه الكلمات، ذلك أنّها وضعت موضعا مناسبا لا يمكن أن تستقرّ مكانها أي كلمة أخرى.

يقول الرّافعي:" وما يشذّ في القرآن الكريم حرف واحد عن قاعدة نظمه المعجز؛حتّى إنّك لو تدبّرت الآيات الّتي لا تقرأ فيها إلّا ما يسرده من الأسماء الجامدة، وهي بالطّبع مظنّة أن لا يكون فيها شيء من دلائل الإعجاز؛ فإنّك ترى إعجازها أبلغ ما يكون في نظمها وجهات سردها، ومن تقديم اسم على غيره أو تأخيره عنه، لنظم حروفه ومكانه من النّطق في الجملة؛ أو لنكتة أخرى من نكت المعاني التي وردت فيها الآية بحيث يوجد شيئا فيما ليس فيه شيء" [1].

ويضرب الرافعي مثالا من القرآن الكريم، ويدعو القارئ إلى تأمل قول الله تعالى: ﴿**فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ**﴾(الأعراف:١٣٣)،فإنّ هذه الآيات خمسة أسماء، أخفّها في اللّفظ(الطّوفان والجراد والدّم) وأثقلها (القمل والضّفادع) فقدّم (الطّوفان) لمكان المدين فيها؛ حتى يأنس اللّسان بخفتها؛ ثم الجراد وفيها كذلك مدّ؛ ثمّ جاء باللّفظين الشّديدين مبتدئا بأخفّهما في اللّسان وأبعدهما في الصّوت لمكان تلك الغنّة فيه؛ ثمّ جيء بلفظة (الدّم) آخرا، وهي أخفّ الخمسة وأقلّها حروفا؛ ليسرع اللّسان فيها ويستقيم لها ذوق النّظم ويتمّ بها الإعجاز في التركيب[2].

في هذا الصّدد الرّافعي أنّ هذه الأسماء مهما قلّب فيها المرء، لا يرى لها فصاحة إلّا في هذا الوضع؛ إذ لا يمكن تقديم أو تأخير أيّا من هذه الألفاظ، ولو حدث ذلك لكان من العنت أن تأتي منها بنظم فصيح، مما ينتج عنه اضطراب في النّطق؛ فلا يمكن إدراك أخفّها من أثقلها، وورود هذه الأسماء على هذا النظم السّويّ يكون الإعجاز فيها ليس فيه إعجاز بطبيعته، ذلك أن القرآن الكريم"إنما أعجز في اللّغة بطريقة النظم وهيئة الوضع ولن تستوي هذه الطريقة إلّا بكلّ ما فيه على جهته ووضعه، فكلّ كلمة منه ما دامت في موضعها فهي من بعض إعجازه"[3].

إنّ ورود هذه الأسماء على النّحو الّذي وردت فيه أحدث تماسكا نصيّا، إذ لا يمكن تقديم أو تأخير لفظة عن أخرى، وذلك راجع إلى قوّة ترابط الألفاظ واتّساقها، بحيث رتبت بين الخفّة والثّقل لتعود إلى الخفّة مرّة أخرى، وحتّى التّرتيب الواضح

---

[1] ــ مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص: 235.

[2] ــ المرجعنفسه، ص:235

[3] ــ المرجعنفسه ص:235 .

بين اللّفظتين الشّديدتين فكان الأمر للأخفّ بينهما في اللّسان، ليستقيم هذا الأخير على لفظة الدّم، فيرى الرافعي في هذا التّحليل أن مواضع هذه الأسماء مضبوطة من حيث موقعها في الكلام، لها وقع خاص في ذهن ونفس المتلقي، ولو كنت في غير ذي موضع لمجّتها الأسماء، ولفقدت بدورها رونق فصاحتها.

12 ــ الالتفات عند الرافعي:

الالتفات من أهمّ الظّواهر البلاغيّة المرتبطة بالقرآن الكريم، وأكثرها انتشارا فيه، ومن الأساليب الدّالة على إعجازه بحيث له أوجه كثيرة منها الانتقال من التّكلم إلى الغيبة أو الخطاب إلى الغيبة أو العكس، ولقي اهتماما من لدن علماء البلاغة لأنهم رأوا أنه يرفع الكلل والملل من الاستمرارية والتتابع على ضمير متكلم أو مخاطب، للانتقال من ضمير إلى آخر حتى يستطيب الكلام، حيث يرى معظم النقاد والبلاغيين أن الالتفات يأتي" لدفع السآمة من الاستمرار على ضمير متكلم أو ضمير مخاطب، فينتقلون من الخطاب إلى الغيبة، ومن المتكلم إلى الخطاب أو الغيبة، فحسن الانتقال من بعضها إلى بعض، لأنّ الكلام المتوالي على ضمير واحد لا يستطاب"[1]، وهذا يعني أن تغيّر السّياق من حال إلى حال تستميل له النّفس لأنّ لون الكلام المتوالي يتغيّر بتغيّر الضمائر المستعملة، ولعلّ موضوع الالتفات له أبعاد أخرى أبلغ من الانتقال من التّكلم إلى المخاطب أو التكلم إلى الغيبة وغيرها من تلك النّقلة التي جعلت هذه الظّاهرة في القرآن الكريم تتنوّع تنوّعا واسعا إذ يسهم "في رسم منعرجات دلالية داخل النّص الواحد، من خلال وضع تقابلات معنويّة وتركيبية بين الجمل الملتفت منها والملتفت إليها، كما يمكّن من خرق بنية الزّمن؛ فقد ينقل الخطاب من الأزمنة الغابرة إلى زمن النّبوة بسلاسة، وقد يحوّل الخطاب من فضاء الدّنيا إلى عوالم الآخرة، وقد يسهم في صياغة النّواميس الكونيّة المتعالية عن الزّمان والمكان"[2].

يعتبر الالتفات من"المصطلحات البلاغيّة التي تدل على الإحالة بصفة غير مباشرة...نظرا لما تكتنفه من بعد جمالي ونفسيوإعجازي، ولما لهذه الظاهرة من أسرار تميّز بها الخطاب القرآني"[3]، لأن السامع يمكن أن يملّ من أسلوب واحد فينقله هذا الأسلوب"إلى أسلوب آخر، تنشيطا له في الاستماع، واستمالة له في الإصغاء"[4]، لذلك يظهر بعده النفسي في الوقع الذي يحدثه في ذات المتلقي،

---

[1] ــ عبد القادر حسين: فن البلاغة، عالم الكتب، 1405ه ــ 1981م، ط1، ص: 281

[2] ــ كمال ذاكير: أسلوب الإلتفات في القرآن الكريم: بين تشكيل البنية وبناء المعنى، مجلة جيل الدراسات الأدبية والفكريّة، العام الثامن، ع69، مايو 2021م، ص:69

[3] ــ بن عائشة حسين : المقاربة النّصية بين التّداخل اللساني الوظيفي والبلاغي، مجلّة الموروث، م8، ع 2، 2020م، ص:18.

[4] ــ عبد القادر حسين، فن البلاغة، ص :282.

والالتفات يحدث بين الخطاب بغرض المبالغة وحسن الكلام[1]، الأمر الذي يجعل الكلام يستطاب من لدن المتلقي ذلك أن معنى هذه الظاهرة البلاغية"هو أن يكون الشاعر في كلام، فيعدل عنه إلى غيره، قبل أن يتمّ الأوّل، ثمّ يعود إليه فيتمّمه، فيكون فيما عدل إليه مبالغة في الأوّل"[2]، وتقوم الضمائر بدورها في تفعيل عملية الانتقال من حال إلى حال، وبالتالي يمكننا تحديد وظيفة هذه الضمائر داخل الخطاب ليحقق تماسكا نصيا، ويشترط في الانتقال بالأسلوب من صيغة التكلم أو الخطاب إلى الغيبة أو العكس"أن يكون الضمير في المنتقل إليه عائدا في نفس الأمر إلى الملتفت عنه، بمعنى أن يعود الضمير الثاني على نفس الشيء الذي عاد إليه الضمير الأوّل"[3]، إذا لابد أن يعود الضميرين المختلفين لطرف واحد في الخطاب حتى تتحقّق ظاهرة الالتفات.

وقد أشار الرافعي إلى هذه الظاهرة البلاغية وإن لم يطل فيها كثيرا بقوله: "ومن أعجب ما اتفق أن المتأخّرين من ناظمي البديعيات كعز الدين الموصلي(ت630ه) وابن حجة الحموي(ت837ه)، وغيرهما عدّوا تمام الفضيلة في عملهم أن ينظموا البيت على النوع من أنواع البديع، لم يذكروا اسم النّوع في البيت بالتورية، وهذا بعينه استخرجه الشهاب الخفاجي(1069ه) من القرآن في قوله...وهذا النوع هو الالتفات لأن السياق أن يكون (ولا يلتفت منهم) فعدل عن الغيبة إلى الخطاب؛ وهذا طريف جدّا كما ترى"[4]، والرافعي كعادته لم يقدم أمثلة تطبيقية كثيرة، إلا أن القرآن الكريم قد حوى هذه الظاهرة بكلّ أغراضها، ومن ذلك قوله تعالى:﴿**وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ**﴾الأعراف: ١٣٧(، فقد مكّن الالتفات من التكلّم في قوله(باركنا) إلى الغيبة عند قوله(ربّك)، قبل العودة إلى التكلّم من جديد في قوله(دمّرنا)"من إشراك الرّسول صلّى الله عليه وسلّم في سير الأحداث، الشّيء الذي أسهم في ردم الفجوة الزّمنيّة الفاصلة بين زمن موسى عليه السلام، وزمن الرّسالة المحمديّة"[5].

وأمثلة ذلك في القرآن كثيرة ولا يمكن رصدها جميعا في هذا المقام، إلّا أنّ ما يمكن الإشارة إليه أنّ من البلاغيين من يجد في الالتفات فائدة، وهو دفع السآمة عن النّفس وتجديد نشاطها، فتلك هي فائدة عامة، وهناك فوائد لابدّ من مراعاتها تكمن

---

[1] ـ بن عائشة حسين : المقاربة النّصية بين التّداخل اللساني الوظيفي والبلاغي، ص:18.

[2] ـ أبو طاهرمحمد بن حيدر البغدادي(ت517ه): قانون البلاغة في نقد النثر والشعر، تح: محسن عياض عجيل، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص: 110

[3] ـــ عبد القادر حسين، فن البلاغة، ص:280.

[4] ـ مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبويّة، ص: 257 ـــ 258

[5] ـــ كمال ذاكير: أسلوب الالتفات في القرآن الكريم بين تشكيل البنية وبناء المعنى، ص: 72.

في التّلطّف والتّرقق مع المخاطب ففي قوله تعالى: ﴿**وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾يس: ٢٢(.

أصل الكلام: وما لكم لا تعبدون الذي فطركم، ولكنه يريد أن ينصحهم فأبرز الكلام في صورة من ينصح نفسه تلطّفا فيهم، فهو لا يبغي لهم إلا ما يـبغيه لنفسه، فإذا انقضى غرضه، كشف عن مراده، وبيّن أنّ القصد إليهم، فقال وإليه ترجعون[1].

إن المفهوم الذّي أخذه الالتفات على أنه يدفع السآمة عن السّامع، لا يجد فيه ابن جنّي"ضربا من الاتّساع في اللغة لانتقاله من لفظ إلى لفظ فحسب، بل له غرض أهمّ، وأمر أعلى من مجرّد الاتّساع"[2]، فهو لا ينظر إليه تلك النظرة السّطحية التي تدلّ على سرّه البلاغي، ويذكر لنا السبب الذي دفع الناس إلى العدول عن لفظ الخطاب إلى الغيبة فيقول:" وعلة جواز ذلك عندي أنه إنما لم تخاطَب الملوك بأسمائها إعظاما لها... فلما أرادوا إعظام الملوك وإكبارهم تجافوا وتجانفوا عن ابتذال أسمائهم التي هي شواهدهم وأدلّة عليهم إلى الكناية بلفظ الغيبة فقالوا: إنّ رأي الملك أدام الله علوّه، ونسأله حرس الله ملكه ونحو ذلك، وتحاموا(إن رأيت)، (ونحن نسألك) لما ذكرنا"[3]، وبذلك يكون ابن جني فد وضع لنا مقياسا جديدا في بلاغة الالتفات لم يدركه أحد من السابقين، ولم يبلغه أحد من اللاحقين[4]، فأسلوب الالتفات يجعل المتلقي يمعن النظر، ويدقّق جيدا في رسالة المخاطب شكلا ومضمونا،الأمر ذاته نلمحه في الخطاب القرآني من خلال التّغير الذي تحدثه لغة الالتفات حيث استطاع هذا الأسلوب" أن يضفي عليه بعدا نفسيّا ودلاليّا وتداوليّا"[5]، فلا يمكن أن يكون الهدف من الالتفات هو رفع الكلل عن المتلقي وإنما أبعاده في القرآن الكريم أسمى من ذلك، إذ يعتبر أحد الأساليب التي تجعل مستقبل الخطاب القرآني يركّز انتباهه عليه ويحاول استكناه أسراره والوصول إلى أصل إعجازه.

ونجد أن للضمائر هنا الدّور الكبير في عملية تغيّر الخطاب من حال إلى حال، الأمر الذي جعل أسلوب الالتفات" يشكل ظاهرة بلاغيّة ولسانية ونحويّة، وبالتّالي فهو نوع من الإحالة الضّميريّة التي لها علاقة بما يمليها في سياق المقال والمقام بمختلف أبعاده شكلا ومضمونا من جهة، ولما تشكّله الإحالة الالتفاتيّة أو الضّميريّة من التّعالق الوطيد بين العلوم اللّغويّة اللّسانيات الوظيفيّة، والبلاغة

---

[1] ـــ عبد القادر حسين: فنّ البلاغة، ص:284.

[2] ـ المرجع نفسه، ص:285.

[3] ـ أبو الفتح عثمان بن جني: الخصائص، تح: محمد علي النجار، ج2، دار الهذى للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ص :188

[4] ـــ عبد القادر حسين: فنّ البلاغة، ص:287..

[5] ـــ بن عائشة حسين: المقاربة النّصية بين التّداخل اللساني الوظيفي والبلاغي، ص:19.

العربيّة والنّحو العربى من جهة أخرى"[1]، ويمكن أن ندلّل على ما ذكرناه بما ذهب إليه ابن جنيّ في حديثه عن الالتفات في القرآن الكريم، وفي سورة الفاتحة يقول:" والقرآن الكريم قد عبّر أوّلا عن لفظ الجلالة بأسلوب الغائب فيقول فيها:"الحمد لله" ثمّ يعبّر ثانيا بأسلوب الخطاب فيقول: "إياك نعبد وإياك نستعين"، وترك أسلوب الغائب إلى أسلوب الخطاب، ليس لمجرد الاتساع في اللغة، أو التّصرّف في اللفظ بل لأمر أعلى وغرض أسمى، وذلك أن الحمد أقلّ درجة من العبادة، فالإنسان يحمد نظيره ولا يعبده لذلك استعمل أن العبادة قمّة الطّاعة، والتقرّب بها غاية النهاية ولذلك استعمل لفظ"الحمد" ولم يقل (إياك نعبد) واستعمل لفظ العبادة مع المخاطب فقال(الحمد لله) وهو الأقلّ درجة من الغائب فقال"الله نعبد"[2]، ونلاحظ أنّ سلسلة ضمائر الخطاب قد جاءت مرتبطة بدلالة مقابلتها من ضمائر الغيبة الواردة في مستهل السّورة الكريمة[3]، وبذلك يتم تشكيل المعنى داخل النّص لأنّ هذه"الضمائر من بين الوسائل التي تحقق التماسك الدّاخلي والخارجي"[4]، وهذا التقابل لم يقتصر على الجانب الدّلالي بل امتدّ إلى الجانب التّركيبي، الأمر الّذي جعل من هذا الأسلوب يحدث تماسكا نصيّا على اختلاف الضّمائر ونوعية النّقلة المحدثة، وبالتالي فهو يشكّل إحالة تعمل على اتساق النّص من جهة، ومن جهة أخرى تجعل المتلقي يتفاعل مع هذا الخطاب لما له من جمال في السّمع ووقع في النّفس.

ونخلص مما ذكرنا أنّ مدوّنة الرّافعي "إعجاز القرآن والبلاغة النبويّة" كغيرها من المدوّنات التي اختصّت بإعجاز القرآن، لم تغفل الجانب اللّساني النّصي وإن لم تكن الإشارة إليه مقصودة، الأمر الذي يجعلنا نقول أنّ تناول القرآن الكريم بالدّراسة والتحليل والبلاغة النّبويّة كما ذهب إليه المؤلف غنيّ بآليات التماسك النّصّي، لأنّ عمليّة تحليل الخطاب وخاصة الخطاب القرآني تتيح النظر في خصائص تماسكه، والتي تعبر عن دلائل إعجازه، فالرافعي كغيره من الأدباء كانت له هذه النظرة الخاصة في الإعجاز وفي البلاغة النبوية، وأضاف بعض ما رآه مناسبا فوقف على الصوت، والكلمة والجملة، وتمكّن من الوقوف على سعة التّراث النّحوي والبلاغي والنّقدي متأثرا من جهة، ومجدّدا من جهة أخرى، فقد أكثر الرافعي من التّأمل والتّدبّر، فدرس قضيّة النّظم لتشمل التركيب والفقرة والنّصّ إلى مجموعة من النّصوص، ورأى أنّ القرآن كله لحمة واحدة ودرسه على هذا الأساس فكانت مظاهر الاتّساق الّتي أشار إليها عناصر مهمّة في

---

[1] ـــ المرجع السابق، ص: 19.

[2] ـــ أبو الفتح عثمان بن جني : المحتسب، تح: علي النجدي ناصف، عبد الفتاح إسماعيل شلبي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة، ج1، دار سيزكين للطباعة والنشر، القاهرة، 1431ه ــ 2010م، ص: 46.

[3] ـــكمال ذاكير: أسلوب الالتفات في القرآن الكريم بين تشكيل البنية وبناء المعنى، ص: 69

[4] ـــ صبحي إبراهيم الفقي: علم اللغة النصي بين النظريّة والتطبيق، ص :161

عمليّة التّماسك النّصّي، كما أنّه هناك عناصر أخرى حسبه عملت على انسجام النّص القرآني أدرجها في مدوّنته.

الفصل الثالث:

مظاهر الانسجام النّصّي عند الرّافعي في الإعجاز :

- الانسجام النّصّي عند الرّافعي
- مفهوم الانسجام النّصّي
- آليات الانّسجام النّصّي
- مظاهر الانسجام النّصّي

1 ــ الانسجام النّصّي عند الرّافعي:

يتفوّق القرآن الكريم على سائر الكتب سواء المنزّلة أو غير المنزّلة بخصائصه ومزاياه، تنتظم حروفه وكلماته وآياته في سلك واحد[1]، ولولا هذه الوحدة البنائية لما استوعب القرآن"خبر ما بعدنا" حيث استوعب مستقبل البشرية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فلا نستطيع أن نهتمّ بجانب من الجوانب، ونهمل الجوانب الأخرى، فمعاني الآيات لن تفسر لك عن وجهها حتى تقرأها في سياقها وموقعها وبيئتها، ولن تدرك المراد حتى تلاحظ سائر العلاقات بين الآية والقرآن كله، لأن القرآن بناء محكم واحد، ونظم متفرد واحد، تسري فيه ــ كله ــ روح واحدة تحوّله إلى كائن حيّ يخاطبك كفاحا، ويشتبك معك في جدل شامل يجيب به عن تساؤلاتك[2]، فلا ترى فيه عوجا ولا خللا، متماسك الأجزاء، لا تشوبه زيادة أو نقصان .

لعلّ الرّافعي قد أدرك ذلك جيّدا فوقف في إعجاز القرآن على جملة من عناصر انسجامه ليست بعيدة عن الرؤى الحديثة عند علماء لسانيات النّصّ، وللوقوف على مواطن الانسجام والتّماسك في بناء النّصّ القرآني، من خلال نظرة الرافعي إليه، ودراسته إيّاه على غرار سابقيه الّذين درسوا الإعجاز بكلّ تفاصيله، يبدو أنّ دراسته قد تميّزت بلمسة خاصّة، لذلك سنتحدث عن مظاهر هذا الانسجام النّصّي للقرآن، من خلال ما وقف عليه في دراسته للنّصّ القرآني ونظمه.

لكن إذا كان إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه فما هو هذا النّظام أو التّأليف الّذي يخالف به غيره من النصوص؟[3]، من أجل ذلك وجب الكشف عن الوسائل الّتي تشكّل العلاقات الدّلاليّة داخل النّصّ القرآني، "ولا يمكن كشفها إلّا بوضع خريطة سياقيّة للوصول إلى عمق النّص، وهنا لابدّ من الاستقلالية الذّهنيّة والبعد عن الأهواء العاطفية"[4]، يبيّن الرّافعي أنّ إعجاز القرآن ليس في العجب أبدع منه فهو"وجود لغوي ركّب كل ما فيه على أن يبقى خالدا مع الإنسانية"[5]، بهذا المفهوم الشّامل والرّؤية العامّة ينطلق الرّافعي في الكشف عن حقيقة الإعجاز، ولابدّ من الإشارة أنّ الأسلوب الّذي اعتمده في هذا الكتاب"إعجاز القرآن والبلاغة النبوية"، وعمق الدّراسة الّتي انتهجها ناتجة عن عمق فهمه لكتاب الله، ذلك أنّ"لكلام الله

---

[1] ــ طه جابر العلواني: الوحدة البنائية للقرآن المجيد، ص: 11.

[2] ــ المرجع نفسه، ص: 15.

[3] ـ نصر حامد أبو زيد: مفهوم النص، دراسة في علوم القرآن، مكتبة الفكر الجديد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط1 ، 2014م ، ص:148.

[4] ــ علي حميد خضيّر: دلالة السياق في النص القرآني، ص: 136 .

[5] ــ الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص: 14.

تعالى أسلوبا خاصا يعرفه أهله ومن امتزج القرآن بلحمه ودمه، وأمّا الّذين لا يعرفون منه إلّا مفردات الألفاظ وصوّر الجمل فأولئك عنه مبعدون...وفهم كتاب الله تعالى يأتي بمعرفة ذوق اللّغة، وذلك بممارسة الكلام البليغ منها"[1]،وقال في وصف من امتزج القرآن بدمه ولحمه حاكيا عن نفسه:"إني عندما أسمع القرآن أو أتلوه أحسب أني في زمن الوحي، وأنّ الرسول صلى الله عليه وسلم ينطق به كما أُنزل عليه ـــ أو نزل به عليه ـــ جبريل عليه السلام"[2]، وبهذا امتاز الرّافعي ـ رحمه الله تعالى ـــ على الأقران إن كان له أقران[3] .

عني مصطفى صادق الرّافعي عناية خاصّة بالنّظم الموسيقي في القرآن، وحرص حرصا شديدا على الأصل اللّغوي في الإعجاز، والتزامه له وعنايته به، لأنّه كان آخذا نفسه بالكشف عن أسرار النظم الموسيقي في القرآن، وهذا النّظم الّذي يشبه السّحر والّذي ألف العرب على تعاديهم وكوّن منهم أمّة واحدة تطرب للحن واحد تجتمع عليه قلوبها في الأرض بينما ترتفع به أرواحها في السماء[4]، وقبل عرض أهمّ مظاهر الانسجام النّصّي عند الرّافعي في مدونته"إعجاز القرآن" سنقف أوّلا عند بعض المفاهيم عند العلماء النّصيين الّذي اهتمّوا بتماسك النّصوص، وحدّدوا معايير النّصّية التي تعمل على انسجام النّص/ الخطاب.

2 ـــ مفهوم الانسجام النّصّي:(Coherence)

قام اللّغويّون بدراسة النّصوص من كونها بنيّة لغويّة، ومعنى ذلك أنّه يوجد علاقات متنوّعة ومتداخلة بين العناصر اللّغويّة المكوّنة للنّصّ وفصوله الدّلاليّة، وهو ما عبّروا عنه بالانسجام الّذي أخذ حسبهم تعريفات مختلفة، لذلك وجب الوقوف على دلالة الانسجام من خلال التّعريف اللّغوي والاصطلاحي للمصطلح.

أ ـــ الانسجام لغة:

جاء في لسان العرب لابن منظور، مادة (سَجَمَ): سَجَمَتِ العين الدمع والسحابة الماء تسْجِمُهُ سَجْمًا وسُجُومًا وسَجَمَانًا: وهو قَطَرَان الدمع وسيلانه، قليلا كان أو كثيرا...والعرب تقول دَمْعٌ سَاجِمٌ، ودمع مسجومٌ: سَجَمَتْهُ العَيْنُ سَجْمًا...وكذا عين سَجُوم وسحاب سَجُوم، وانسَجَمَ الماء والدمع، فهو منْسِجِمٌ، إذا

---

[1] ـــ المرجع السابق، ص: 21.

[2] ـ المرجع نفسه، ص:21.

[3] ـــ الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، كلمة السيد محمد رشيد رضا منشئ مجلة المنار،القاهرة، ربيـــــع الأول سنة1346هـ، ص: 21.

[4] ـ صبحي الصالح: مباحث في علوم القرآن، دار العلم للملايين، بيروت، أغسطس، 1977م، ط10، ص: 319.

انسجم أي انصب، وسجَّمت السحابة مطرها تَسْجيما وتَسْجَامًا إذاصبّته،...وسجم العين والدّمع الماء يَسْجُمُ سُجُومًا سِجَامًا إذا سال وانسجم، وأَسْجَمَت السّحابة دام مَطَرُهَا" [1].

كما ورد في القاموس المحيط:"سجم الدمع سُجُوما وسِجَاما، وسجمته العين، والسحابة الماء تسجِمُه وتَسْجُمُهُ سَجْمًا وسُجُومًا وسَجَمَانًا، قَطَرَ دَمْعُهَا وسال قليلا أو كثيرا"[2].

المتأمل لمحاور معاني مادة (سجم) من خلال هذا التّقصي لتلك المعاني، يجد أنّها تدور حول الصّب والسّيلان والقطران، وهذه المفردات توحي بالتّتالي والتّتابع والانتظام، مما يجعلنا نخلص إلى أنّ هذه المعاني اللّغوية تتّصل بمعنى الانسجام، ذلك أنّ انصباب الماء وعدم انقطاعه في الانحدار وسيلانه يقابل انصباب معنى النص،بحيث إذا ربطنا هذه المعاني بالكلام نجد الانسجام هو أن يأتي الكلام متحدرا كتحدر الماء المنسجم[3]، فتجمع المعاني في النّص شبيه بتجمع الماء الّذي تتوالى قطراته، وهذا التجمع للمعاني يؤدي إلى وحدته دلاليا.

ب ـ الانسجام اصطلاحا:

يعتبر الانسجام من المفاهيم التي اهتمت بها لسانيات النّص من أجل الكشف عن التّماسك النّصّي القائم بين فقرات النّصّ وجمله والتّعامل معه كوحدة كبرى، داعية المتلقّي إلى الاهتمام بالجانب الدّلالي لهذه النّصوص، ذلك برصد تلك العلاقات الخفيّة الكامنة داخلها، فالانسجام يهتمّ بترابط المفاهيم والعلاقات الدّلالية التي تتحقّق داخل النّصّ، ورأت اللّسانيات النّصيّة أنّ الصّفة القارّة في النّصّ"هي صفة الاستمرارية والتّتابع بين الأجزاء المكوّنة للنّصّ"[4]، وقد تمّ توسيع مفهوم النّص من خلال مفهوم التّماسك الّذي ليست طبيعته نحوية فحسب، أي أنّه لا ينظر إلى الجانب الشّكلي والمعجمي"بل يتضمّن في الوقت نفسه جوانب تتعلّق بموضوع النّصّ وجوانب دلاليّة وتداوليّة أيضا" [5]ولمعرفة المفاهيم الاصطلاحية لمعنى

---

[1] ـ ابن منظور: لسان العرب، الجزء الثاني، ص: 1763،1762.

[2] ـ الفيروز أبادي(مجد الدين محمد بن يعقوب): القاموس المحيط، ضبط وتوثيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ، لبنان، (دط)، 1999م، مادة (س ج م)، ص:1009 – 1010.

[3] ـ ينظر: ابن أبي الأصبع زكي الدين عبد العظيم بن عبد الواحد المصري(ت654هـ)، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تح: حفني محمد شرف، ط1،لجنة إحياء التراث الإسلامي، الجمهورية العربية المتحدة، المجلس الأعلى للشؤون الأسلامي، القاهرة،1380هـ ـ1963م،ص: 429.

[4] ـ جميل عبد المجيد: البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، الهيئة المصرية للكتاب، مصر، 1988م، ص: 76

[5] ـ سعيد حسن بحيري: علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات، ص: 109 .

الانسجام لابّد من العودة إلى آراء النّصانيّين الّذين تحدّثوا عنه وبيّنوا المقصود منه.

تباينت آراء الدّارسين الغرب في إيجاد مصطلح مقابل للانسجام(Coherence)، وتعدّدت المصطلحات العربية حسب كلّ دارس، فقد اختار سعيد حسن البحيري مصطلح التّماسك[1]، الّذي رأى أنّه يرتكز"على أساس دلالي ـــ محوري مجرّد للنّص(يطلق عليه البنية العميقة للنّص)"[2]، وسمّاه محمد خطابي الانسجام[3]، الّذي يرى أنّه"أعمّ من الاتّساق، كما أنّه يغدو أعمق منه بحيث يتطلّب بناء الانسجام من المتلقّي، صرف الاهتمام جهة العلاقات الخفيّة التي تنظّم النّصّ وتولّده، بمعنى تجاوز رصد المتحقّق فعلا(أو غير المتحقّق) أي الاتّساق، إلى الكامن الانسجام"[4].

وقد آثرمحمد العبد مصطلح الحبك كمقابل للمصطلح الغربي Coherenceقائلا:"فقد آثرت الحبك على غيره ممّا دار مداره في التّراث، كما آثرته مقابلا عربيّا مناسبا لـCoherenceفي الانجليزية"[5]،واختار تمّام حسان الالتحام[6]، في ترجمته لكتاب "النّص والخطاب والإجراء" لروبرت دي بوجراند ويقصد به التّرابط المفهومي.

وبصرف النّظر عن التّباين الحاصل في تحديد مصطلح عربي مقابل للمصطلح الغربي Coherenceفالانسجام أو الحبك عني بعناية خاصّة في حقل علم اللّغة النّصي، فيرى كل من هاينمن Heinemannوفيفيجر Viehwegerأنّ "وحدة النّصّ لا تقاس بظواهر سطحيّة؛ ولكنّها تقاس بالبحث عنها في البنيّة الدّلاليّة الكبرى للأبنيّة المركّبة والحبك النّصّي"[7]، والحبك عند كلاوس برينكر Klaus Brinker هو المفهوم النّواة في تعريف النّصّ، إذ يقع عنده في مركز علم لغة النّص الموجّه إلى النّظام اللّغوي[8].

يرجع المفهوم Coherenceفي الإنجليزية أوKohaerrenzفي الألمانيّة إلى الأصل اللّاتيني Cohaerentia ، وهو مستعار من علم الكيمياء، عرف هذا المفهوم في علم اللّغة النّصّي وتحليل الخطاب حدودا عدّة، يحدّه سوفنسكيSowinskiبقوله: "يقضي

[1] ـ المرجع نفسه، ص: 109.
[2] ـ سعيد حسن البحيري: علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات، ص: 109.
[3] ـ محمد خطابي: لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، ص 5.
[4] ـ المرجع نفسه: ص: 5 ـ 6.
[5] ـ محمد العبد: النص والخطاب والاتصال، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، 2014م، القاهرة، مصر، ص:79
[6] ـ روبرت دي بوجراند: النص والخطاب والإجراء، ص:8.
[7] ـ محمد العبد: النص والخطاب والاتصال، ص:71.
[8] ـ المرجع نفسه، ص: 71 .

للجمل والمنطوقات بأنّها محبوكة، إذا اتّصلت بعض المعلومات فيها ببعض، في إطار نصّي أو موقف اتّصالي، اتّصالا لا يشعر معه المستمعون أو القرّاء بثغرات أو انقطاعات في المعلومات"[1]، فهو يجعل من ترابط المعلومات وتعالقها فيما بينها شرطا جوهريّا من شروط انسجام النّصّ، لأنّ الانسجام يختصّ بالاستمرارية الدّلاليّة من خلال تلك العلاقات الّتي تربط معاني الجمل في النّصّ، وهي علاقات خفيّة تنظم النّصّ، يقوم المتلقّي برصد وسائل هذا الاستمرار الدّلالي، فخاصيّة الانسجام تعمل على الاهتمام بالرّوابط الدّلالية المتحقّقة في عالم النّص.

لذلك يحدّده ليفاندوفسكي Lewandowski بقوله:"ليس الحبك محض خاصّة من خواص النّصّ، ولكنّه أيضا حصيلة اعتبارات معرفيّة(بنائيّة) عند المستمعين أو القرّاء، الحبك حصيلة تفعيل دلالي، ينهض على ترابط معنوي بين التّصوّرات والمعارف، من حيث هي مركّب من المفاهيم وما بينها من علاقات، على معنى أنّها شبكة دلاليّة مختزنة، لا يتناولها النّصّ على مستوى الشّكل؛ فالمستمع أو القارئ هو الّذي يصمّم الحبك الضّروري أو ينشئه"[2]، ويفهم من قوله أن الانسجام حصيلة تفعيل دلالي يفضي إلى ذلك التّرابط المعنوي الّذي يقوم القارئ أو متلقي النص/الخطاب بتحديده.

وقد لخص ليفاندوفسكي Lewandowskiزوايا النّظر إلى الحبك في علم اللّغة النصي فيما يلي:

1ـــ الحبك من حيث هو الشّرط اللّغوي لفهم السّبك فهما أعمق.

2 ــ الحبك من حيث هو إحدى خصائص الارتباط بين الأشياء والأوضاع وبين مراجعها، وهو ما يسمّى بالارتباط المرجعي أو الإشاري.

3 ــ الحبك من حيث هو إحدى خصائص الإطار الاتّصالي الاجتماعي.

4 ـــ الحبك من حيث هو إجراء ومن حيث هو حصيلة التّلقي الابتكاري البناء[3].

ويستخلص مما قدّم من تعريف للحبك ومن هذه الزّوايا أنّه في جوهره تنظيم مضمون النّصّ تنظيما دلاليّا منطقيّا.

يذهب العالم فان دايك في تحليله للنّصوص إلى أنّ الانسجام هو "التّماسك الدّلالي بين الأبنيّة النّصيّة الكبرى"[1]، وقد حدّد فان دايك الدّراسة الّتي يقوم عليها

[1] ــ محمد العبد: النص والخطاب والاتصال، ص: 72.
[2] ــ المرجع السّابق، ص:72.
[3] ــ محمد العبد: النص والخطاب والاتصال، ص: 82.

الاتّساق والانسجام، فالأوّل (الاتّساق)يختصّ بالبنيّة السّطحيّة للنّصّ، أمّا الثّاني (الانسجام) فيختصّ بالبنيّة العميقة للنّصوص، فقد وصفت محاولاته بوجه عام "بأنّها متقدّمة في شرح عمليّات التّرابط (النّحوي) بين المتواليات النّصية"[2]، وعمليّة الانسجام بين الأبنية النّصيّة الكبرى والّتي أطلق عليها التّماسك الدّلالي، ولم يغفل دور المتلقي والتأويل، فكلّها قامت على مرتكزات ذات أسس دلاليّة ومنطقيّة، فالانسجام أو الحبك حسب فان دايك يكمن في تلك العلاقات الدلاليّة الّتي تربط أجزاء النّصّ الكبرى في بنيته العميقة.

يعتبر الانسجام المعيار الثّاني من معايير النّصية عند ديبوجراند ودريسلر، وهو معيار "يختص بالاستمرارية المتحقّقة في عالم النّص، ونعني بها الاستمرارية الدّلالية التي تتجلى في منظومة المفاهيم والعلاقات الرّابطة بين هذه المفاهيم"[3]، ذلك أنّ هذه الأخيرة(المفاهيم) الّتي يتولّى مستعمل اللّغة استيعابها داخل نص معيّن ممّا يجعل من الانسجام هو الاستمرارية الدّلاليّة لها في ذهن المتلقّي بحيث يرى روبرت دي بوجراند أنّ"عالم النّص هو الموازي الإدراكي في ذهن مستعمل اللّغة لهيئة المفاهيم المنشّطة فيما يتعلّق بالنّصّ"[4]، وقد استعمل دي بوجراند مصطلح عالم النّصّ للدّلالة على تركيب المفاهيم والعلاقات التي تربط أجزاء النّصّ.

وقد دعي كتاب "التّماسك في اللّغة الإنجليزية" لهالداي ورقة حسن بـ"النّموذج النّسقي"، حيث قدّما في هذا الكتاب قاعدة وصفيّة وتنظيريّة ملائمة لتحليل التّماسك وإثباته، وينطلق من افتراضين حول التّماسك:

1 ـــ التّماسك يعبّر عنه خلال تنظيم طبقي للّغة، والتّنظيم الطّبقي هو المستوى الدّلالي والمستوى المعجميّ النّحويّ والمستوى التّعبيريّ الذي يشمل الأصوات والحروف.

2 ـــ التّماسك النّصي جزء من المكوّن النّصّي للنّسق الدّلالي[5].

وحسب هاليداي ورقية حسن فالتّأكيد على انسجام الخطاب أمر ضروري، والعمل على استخلاص خصائص للخطاب مع اعتبار الأدب نسقا فرعيا من أنساق

---

[1] ـــ سعيد حسن بحيري: علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات، ص:220.

[2] ـــ المرجع نفسه، ص: 220.

[3] ـــ جميل عبد المجيد: البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998م، ص:141 .

[4] ـــ روبرت دي بوجراند: النص والخطاب والإجراء، ص: 210.

[5] ـــ محمد مفتاح: التشابه والاختلاف، نحو منهاجية شمولية، المركز الثقافي العربي،(دط)،الدار البيضاء، المغرب، ص: 40.

المجتمع، بيد أنّه هناك نسقا مغلقا وآخر مفتوحا"وما يمثل النّسق المغلق في اللّغة هو النّحو، وما يمثّل النّسق المفتوح هو المعجم، والنّسق المفتوح يقتضي الحركة والتبادل والعلاقة، فالنّحو يتعامل مع العلائق المحدودة، والمعجم يتعامل مع العلائق المفتوحة"[1]، فللغة ثلاث مستويات: التّعبيري، المعجمي والدّلالي، ويختص الانسجام بالمستوى الدّلالي، فموقع التّماسك في النّسق الدّلالي مهمّ"لأنّه يقوم بدور أساسي وخصوصا في خلق الخطاب وهكذا، فإنّه مفهوم دلالي يحيل إلى العلاقة المعنوية التي توجد في الخطاب، تلك العلائق التي تجعل الخطاب خطابا منسجما مع نفسه ومنسجما مع سياق الوضع"[2]، بحيث يتألّف المستوى الدّلالي من ثلاثة مكوّنات: "تعبير عن المضمون، وتواصل، وتشييد خطاب منسجم"[3]، فالانسجام يعنى بالعلاقات داخل النّص، إنّه الاستمرارية المتحققة في عالم النّصّ.

وقد اقترح (دجين سو شا) توسيعا لمفهوم التّماسك في كتابه"التّماسك اللّساني في النّص: نظرية ووصف"، وقد أسمى نموذجه بـ:"النّموذج التّماسكي النّسقي الموسع"، وقد افترض أنّ التماسك يكون في المستوى المعجمي وفي المستوى النحوي وفي المستوى السّيميائي؛ واختصارا فقد قدمه في التشجير التالي[4]:

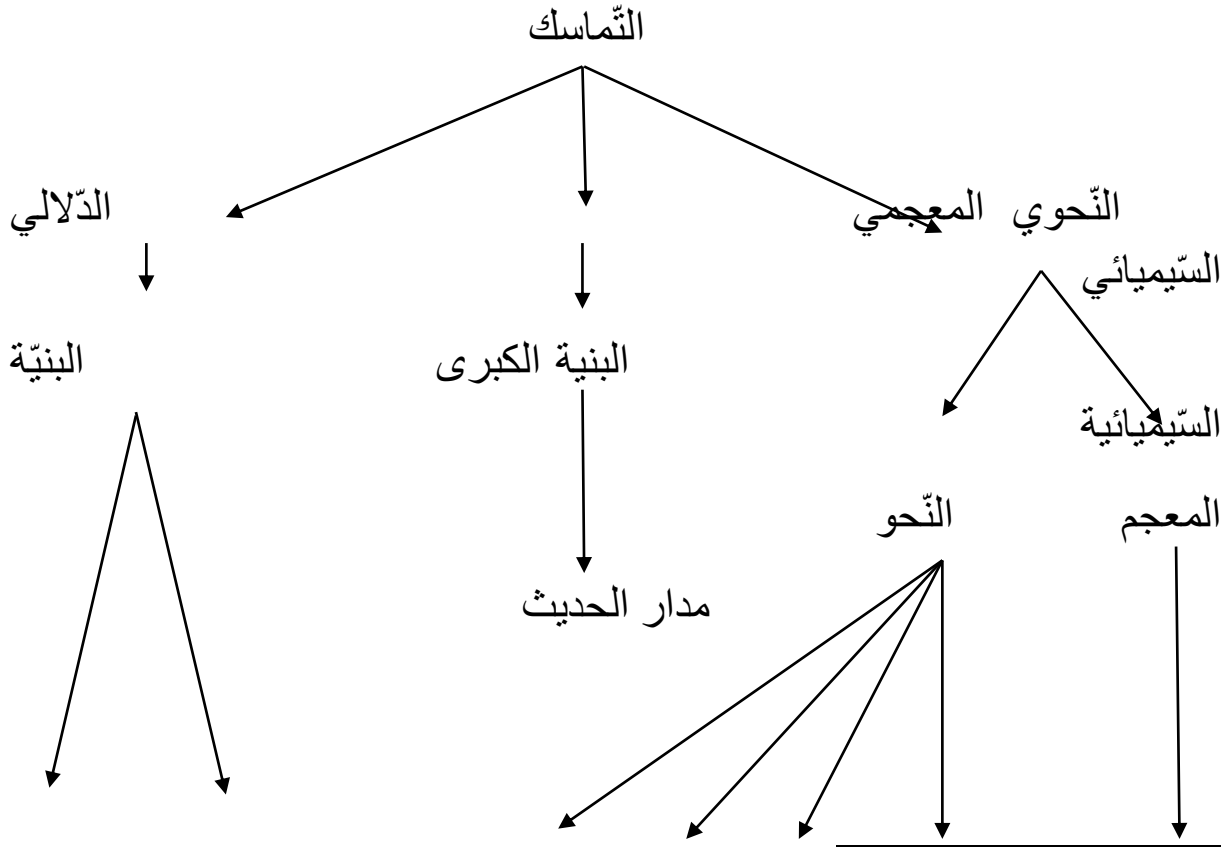

[1] ــ المرجع نفسه، ص: 40 ــ 41.
[2] ــ المرجعنفسه، ص:41.
[3] ــ المرجع السابق، ص:41.
[4] ــ محمد مفتاح: التشابه والاختلاف، نحو منهاجية شمولية، ص:41 .

التّسلسل المعجميّ التّماسك؛ التّوكيد؛ الإنجاز؛ التّماسك العطفي الحقل المقصد

ويتّضح من خلال الشّكل أعلاه أنّ "دجين سون شا" قد شمل الاتّساق بمعنى التّرابط النّحوي والمعجمي القائم على العلاقات السّطحيّة للنّصّ، بينما الانسجام فقد أطلق عليه مصطلح التّماسك الدّلالي الّذي يختصّ بتلك العلاقات الخفيّة داخل النّصوص أي البنيّة الكبرى للنّصوص.

ومن خلال التّعاريف التي قدّمناها والمتعلّقة بمفهوم الانسجام، يمكن حصر أهمّ خصائصه فيما يلي:

1 ــ يعتبر الانسجام شرطا أساسيّا لتحقيق نصيّة النّص"فالنّصيّة شروطها وقوامها التّرابط والاتساق والانسجام"[1]، وإذا ما اجتمعت هذه العناصر الثلاثة تحدث تماسكا نصيّا.

2 ــ النّص منتوج مترابط متّسق ومنسجم وليس تتابعا عشوائيا لألفاظ وجمل وقضايا وأفعال كلامية[2]، فهو نسيج محكم التركيب.

3 ــ لا تستقيم نصيّة القطعة إلّا بانسجامها وهذا يأتي عند إدراج النّص ضمن إطار السّياق.

4 ــ لكلّ من التّرابط والاتّساق والانسجام علامات خاصّة متميّزة تحدّد النّصّ في بعده الجزئي وفي بعده الكلّي، أمّا البعد الجزئي أو الميكرونصي فالتّرابط المحلّي فيه علامات العلاقات النّحوية المنطقيّة في حين أنّ الاتّساق فيه يتبلور بترتيب الموضوعات والمحمولات، وأخيرا الانسجام المحلّي الّذي تنتظم فيه أفعال الكلام الّتي يحويها النّص وتحده كذلك علامات الخطاب المختلفة أمّا الترابط في البعد الكلّي أو الماكرونصّي فيكون بين المقاطع فيما بينهما والنّصّ بمجمله، أمّا النّظائر أو المتجانسات الدّلالية فهي قوام الاتّساق العام في حين أنّ التوجّه الحجابي التّداولي العام للنّصّ يحدّد انسجام النّص العام[3].

3ـــ آليات الانسجام النّصّي:

اعتبر علماء النّصّ الانسجام مفهوما جوهريّا في مجال نحو النّصّ، فقاموا بضبط الآليات الّتي تحكمه، وتعدّدت هذه الآليات وتنوعت بسبب تباين علماء

[1] ــ خولة طالب الإبراهيمي: مبادئ في اللسانيات، ص: 168.
[2] ــ المرجع نفسه، ص: 169.
[3] ــ المرجع نفسه، ص: 169 ــ171.

النّصّ الّذين تناولوا النّصّ وفق اتّجاهاتهم الخاصّة ومنظورهم الذّاتي، وسنحاول رصد أهمّ الآليات التي عرفت لدى علماء النّصّ:

3 ـــ 1ـ السّياق (contexte)

ذهب أكثر العلماء والباحثين إلى أنه لا يمكن فهم دلالة الكلام من دون السّياق، وقد دارت نزاعات فكرية كثيرة حول إبانة المعنى، ومن أجل الكشف عن معنى السياق والآراء التي قيلت فيه لابد من التّعريج على المفهوم اللّغوي له.

أ) السّياق لغة:

قال صاحب اللّسان: "السّوْق: معروف. ساق الإبل وغيرها يسوقها سَوْقًا وسِيَاقًا، وهو سائق وسوّاق، وقوله تعالى: ﴿**وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ**﴾ق: ٢١(؛ قيل في التفسير، سائق يسوقها إلى محشرها، وشهيد يشهد عليها بعملها...وقد انساقت وتساوقت الإبل تساوقا إذا تتابعت وكذلك تقاودت فهي متقاودة ومتساوقة...والمساوقة: المتابعة كأنذ بعضها يسوق بعضا.. وساق إليها الصّداق والمَهرَ سياقا وأساقه، وإن كان دراهم أو دنانير، لأن أصل الصداق عند العرب الإبل، وهي التي تساق، فاستعمل ذلك في الدرهم والدينا وغيرهما. وساق فلان من امرأته أي أعطاها مهرها. والسّياق: المهر...وأساقه إبلا : أعطاه إياها يسوقها[1].

وردت في القرآن الكريم بألفاظ مختلفة منها: (سائق، نسوق، سيق، يساقون، المساق)، يقول تعالى:﴿نُسَاقُ إِلَى رَبِّنَا﴾(مريم: ٨٦) وفسّر معنى يسوق في الآية الكريمة "نحث المجرمين على المسير إلى جهنم عطاشى كالإبل"[2]، ويقول تعالى في سورة السجدة: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ**﴾السجدة: ٢٧(، ومعنى ذلك أن نسوق الماء"بالمطر والثّلج وقيل بالأنهار والعيون إلى الأرض الجرز أي اليابسة"[3]،ووردت لفظة "سيق" في سورة الزّمر مكرّرة في قوله تعالى: ﴿**وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا**﴾الزمر: ٧١) أي "يساقون سوقا عنيفا"[4]، وقوله تعالى: ﴿**وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا**﴾الزمر: ٧٣ (بمعنى:"يساقون مكرمون"[5].

---

[1] ــ ابن منظور: لسان العرب، المجلد العاشر، مادة(سوق)، ص: 166.

[2] ــ الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن: مجمع البيان في تفسير القرآن، ج6، تحقيق السيد هاشم الرسول المحلاتي والسيد فضل الله اليزدي، دار المعرفة، بيروت، 1986م ، ص:820.

[3] ــ الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، ج8، ص: 522.

[4] ــ المصدر السّابق، ص:795.

[5] ــ المصدر نفسه، ص: 795.

يبدو من التّعريف اللّغوي للسّياق أنّه يفيد التّتابع، وهو ذات المعنى الّذي ذهب إليه مفهوم السّياق في الاصطلاح أي أنّهما يتّفقان من حيث المفهوم والدّلالة، فقد اهتمّ بعض علماء اللّغة الغربيين بالسّياق اهتماما خاصّا وعلى رأسهم فيرث(Firth)(ت1960م) الّذي ظهر اتجاهه في النّظرية السّياقيّة بحيث كانت له رؤية خاصّة حول المعنى الّذي يتمّ تفسيره داخل السّياق، فالمعنى حسب فيرث"لا ينكشف إلّا من خلال تسييق الوحدة اللّغوية، أي وضعها في سياقات مختلفة، فالمعنى عنده يفسر باعتباره وظيفة في سياق"[1]، لأنّه عندما تدرس أحوال اللّفظ ومادّته اللّغوية يكون ذلك بمثابة تمهيد لإعطاء هذا اللّفظ بعده في النّص بمعنى أنّ السّياق يمثّل"دراسة الوحدة اللّغوية في الواقع العملي وهي خطوة تمهيدية في المنهج التّحليلي للخطاب"[2]، فمحلّل النّصّ تحكمه ظروف اللّغة المكوّن منها هذا النّصّ، إضافة إلى بيئته الّتي ولد بها وطبيعة كلّ من منشئ النّصّ ومتلقّيه، وقد بيّن فيرث الشروط الّتي يتوقّف عليها تحديد المعنى فيما يلي:

ـــــ تحليل السّياق صوتيّا وصرفيّا ونحويّا ومعجميّا.

ـــــ بيان شخصيّة المتكلّم والمخاطَب والظّروف المحيطة بالكلام.

ـــ بيان نوع الوظيفة الكلاميّة[3] .

فالعلاقة بين السّياق والمعنى علاقة وطيدة، إذ لا يمكن الفصل بينهما، فإذا انعدم السّياق ذهب المعنى أمّا إذا تحدّد السّياق فيبقى المعنى بارزا في النّصّ، كلاهما يتلبّس بالآخر.

ويذهب براون ويول، كإطار عام إلى أنّ "محلّل الخطاب ينبغي أن يأخذ بعين الاعتبار السّياق الّذي يظهر فيه الخطاب، والسّياق لديهما يتشكّل من (المتكلّم/ الكاتب، والمستمع/ القارئ، والزّمان والمكان)، لأنّه يؤدّي دورا فعّالا في تأويل الخطاب، بل كثيرا ما يؤدّي ظهور قول واحد في سياقين مختلفين إلى تأويلين مختلفين"[4]، ولذلك يرى هايمس أنّ للسّياق "دورا مزدوجا إذ يحصر مجال التّأويلات الممكنة، ويدعّم التّأويل المقصود"[5]، وقد

---

[1] ـــ أحمد مختار عمر: علم الدلالة، عالم الكتب، القاهرة، ط4، 1993م، ص: 68.

[2] ـــ المهدي إبراهيم الغويل: السياق وأثره في المعنى، دراسة أسلوبية، أكاديمية الفكر الجماهيري، 2011م، ليبيا، ص:14.

[3] ـــ سعيد حسن بحيري: علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات، ص:24.

[4] ـــ محمد خطابي: لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، ص:52.

[5] ـ المرجع نفسه، ص: 52 .

بيّن هايمس مدى إمكانيّة تصنيف خصائص السّياق وهي حسبه مصنّفة كالآتي:

أ) ــ المرسل: وهو المتكلّم أو الكاتب الّذي ينتج القول.

ب) ــ المتلقّي: وهو المستمع أو القارئ الّذي يتلقّى القول.

ج) ــ الحضور: وهم مستمعون آخرون حاضرون يساهم وجودهم في تخصيص الحدث الكلامي.

د) ـــ الموضوع : وهو مدار الحدث الكلامي.

ه) ـــ المقام: وهو زمان ومكان الحدث التّواصلي، وكذلك العلاقات الفيزيائيّة بين المتفاعلين بالنّظر إلى الإشارات والإيماءات وتعبيرات الوجه...

و) ــ القناة: كيف تمّ التّواصل بين المشاركين في الحدث الكلامي: كلام، كتابة، إشارة...

ز) ـ النّظام: اللّغة أو اللّهجة أو الأسلوب اللّغوي المستعمل.

ح) ـــ شكل الرّسالة: ما هو الشّكل المقصود: دردشة، جدال، عِظة، خرافة، رسالة، رسالة غرامية...

ط) ـــ المفتاح: ويتضمّن التّقويم: هل كانت الرّسالة موعظة حسنة، شرحا مثيرا للعواطف... .

ي)الغرض: أي أن ما يقصده المشاركون ينبغي أن يكون نتيجة للحدث التّواصلي[1] .

ليست كلّ هذه الخصائص ضروريّة في جميع الأحداث، وعلى محلّل الخطاب أن يختار ما هو ضروري لوصف حدث ما، ويشير هايمس (**Hymes**) في هذا الصّدد إلى أمر مهمّ فبقدر"ما يعرف المحلّل أكثر ما يمكن من خصائص السّياق بقدر ما يحتمل أن يكون قادرا على التنبؤ بما يحتمل أن يقال"[2]، فالخطاب القابل لأن يوضع في سياقه هو الخطاب القابل للفهم والتّأويل، فيمكن أن يكون المتلقي أمام خطاب بسيط للغاية(من حيث اللّغة)، ولكنه في ذات الوقت يتضمّن قرائن (ضمائر أو ظرفا) تجعله غامضا بدون الإحاطة بسياقه، وعليه فإنّ "للسياق دورا

[1] ــ محمد خطابي: لسانيات النص ، مدخل إلى انسجام الخطاب، ص: 53.
[2] ــ المرجع نفسه، ص:53

فعّالا في تواصلية الخطاب وفي انسجامه بالأساس"[1]، وهذا القول دليل على أنّ السّياق له دور كبير أيضا في انسجام النّص/ الخطاب لأنّ الإلمام بسياق النّص /الخطاب يجعل للخطاب معنى.

اتفقت كلّ الاتجاهات النّظرية رغم اختلافها وتعدّد ميادينها حسب أصحابها على أنّ السّياق يفسّر"الكثير من العمليّات المصاحبة لأداء اللّغة في وظيفتها التّواصليّة والإبلاغيّة، لدى كل من منتج الكلام والمتلقي، وأنّه ركن أساس في فهم الرسالة اللغوية"[2]، السّياق نوعان: داخلي، وخارجي.

أ)ــ السّياق الدّاخلي: وهو ما يعرف بالسّياق اللّغوي؛ لأنّه يتعلّق"بالتّناسق اللّفظي في العبارة أو النّصّ، ولا يخرج عن إطار البنيّة اللّغويّة، ويكمن دوره في تحديد معاني الكلمات، وإزالة اللّبس عنها، وإبعاد المعاني الأخرى التي تحتملها الكلمة في سياق آخر، وإضفاء صفة الجمال أو الشّاعرية أو الفنيّة عليها"[3]، وهذا النّوع من السّياق يتعلّق باللّغة وتراكيبها والكلمة وموقعها في التّركيب وائتلافها مع سابقتها ولاحقتها، أي"طريقة تسييق الكلمة المفردة داخل الجملة، وتسييق الجملة مع الجمل الأخرى، وتسييق هذه الجمل داخل الإطار الكلي للنص"[4]، فتآلف الكلمات مع بعضها، والجمل أيضا ومكان هذه الائتلافات والتّراكيب من الموضوع الجامع لها فهذا كلّه يختصّ به السّياق الدّاخلي، بحيث يمكننا من فهم النّصّ ودراسته من خلال استعمال المفردة في داخل نظام الجملة، وعلاقاتها القبليّة والبعديّة في النّص، ويقوم السّياق اللّغوي بتنظيم العلاقات الدّلاليّة بين اللّفظ مع غيره، ويكشف عن هذه العلاقات، خاصّة الّتي تتعلّق باللّغة.

ب)ــ السياق الخارجي:إنّ الحديث عن السّياق الخارجي يذهب بنا إلى تقصّي الظّروف والخلفيات المحيطة بالنّصّ، ويشمل ذلك الكاتب/ المتكلّم أو المستمع/ القارئ،دون أن ننسى البيئة الزّمانيّة والمكانيّة التي ولد فيها النّصّ مع مراعاة الأسس الفكريّة والحياتيّة القائمة وراءه"وهو بهذا المعنى يشمل جملة الملابسات والأحوال والظروف القائمة في الإطار الزماني والمكاني لعملية التخاطب، ويحوي هذا النّوع من التخاطب ما يعبّر عنه عند البلاغيين بالقرينة الحالية أو المقام"[5]،فلكلّ مقال مقام.

---

[1] ــ المرجع نفسه، ص56.

[2] ــ خلود العموش، الخطاب القرآني، دراسة غفي العلاقة بين النص والسياق، جدار للكتاب العالمي،عالم الكتب الحديث، ط1 ، 1429هـ ـ 2008م ، الجامعة الهاشمية، ص: 26 .

[3] ــ المهدي إبراهيم الغويل: السياق وأثره في المعنى، ص: 15.

[4] ــ المرجع نفسه، ص:14.

[5] ـ المهدي إبراهيم الغويل: السياق وأثره في المعنى، ص15.

وإذا أمعنّا النّظر في الفرق بين السّياق الدّاخلي والسّياق الخارجي، أو بالأحرى السّياق اللّغوي والسّياق غير اللّغوي يتبيّن لنا أنّ الأوّل"منهما هو الّذي يعطي الكلمة أو العبارة معناها الخاصّ في الحديث أو النّصّ؛ فهو يزيل اللّبس عن الكلمة، بينما سياق الحال أو المقام يزيل اللّبس عن الجمل والنّصوص، والسّياق بهذا المفهوم يتعدّى ما هو معروف من حيث إنّه تتابع للأصوات والألفاظ ليشمل فضلا عن ذلك الجو البيئي والنفسي المحيط بكل من المتكلم والسامع"[1]، فدراسة النّصّ اللّغوي وفهمه فهما عميقا يحتاج إلى معرفة بالعوامل السّياقيّة، وخاصّة الثّقافة والبيئة والوسط الاجتماعي، يقول غراهام هو(Graham hough): "إنّ قراءة القصيدة خارج سياقها لا تعد قراءة أبدا"[2]، فقراءة أي خطاب أو مقولة تعبيريّة خارجة سياقها لا تدخل في نطاق القراءة.

يتّضح لنا مما ورد أنّ فهم النّصّ وتفسيره لانستطيع بلوغه إلّا بالرّجوع إلى السّياق، باعتبار هذا الأخير يلعب دورا مهما في الكشف عن معنى النّصّ وإبرازه، والسّياقات سواء كانت داخليّة أو خارجيّة تعمل على ارتباط النّصوص وتماسكها بحيث تشكّل مع بقيّة أدوات التّماسك صرحا عميقا للنّص من حيث التّرابط، بذلك تتحقّق نصيّته، و"إنّ غياب حدود واضحة لمفهوم السّياق، يظلّ مصدرا للخلط الّذي تفشى في استعمالات علماء اللّسان بين"السّياق" و"المقام"، فغالبا ما نلفيهم يستعملون مصطلح"السّياق" للدّلالة به عموما، على مجموع الظّروف التي تصاحب ظهور الملفوظ، وبهذا المعنى، لا يغدو السّياق مكوّنا من علامات فحسب، ولكنّه يشمل مختلف العناصر الّتي تسهم في فعل التّلفظ (المحيط الفيزيائي، الظّروف التّاريخيّة والاجتماعيّة، معارف ونفسيات المشاركين في عمليّة التّخاطب...)"[3].

3 ــ 2 ــ مبدأ التّأويل المحلي:

جاء في لسان العرب لابن منظور:"الأوْل: الرجوع، آل الشيء، يؤول أوْلا ومآلا: رجع. وأوَّل إليه الشيء رَجَعَه، وأُلْتُ عن الشيء: ارتددت...وأوّل الكلام وتأوَّله: دبَّره وقدَّره: فسّره...والمراد بالتّأويل نقل ظاهر اللّفظ عن وضعه الأصلي إلى ما يحتاج إلى دليل لولاه ما تُرِك ظاهر اللّفظ"[4].

---

[1] ــ خلود العموش، الخطاب القرآني، دراسة غفي العلاقة بين النص والسياق، ص26.

[2] ــ غراهام هــو،الأسلوبية والأسلوب، ط1 ، ترجمة : كاظم سعد الدين، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1985م ، ص52.

[3] ــ ماري نوال غاري بريــور: المصطلحات المفاتيح في اللسانيات، ترجمة: عبد القادر فهيم الشيباني، 2007م، ط1 ، سيدي بلعباس، الجزائر، ص: 35 ــ 36.

[4] ــ ابن منظور: لسان العرب، المجلد 11، ص: 32 ــ 33.

وقد ورد التّأويل في لغة العرب بمعنى التّفسير"سئل أبو العباس أحمد بن يحي عن التّأويل فقال: التّأويل والمعنى والتّفسير واحد...التأوُّل والتّأويل تفسير الكلام الّذي تختلف معانيه ولا يصحّ إلّا ببيان غير لفظه"[1].

نال التّأويل في الثّقافة العربيّة اهتماما كبيرا، فهو من أبرز المصطلحات الّتي دار حولها جدل غير قليل بين العلماء قديما في مختلف اتّجاهاتهم ومذاهبهم الّتي يدعون إليها، فالتّأويل ظهر جليّا في أفكار ونظريّات علماء الكلام أو المتكلّمين فهو عندهم علم قائم بذاته[2]، أمّا في الثّقافة الغربيّة فيرى بعض الباحثين أنّ التّأويل في حقيقته ليس له علاقة بالنّصّ الأدبي وإنّما هو من المصطلحات الّتي اقترن ظهورها بالفلسفة[3].

يرتبط التّأويل المحلّي بما يمكن أن يعتبر تقييدا للطّاقة التّأويليّة لدى المتلقي باعتماده على خصائص السّياق، كما أنّه مبدأ متعلّق بكيفيّة تحديد الفترة الزمنيّة في تأويل مؤشّر زمني مثل"الآن" أو المظاهر الملائمة لشخص محال إليه بالاسم"محمد" مثلا[4]، ويقتضي هذا الأمر وجود مبادئ تكون في حوزة المتلقّي تمكّنه من تحديد تأويل مناسب ومعقول لتعبير ما في مناسبة قوليّة معينة "إنّ أحد هذه المبادئ هو التّأويل المحلّي الّذي يعلم المستمع بأن لا ينشئ سياقا أكبر مما يحتاجه من أجل الوصول إلى تأويل ما"[5]، وهذا التّقييد يعتمد على خصائص السّياق، فلا يتجاوزها متلقي الخطاب/ النّصّ في العمليّة التّأويليّة، والتّأويل المحلّي من بين هذه المبادئ الّتي يتسلّح بها القارئ أو المستمع ليكون التّأويل في حدود المساحة الزّمنيّة والمكانيّة للنّصّ مراعيا في ذلك السّياق .

ومعنى ذلك أنّ وظيفة التّأويل المحلّي تقييد البعد التّأويلي للنّصّ/ الخطاب، وذلك اعتمادا على خصائص السّياق الّتي من شأنها حصر القراءات أو التّأويلات الممكنة للنّص، واستبعاد القراءات التّعسفيّة التي تُفرَض على النّصّ، فالتّأويل إذن هو القراءة الممكنة للنّصّ؛ لأنّ هذا الأخير ليس مغلقا على ذاته، بل هو مفتوح على القارئ بداخله في أيّ زاوية شاء، فينتج ويبدع نصّا جديدا فوق النص الأوّل[6]، ويرى محمد خطابي أنّ"مبدأ التّأويل المحلّي ليس إلّا جزءا من استراتيجيّة عامّة

---

[1] ـ المصدر نفسه، ص: 33.

[2] ـ ينظر: عبد الغني بارة: إشكالية تأصيل الحداثة في الخطاب النقدي المعاصر،مقاربة حوارية في الأصول المعرفية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (دط)، 2005م، ص: 336.

[3] ـ ينظر: المرجع السابق، ص: 338.

[4] ـ محمد خطابي: لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، ص: 56.

[5] ـ المرجع نفسه، ص: 56 .

[6] ـ ينظر: عبد الغني بارة: إشكالية تأصيل الحداثة في الخطاب النقدي المعاصر، ص: 337.

وهي "التشابه"[1]، لأنّ تقييد التّأويل لمقولة ما لخطاب/نص ما لن يكون مرتبطا بطبيعة الخطاب وبسلامة تأويله فقط وإنمّا تمليه بشكل من الأشكال تجارب سابقة في مواجهة النّصوص، ومواقف سابقة تشبه من قريب أو من بعيد النّصّ الحالي الّذي نحن بصدد دراسته"وتشمل هاتين الاستراتيجيتين (مبدأ التأويل المحلي ومبدأ التّشابه) استراتيجية أعمّ منهما وهي معرفة العالم"[2].

3ـ 3 ــ مبدأ التّشابه:

إنّ متلقي الخطاب/ النّصّ لابدّ أن يرتكز على تجارب ومواقف سابقة تمكّنه من قراءة النّصّ، ومن ضمن ما تزوّده به هذه التّجارب والمواقف "القدرة على التّوقع، أي توقّع ما يمكن أن يكون اللّاحق بناء على وقوفه (أي المتلقّي) على السّابق، إن تراكم التّجارب(مواجهة المتلقّي للخطابات) واستخلاص الخصائص والمميّزات النّوعيّة من الخطابات يقود القارئ إلى الفهم والتّأويل بناء على المعطى النّصّي الموجود أمامه، ولكن بناء أيضا على الفهم والتّأويل في التّجربة السّابقة"[3]، فمبدأ التّشابه هو دعوة إلى النّظر إلى الخطاب الحالي في علاقات مع خطابات سابقة له تشبهه، ويقوم متلقّي الخطاب/ النّصّ بتبّني هذا المبدأ "في تحديد التأويلات في السياق"[4]، لأنّ ما قيل أو كتب سيكون ذا معنى في السّياق الّذي يظهر فيه .

ويبين محمد خطابي وجهة نظر خاصّة من خلال هذا المبدأ تتمثّل في أنّ مبدأ التّشابه ليس عصا سحريّة تمكّن آليّا من مواجهة جميع الخطابات مهما كان نوعها ومهما كانت جدّتها أو اختلافها عن بقيّة الخطابات الأخرى السابقة لها "ففي الواقع كثيرا ما تكون توقّعاتنا سليمة متوافقة مع ما هو موجود في النّصّ، ولكن مع ذلك يمكن أن تكون التّعاقدات مزدارة والتّوقّعات مشوّشة، أتمَّ ذلك عن قصد أو من أجل أثر أسلوبي، أو بشكل غير مقصود..."[5]، وفي حين حدوث هذا الأمر يحصل تعطّل مرحلي في الفهم والتّأويل، هذه الحالة تتدخل فيها قدرة الإنسان المتكيّفة مع المستجدات، والقادرة أيضا على خلق الأدوات المناسبة للمقاربة، فهذه القدرة عمليّة فعّالة ذات استمرارية لا تتعطّل أبدا، يوظّفها الإنسان في الحالات الطارئة خلال تعامله مع الخطاب/ النّصّ ممّا يجعله مشاركا في عملية انسجام

---

[1] ــ محمد خطابي: لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، ص: 57.
[2] ــ المرجع نفسه، ص: 57.
[3] ــالمرجع السابق، ص:57 – 58.
[4] ــ المرجع نفسه، ص:58.
[5] ــ المرجع نفسه، ص:58.

النّصّ"فالجهد الطّبيعي للمستمعين والقراء على السّواء هو إسناد الملاءمة والانسجام للنّصّ الّذي يواجهونه إلى أن يرغموا لفعل عكس هذا"[1].

إنّ تجارب المتلقّي ومواقفه السّابقة مع خطاب/نصّ ما وتشابهها المفترض مع خطابات أخرى تساهم في عمليّة التّأويل بحيث تسهم في انسجام الخطاب المؤوّل، فالنّصّ لا يمكن أن يتكرّر في الزّمان كيفما كان نوعه لكن "التّشابه وارد دوما وبنسب متفاوتة"[2]، ومهما اختلفت المضامين والتّعابير فالخصائص النّوعيّة هي الّتي نادرا ما تكون عرضة للتّغيير، ونخلص مما ذكرناه أنّ "مبدأ التّشابه والتّأويل المحلي يشكلان أساس افتراض الانسجام في تجربتنا في الحياة عامة ومن ثمّ في تجربتنا مع الخطاب كذلك"[3].

3 ــ 4ــ التغريض:

يعرفه براون ويول أنّه"نقطة بداية قول ما"[4]، فالخطاب ينتظم على شكل متتاليات من الجمل متدرّجة، لها بداية ولها نهاية، فهذا التّنظيم أو ما يسمّى بالخطيّة يعمل على التّحكم في العمليّة التّأويليّة للخطاب، ذلك أنّ نقطة الانطلاق الّتي يتبنّاها منتج الخطاب أو المتكلّم ستحدث تأثيرا في تأويل ما يلي، كأن يؤثّر العنوان في تأويل النّصّ الّذي يليه، "فوظيفة العنوان هي أنّه وسيلة خاصّة قويّة للتغريض"[5]، لاحتوائه على وظائف رمزيّة مشفّرة بنظام علامي دال على عالم من الإحالات[6]، ويثير لدى القارئ توقّعات لما يؤول إليه النّصّ /الخطاب الّذي بين يديه، وقد يسهم العنوان إسهاما كبيرا في تأويل المتلقّي، وإذا ما تغيّر العنوان لنصّ ما يؤدّي ذلك إلى تأويله وفق العنوان الجديد، فالعنوان علامة دالة في النّصّ وعنصر مهمّ في البناء النّصّي بحيث يتضمّن دلالات عديدة تجعل القارئ يتحكّم في تأويله للنّصّ على الوجه الّذي يقتضيه تأويل العنوان، هذا الأخير له"أهميّة بارزة في تحديد النّصّ الأدبي، فعن طريق هذا العنوان تتجلّى جوانب أساسيّة، أو مجموعة من الدّلالات المركزيّة للنّصّ الأدبي"[7].

---

[1] ــ المرجع نفسه ، ص:58.
[2] ــ محمد خطابي: لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، ص: 59 .
[3] ــ المرجع نفسه، ص:59.
[4] ــ المرجع نفسه، ص:59.
[5] ــ المرجع نفسه، ص:59.
[6] ــ ينظر: جميل حمداوي: السيميوطيقا والعنونة، عالم الفكر ، الكويت، الجلد25،العدد3، 1997م، ص: 76.
[7] ــ خلود العموش: الخطاب القرآني، دراسة في العلاقة بين النص والسياق، ص: 411 .

كذلك"الجملة الأولى من الفقرة الأولى لن تفيد فقط تأويل الفقرة وإنّما بقيّة النّصّ أيضا، بمعنى أنّنا نفترض أنّ كل جملة تشكّل جزءا من توجيه متدرّج متراكم يخبرنا عن كيفيّة إنشاء تمثيل منسجم"[1].

وقد حدّد(Cramas) مفهوما آخر للتّغريض أعمّ وأشمل، وهو مفهوم البناء معرّفا إيّاه"كل قول، كل جملة، كل فقرة، كل حلقة، وكل خطاب منظّم حول عنصر خاصّ يتّخذ كنقطة بداية"[2]، وعليه نستنتج بأنّ أهمّ الأدوات المستعملة في التّغريض هي العنوان أو الجملة الأولى من النّصّ، باعتبارهما المنطلق في تحديد عمليّة التّأويل أو تعميمها لدي متلقّي الخطاب.

3 ــ 5 ـــ مبدأ المناسبة:

أ)ــ المناسبة لغة:

المناسبة في اللغة: مصدر من ناسب يناسب مناسبة، ومادة(النون، والسين، والباء) تصبّ في معنى (اتصال الشيء بالشيء)، ومنه النَّسَب: نسب القرابات، وهو واحد من الأنساب.ابن سيده: النِّسبة والنُّسْبة والنَّسب: القرابة؛ وقيل هو في الآباء خاصة؛ وقيل النِّسبة : مصدر الانتساب؛ والنُّسبة: الاسم... وانتسب واستنسب: ذَكَرَ نَسَبَه[3] والمناسبة تعني المشاكلة والمقاربة[4].

ويتّضح من المعنى المعجمي أنّ المناسبة ترادف المقاربة والمشاكلة بمعنى اتّصال الشيء بالشيء، فالقرابة تجمع الشّمل من رابط الاتّصال، ونستنتج أنّ العناصر اللغويّة المكوّنة للنّصّ تكون متّصلة فيما بينها في بناء النّصّ، وذلك يدعو إلى القول أنّ المناسبة تعتبر آليّة من آليات الانسجام النّصّي.

ب)المناسبة اطصلاحا:

يعرف مصطفى مسلم المناسبة بقوله:"هي الرّابطة بين شيئين، أي وجه من الوجوه في كتاب الله تعني ارتباط السّورة بما قبلها وبعدها، وفي الآيات تعني وجه

---

[1] ــ المرجع السابق، ص: 59 .

[2] ــ محمد خطابي: لسانيات النص ، مدخل إلى انسجام الخطاب، ص: 59.

[3] ـــ ابن منظور: لسان العرب ، المجلد الأول، مصدر سابق، مادة "نسب"، ص: 755.

[4] ــ ينظر الفيروز أبادي: مجد الدين محمد بن يعقوب،(ت 817هـ)، القاموس المحيط، ضبط وتوثيق يوسف الشيخ محمد البقاعي، إشراف مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1426هـ ــ 2005م، (نسب)، ص:127.

الارتباط في كلّ آية بما قبلها وما بعدها"[1] ويرى محمد خطابي أنّ المناسبة والتّناسب بين الآي"بحث عن علاقة آية بآية أخرى متقدمة"[2].

ويعرّفها البقاعي على أنّها"علم تعرف منه علل التّرتيب وثمرتها الاطلاع على الرّتبة الّتي يستحقها الجزء بسبب ما له بما وراءه وما أمامه من الارتباط والتّعلق الّذي هو كلحمة النّسب، فعلم مناسبات القرآن علم تعرف منه للترتيب أجزاؤه، وهو سرّ البلاغة، لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه من الحال"[3]، إذ يعدّ عاملا مهمّا في تماسك النصوص.

ويتّضح جليّا من التّعريفين أنّ المناسبة يقصد بها ترتيب سور القرآن الكريم بكيفيّة حقّقت تماسكه وتناسبه وذلك من خلال تناسب السّور مع ما قبلها وبعدها، وكلّ الآيات في السّورة الواحدة، فالتماسك النّصّي لآيات القرآن الكريم وسوره كلها بهذه الكيفية، استحالة أن يكون من تأليف بشر، وخاصّة في العصر الذي حدث فيه الجمع والتّرتيب للمصحف الشّريف؛ ذلك"لأنّ تلك الاعتبارات المرعيّة ــ [المقصود بها مناسبة أول سورة لآخرها، وأولها لأول ما تليها، وآخرها لأول ما تليها، وغير ذلك من أنواع المناسبة]ــ في هذا الترتيب لم تكن من منهج الصحابة في التفكير، ولا سمعنا أن اجتماعا حدث بينهم لهذا الترتيب..."[4]، فالمناسبة تحقّق الرّبط بين الآية وما تسبقها من آيات، وبالتّالي فهي تحقّق الانسجام فيما بينها، وهي علم "راجع إلى بلاغة القرآن ونظمه، وثمرته: جعل أجزاء الكلام بعضها آخذا برقاب بعض، فيصير التأليف كالبناء المتراص، والنسيج المحكم، جاريا على أحسن نظام، وأتمّ منوال، فتلوح مقاصد القرآن، وتتجلى بدائعه، وأكثرها مودع في الترتيبات، والمناسبات والروابط"[5].

وإن للتناسب في القرآن الكريم مستويات شتى، نذكر منها:

---

[1] ــ مصطفى مسلم محمد: مباحث في التفسير الموضوعي،، ط4، دار القلم، 1426هـ ــ 2005م، ص: 58.

[2] ــ محمد خطابي: لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، ص: 189.

[3] ــ الإمام برهان الدين أبي الحسن إبراهيم البقاعي ت(885هـ): تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي، ط2،دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،1424هـ ــ2003م، ج1، ص: 5.

[4] ــ عبد القادر أحمد عطا: مقدمة تحقيق كتاب تناسق الدرر في تناسب السور للحافظ جلال الدين للسيوطي، دراسة وتحقيق: عبد القادرأحمد عطا، سلسلة نوادر التراث، دار الاعتصام،مصر، 1398هـ ــ 1978م، ص: 41.

[5] ــ فطب الريسوني: النص القرآني من تهافت القراءة إلى أفق التدبر، مدخل إلى نقد القراءات وتأصيل علم التدبر القرآني، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، ط1، 1431هـ ــ 2010م، ص:29.

*التّناسب في الآية الواحدة؛ إذ تأتي فاصلتها ملائمة لمضمونها الإجمالي، وهذا ما يصطلح عليه البلاغيون بـــ(تشابه الأطراف)، وهو عندهم من قبيل مراعاة النظير.

*التّناسب بين مطلع السّورة وخاتمتها، وهذا عند البلاغيين قريب من (ردّ الأعجاز على الصدور)، وقد أفرده السّيوطي بالتّأليف في رسالته الطريفة(مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع).

*التّناسب بين أسماء السّور ومقاصدها، وقد عني ببيان هذا النّوع السيوطي (الإتقان)[1].

وعلى الرّغم من أنّ المناسبة لها دور فعّال في انسجام النّصّ وتماسكه إلّا أنّ علماء النّصيّة لم يشيروا إليها على أنّها وسيلة من وسائل التّماسك النصي، وإدراجها ضمن بقيّة عناصر التي تحقّق للنّص نصيّته، "إذ أنّها تمثل وسيلة من أهمّ وسائل التّماسك النّصّي: شكليّا ودلاليّا"[2]، لكنّ العلماء العرب وخاصّة علماء التّفسير خاضوا فيها وتوسّعوا في مؤلّفاتهم لأجل الكشف عن التّناسب بين الآيات، وبين السّور وما يسبقها، وعن فواتح السّور وأواخرها...

يذهب محمد خطابي إلى أنّ المفسّر يشرع في البحث عن المناسبة"حين تنقطع الصّلة بين آية وآية أو آيات سابقة"[3]، وراح يشرح قصده من قوله"انقطاع الصلة " معلّلا بالمثال الآتي :أن تكون الآية السّابقة كلاما عن القتال والآية اللاحقة كلاما عن إنفاق الأموال مثلا، ثم يفترض سؤالا يليق بالمقام مفاده: ما وجه المناسبة بين هذه وتلك؟ أو ما موقع الآية من الكلام السّابق؟ ومن خلال الاستقراء الذي قام به لنماذج من تفسير بعض المفسّرين، من بينهم الزمخشري، الرّازي، ابن عاشور...فتوصّل إلى أنّهم "وضعوا صيغا متميّزة للدّلالة على أنّهم أخذوا في البحث عن المناسبة بين الآي..وأنّهم يفعلون ذلك حين تبدو الصّلات منقطعة من كلّ جانب بين آيتين"[4]، فالمفسرون حسب الخطابي يبحثون عن المناسبة بين آية وآية حين يبدو للقارئ أنّ العلاقة بين السّابقة وبين اللاحقة منقطعة مما يستوجب تبرير موقع الآية وسالفاتها، ولأجل ذلك يلجأون تارة إلى أسباب النزول وأخرى

[1] ــ المرجع نفسه، ص: 31 .
[2] ــ صبحي إبراهيم الفقي: علم لغة النص، ج2، ص: 93.
[3] ــ محمد خطابي: لسانيات النص، مدخل إلى انسجام، ص: 189.
[4] ــ ينظر:محمد خطابي: لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، ص:190.

إلى شرح مطول، على خلاف ما يفعلون حين تكون العلاقة متجليّة في سطح الخطاب أو ثاويّة في عمقه.[1]

وتنقسم المناسبة إلى نوعين: مناسبة في المعاني ومناسبة في الألفاظ.

أ/ المناسبة المعنويّة: أن يبتدئ المتكلّم بمعنى ثمّ يتمّ كلامه بما يناسبه معنى دون لفظ[2]، أي تناسب المعاني المتوافقة، وهو الّذي يكون في وحدة السّورة؛ كأنّ الوحدة بين مطلع السّورة وموضوعها أو بين مطلعها أو ختامها أو بين الحلقات القصصيّة وموضوع السّورة، وقد يكون تناسب المعاني في آيات العقيدة، أو في التعقيبات التي ترد في خواتم الآيات أو في أعقاب القصص القرآني[3]، ويمكن يكون تناسب المعاني تناسب تقابل وطباق، كما أنّ المناسبة المعنوية قد تكون في اختيار المفردات والتراكيب.

ب/المناسبة اللّفظية: فهي توخي الإتيان بكلمات متّزنات، وهي على ضربين تامّة وغير تامّة؛ فالتّامة أن تكون الملمات مع الاتّزان مقفاة وأخرى ليست بمقفاة[4]، ويظهر التّناسب اللّفظي في قيمة التّناسب بين أصوات القرآن، وأثر ذلك في جمال الإيقاع وروعة القرآن وتأثيره في نفوس السّامعين، وإن لم يكونوا غير ناطقين بالعربيّة، ومن التّناسب اللّفظي أيضا تناسب المشاكلة وتناسب المجاورة والاتّباع، ومن تناسب الأصوات القرآنية أيضا التوازن في النظم الصوتي وتناسب الفواصل[5]،يمكن أن نمثّل لنوعي المناسبة بهذا الشكل:[6]

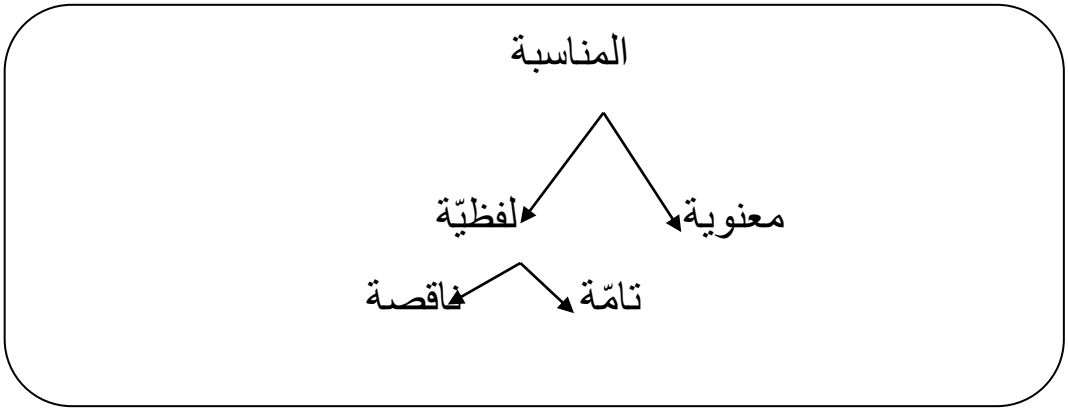

[1] ـ ينظر: المرجع نفسه، ص: 190 .
[2] ـ صبحي إبراهيم الفقي: علم لغة النص، ج2، ص: 94 .
[3] ـ عبد الرحمن بو درع: نحو قراءة نصية في بلاغة القرآن والحديث، كتاب الأمة، سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن إدارة البحوث والدراسات الإسلامية،العدد 154، ربيع الأول 1434هـ ـ قطر، ص: 45.
[4] ـ صبحي إبراهيم الفقي: علم لغة النص، ج2، ص: 94.
[5] ـعبد الرحمن بو درع: نحو قراءة نصية في بلاغة القرآن والحديث الشريف، ص: 45 .
[6] ـ صبحي إبراهيم الفقي: علم لغة النص، ج2، ص: 94.

وهذا التّقسيم يتّسم بالعموم، فالمناسبة إمّا متعلّقة بالدّلالة بين المتناسبين، أو متعلّقة بالشّكل بينهما، ومع ذلك لا تخرج المناسبة في تقسيمها عن هذين النّوعين.

4 ـ مظاهر الانسجام النّصي عند الرّافعي:

1ــ تناسب الأجزاء:

يرى الرّافعي أنّ ألفاظ القرآن الكريم لا تصيب لها في نفسك غير اللّذة والحلاوة والانسجام العذب وذلك كيفما تأمّلتها أو أدرتها، وإن وافقتها أو اعترضتها فسيصيبك منها ما يخالط الرّوح والإحساس، وتمتزج بجوارحك فلن تكون معها إلا على حالة واحدة.

فألفاظ القرآن الكريم تختلف"ولا تراها إلا متّفقة، وتفترق ولا تراها إلا مجتمعة، وتذهب في طبقات البيان وتنتقل في منازل البلاغة، وأنت لا تعرف منها إلا روحا تداخلك بالطّرب، وتشرب قلبك الرّوعة"[1]،وهو بذلك يشير إلى انسجام النّص القرآني وتماسك بنائه، بحيث يبدو كله "قطعة واحدة يكون فيها الكلام متحدّرا تحدّر الماء المنسجم، وهذا الجامع بين الأجزاء هو الذي سماه الإمام البقاعي بالأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن"[2]، فآي القرآن الكريم كالكلمة الواحدة في ارتباطها بعضها البعض، بناؤها محكم ومنتظم ومعانيها متّسقة ومؤتلفة، والكلمات متلائمة في التّركيب مع بعضها،وحسن جوارها لما قبلها وما بعدها، فلا يمكن تبديلها أو تغييرها حتى لا يتغيّر النظم ويذهب رونقه.

والرّافعي نظر للنّص القرآني كوحدة كبرى، على الرّغم من أنّه انتهج في تحليله ودراسته طريقة التّجزئة المرحلية، وذلك لأجل إبراز حقيقة الإعجاز كما رآها فيقول:"فأنت ما دمت في القرآن حتى تفرغ منه، لا ترى غير صورة واحدة من الكمال، وإن اختلفت أجزاؤها في جهات التّركيب وموضع التّأليف وأركان الكلام"[3]، وبذلك يشير إلى تناسب أجزاء النّصّ القرآني حتى ولو اختلفت هذه الأجزاء إذ تراها آخذة برقاب بعضها البعض، فيحكم النّسيج، ويصبح التّأليف كالبناء القويم، لأنّه تناسب مبني على نظم عجيب.

فالقرآن الكريم هو "وحدة بنائية بكل سوره وآياته وأجزائه وأحزابه وكلماته، كالجملة الواحدة أو البناء المحكم الذي يمتنع اختراقه لمتانته وقوته"[4]، الرّافعي

---

[1] ــ مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص: 241.
[2] ـ عبد الرحمن بودرع: في لسانيات النص، ص: 35.
[3] ـ مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص:241.
[4] ـ عبد الرحمن بودرع: نحو قراءة نصية في بلاغة القرآن والحديث، مص:47.

بتلك النظرة الشمولية للنّص لم يذهب بعيدا عما ذهب إليه عبد القاهر الجرجاني عندما دعا إلى ذات النّظرة للنّصّ، ذلك لإدراكه المبكّر أنّ هناك مزايا مخصوصة ظهرت في نظمهجعلت من يسمعه يبهر به،فقال:" تأملوه سورة سورة، وعشرا عشرا،وآية آية، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها، ولفظة ينكر شأنها، أو يرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه، أو أحرى وأخلق، بل وجدوا اتساقا بهر العقول، وأعجز الجمهور، ونظاما والتئاما، وإتقانا وإحكاما"[1]،وهذه إشارة إلى الاتساق والانسجام معا للنّص القرآني.

2ــ تناسب الأصوات القرآنية:

الصوت مصدر صات الشّيء يصوت صوْتا فهو صايِتٍ، وصوَّت تصويتا فهو مُصَوّت. وهو عام ولا يختصُّ. يقال: صوْت الإنسان وصوْت الحمار. وفي الكتاب الكريم: ﴿ **إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ** ﴾(لقمان: ١٩)، والصّوت مذكر، لأنه مصدر كالضّرب والقتل، وقد ورد مؤنثا على ضرب من التّأوّل.قال رويشد بن كثير الطائي:

يَا أَيُّهَا الرَّاكِبُ المُهْدَى مَطِيَّته بَلِّغْ بَنِي أَسدٍ مَا هِذهِ الصَّوْتُ

والصّوت معقول، لأنّه يدرك، ولا خلاف بين العقلاء في وجود ما يدرك..إنّه مدرك بحاسّة السمع[2]، وبما أنّه كذلك فإنّه بالطّريقة الّتي يقع فيها في الأسماع ، يحدث وقعا في النّفس حسب المخارج المختلفة.

لذلك يرى الرّافعي أن "مادّة الصّوت هي مظهر الانفعال النّفسي، وأنّ هذا الانفعال بطبيعته إنّما هو سبب في تنويع الصّوت، بما يخرجه فيه مدّا أو غنّة أو لينا أو شدّة، وبما يهيّئ له من الحركات المختلفة في اضطرابه وتتابعه على مقادير تناسب ما في النّفس من أصولها"[3]، بحيث يجد السّامع نفسه إزاء لحن غريب عجيب لا نجده في أيّ كلام آخر مهما حاول مستعمله التّجويد فيه، فالانفعال الحاصل من مادّة الصّوت القرآني "تجد فيه اتّساقا وائتلافا يسترعي من سمعك ما تسترعيه الموسيقى والشعر"[4]، وهو الّذي يتحكّم في الصّوت من حيث الإيجاز والاجتماع، أو الإطناب والبسط؛ بمقدار ما يكسبه من الحركات المختلفة، مما هو بلاغة الصّوت في لغة الموسيقى ذلك"لأنّ تتابع الأصوات على نسب معّينة بين

---

[1] ــ عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص: 39.

[2] ــ الأمير أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي (ت466هـ): سرّ الفصاحة، تحقيق: علي فوده، مكتبة الخامجي، المطبعة الرحمانية بمصر،ط1، 1350هـ ــ 1932م، ص: 6 ــ7 .

[3] ــ مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص: 215.

[4] ــ محمد عبد الله دراز: النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، ص: 127.

مخارج الأحرف المختلفة، هو بلاغة اللّغة الطّبيعية الّتي خلقت في نفس الإنسان"[1]، وقد رتّبت حروفه باعتبار من أصواتها ومخارجها، ومناسبة بعض ذلك لبعضه مناسبة طبيعية، هذا الّتناسب الصّوتي هو الدّعامة الأساسيّة في تركيب التّناغم الكلّي للنّصّ القرآني، ذلك أنّ الصّوت يساهم في البناء الدّلالي للنّص نظرا"للصلة القائمة بين الصّوت وما يدل عليه"، فحروف القرآن الكريم تساعد على التّواصل والتّفاعل مع السّورة أو الآية أو القرآن ككل، وذلك راجع لانسجامها وتلاؤمها من الناحية الصّوتية "وهذا التّآلف والتّناسق هو الّذي يجعل اللّفظ سهلا على اللّسان من جهة، وعلى السّمع من جهة أخرى"[2]، وتجد له في النفس موقعا خاصّا يجعلها تتفاعل معه وتستميل إليه القلوب.

ويمكن أن نطلق على تناسب الأصوات القرآنية مع بعضها ما يعرف بنظام القرآن الصّوتي الّذي يراد به"اتّساق القرآن وائتلافه في حركاته وسكناته، ورناته وغنّاته، واتّصالاته وسكتاته، اتّساقا عجيبا، وائتلافا رائعا، يسترعي الأسماع ويستهوي النّفوس"[3]، فالّذي يلقي سمعه إلى مجموعة القرآن الصّوتية يدرك أنّه أمام لحن غريب يفوق كلّ أنواع الموسيقى المعروفة وترانيم الشّعر المعتادة، ذلك أنّ"الموسيقى تتشابه أجراسها وتتقارب أنغامها فلا يفتأ السّمع أن يملّها، والطّبع أن يمجّها، ولأن الشّعر تتّحد فيه الأوزان وتتشابه القوافي في القصيدة الواحدة غالبا وإن طالت على نمط يورث سامعه السآم والملل، بينما سامع لحن القرآن لا يسأم ولا يمل"[4]، لأنّه ينتقل فيه دائما بين ألحان متنوّعة، وأنغام متجدّدة، على أوضاع مختلفة تهزّ القلوب وترعش الأفئدة.

2 ــ 1 ـــــالاستهواء الصّوتي في اللغة:

يمثّل الصّوت عند الرّافعي أصغر وحدة إيقاعية في الكلمة ذات دلالة، وقد تنبّه بدوره إلى الوظيفة الدّلالية، وأثرها في نفس المتلقي من خلال ما تحقّقه من انسجام داخل النّص القرآني، كما يؤكّد الرّافعي من جانب آخر أنّ الفواصل الّتي تنتهي بها آيات القرآن الكريم ماهي إلّا "صور تامّة للأبعاد الّتي تنتهي بها جمل الموسيقى، وهي متّفقة مع آياتها في قرار الصّوت اتّفاقا عجيبا يلائم نوع الصّوت الوجه الّذي يساق عليه بما ليس وراءه في العجب مذهب"[5]، هذه النّظرة الّتي

---

[1] ــ الرافعي: إعجاز القرآن، ص: 216.
[2] ــ محمد تحريشي: أدوات النص، ص: 24.
[3] ــ محمد عبد العظيم الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن، حققه واعتنى به: فوّاز أحمد زمرلي عفا الله عنه، ج1، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1415هـ ــ 1995م، ص:244.
[4] ــ المصدر نفسه، ص: 244.
[5] ــ مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص: 216.

حدّدها الرّافعي في حديثه عن الآيات القرآنيّة، رأى أنّها تحتوي على الموسيقى الّتي تتماشى فيها مكوّنات الكلمة مع بعضها البعض، فلا يكمن أن تجد فيها تنافر، وأنّ لهذه الكلمة صداها الخاص في النّفس، إضافة إلى الكلمات في القرآن الكريم دقيقة في استخدامها ووضعها في مكانها المناسب، إذ يصعب بل يستحيل أن يوضع لها مرادفا ليحقّق ذات المعنى لأنّ كلماته متألّقة من تلك الحروف الّتي لو سقط منها حرف، أو أبدل بحرف آخر، أو أقحمنا غيره معه لكان خللا بيّنا"أو ضعفا ظاهرا في نسق الوزن وجرس النغمة، وفي حّس السّمع وذوق اللّسان"[1]، بل يمتدّ الخلل حتّى إلى انسجام العبارة وبراعة المخرج وتناسق الحروف مع بعضها مما يسبب هجنة في السّمع.

2 ـــ 2 ـ الفاصلة القرآنية:

يشير الرّافعي إلى أنّ الفواصل القرآنية تتوافق بشكل كبير مع الأصوات ونوع الصّوت والطّريقة الّتي يتمّ بها آداء الصّوت، وكثير ما تنتهي هذه الفواصل بحرفي النّون والميم اللّذان يعتبران الحرفان الطبيعيان في الموسيقى نفسها وشيوعهما فيها، إضافة إلى المدّ وهو أمر طبيعي في القرآن أيضا[2]، أما إن كانت الفواصل من الحروف الأخرى أو السّكون فإنّ النّظم الموسيقي يتأتّى من متابعة لصوت الجملة وتقطيع كلماتها"ومناسبة للون المنطق بما هو أشبه وأليق بموضعه، وعلى ذلك لا يكون أكثر ما أنت واجده إلا في الجمل القصار، ولا يكون إلا بحرف قويّ يستتبع القلقلة أو الصّفير أو نحوهما مما هو من ضروب أخرى من النظم الموسيقي"[3]، وهذه هي طريقة الاستهواء الصوتي في اللغة، وأثرها في نفس المتلقي، وهي صوت الإعجاز الذي يخاطب كل نفس تفهمه، وكل نفس لا تفهمه،وتجد هذه النفوس في النهاية تقر بعجزه وتستجيب لما جاء به، وهكذا انفرد القرآن بهذا الوجه من العجز.

نستنتج مما ذكرناه أنّ الفاصلة الّتي امتاز بها القرآن الكريم هي من أبرز أشكال الآداء الصّوتي"فالصوت هنا لا يمتاز بأهميّته الدّلالية أو الإيحائية فقط، ولكنّه يمتاز أيضا بأهميّته التجنيسية"[4]، ومعنى ذلك أنّ العلماء تنبّهوا للفاصلة وأطلقوا عليها هذا الاسم تمييزا لها عن فنون القول الشّائعة مثل القافية في الشعر، والسّجع في النّثر، وحرصا منهم على إبعاد النّصّ القرآني عن شبهة السّجع والقافية حدّ سواء لأنّه هناك تشابه كبير بين الفواصل القرآنيّة والقوافي والسّجع،

[1] ـ المرجع السابق، ص: 217 .
[2] ـــ ينظر: المرجع نفسه، ص217.
[3] ـــ المرجع نفسه، ص: 217..
[4] ـ عبد الرحمن بودرع: النص والخطاب دراسة في علوم القرآن، ص: 128

وأيّ باحث يستطيع إدراك هذا التّشابه المتمثّل في "اتّفاق الفاصلة وقسيمتيها في البنية المكوّنة لكل منهما أوّلا، وفي الموقع الذي تشغله القافية والسّجعة ثانيا، أو أنّ هذا هو الغائب بالنسبة للفاصلة"[1].

يؤكّد الرافعي في كل مرّة على الإيقاع الموسيقي في النظم، سواء على مستوى المفردة الواحدة أو الجملة أو صوت الحرف الّذي يؤدّي دلالة معيّنة، وأنّ التّرتيب الصّوتي الّذي يمازج بعضه بعضا يكوّن لحنا موسيقيا يخترق الأسماع ويترك أثرا طيّبا في نفس المتلقّي، ويرى أنّ نظم القرآن فيما يخصّ الحروف وأصواتها يعود إلى ترتيب هذه الحروف باعتبار من أصواتها ومخارجها، وهو بذلك يصنّف الحروف حسب مخارجها الصّوتيّة، فهي تتناسب فيما بينها تناسبا طبيعيّا" في الهمس والجهر، والشّدّة والرّخاوة والتفخيم والتّرقيق؛ والتّفشي والتّكرير، وغير ذلك مما أوضحنا في صفات الحروف"[2]،وعلى قارئ القرآن أن يعطي القراءة حقّها ولا يخلّ بانسجام النّصّ القرآني،لذلك نجده في هذا المقام قد بيّن مخارج الأصوات وصفاتها مما يجعل القارئ يدركها جيّدا، حتى يتمكّن من الأداء القرائيّ المحافظ على هذا الانسجام القرآني، لأنّ أيّ إخلال في المبنى يتبعه إخلال في المعنى،وإذا حدث ذلك اختلت الوضعيّة التّواصليّة بين النّص والمتلقي، وقد أبرز دور التّلاوة الصحيحة للقرآن الكريم في ترك أثر بالغ في المتلقي، أثر تهتزّ له المشاعر الإنسانيّة الأمر الّذي يحبّب القرآن من منظور الرّافعي قراءة وسماعا.

3 ــ وظيفة الصّوت في السّياق:

يمتاز السياق القرآني باختلاف أنماطه، والتي لها أثر كبير في فهم المعاني المتوخاة من النص وذلك من خلال السياق، والمتأمل للصوت في القرآن الكريم يجد بأنه معجز، فوظيفة هذا الصوت في السياق"تعطي معاني مختلفة، ودلالات متنوعة، إلا أن المعنى الكامن وراءها مقاصده واحدة، وهذا التنوع الصوتي يتجسد في التراكيب التي تعطي بعدا جماليا في الآداء"[3] .

تنبّه الرّافعي إلى هذا الأمر ما جعله يقرن هذا الجمال في التّراكيب بالألحان الموسيقية، والقرآن أرفع من الموسيقى المعروفة، وهذه الأصوات "متّفقة مع آياتها

---

[1] ــ المرجع نفسه، ص128.

[2] ــ الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص: 215.

[3] ــ علي حميد خضيّر: دلالة السياق في النص القرآني، أطروحة مقدمة إلى اللغة العربية في كلية الأدب والتربية الأكاديمية في الدانمارك جزء من متطلبات درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها، إشراف:د.عبد الإله الصائغ، نيسان،2014م،جمادى الآخرة1435ه ـ الأكاديمية العربية في الدانمارك، ص: 71.

في **قرار الصوت*** اتفاقا يلائم نوع الصوت والوجه الذي يساق عليه"[1]، وبما أن الصوت هو مظهر الانفعال النفسي، فإن هذا الانفعال هو سبب تنويع الصوت الذي يؤدي معنى معين فيحدث تأثيرا في النفس البشرية"فلو اعتبرنا ذلك في تلاوة القرآن على طرق الآداء الصحيحة لرأيناه أبلغ ما تبلغ إليه اللغات كلها في هز الشعور واستثارته في أعماق النفس؛ وهو من هذه الجهة يغلب بنظمه على كل طبع عربي أو أعجمي"[2]، فما من أعجمي يسمع القرآن سواء فهمه أو لم يفهمه إلا اعترته رفة للشجي والنظم، وأحسّ أنّ هذه الآيات تتموّج في نفسه وتجيش نفسه بها[3]، مع أنّه لا يعتريه من ذلك شيء إذا هو سمع الألحان العربية في الغناء والشّعر.

لقد أعطى علماء اللّغة العربيّة أهمية كبرى لدراسة الصّوت القرآني الّذي يتناعم مع السّياقات اللغوية المختلفة مما جعله ينتج ظواهر لغويّة في ذهن المتلقّي ، وقد قامت هذه الدّراسات باستمالة ذهنه، كما كان للقراءة القرآنية الفضل الكبير في تبيان هذا التّناغم الصوتي عبر الأزمان المختلفة، والّذي يميل إلى تجويد القرآن الكريم لابدّ من أن يخضع لقواعده الصّوتية، لأن علم التّجويد موضوعه الكلمات القرآنية"وهو يبيّن مخارج الأصوات وصفاتها، وطرقة نطقها بحسب ما يجاورها، ويوضّح مقدار الحركة في المقصور والممدود، وكل هذه المباحث تدرس تحت مصطلح علم الأصوات، وهو يشمل النّوعين المعروفين باسم علم الأصوات العام، وعلم الأصوات الوظيفي، فعلم الأصوات العام يدرس الأصوات من حيث نطقها وانتقالها وإدراكها ومنه علم الأصوات النطقي الذي يعنى بدراسة الوحدات الصّوتية وتحديدها تحديدا دقيقا، وتوضيح ما تتعرّض له بحسب ما يجاورها"[4]، ومعنى ذلك أنّ الكلمة في السّياق قد تتعرّض إلى نبرة معيّنة، أو إيقاع معيّن، أو تنغيم من أجل تعزيز الفهم الدّلالي في السّياق، فالصّوت يشكّل وظيفة صوتيّة من خلال تجاوره مع أصوات أخرى يؤدّي دلالة في ذهن المتلقّي .

4ـ مناسبة الكلمة لحروفها:

4 ــ 1ــ مفهوم الكلمة:

* ــ مصطلح يعرف في علم الموسيقى ويعنى به: انخفاض في عدد اهتزاز نبرات الصوت، ويكيبيديا، الموسوعة الحرّة.

[1] ــ بن نعوم سعاد: أسس الإعجاز عند مصطفى صادق الرافعي، ص:391.

[2] ــ مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص: 216.

[3] ـ ينظر: المرجعنفسه، ص: 216.

[4] ــ عبد الله عبد الحميد سويد: أحكام التجويد في القرآن الكريم في ضوء علم الأصوات الحديث، دراسة مقارنة، ط2، القاهرة، جامعة عين شمس،كلية الآداب، قسم اللغة العربية، 1985م، ص:7.

ينتقل الرّافعي بعد الانتهاء من أوّل جهة من جهات النّظم إلى الحديث عن الكلمات وحروفها، وهي المرحلة الثّانية من النّظم عنده، نجده لا يفارق التّركيب الحرفي للكلمة لما لها من دور كبير في هذا فيه، ودورها يكمن في ارتباطها به أشدّ الارتباط.

فالكلمة هي نسيج متشعّب من صور ومشاعر أنتجتها التّجربة الإنسانيّة، فثبتت في اللفظة وارتبطت بها فزادت معناها الأصلي حياة وإيحاء[1]، لذلك فإنه ينبغي عند محاولة تفسير النّصوص الأدبيّة ألّا نكتفي بتسجيل القيمة المعجمية لألفاظها، بل لابدّ من ملاحظة البيئة الجديدة الّتي وجدت فيها هذه الألفاظ[2]، ذلك أنّ الكلمة عنصر فعّال في توصيل المعنى إلى المتلقّي بصورة بيانيّة، ومن حيث إنّ الكلام الرّباني محكم متماسك لا غنى فيه عن مفردة، بل عن حرف..فجمال المفردة مرئي من حيث التّصوير، وسمعي من حيث إمتاع الوجدان وموافقة المواقف[3].

ومعنى الكلمة أيضا:"هو مجموعة من الإمكانات تغذّي وتتغذّى بإمكانات أخرى"[4]، أمّا عن مفهومها في اللّسانيات الحديثة:"الكلمة هي القطعة التي تندرج في المستوى الأوّل من التّقطيع المزدوج حيث إنّها أصغر قطعة يصل إليها التّحليل مما يدلّ على معنى"[5]..

أمّا عند الرّافعي فالكلمة في الحقيقة الوضعيّة إنّما"هي صوت النّفس؛ لأنّها تلبس قطعة من المعنى فتختصّ به على وجه المناسبة قد لحظته النّفس فيها من أصل الوضع حين فصلت الكلمة عن هذا التركيب"[6]، ثمّ قسّم الكلمة إلى ثلاثة أصوات: صوت النّفس، وصوت الحسّ، وصوت العقل، فصوت النّفسيمثّل أسباب الاتّصال بين الألفاظ ومعانيها، وبين هذه المعاني وصورها النّفسيّة،بحيث أنّ ترتيب الحروف في الكلمة يؤدّي إلى تحديد دلالتها، وبالتّالي تعكس أثرها عند المتلقي، فالبيان صور نفسيّة في الطبيعة وصور طبيعيّة في النفس.

أما الأصوات الثّلاثة الّتي ذكرها:

---

[1] ـ ينظر: عفّت الشرقاي: بلاغة العطف في القرآن الكريم، دار النهضة العربية، بيروت، 1981م، ص: 148.

[2] ـ المهدي إبراهيم الغويل: السياق وأثره في المعنى، ص: 57.

[3] ـ أحمد ياسوف: جماليات المفردة القرآنية، إشراف وتقديم: نور الدين عتر، رسالة قدمت لنيل درجة ماجستير في الآداب(الدراسات الأدبية، دار المكتبي، ط2 ، 1419هـ ـ1999م،ص:327.

[4] ـ تامر سلوم: نظرية اللغة والجمال في النقد العربي، دار الحوار، اللاذقية، سوريا، ط1، 1983م، ص: 312.

[5] ـ خولة الإبراهيمي: مبادئ في اللسانيات، ص: 85.

[6] ـ مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص: 220.

1ـــ صوت النّفس:وهو أوّل الأصوات الثّلاثة، نجد الرّافعي هنا"لا يزال على صلة بالتّركيب الحرفي للكلمة، فيشير إلى الإيقاع الصّوتي للحروف وما قد يوحي به من معان ويشير إليه من دلالات لها في النّفس والحسّ معا أعظم التّأثير"[1]، أي أنّ الإيقاع الصّوتي للحروف التي تتألّف منها الكلمات، يؤدّي معاني تترك وقعا في نفس المتلقي فتؤثر فيه، ويعرّف صوت النّفس على أنّه"الصّوت الموسيقي الّذي يكون من تأليف النّغم بالحروف ومخارجها وحركاتها ومواقع ذلك من تركيب الكلام ونظمه على طريقة متساوقة وعلّة نضد متساو، بحيث تكون الكلمة كأنّها خطوة للمعنى في سبيله إلى النّفس، إن وقف عندها هذا المعنى قطع به"[2]،وهو أحد الأصوات الثّلاثة الّتي تساهم في تركيب نسق النّصّ، ويمثّل العلاقة التي تربط بين اللّفظ والمعنى، وتتحدّد دلالة الكلمة على حسب الطّريقة التي تترتّب فيها الحروف، لتكون الكلمة خطوة للمعنى إلى النّفس بما يحمله اللّفظ من أصوات موسيقيّة، والواضح أنّ الرّافعي يذهب إلى المستوى الصّوتي للكلمة، فهي بمقاطعها الصّوتية المرتّبة والمؤتلفة التّركيب،تخرج للدّلالة عن شيء معيّن، يجعل القارئ يستوعبه ويتفاعل معه، وبالتّالي يتمكّن من التّواصل مع النّص بأكمله.

2 ـــ صوت العقل: ويعرفه أنّه "هو الصّوت المعنويّ الّذي يكون من لطائف التّركيب في جملة الكلام، ومن الوجوه البيانيّة التي يداور بها المعنى، لا يخطئ طريق النّفس من أيّ الجهات انتحى إليها"[3]،ويرمي الرّافعي من خلال هذا القول إلى أنّ الكلمات عندما تركّب تركيبا محكما، تؤدّي معنى واضحا، يصل إلى المتلـــــقّي فيقـع في نفسه، ويحرّك ذاته مما يجـــــــعله يتفـــــــاعل مع هذا النـّصّ، فالمستوى التّركيبيّ للكلمات في النّصوص يكمن في البناء المحكم للكلمة، وهو بذلك "يمهد لبيان أهميّة الكلمة القرآنيّة ووضعها في محلّها اللائقة به"[4].

3ـــ صوت الحسّ: وهو ثـــــالث الأصوات" وأبلغهنّ شأنا، لا يكـــــون إلّا من دقـّــة التّصـــــوّر المعنـــويّ، والإبداع في تلوين الخطاب، ومجاذبة النّفس مرّة وموادعتها مرّة، واستيلائه على محضها بما يورد عليها من وجوه البيان، أو يسوق إليها من طرائف المعاني، يدعها من موافقته والإيثار له كأنّها هي

---

[1] ـ صلاح الدين محمد عبد التواب، النقد الأدبي، دراسات نقدية وأدبية حول إعجاز القرآن الكريم، الكتاب الثاني،دار الكتاب الحديث، 1430هـ ـــ 2003م، ص: 48.

[2] ـ الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص:221.

[3] ـــ المرجع نفسه، ص221.

[4] ـ صلاح الدين محمد عبد التواب: النقد الأدبي، دراسات نقدية وأدبية حول إعجاز القرآن، ص: 48.

الّتي تريده وكأنّها هي الّتي تحاول أن يتّصل أثرها بالكلام، إذ يكون قد استحوذ عليها وانفرد منها بالهوى والاستجابة"[1].

اعتبر الرّافعي أنّ هذا الصّوت هو أبلغ الأصوات شأنا، فما يقع في نفس المتلـــــقّي من وجوه البيان، وما يسوقه إليها من طرائف المعاني يجعلنا نفهم أنّ ما يقصده الرّافعي من هذا الصّوتوهو الصورة البلاغية، ويؤكّد هذا الفهم قوله:" وعلى مقدار ما يكون في الــكلام البليـــــغ من هذا الصّوت، يكون فيه من روح البلاغة"[2]،فكلمات القرآن محكمة الوضع، خفيفة الوقع على النّفس والسّمع وبذلكتميل النّفس إليه فلا تضيق به ولا تنفر منه ولا ينتابها الملل،فكلّ كلمة ما دامت من القرآن فهـــــي في موضعها من بعض إعجازه، وعليه يأتي دور الجمل بعد الحديث عن الحروف والكلمات.

يتّضح من هذا التّقسيم للأصوات أنّ الرّافعي حاول أن يحدّد المستويات الّتي تبنى عليها النّصوص، فبدأ بالمستوى الصّوتي للكلمة، ودلالة هذه الأصوات بتناسقها في الكلمة الواحدة، هذه الأصوات التي ارتبطت بالموسيقى القرآنية فتحدث وقعا في نفس المتلقّي عندما تخرج بذلك الإيقاع الموسيقي المميّز، الّذي فاق الموسيقى المعروفة، ووقْع هذه الأصوات في الأسماع والنّفس معا ينتج عنه تلك العلاقة الاتّصالية بين اللّفظ والمعنى، أمّا الصّوت المعنوي الذي يكون من لطائف التّركيب، والّذي أطلق عليه الرافعي:صوت العقل ويقصد به كيفيّة بناء النّصّ، لأنّ تركيب النّصّ وانسجامه يحدث أوّلا في ذهن وعقل المتلقّي، وذلك من خلال الدّور الذي تؤدّيه الكلمة داخل النّصّ، فإذا كانت محكمة التّركيب، يتحقّق المعنى على أكمل وجه، وبالتّالي يستطيع ذهن متلقي النّصّ/ الخطاب أن يتفاعل معه ويستوعبه بإدراك دلالة الكلمة في التّركيب ثم النّصّ برمتّه، وعلى مقدار ما يكون الكلام بليغا من الصّوت الثّالث(صوت الحسّ) يكون فيه من روح البلاغة، فالصّورة البلاغية الّتي ترتسم في ذهن المتلقي تنتج من اجتماع إيقاع حروف الكلمة وائتلافها مع معانيها، وانتظامها داخل تركيب محكم فصيح، يعمل المتلقّي على استيعابه والاستجابة له، روح البلاغة يحقّق روح الإعجاز في القرآن الكريم، ويمكن أن نمثّل للكلمة القرآنيّة بهذا الرسم:

الكلمة القرآنية

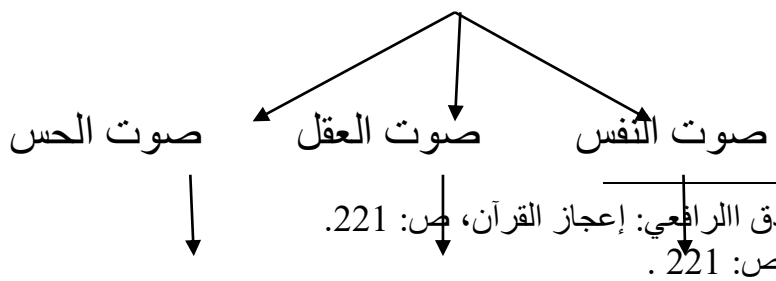

[1] ــ مصطفى صادق االرافعي: إعجاز القرآن، ص: 221.
[2] ــالمرجع نفسه، ص: 221 .

الصوت الموسيقي الصوت المعنوي دقة التصور المعنوي

الإبداع في تلوين الخطاب

مجاذبة النفس والاستيلاء عليها.

اتّسمت المفردة القرآنية بجمال الشّكل والمضمون، فجمعت بين قوّة تأثير التّصوير، وبين عذوبة الصّوت، ونقصد بالعذوبة سهولة نطق مخارجها، وشهادة السّمع بسهولة أصواتها، وهذه العذوبة لم تنتج عن اجتماع الأصوات الرّخوة أو تباعد مخارج حروف المفردات، إذ تبين لنا أنّ العبرة بصفات الحروف لا بمخارجها العضوية1، الّتي تأتلف فيما بينها مشكلة ألفاظا متناسقة تؤدي معنى معيّنا في سياق الكلام، وجاءت في القرآن الكريم تحمل دلالات موحيّة .**4**

4 ــ 2 ــ التّناغم الصّوتي في نظم الحروف:

يوضّح الرّافعي أهميّة الحروف بأصواتها للنّظم القرآني ومعانيه بقوله: " ولما كان الأصل في نظم القرآن أن تعبّر الحروف بأصواتها وحركاتها ومواقعها من الدّلالة المعنويّة، استحال أن يقع في تركيبه ما يسوغ الحكم في كلمة زائدة أو حرف مضطرب أو ما يجري مجرى الحشو والاعتراض، أو ما يقال فيه إنه تغوّث واستراحة، أي استراحة من ضعف واستراحة من كلال؛ فكأنّ الكاتب أو المتكلّم يتغوّث به".2

ويقول في موضع تالٍ: "لو تدبّرت ألفاظ القرآن في نظمها لرأيت حركاتها الصرفيّة واللغويّة تجري في الوضع والتّركيب مجرى الحروف أنفسها فيما هي له من أمر الفصاحة فيهيّئ بعضها لبعض، ويساند بعضها بعضا، ولن تجدها إلا مؤتلفة مع أصوات الحروف، مساوقة لها في النّظم الموسيقي، حتّى إنّالحركة ربما

[1] ــ أحمد ياسوف: جماليات المفردة القرآنية، ص: 327 .

[2] ــ مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص: 225.

كانت ثقيلة في نفسها لسبب من أسباب الثّقلأيها كان، فلا تعذُب ولا تُساغ... فإذا هي استُعمِلت في القرآن رأيت لها شأنا عجيبا"[1]، وهذا من إعجاز القرآن الكريم.

وفي هذا السّياق يضرب لنا الرّافعي الأمثلة التّالية:

لفظة(النُذُر) جمع نذير؛ فإن الضّمة ثقيلة فيها لتواليها على النّون والذّال معا، فضلا عن جسأة هذا الحرف ونبُوه في اللّسان، وخاصّة إذا جاء فاصلة للكلام، فكلّ ذلك يكشف عنه ويفصح عن موضع الثّقل فيه؛ ولكنّه جاء في القرآن على العكس وانتفى من طبيعته في قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ**﴾(القمر: ٣٦)، فتأمّل هذا التّركيب، وأنعم ثمّ أنعم على تأمّله، وتذوّق مواقع الحروف وأجْر حركاتها في حسّ السّمع وتأمّل مواضع القلقلة في دال(لقد)، وفي الطّاء من (بطشتنا) وهذه الفتحات المتواليّة فيما وراء الطّاء إلى واو(تماروا)، مع الفصل بالمدّ، كأنّها تثقيل لخفّة التّتابع في الفتحات إذا جزت على اللّسان، ليكون ثقل الضّمّة عليه مُسْتَخفا بعد، ولكون هذه الضمّة قد أصابت موضعها كما تكون الأحماض في الأطعمة.

ثمّ ردّد نظرك في الرّاء من (تماروا) فإنّها ما جاءت إلّا مساندة لراء(النُّذُر) حتّى إذا انتهى اللّسان إلى هذه انتهى إليها من مثلها، فلا تجف عليه ولا تغلظ ولا تنبو فيه، ثمّ أعجب لهذه الغنّة التي سبقت الطّاء في نون(أنذَرهم) وفي ميمها، وللغنّة الأخرى التي سبقت الذال في (النُّذُر)[2]، فما من حرف أو حركة في الآية إلّا وقد أثارت العجب في موقعها والدّلالة الّتي وضعت من أجلها، فهذا التّناسب الحاصل في الكلمة بين حروفها، لو جيء به في كلام البشر مهما بلغ قائله من الفصاحة والبلاغة، إلّا وقد نجد فيه ما ينفر الأسماع من عجزه على هذا التّركيب العجيب.

ويقرّ الرافعي أنّ تلك الطّريقة في النّظم قد انفرد بها القرآن، وأيّ بليغ يدرك هذا الباب فهو يتحاشى الخوض فيه، وحتّى ولو اتّفق له شيء من ذلك كان إلهاما ووحيا، لا تقتحم عليه الصّناعة ولا يتيسّر له الطّبع بالفكر والنّظر، ومع ذلك لا يخلو من التواء ومن مغمز، فقد يكون جملة من فصل، أو عبارة من جملة أو بيتا من قصيدة، أو شطرا من بيت، ولا يمكن لأيّ بليغ من بلغاء العربية على مرّ العصور أن يضرب بلسانه ضربا موسيقيّا، وينظّم نظما مطّردا فيُهدف الكلمة وينصب الحرف للحرف، ويعصب الحركة بالحركة، فإن أمكنه ذلك، فلن يكون

[1] ــ المرجع نفسه، ص: 227 .
[2] ــ المرجعالسابق، ص227 ـــ 228.

كلامه إلا في كلام ذي ألفاظ خاليّة من المعنى، وبالتّالي يعتبر كلامه مجرّد لغو، ولو كان ذلك ممكنا لاتّفق في عصر خلا منذ ثلاثة عشر قرنا.

4 ــ 3 ــــ طول اللّفظة القرآنية وانسجامها:

يشير الرّافعي إلى ورود ألفاظ في القرآن الكريم هي أطول الكلام من حيث عدد الحروف والمقاطع، الّذي الأصل فيه أن يكون مستثقلا بطبيعة وضعه أو تركيبه، لكنّها في سياق القرآن خرجت مخرجا عجيبا"فكانت من أحضر الألفاظ حلاوة وأعذبها منطقا وأخفّها تركيبا؛ إذ تراه قد هيّأ لها أسبابا عجيبة من تكرار الحروف وتنوع الحركات، فلن يُجرها في نظمه إلا وقد وُجد ذلك فيها"[1]، ويضرب لنا مثلا بقوله تعالى: ﴿ **لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ** ﴾(النور: ٥٥)فهي كلمة واحدة متكوّنة من عشرة أحرف وتكمن عذوبتها في تنوّع مخارج حروفها ونظم حركاتها، وهي كلمة واحدة فإذا نطقت كأنّها أربع كلمات لأنّها تنطق على أربعة مقاطع.

ويورد الرّافعي مثالا آخر في قوله تعالى: ﴿ **فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ** ﴾(البقرة: ١٣٧)، إذا عددنا حروف هذه الكلمة وجدناها تسعة أحرف، وهي ثلاثة مقاطع في النّطق، والملاحظ أن الياء والكاف تكرّرتا، وبين الكافين هذا المدّ الّذي رأى الرافعي بأنّه سرّ الفصاحة في الكلمة كلّها، ومما ينوّه به هنا أنّ المقطع الأوّل من كلمة "فَسَيَكْفِيكَهُم" طويل إلّا أنّه يتمتّع بتوالي الفتحات، ومع الفتحة تنفرج الشّفتان مما جعل النّطق سهلا، ولو أنّ الرّافعي استشهد بكلمة﴿ **وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ** (الحجر: ٢٢)لوقع على كلمة ذات أربع مقاطع أيضا[2].

إنّ طول المفردة القرآنيّة وتنوّع أصواتها أو تزاوجها تشكّل تناسقا صوتيّا وانسجاما فنيّا، وهذا التّناسق والانسجام في هذه الألفاظ الطّويلة يجعل القرآن يبلغ الإعجاز في ألوانه ودرجاته، وحركاته ومقاطع كلماته، وهذه الألفاظ المركّبة الّتي ترجع عند تجريدها من المزيدات إلى الأصول الثّلاثيّة أو الرّباعيّة تأتي في نسق متسلسل ولفظ معبّر بنغم موسيقي متّسق الأجزاء، حسن المخارج ولآية من آيات الإعجاز لأنّها معجزة في نغمتها وصوتها وإيقاعها الحاصل من تلاؤم بين حروفها وائتلاف هذه الحروف، وتوافق أصواتها، وعذوبة رونقها، وحلاوة جرسها.

ومن هنا نستنتج ما يلي:

---

[1] ــ الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص: 229 .

[2] ــ أحمد ياسوف: جماليات المفردة القرآنية، ص: 187.

1/ ليست العبرة في كثرة عدد حروف المفردة، بل في نوعيّة الحروف.

2/تتدخّل المدود والحركات في طول المفردات إذ تقسّمها إلى مقاطع صغيرة سهلة في النّطق والسّمع.

3/لبعض المفردات الطويلة في القرآن أهميّة هي أعلق بالنّظم وملاءمة الموقف.

4/إنّ سماع المفردات القرآنية لا يُشْعِرُ بوَطْء الطّول، فالتّنسيق الزّمني مترافق مع نوعيّة التّشكيل الصّوتي وكيفيّته[1].

يبدو أنّ الرّافعي من الدّارسين الّذين أعطوا أهميّة للألفاظ الطّويلة في القرآن، وأنّ جماليّة هذه الألفاظ تكمن في انسجام المقاطع الصّوتية وسهولة نطق الأصوات، وقد حلّل الإمام الرّافعي هذه الكلمات الطّويلة تحليلا صوتيّا مبيّنا نظام العلاقات بين حروفها وأصواتها وصولا إلى دلالتها، ويلاحظ من دراسة الرّافعي للكلمات بأنّ دراسته منطلقها الأوّل الصّوت، فالتّكوين الصّوتي للكلمة سواء كانت طويلة أو قصيرة ترتبط ارتباطا وثيقا بالمعنى.

4 ــ 4ـ انسجام غريب القرآن من منظور الرافعي:

يشير الرّافعي إلى أنّ في القرآن"لفظة غريبة هي من أغرب ما فيه، وما حسنت في كلام قطّ إلّا في موقعها منه، وهي كلمة(ضيزى)"[2] من قوله تعالى: ﴿ **تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ** ﴾(النجم : ٢٢)ومعنى أن يقال ضازه حقه وضامه، أي منعه ونقصه، فهي قسمة جائرة، والضّيز: الجور، وقد نظر إليها الرافعي نظرة عميقة شاملة، فأفاض وأحسن في عرضها ورأى أنّ حسنها في نظم الكلام من أغرب الحسن وأجمله؛ ولو أردْتَ اللّغة عليها ما صلح لهذا الموضع غيرها[3]؛ وقد أخذت هذه الآية من سورة النّجم الّتي فصلت كلّها على الياء، وكلمة ضيزى جاءت فاصلة من الفواصل،﴿**أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَىٰ 21 تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ** ﴾(النجم: ٢١ – ٢٢)،فقد جاءت الآية الأولى مشتملة على استفهام إنكاري، "إذ وردت في ذكر الأصنام وزعمهم في قسمة الأولاد، فإنهم جعلوا الملائكة والأصنام بنات لله مع وأدهم البنات، بمعنى دفنهن على الحياة كما كان من عادتهم"[4] والآية الثّانية:﴿ **تِلْكَ**

[1]ــ المرجعنفسه، ص: 189.
[2] ــ مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص: 230.
[3]ــ المرجعنفسه، ص: 230.
[4] ــ المرجع نفسه، ص:230 .

إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى ً فاشتملت خاتمتها على التّهكم،فكانت غرابة اللفظ أشد الأشياء ملاءمة لغرابة هذه القسمة التي أنكرها.

كان هذا التّصوير أبلغ في البلاغة، ذلك لأنّ الفاصلة في كلمة ضيزى تناسب ما قبلها من الفواصل، فلا كلمة جائرة أو ظالمة يمكنها أن تحلّ محلّها، فيقتضي حسن النّظم والتّناسق بين فواصل السورة أن تكون من الفاصلة نفسها، وأن ادّعاء الكفار الغريب أنّ الملائكة والأصنام ينسبون إلى الله بناته، جاء الرّد بلفظة غريبة تنبّههم بغرابة القسمة الّتي حدّدوها، وهذه اللّفظة تمكّنت في موضعها في فهم الفصل، "ووصفت حالة المتهكّم في إنكاره من إمالة اليد والرأس بهذين المدّين فيها إلى الأسفل والأعلى، وجمعت إلى كل ذلك غرابة الإنكار بغرابتها اللّفظية"[1].

والعرب يعرفون هذا الضّرب من الكلام، وله نظائر في لغتهم، وكم من لفظة غريبة عندهم لا تحسن إلّا في موضعها، ولا يكون حسنها على غرابتها إلّا أنّها تؤكّد المعنى الّذي سبقت له بلفظتها وهيئة منطقها، فكأنّ في تأليف حروفها معنى حسيّا، وفي تآلف أصواتها معنى مثله في النفس2ي، ويتّضح هنا أنّ الرّافعي دائم التّركيز على وقع أصوات الكلمات سواء غريبة أو غير ذلك في نفس المتلقّي، فالتّناسق الحاصل بين أصوات لفظة"ضيزى" يترك وقعا في النّفس البشرية ممّا يجعلها تستميل إليه وتستجيب لما تسمعه وتعيه الأذن.

ويبيّن بهذا الرّافعي أهميّة الكلمة القرآنيّة مراعيّا في ذلك بنيتها السّطحية والعميقة في آن واحد، وما يميّزه في تناوله للكلمة القرآنية هو وقعها في الأذن وتأثيرها في النفس البشرية، وحتّى"ما يبدو منها غريبا، فإنّ هذه الغرابة لا تحسن إلّا في موضعها، ولا يكون حسنها على غرابتها إلّا لأنّها تؤكّد المعنى الذي سيقت له كما تصوّره بلفظها وهيئة منطقها"3، فكأنّ المعنى الحسّي ينتج عن تأليف حروف هذه الكلمات، ووفي تأليف أصواتها يقع ذات المعنى في النّفس وبذلك تتمّ الاستجابة بالسّمع وينعكس ذلك على النّفس التي تتأثر بهذا الإيقاع الصّوتي، فكلّ كلمة من كلمات القرآن مادامت في موضعها فهي من بعض إعجازه.

5ـــ الجمل وكلماتها :

[1] ـ المرجع السابق ، ص: 230.

[2] ـــ المرجع نفسه، ص:230.

[3] ـ صلاح الدين محمد عبد التواب، النقد الأدبي: دراسات نقدية وأدبية حول إعجاز القرآن، الكاتب2، ص:50.

تعتبر هذه المرحلة عند الرّافعي الأخيرة من مراحل النّظم عنده، يقدّم لها بحديث عام عن الجملة فيشير إلى أنّها مظهر من الكلام، وهي الصورة النفسية للتّأليف الطبيعي، إذ يُحيل بها الإنسان هذه المادّة المخلوقة في الطبيعة، إلى معانٍ تصوّرها في نفسه أو تصفها حتّى ترى النّفس في هذه المادّة المصوّرة وتحسّها[1]، فالجملة هي الجامعة لمعنى الكلام، ويمكن اعتبارها وحدة كبرى مقارنة مع الكلمات والحروف، وهي الّتي تشكّل وحدة النّصّ، وأنّ بانسجام الألفاظ في الجملة وتآلفها مع بعضها يتحدّد لنا المعنى، الّذي يستشفه المتلقي من خلال تلك الصّورة الذّهنيّة التي ترتسم في ذهنه، والسبب راجع إلى حسن النّظم، وبراعة التأليف، وروعة الانسجام في الجمل القرآنية.

ويأخذ الرّافعي في عرض مراتب النّظم في الكلام البليغ حتى يصل إلى مرتبة النّظم في القرآن الكريم قائلا:"فإذا بعد الكلام وأمعن حتى يكون بدقائق تركيبه وطرق تصويره كأنّما يفيض النّفس على الحواس إفاضة، ويترك هذا الإنسان من الإحساس به كأنّه قلب كلّه، ثمّ يبلغ من ذلك إلى أن يكون روح لغة كاملة وبيان أمة برمّتها، لا يحيله الزّمن عن موضعه، ولا يقلّبه عن جهته وإلى أن يجعل البلغاء على تفاوتهم فيما بينهم، وعلى اختلاف عصورهم وأسبابهم المتلاحقة، وكأنهم معه طبقة واحدة وفي طوق واحد من العجز؛ يعنيهم طلبه، ويعنتهم إدراكه ويعرفون تركيبه ثم لا يجدون له مأتى من النّفس ولا وجها من القدرة فذلك هو الكلام المعجز .

وإنمّا اطّرد ذلك من جهة تركيبه الّذي انتظم أسباب الإعجاز من الصّوت في الحرف، إلى الحرف في الكلمة، إلى الكلمة في الجملة، حتى يكون الأمر مقدرا على تركيب الحواس النّفسية في الإنسان تقديرا يطابق وضعها وقواها وتصرّفها، وذلك إيجاد خلقي لا قِبَل للناس به، ولم يتهيّأ إلا في هذه العربية عن طريق المعجزة التي لا تكون معجزة حتى تخرق العادة، وتفوت المألوف،وتعجز الطّوق"[2]، يبدو أنّ التّسلسل الحاصل في ترتيب النّظم حسب الرّافعي ينطلق من أصغر وحدة إلى أكبرها، فالتركيب أساسا يبدأ من الحروف وأصواتها،ثم الكلمات وحروفها وصولا إلى الجمل وكلماتها، والواضح أنّ الرافعي يقرن ذلك بالنّفس

[1] ـ ينظر: الرافعي :إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص: 236.
[2] ـ المرجعنفسه، ص: 237 ـ 238

البشرية في تلقيها لهذه التراكيب على التّرتيب، وتاليّا تتشكل لدى المتلقي رغبة كبيرة في التّعامل مع هذا النظم الّذي يتميّز به النّصّ القرآني.

ثمّ يذهب الرافعي إلى الوضع العجيب للألفاظ القرآنية في جملها إلى أن اكتملت الآيات كلّها على هذا النّمط من النظم، يقول في هذا المقام:" فأنت ما دمت في القرآن حتى تفرغ منه، لا ترى غير صورة واحدة من الكمال وإن اختلفت أجزاؤها في جهات التركيب وموضع التأليف وألوان التصوير وأغراض الكلام، كأنك تفضي إليك جملة واحدة حتى تؤخذ بها..وذلك أمر متحقّق في القرآن الكريم، يقرأ الإنسان طائفة من آياته فلا يلبث أن يعرف لها صفة من الحسّ تُرافد ما بعدها وتمدّه، فلا تزال هذه الصّفة في لسانه ولو استوعب القرآن كلّه"[1]، وبذلك يؤكّد الرّافعي على أنّ النّصّ القرآني مترابط ومنسجم، وبناؤه محكم ومتماسك، فرغم أن لحروفه وكلماته سحر وجمال إلّا أن جماله يكمن في وحدته من بدايته لنهايته فهو ككل لحمة واحدة، وفي هذا القولتبدو نظرته للنّصّ بتلك الشّمولية واضحة، ذلك دليل على أن الرافعي من الذين اهتموا بالنص الذي تعدّدت دلالاته واختلفت عند العلماء،فهو"النّسيج العام الذي يتألّف من خيوط متناسقة على هيئة مخصوصة، ويتعدّى الجملة باعتباره سلسلة من الجمل يضبطها مبدآنمبدأ الوحدة ومبدأ الاتساق والتناسق"[2]، وقد انتهج الطريقةالتجزيئيّة والتدريجيّة للوصول في الأخير إلى الوحدة الكاملة، فكانت البداية الحروف وأصواتها ثم الكلمات وحروفها فالجمل وكلماتها.

5 ـــ 1ـــ روح التّركيب :

يرى الرّافعي أنّ ألفاظ القرآن تختلف ولا تراها إلا متّفقة، وتفترق ولا تراها إلا مجتمعة، وتذهب في طبقات البيان وتنتقل في منازل البلاغة وأنت لا تعرف منها إلا روحا تداخلك بالطّرب، وتُشرِب قلبك الروعة، وتنتزع من نفسك حس الاختلاف الذي تدبّرت به سائر الكلام، وتصفحت به على البلغاء في ألوان خطابهم وأساليب كلامهم وطبقات نظامهم، مما يعلو ويسفل، أو يستمر وينتقض، أو يأتلف ويختلف..

---

[1]ـ المرجع السابق، ص242.

[2]ـ عبد الرحمن بودرع: في لسانيات النص وتحليل الخطاب، نحو قراءة لسانية في البناء النصي للقرآن الكريم، بحث مقدم لتطوير الدراسات القرآنية، ص: 16.

إنّ طريقة نظم القرآن تجري على استواء واحد في تركيب الحروف باعتبار أصواتها ومخارجها، وفي التمكين للمعنى بحس الكلمة وصفتها، ثم الافتنان فيه بوضعها من الكلام، وباستقصاء ألوان البيان وترتيب طبقاته على حسب مواقع الكلمات، لا يتفاوت ذلك ولا يختل[1].

ويبيّن الرافعي أن ألفاظ القرآن إذا حرّفت من مواضعها، أو أخرجت من أماكنها وأزيلت عن روابطها، ينتج عن ذلك ألفاظا كغيرها بما ما يدور في الألسنة ويجري في الاستعمال، فلكلّ لفظة معنى في الجملة كما أعطتها اللّغة معنى في الإفراد، ذلك لأنّ لكل لفظة روحا في تركيبها من الكلام، وروح التركيب لم تعرف قط في كلام عربي غير القرآن، وبها انفرد نظمه وخرج مما يطيقه الناس.

كما يرجع الفضل لهذه الروح التي لولاها لخرج أجزاء متفاوتة، على مقدار ما بين هذه المعاني ومواقعها في النفوس؛ وعلى مقدار ما بين هذه الألفاظ والأساليب التي تؤديها حقيقة ومجازا، إذ ليس في كلام البلغاء روح كروح النّظم في القرآن الذي يرى الرافعي بأنّ كل من يتأمله يحتار في تركيبه ونظم كلماته في الوجوه المختلفة التي يتصرف بها؛ وتقعد بك العبارة إذ أنت حاولت أن تمضي في وصفه حتى لا ترى في اللّغة كلها أدلّ على غرضك وأجمع لما في نفسك وأبين لهذه الحقيقة، غير كلمة الإعجاز[2].

ونستنتج مما ذكرناه أنّ الرّافعي قد اهتم كثيرا بظاهرة النّظم الّتي هي عماد الإعجاز، وهي ذات الرّؤية الّتي سبقته عند عبد القاهر الجرجاني، فنجده متأثرا به، إلّا أنه انفرد في بعض الخصائص التي أدرجت ضمن الفوارق في الرّؤية بينه وبين عبد القاهر الجرجاني، ذلك أنّ الرّافعي في إشارته للنظم بدأ بأصغر وحدة بنائية للكلمة وهي الحروف، وكيفية انتظامها وترتيب أصواتها في النّفس البشرية، فسرّ الإعجاز لا يقتصر على الجملة القرآنية أو الكلمة فقط وإنما يتسع ليشمل إعجاز الحرف في موضعه أمّا عبد القاهر الجرجاني فقد بدأ في نظرية النظم من التركيب، ولم يدخل اللّفظة في إعجاز القرآن.

6 ــ التناسب بين الآيات:

يذهب الرّافعي في حديثه عن الصّور القصار، متعجبا من أمرها، فيرى بأنّ لها في القرآن لحكمة من أعجب ما ينتهي إليه التّأمل حتى لا يقع من النفس إلا موقع الأدّلة الإلهيّة المعجزة، ذلك أن السور لم تنزل متتاليّة وفق نسق واحد على الترّتيب الذي نراه في المصحف الشريف، ويقدم الرافعي من أمثلة السور القصار

[1] ــ ينظرالرافعي: إعجاز القرآن، ص: 241 ــ 242.
[2] ــ المرجع السابق: ص:246 .

"سورة الناس" وهي بجملتها وإحصائها لا تبلغ من القرآن أكثر من جزء واحد، والقرآن كلّه ثلاثون جزءا، وهو يتسع من بعدها قليلا وكثيرا حتى ينتهي إلى الطوال.

فقد علم الله أنّ كتابه سيثبت الدّهر كلّه على هذا الترتيب المتداول، فيسّره للحفظ بأسباب كثيرة أظهرها في المنفعة وأوّلها في المنزلة هذه السّور القصار التي تخرج من الكلمات المعدودة إلى الآيات القليلة والتي هي مع ذلك أكثر مما تجيء آياتها على فاصلة واحدة، أو فواصل قليلة مع قصر بين الفاصلة والفاصلة.

يشير الرّافعي في هذا المقام أنّ كل آية وضعها كأنها سورة من كلمات قليلة لا يضيق بها نفس الطّفل الصغير، وهي تتماسك في ذاكرته بهذه الفواصل الّتي تأتي على حرف واحد أو حرفين، أو حروف قليلة متقاربة فلا يستظهر الطّفل بعض هذه الصّور حتّى يلتئم نظم القرآن على لسانه، ويثبت أثره في نفيه، فلا يكون فيه بعد إلا أن يمرّ فيه مرّا، وهو كلّما تقدّم وجده أسهل عليه، ووجد له خصائص تعينه على الحفظ وعلى إثبات ما يحفظ[1].

والواضح أنّ الرّافعي لم يستثن حتّى المتلقّي الصّغير وهو الطّفل، فراح يبيّن وقع السّور القصار على سمعه وكيفية ترتيبها في نفسه، وتجمّعها في لسانه، ويسرها عليه أثناء حفظها وحسن استظهارها، وبعدها يعمد إلى تفسير سرّ هذا التّناسب العجيب، وهذا الوقع الرّهيب على هذه النفوس الصغيرة.

يقول الرافعي:"وإذا أردت أن تبلغ عجبا من هذه المعنى، فتأمل آخر سورة في القرآن وأوّل ما يحفظه الأطفال، وهي﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ**﴾(الناس: ١) وانظر كيف جاءت في نظمها، وكيف تكرّرت لفظة الفاصلة وهي لفظة "النّاس" وكيف لا ترى في فواصلها إلّا هذا الحرف"السّين" الذي هو أشدّ الحروف صفيرا وأطربها موقعا من سمع الطفل الصغير وأبعثها لنشاطه واجتماعه"[2].

ويشير الرافعي بعدها إلى التناسب بين مقاطع السورة عند النطق بها وتردد ذلك في نفس أصغر طفل يقوى على الكلام، حتى وكأنها فصلت على مقداره، وكيف تطابق هذا الأمر كله من جميع جهاته في أحرفها ونظمها ومعانيها .

7 ـ تناسب عنوان السورة ومضمونها:

المتأمّل لسورة الناس يدرك تمام الإدراك أنّ عنوان السّورة متناسب مع مضمونها، إذ سميت كذلك لتكرار لفظ النّاس في آياتها السّتّة، وتناسب أجزائها

[1]ـ المرجع السابق، ص: 199.
[2] ـ الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص: 199.

ومقاطعها، فكان أمر الاستعاذة في الآيات الثّلاثة الأولى من السّورة بثلاثة أسماء من أسمائه تعالى: ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ 1 مَلِكِ النَّاسِ 2 إِلَٰهِ النَّاسِ**﴾(الناس : ١ - ٣)ومن ثمّ ذكر المستعاذ منه"شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس"، وحاصل سورة الناس هو الاستعاذة بهذا الرب الموصوف من وسوسة الشيطان، ومركز الوسوسة هي الصّدر كما أنّ مصدر الشّر فهم شياطين الإنس والجن، وهذا التّرتيب في تناسب آيات هذه السّورة باعتبار مقصد كل آية من الأمر بالاستعاذة بربّ الناس إلى المستعاذ منه الوسواس الخناس، وهو الاعتصام بالله من الشّرّ المذكور، وصولا إلى الثّقلين، لأنّ مصادر الشّر هم شياطين الجن والإنس(الجنّة والنّاس) ، فكلّ آية وردت بأسلوب متميّز تؤدّي غاية محدّدة، والفائدة التي يرمي إليها هذا التّناسب هو ذلك التّرابط والتّكامل بين الآيات، فلا يتشتّت تفكير القارئ أو المستمع، لأنّ هذا التّرابط يعتبر حافزا فعالا لتدبّر معنى السّورة من أوّلها إلى آخرها.

8ـــ المناسبة بين الألفاظ والمعاني:

يعرض الرّافعي في حديثه عن ألفاظ ومعاني القرآن بأسمى ما يمتلكه من الملكة اللّغوية، واصفا تلك الألفاظ والمعاني الّتي أعجزت البلغاء والفصحاء العرب وغيرهم على مدى العصور، يقول الرافعي:"ألفاظ إذا اشتدّت فأمواج البحار الزاخرة، وهي إذا لانت فأنفاس الحياة الآخرة، تذكر الدنيا فمنها عمادها ونظامها وتصف الآخرة فمنها جنتها وصرامها، ومتى وعدتْ من كرم الله جعلت الثغور تضحك في وجوه الغيوب وإن أوعدت بعذاب الله جعلت الألسنة ترعَد من حمى القلوب"[1]، لقد جمع وصفه لألفاظ القرآن فتزاوجت بين الشّدة واللّيونة، ألفاظ اختصت بالدّنيا بحُلوِها ومرّها، وأخرى وصفت الآخرة بنعيمها وجحيمها، وأخرى قامت على بيان نعم الله للمتقين في الأولى والآخرة، وألفاظ رأى فيها الرّافعي من أمر الوعيد في الآخرة منظرا مرعبا، ومشهدا تقشعر له الأبدان.

لم ينس الرافعي دور المعاني القرآنية من الوصف يقول: "ومعان بينا هي عذوبة ترويك من ماء البيان، ورقة تستريح منها نسيم الجنان، ونور تبصر به في مرآة الإيمان وجه الأمان.. وبينا هي ترف بنديّ الحياة على زهرة الضّمير، وتخلق في أوراقها من معاني العبرة معنى العبير، وتهب عليها بأنفاس الرحمة فتنم بسر هذا العالم الصغير...ثمّ بينا هي تتساقط من الأفواه تساقط الدّموع من الأجفان، وتدع القلب من الخشوع كأنّه جنازة ينوح عليها اللّسان، وتمثّل للمذنب حقيقة الإنسانية حتّى يظنّ أنّه صنف آخر من الإنسان ـ إذ هي إطباق للسّحاب وقد انهارت قواعده والتمعت ناره وقصفت في الجوّ رواعده، وإذ هي السماء وقد أخذت على الأرض ذنبها، واستأذنت في صدمة الفزع ربها، فكادت ترجف

[1] ـــ المرجع السابق، ص: 30.

الراجفة تتبعها الرادفة؛ وإنما هي زجرة واحدة: وإذا الخلق طعام الفناء وإذا الأرض"مائدة"[1]، بهذا الأسلوب، وهذه الألفاظ التي نشأ تحت ظلالها الرّافعي، وهذه المعاني السّامية المستمدة من كتاب الله، يصور لنا الرافعي معاني القرآن الكريم التي ارتوت من بيانه، والّتي تصنع في نفسي المتلقي المعجزات، معان تغزو القلوب فترديها خاشعة، وتخترق النّفوس فتجعلها طائعة، وإذا وقعت على الألسنة فتخرج إيقاعا ونغما موسيقيا، فتتحقق هذه المعاني في النفوس مما يؤدّي إلى الاستجابة لهذه النّصوص الرّبانية والخضوع والخشوع.

أمّا عن ائتلاف هذه الألفاظ وملاءمة بعضها بعضا فيكون في الغرابة على نحو ما ذكرناه في الفصل السّابق حول الاتّساق، فقد استعملت أغرب الألفاظ زادت النّصّ القرآني تماسكا وائتلافا، فاقتضى حسن النّظم في اللّفظ أن تأتي هذه اللّفظة على غرابتها مجاورة للألفاظ مراعية لائتلاف المعنى باللّفظ.

ويبيّن الرّافعي أنّ ما يحقّق إعجاز القرآن من هذه الجهة، ويكشف منه عن أصول السّياستين من البيان والمنطق، والتّأتي إلى أغراضهما بسياق اللّفظ ونظمه، وتركيب المعاني وتصريفها فيما تتّجه إليه، ومداورة الكلام على ذلك ـ إلّا تأمّلته على هذه الوجوه، وإطالة النّظر في كلّ معنى من معانيه، وفي طبيعة هذا المعنى ووجه تأديّته إلى النّفس، وما عسى أن تعارضه النّفس به، أو تدافعه، وتلتوي عليه من قبله؛ ثم طبقات هذا المعنى بعينه، وتقديرها على طبقات الأفهام، واعتبارها بما هو أبلغ في نفسه، وأعمّ في وضعه، ثم وجه ارتباط ذلك بما قبله، واندماجه فيما بعده، ومساوقته لأشباهه ونظائره حيث اتفق منها في الكلام شيء[2]، يبدو في هذا السياق جليا أنّ الرّافعي يذهب منحى هاليداي ورقية حسن في الارتباط القائم بين السّابق واللاحق في الآيات المحكمات من كتاب الله.

ونخلص هنا إلى أنّ الدّراسات النّصيّة عند الغربيين تمخّضت عن عدد من المعايير النّصيّة، تمثّل مقوّمات أساسيّة يقوم عليها النّصّ، وتبيّن أنّ الرّافعي كانت له اللّمسة النّصيّة عندما وظّف معايير عملت على انسجام هذا الأخير من وجهته الخاصّة لا تبتعد عن التي دعت إليها لسانيات النّص، فنجده يهتّم بالنّظم كبقيّة علماء الإعجاز، ووقف على السّياق القرآني وحتّى البلاغة النبويّة، وللانسجام عنده دور أساسيّ في تشكيل النّصّ القرآني مما يجعل القارئ يتفاعل معه ويفهم دلالاته ومضامينه والاستجابة لأوامره، كما استطاع الرّافعي أن يظهر ذلك التوافق في معاني النّص القرآني وتناسبها دلاليا لينتج لنا انسجاما كليا بين آياته، فآليات التّماسك النّصّي عنده بمظهريه الاتّساق والانسجام احتوت نظرية النّظم ذات النّظام الكامل في جذور التّراث، وقدّمها بممفهومه الخاص لها متأثرا بالسّابقين،

[1] ـ المرجع السابق، ص: 30.

[2] ـ ينظر الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص:259.

ناقدا لهم ومادحا، ومبيّنا جديده في هذا المجال، معتبرا الوحدة النّصيّة أهمّ مظاهر هذا التّماسك، ولم يقف الرّافعي عند إعجاز القرآن بل عرّج إلى البلاغة النّبويّة، وجعل لها فصلا خاصّا ليتعامل مع النّص النّبوي بالتّحليل ليكشف أسراره، والعناصر التي تعمل على تماسكه.

الفصل الرّابع:

آليات التّماسك النّصّي في البلاغة النّبويّة من منظور الرّافعي

- البلاغة النّبويّة
- آليات التّماسك النّصّي في البلاغة النّبويّة عند الرّافعي
- النّصّ النّبويّ
- السّبك والحبك في البلاغة النّبويّة
- المقاميّة عند الرّافعي في النّصّ النّبوي
- القصديّة والمقبوليّة
- الانسجام والمقبوليّة
- الإعلاميّة في البلاغة النّبوية من منظور الرّافعي
- المتلقّي

1ـــ البلاغة النّبويّة:

بعث الله تبارك وتعالى سيّدنا محمد صلّى الله عليه وسلّم إلى أمّة هي أفصح الأمم، وبلسان عربي فصيح، إنّها لغة مبسوطة متّسعة لا يستطيع أيّ بشري عادي أن يحيط بها جميعها مهما بلغت فصاحته وبلاغته، إلّا أنّ الأمر مختلف تماما مع سيّد الخلق عليه أفضل الصّلاة والسّلام، فقد أحاط بها من جميع نواحيها على اتّساعها وبسطها، فكان يكلّم كل قبيلة بلهجتها ويتفاهم معها باللّهجة ذاتها، وعلى الرّغم من أنّ أبناء عمومته تربّوا معه في البيئة نفسها إلّا أنّه فاقهم فصاحة وبلاغة، فهو الّذي غلب الخطباء كما غلب الشّعراء ولم يكن شاعرا، هذه البلاغة التي تمكّن منها بزّت العرب وجعلتهم يقرّون بها، وسلّموا لفصاحته، ذلك لأنّه عليه الصّلاة والسلام حمل رسالة ساميّة جعلته يتحكّم في اللّغة تحكّما بالغا وهي الإسلام، فهو الّذي أدّبه ربّه فأحسن تأديبه.

وصف الشّافعي رحمه الله اللّغة العربية قائلا:" ولسان العرب أوسع الألسنة مذهبا، وأكثرها ألفاظا، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبيّ "[1]، فبالنسبة للعرب"كانت هذه اللّغة سليمة من الفساد، خالصة من الشّوب، والإسلام لايزال في ريعانه واندفاع موجته، والعرب في أمر الأدب على إرث من جاهليتهم، يأخذون في سَمتِها، ويتجاذبون على منهاجها، فيُسمرون بالأخبار ويتحمّلون بالأشعار، لا يرون إلّا أنّ ذلك علم آبائهم، وإرث أبنائهم" [2]، وبما أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم أفصح العرب، كانت اللّغة تتحدّر على لسانه عليه أفضل الصّلاة والسلام تحدّر الماء وجريانه، فبلاغته فيها الإيجاز في موطن الإيجاز، وفيها الإطناب والاتساع في موطن الإطناب، فالإيجاز في كلامه كان على أبلغ حال، والإطناب على أفسح طريق، استطاع أن يحرّك القلوب والعقول بالإقناع ولا يكون ذلك إلّا بتلك اللّغة الصّحيحة الّتي اكتسبها وتعلّمها سيّدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسّلام من ربّه الّذي اختاره أن يكون نبيّا لهذه الأمّة.

ويرجع من أجل ذلك تأريخ هذه الكلمة(اللغة) في دلالتها الاصطلاحية لعهد النّبي صلى الله عليه وسلّم"حين جاءته وفود العرب، فكان يخاطبهم جميعا على اختلاف شعوبهم وقبائلهم وتباين بومهم وأفخاذهم، وعلى ما في لغاتهم من اختلاف الأوضاع وتفاوت الدلالات في المعاني اللغوية"[3] وأصحابه رضوان الله عليهم وبعض الوافدين عليه من العرب الّذين لم يوجه إليهم الخطاب، كانوا يجهلون من ذلك أشياء كثيرة؛ والدّليل على ذلك قول سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه

---

[1] ـ محمد بن إدريس الشافعي: الرسالة، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية، 2006م، بيروت، لبنان، ص: 42 .

[2] ـــ مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1 ، 1421هـ ـ 2002م، ص254.

[3] ـ مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب، ص:254.

وكرّم الله وجهه لما سمعه يخاطب وفدا من بني نهد" يا رسول الله، نحن بنو أب واحد ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره"[1]، فكان النّبي صلّى الله عليه وسلّم يوضّح لهم معاني تلك الكلمات، فهذا الاختلاف في بعض الألفاظ هو أمر فطريّ عند العرب.

2 ــ آليات التّماسك النّصي في البلاغة النّبويّة عند الرّافعي:

يدفعنا الحديث عن البلاغة النّبويّة إلى دراسة متعلقة بالبيان النبوي و"متخصصة في القيمة الفنيّة لتعبيره، والخصائص التي انفرد بها عن بيان فصحاء العرب"[2]، من أجل الوقوف على "أسرار البنيّة اللّغوية والبيانيّة لهذا البيان الفذّ في بيان بني البشر، الّذي أجراه الله على لسان نبيّــه، وفجّره حكمة من ينبوع قلبه؛ ليشرح مباني كتاب الله ومعانيه، ويفصل مقاصده ومراميه"[3]، فمن بلاغته صلى الله عليه وسلم تأتي أحاديثه تبيّن للأمة أثر العبادة في تهذيب النّفوس، فيستخدم في ذلك الأدوات اللّغوية المتاحة لحديثه، فتجد في أحاديثه التّصوير البياني، والمعاني، والبديع الذي يحبّر الكلام ويزيّنه، فجاء كلامه عليه الصّلاة والسّلام بأفصح الألفاظ، وأجمل التّراكيب والعبارات، فالكلمة مفتاح القلوب، وإذا لم تخرج في أبهى صورة وأحسنها فلا يمكنها أن تخترق الأسماع، ولن يكون لها مكان في قلب بشر، لذلك نجد بلاغته وفصاحتهمتحدّرة من نور القرآن، فيها الأدوات والمفاتيح الّتي يفتح بها النبي صلى الله عليه وسلم القلوب.

تُحَتِّمُ البلاغة النّبويّة في دارسها أن يهتمّ اهتماما بالغا بها، لأنّه لن يجد أدبا ولا بلاغة ولا بيانا ولا أسلوبا يفوقها بعد القرآن الكريم، فالبيان البشري لا يرقى إلى البيان النبوي الّذي نزل مرتبة عالية تفوق قدرة أي بشري، ذلك أنّ الرّابط بين القرآن والسّنة يجعل الأمور أكثر متانة، بحيث جاءت لغته صلى الله عليه وسلم على نهج بلاغة القرآن"فالقرآن والسّنة كلاهما وحي من الله إلّا أنّ القرآن وحي بلفظه ومعناه، والسّنة وحي بالمعنى دون اللّفظ، ولكن مع تأييد اللّفظ وتوفيقه للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم في اختيار اللّفظ الدّقيق الجامع الموحّد، وهذا مما يجب التّنبه إليه لأنّ السّنة النّبويّة تتعرّض اليوم لحملات شرسة من أعداء الإسلام الّذين يريدون أن يسلبوها هذه الخصوصيّة"[4]، أي أنّها وحي من الله بالمعنى، قال يونس

---

[1]ــ المرجعنفسه، ص: 254.

[2] ـ كمال عز الدين: الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية، ط1، دار اقرأ، بيروت، 1404هـ ــ 1984م ،ص: 27.

[3] ـنور الدين عتر: في ظلال الحديث النبوي ومعالم البيان النبوي، أوّل دراسة فكرية، اجتماعية وأدبية جمالية معاصرة، ط1، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، 1434هـ -2013م ، ص:9.

[4] ــ محمد أبو العلا أبو العلا الحمزاوي: الخصائص البلاعية للبيان النبوي، مكتبة رشد، الألوكة، 1428هـ – 2007م، ص: 7.

بن حبيب:" ما جاءنا عن أحد من روائع الكلام ما جاءنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم"[1]، وهذا دليل على أنّ البلاغة النّبويّة أتت بأساليب وعبارات مبتكرة في البيان لم يسبق إليها أحد، والوقوف عليها يجعل الباحث في هذا المجال يكتشف التّمايز الّذي انفردت به، بما في ذلك طرق التّجديد الحاصلة في بيانه صلى الله عليه وسلم، وبذلك يسمو الأدب العربي بسمو هذه اللغة من خلال إحداث نهوض لغويّ وبياني من قبل الباحثين في بلاغته صلى الله عليه وسلم والدّارسين لها.

ولا يخفى على أحد أنّ البلاغة النّبويّة قد ترعرعت في بيئة وحقبة زمنيّة عرف فيها البيان العربي قوة لا مثيل لها في العصر الجاهلي، وإن كانت هذه المرحلة من ناحية أخرى"مرحلة ظلام وبدائية في العقيدة والفكر والحياة"[2]، فالرّجوع إليها ودراستها وسبر أغوارها والوقوف على بيانها سواء من خلال الخطب أو الرسائل أو مختلف أحاديثه صلى الله عليه وسلم، يجعلنا نتعرّف على أثرها في جوانب الحياة كلّها: اجتماعية أو حضارية أو ثقافيّة أو أدبيّة أو لغويّة وغيرها"هذه هي البلاغة الإنسانيّة الّتي سجدت الأفكار لآيتها، وحسرت العقول دون غايتها، لم تُصنَع وهي من الإحكام كأنّها مصنوعة، ولم يُتكلّف لها وهي على السّهولة بعيدةٌ ممنوعة"[3] لأنّها صادرة من أفصح الخلق على الإطلاق.

ذلك لأنّ كلامه صلى الله عليه وسلم وحي من الوحي، وجاء في كتاب الله تعالى قوله عزّوجلّ:ُ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**ّ)الحجر: ٩(، وتفسير هذه الآية أنّ الله تبارك وتعالى تعهّد بحفظ كتابه المجيد، كما تعهّد في آية أخرى بحفظ سنة نبيّه صلى الله عليه وسلم، يقول تعالى:ُ **ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ**)القيامة: ١٩(، بمعنى علينا تبيانه بلسانك، فقد قضى نبيّنا الكريم ثلاثة وعشرون عاما من حياته يبيّن القرآن الكريم للناس، ويوضّحه لهم بأبلغ لغة عرفها العرب، وبأعظم بلاغة تخترق القلوب والأسماع معا لأنّ "الحديث تفصيل لما أنزل مجملا في القرآن الكريم، وتوضيح لما أبهم فيه، وبيان لما تشابه منه، كذلك الأحكام التي وردت في السّنة المطهّرة ولم يرد لها ذكر في القرآن الكريم، هي أحكام شرعيّة صحيحة ثابتة، يجب العمل بها، كما يجب العمل بما جاء في القرآن، إذ السّنة هي المصدر الثّاني للتشريع"[4]، وهذا الموقع الّذي حظيت به البلاغة النّبويّة الّتي فاقت بلاغة البشر جعلت أحاديثه صلى الله عليه وسلم على اختلاف فنونها قد امتازت بالكثير من الأسرار البلاغيّة المعبّرة عن المقصود بأروع الصّور، وأنصع بيان، فقد جعله

---

[1] ـ الجاحظ: البيان والتبيين، ط7 ، ج2، مكتبة الخانجي، 1418هـ ـ 1998م ، ص18

[2] ـ نور الدين عتر: في ظلال الحديث النبوي ومعالم البيان النبوي، ص:10.

[3] ـ مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص:281.

[4] ـ عبد الفتاح لاشين: من بلاغة الحديث الشريف،، عكاظ للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية،، ط1 ،1402هـ ـ1982م، ص :22

تعالى أفصح خلقه، وأقواهم حجّة، وخصّه الله تعالى بأكبر معجزة في الكون ليبلغها للإنس والجن، فتأثير كتاب الله على أحاديث نبيّه صلى الله عليه وسلم واضح وبيّن في بلاغته عليه أفضل الصلاة والسلام.

والمعلوم أنّ الكلمة كان لها قدر كبير في اللّسان العربي، فصناعة الكلام كانت أكثر ما اشتهر به هؤلاء، بل أعظم شيء عرفوه، من أجل ذلك تحدّاهم الله تبارك وتعالى ببلاغة كتابه، فوقع العجز، وكانت بلاغته صلى الله عليه وسلم على نسج تلك البلاغة، لذلك جاءت في بيان البشر في مكانة رفيعة لا يضاهيها أحد، فقد أعجز صلى الله عليه وسلم العرب الذين أتقنوا هذه الصّناعة، فكان أفصحهم لسانا وأعظمهم بيانا، لأن العرب"وإن هذّبوا الكلام وحذقوه وبالغوا في إحكامه وتجويده..ذلك قد كان منهم عن نظر متقدم، ورويّة مقصودة، وكان عن تكلّف يستعان له بأسباب الإجادة الّتي تسمو إليها الفطرة اللّغويّة فيهم، فيشبه أن يكون القول مصنوعا مقدّرا على أنهم مع ذلك لا يسلمون من عيوب الاستكراه والزّلل والاضطراب، ومن حذف في موضع إطناب، وإطناب في موضع، ومن كلمة غيرها أليق، ومعنى غيره أردُّ، ثم هم في باب المعني ليس لهم إلا حكمة التجربة، وإلا ما يؤخذ بعضهم عن بعض، قلّ ذلك أو كثر.."[1]، وعليه فمهما بلغت بلاغة العرب ذروتها من حيث قوة البيان وروعته إلا أن بلاغته صلى الله عليه وسلم فاقتها من كل الجوانب، فبلاغة العرب قد تشوبها العيوب، لكنه صلى الله عليه وسلم كان أفصح العرب،"على أنّه لا يتكلّف القول، ولا يقصد إلى تزيينه، ولا يبغي إليه وسيلة من وسائل الصّنعة، ولا يجاوز به مقدار المعنى الّذي يريده، ثمّ لا يعرض له في ذلك سَقط ولا استكراه؛ ولا تستزلُّه الفُجاءة وما يَبْدَه من أغراض الكلام*، عن الأسلوب الرّائع، وعن النّمط الغريب والطّريقة المحكمة، بحيث لا يجد النّظر إلى كلامه طريقا يتصفّح منه صاعدا أو منحدرا؛ ثمّ أنت لا تعرف له إلّا المعاني الّتي هي إلهام النّبوة، ونتاج الحكمة، وغاية العقل، وما إلى ذلك مما يخرج به الكلام وليس فوقه مقدار إنساني من البلاغة والتّسديد وبراعة القصد والمجيء في كلّ ذلك من وراء الغاية"[2].

ويظهر لنا جليّا التّأديب الرّباني لنبيّنا صلى الله عليه وسلم، وقمّة التّثقيف والتّعليم، والتّربيّة العلميّة الّتي جعلته يتمكّن من جميع لغات العرب، متتبّعا في ذلك منطقهم، واقفا على مواطن الإصابة واللّحن فيها، واستطاع معرفة الصّيغ على

[1] ـ مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص: 281.

*أي يقتضيه للقول على البداهة، وما يفجأه من أغراض الكلام البعيدة التي تحتاج إلى التقدير والروية وبعد النظر، ينظر الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص: 281.

[2] ـ المرجع السّابق، ص282.

اختلافها وأنواع الأبنيّة، وتعود قوة بلاغته وروعة بيانه إلى جملة من الأسباب أهمّها:

ـــــ إنّ ما خصّ به النّبي صلّى الله عليه وسلم كان توفيقا وإلهاما من الله، فقد علمه الله أشياء كثيرة ما لم يكن يعلم، حتى يتمكن من مجابهة الأقوام ومواجهتهم؛ لتكون الحجة به أظهر والبرهان على رسالته أوضح.

ـــــ الثّانية فقد كان صلى الله عليه وسلم في اللّغة القريشية التي أفصح اللّغات وألينها، بالمنزلة الّتي لا يدافع عليها، ولا ينافس فيها وكان ذلك في أقصى النهاية، وإنما فضلهم بقوّة الفطرة واستمرارها..، بحيث يصرّف اللّغة تصريفا، ويديرها على أوضاعها، ويشقق منها في أساليبها ومفرداتها ما لا يكون لهم إلّا القليل منه.

ـــــ نشأة الرّسول صلى الله عليه وسلم وتقلّبه في أفصح القبائل وأخلصها منطقا، وأنّ أكبر الشّأن في اكتساب المنطق واللّغة هو المخالطة والمحاكاة في قبيلة من أفصح القبائل، وهم بنو سعد بن بكر.[1]

وصف الجاحظ كلامه صلى الله عليه وسلم في كتابه البيان والتّبيين فقال:" وهو الكلام الذي قلّ عدد حروفه وكثر عدد معانيه، وجلَّ عن الصّنعة، ونُزِّهَ عن التّكلّف، وكان كما قال الله تعالى: قل يا محمد: ﴿ **وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ** ﴾ص:٨٦(، فكيف وقد عاب التّشديق، وجانب أصحاب التقعيب*، واستعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشيّ، ورغِب عن الهجين السُّوقيّ، فلم ينطَق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلّم إلا بكلام قد حُفَّ بالعِصمة، وشُيِّد بالتّأييد، ويُسِّر بالتّوفيق. وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبّة، وغشّاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام، وقلّة عدد الكلام، مع استغنائه عن إعادته، وقلّة حاجة السامع إلى معاودته، لم تسقط له كلمة، ولا زلّت به قدم، ولا بارت له حجّة، ولم يقم له خصم، ولا أفحمه خطيب، بل يبذُّ الخطَبَ الطوال بالكلم القصار، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتجّ إلّا بالصدق، ولا يطلب الفَلْج إلا بالحقّ، ولا يستعين بالخِلابة،ولا يستعمل المواربة، ولا يهمز ولا يلمِز، ولا يُبْطئ ولا يعجَل، ولا يُسهب ولا يَحصَر. ثمّ لم يسمع النّاس يكلان قطّ أعمّ نفعا، ولا أصدق لفظا، ولا أعدل وزنا، ولا أجمل مذهبا ولا أكرم مطلبا، ولا أحسن موقعا، ولا أسهل مخرجا، ولا أفصح معنى، ولا أبين فحوى، من كلامه صلى الله عليه وسلم كثيرا"[2]، هذه الصّفات الّتي عدّها الجاحظ في حقّه صلى الله عليه وسلم خشي أن يظنّ بعض النّاس أنّه أفرط

---

[1] ـــ ينظر الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص:284 ـــ 285.

* ـ التقعيب كالتقعير، وهو أن يتكلم بأقصى قعر فمه، ينظر الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص:285.

[2] ـ الجاحظ : البيان والتبيين، ج2، ص: 17 ـــ 18.

على ذلك الوصف، وأن يكون مبالغا فيما أشاده من هذا الكلام، ولا يظن ذلك إلا من ضلّ سعيه، ولم يتّسع علمه ولم يعرف مقادير الكلام، قال الجاحظ:" ولعلّ من لم يتّسع في العلم، ولم يعرف مقادير الكلام، يظنّ أنّا تكلّفنا له من الامتداح والتّشريف، ومن التّزيين والتّجويد، ما ليس عنده ولا يبلغه قدره. كلّا والذي حرّم التّزيّدَ على العلماء، وقبّح التّكلّف عند الحكماء، وبهرج الكذّابين عند الفقهاء، لا يظنّ هذا إلا من ضلّ سعيه"[1]، فقد كان صلى الله عليه وسلم فصيحا وبليغا لدرجة أعجز فيها البلغاء والفصحاء، فهو لا يتصنّع ولا يتكلف بل كان التّصنع والتّكلّف مذموما لديه، وإن أراد أحد أن يقف على سقطات للتنويه أو التّصحيح في بلاغته فلا يجد المرء موضعا للتنقيح أو التّصحيح، ولا يقف إلا معترفا برقي هذه البلاغة وسموّها عن بلاغة سائر البشر.

أورد الرّافعي في كتابه "إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة" فصلا عن صفته عليه الصلاة والسلام، وبيّن بأنّه في تاريخ العرب قاطبة لا يوجد من جمعت له صفات وأحصيت شمائله وتواتر النّقل بذلك جميعه من طرق مختلفة على توثيق إسنادها غيره صلى الله عليه وسلم، فإضافة إلى صفاته الخُلقية كان لصفاته الخَلقية نصيب في الأثر، فوصف صلى الله عليه وسلم بأحلى ما يوصف بشري، فأخذ الوسط في كلّ الأمور، فكلّ من عاصره وعرفه حمل له تلك الأوصاف النّيّرة في نفسه"ولقد أفاضوا في تحقيق أوصافه صلى الله عليه وسلم بأكثر من ذلك أوصافا ومعاني ونقلوا الكثير الطيّب من هذه الأوصاف الكريمة في كل باب من محاسن الأخلاق...وإذا رجعت النّظر في تلك الصّفات الكريمة واعتبرتها بآثارها ومعانيها رأيت كيف يكون الأساس الّذي تبنى عليه فراسة الكمال في نوع الإنسان"[2].

وجملة هذه الصّفات فيما ورد عن الحسن بن علي رضي الله عنهما حينما سأل "هند بن أبي هالة" أن يصف له منطق رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأجابه قائلا:" كان رسول الله صلى الله عليه وسلم متواصل الأحزان، دائم الفكرة ليست له راحة، ولا يتكلم في غير حاجة، طويل السّكوت، يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه ويتكلّم بجوامع الكلم فضلا لا فضول فيه ولا تقصير، دمِثًا ليس بالجافي ولا المهين، يعظم النعمة وإن دقّت لا يذمّ ذواقا ولا يمدحه، ولا يقام لغضبه إذا تعرض للحق بشيء حتّى ينتصر له ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها إذا أشار أشار بكفّه كلها، وإذا تعجّب قلبها، وإذا تحدّث اتّصل بها فضرب بإبهامه اليمنى راحتَه اليسرى، وإذا غضب أعرض وأشاح، وإذا فرِح غضّ طرْفَه؛ جلّ ضحِكِه التّبسّم ويفتَر عن مثل حبّ الغمام"[3].

---

[1]ــ المصدر نفسه، ص: 18.

[2] ــ مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص:291.

[3] ــ المرجع نفسه، ص:290 ــ 291.

ومعنى أنّه كان طويل السّكوت أنّه في بعض أحاديثه عليه الصّلاة والسّلام، كان سكوته على أربع: على الحلم، والحذر، والتّقدير، والتّفكير، كما يستعمل جميع فمه للتّكلّم، لا يقتصر على تحريك الشّفتين، وذلك من قوّة المنطق والصّوت والمعنى، وحضور الذّهن واجتماعه، وقوله قول فصل يصيب به مقطع المعنى، لا حشو فيه فيزيد ولا تقصير فيُقلّ، ولم يكن دمثا فالدّماثة: سهولة الخلق والجفاء بمعنى الغلظة، والرسول صلى الله عليه وسلم بريء من هاتين الصفتين، وكان أطيب الناس نفسا وأكثرهم تبسما[1]، يبدو أن الرافعي نظر إلى الدّماثة على أنها غلظة، ولكن "هند بن أبى هالة" كان يقصد حسن الخلق واللطف والرقة، هذه المعاني التي رافقت معنى الدماثة في معاجم اللغة العربية، هذه هي بعض صفاته الّتي جاءت في الأثر عن نبيّنا خَلقا وخُلُقا، وفي ذلك يقول الرافعي معلّقا:"فتأمّل أنت هذه الصّفات واعتبر بعضها ببعض في جملتها وتفصيلها، فإنّك متوسّم منها أروع ما عسى أن تدلّ عليه دلائل الحكمة، وسمة الفضيلة، وشدّة النّفس وبعد الهمّة، ونفاذ العزيمة، وإحكام خطّة الرّأي، وإحراز جانب الخلق الإنساني الكريم"[2].

وللخوض في دراسة التّماسك النّصّي الّذيهو خاصيّة تميّز النّصوص وتحقق للنّصّ نصّيته، ومدى انتشاره في النّصّ النّبوي، لابدّ من الوقوف على أهمّ العناصر الّتي تحقّق التّرابط والتي وردت في "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية" لمصطفى صادق الرّافعي الّذي وضع للبلاغة النّبويّة فصلا خاصّا لدراسة جوانب مضيئة من سيرة النّبي صلى الله عليه وسلم، مبيّنا فصاحته وبلاغته وخصائص تعبيره، وأنساق كلامه، وأساليبه التي خاطب بها البشرية، فقد كان رائدا في دراسة البلاغة النّبويّة في العصر الحديث، وفتح الباب للباحثين لدراسة هذه البلاغة من جوانب مختلفة على اختلاف تخصّصاتهم، ذلك لما لها من تأثير في البلاغة العربية برمّتها بعد القرآن الكريم.

ولعلّ ما نادت به اللّسانيات النّصّيّة الحديثة في دراسة النّصوص للكشف عنها ليست بالأمر الغريب في النّصّ النّبوي، بحيث نجد مظاهر الاتّساق والانسجام النّصّي الّتي نادى بها هذا العلم الجديد، ذلك أنّ الفكرة ليست مجرد إرهاصات، وإنّما هي تحقيق فعلي لبلاغة قدّر لها أن تحيا على مرّ الأزمنة، وأن تثبت حضورها بين مختلف العلوم والنّظريات الجديدة والحديثة، ولسانيات النّص واحدة من هذه العلوم الّتي اهتمّت بجملة من العناصر إذا توفّرت جميعها أو بعضها حقّقت للنّصّ تماسكه وانسجامه، وقد تمّ الإشارة إلى جملة من المعايير في حديثنا عن انسجام النّصّ القرآني، كما أشرنا إلى معايير النّصيّة التي اعتبرها روبرت دي

[1] ــ ينظر الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص:290 ـــ 291.
[2] ــ المرجع نفسه، ص : 291.

بوجراند أهمّ العناصر الّتي تهتم بانسجام النّصّ، والتي اشترط علماء لسانيات النّصّ توافرها في كلّ نصّ، وجعلوا منها المعايير الأساسية الّتي نحكم من خلالها على نصيتة والمميّزة له عن اللّانص، فهي تمثّل المحور الأساسي في التّحليل النّصّي.

سنعمد من أجل ذلك إلى الكشف عن مظاهر الاتّساق والانسجام الّتي جاء بها الرّافعي في حديثه عن البلاغة النّبويّة، ومعرفة أدوات التّرابط والاتّساق المعتمدة في البلاغة النّبويّة، ولو أنّ الرّافعي كما رأينا مع "إعجاز القرآن" كانت دراسته محصورة على الجانب النّظري أكثر من الجانب التّطبيقي إلّا أنّ الإشارات التي وظّفها، توحي بفكرة مدى مساهمة هذه العناصر اللّغوية في أحاديثه عليه الصّلاة والسّلام في فهم مقاصده ومضامينه، لذلك وجب الوقوف على كيفية تجلّي الاتّساق والانسجام في البلاغة النّبويّة، وهذا من خلال حديثه خطبا أو رسائل، أي كلّ ما له علاقة بكلامه صلى الله عليه وسلم.

ذهب الرّافعي إلى تبيين دعامة البلاغة النّبويّة الّتي تجعل قارئ الخطاب النّبوي قادرا على فهمه وتأويله باعتبارها أهمّ الآليات والمبادئ الّتي تسهم في تحقيق انسجام هذا النّصّ .

فالبلاغة النّبويّة كان لها الأثر البالغ في الأدب والنّفس البشريّة معا، لأنّ الخطاب الذّي جاءت به موجّه لهذه النّفس لاستثارتها وتحريكها لتتجاوب مع آفاقه الجماليّة، ممّا يجعل ردّة الفعل إيجابيّة من حيث الإمتاع واللّذة، ومن هنا جاءت جهود مصطفى صادق الرّافعي في الفصل الأخير من كتابه حول "البلاغة النّبويّة" بارزة وبيّنة، من أجل تبيين بلاغته صلى الله عليه وسلم، وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ هذه البلاغة الصّادرة من سيّد الخلق أجمع عليه أفضل الصلاة والسّلام، لم تلق نفس الرّواج في مؤلفات الدّارسين والباحثين من العلماء، والسّبب في ذلك يرجع إلى اهتمامهم الكبير بإعجاز القرآن.

إنّ السّنة النّبويّة وحي من الله، جاءت على لسان نبيّه صلى الله عليه وسلّم، فقد كانت تابعة للقرآن شارحة له، ذلك أنّ كلّ ما صدر عنه عليه الصّلاة والسّلام فهو وحيّ من ربّه لإيصال الرّسالة وإتمامها، لذلك لابدّ من الإشارة إلى قوّة هذه البلاغة النّبويّة، فلم يمتلك أحد من البلغاء والفصحاء تلك البراعة في الأساليب أو التّفنّن، فقد جمعت له فصاحة العرب جميعها على لسانه وفاقهم فيها "وعلى هذه الجهة لا على غيرها، يحمَل قوله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر حين قال له رضي الله عنه: لقد طفت في العرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت أفصح منك فمن أدّبك (أي علّمك)؟ فقال عليه الصلاة والسلام:"أدّبني ربّي فأحسن تأديبي" وقوله مثلَ ذلك لعليّ أيضا..: أنا أفصح العرب"[1].

[1] ـ مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص: 293 .

يبدو أنّ الرّافعي يدرك تماما تلك الصّلة الرّابطة بين القرآن الكريم والبلاغة النّبويّة، لأنّه كما قال الله تعالى:ُ **وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ 3 إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ**)النجم: ٣ – ٤(، وعليه فكلامه صلى الله عليه وسلم وحي يوحى، وذلك دليل آخر على اعتناء الخالق ببلاغة النّبي من جوانب مختلفة، فكان هذا الفصل في كتاب الرّافعي كشفا عن متعة النّصّ البياني بما فيه من أسرار يمكن طرحها في مجالات دراسة مختلفة، وسنقف على أهمّ آليات التّماسك في النّص النّبويّ، لغرض الكشف عن معايير النّصّيّة في خطاباته عليه السّلام، ومدى توافقها مع ما آلت إليه اللّسانيات النّصيّة الغربيّة، واقفين في ذلك على ما قدمه الرّافعي من رؤية عميقة في دقائق البلاغة النّبويّة، والكشف على آثار تلك الدّقائق على النّفس الإنسانيّة، لأنّ الأثر النّفسيّ يرتبط ارتباطا وثيقا بعمليّة الكشف عن دقائق النّصوص، فهو خلاصة قراءة شاخصة وفاحصة تتجاوز حدود البنيّة السّطحيّة للنّصّ والتّوغّل داخل أعماقه الدّاخلية، كما أنّ للأثر النّفسي دور فعّال في الكشف عن جماليّة هذه النّصوص الفنيّة وخاصّة وأنّها نابعة من لسان أفصح خلق الله صلى الله عليه وسلم.

ومن أجل ذلك سنحاول الإجابة عن مجموعة من التّساؤلات لكي نقف على تلك العلائق بين البلاغة ولسانيات النّصّ من خلال الكشف عن معايير النّصّيّة في البلاغة النّبويّة من منظور الرّافعي، فكيف درس الرافعي الخطاب النبوي؟ وهل الدّراسة البلاغية التي تناولها كان يراد منها الدّراسة المعيارية المستقلّة عن سائر العلوم اللّغوية الأخرى؟ وبأيّ وسيلة لغويّة تمكن من الوقوف على الأسرار البيانيّة في بلاغته صلى الله عليه وسلم؟ وما مدى التّواشج بين القضايا البلاغيّة النظرية الّتي طرحها ومفاهيم لسانيات النّصّ الحديثة؟.

إجابة عن هذه التّساؤلات، سنبحث في الجوانب الّتي درسها الرّافعي في البلاغة النّبويّة، والكشف عن الأسرار اللّغويّة للخطاب النّبويّ كما طرحها، وستكون بعض الأحاديث النّبويّة الحقل الّذي نستشفّ فيه الدّراسة اللّسانيّة التّطبيقيّة وفق معايير النّصيّة الّتي اعتمدها الرّافعي، ذلك أنّ لسانيات النّص هذا العلم الحديث الّذي يعمل على دراسة النّصوص وتحليلها ضمن معايير خاصّة، وينظر إلى النّصّ نظرة شموليّة، يجعلنا نقف على هذه المعايير في البلاغة النّبويّة.

كانت الدّراسة النّصّيّة عند القدماء عبارة عن إرهاصات وبذورا تأسيسيّة لما يعرف باللّسانيات النّصيّة، هذا العلم جعل من البلاغة القديمة أحد العلوم الّتي استقى منها، واعتبرت" السّابقة التاريخية لعلم النص"[1]، الّذي يتعامل من حيث الأساس"مع السّمات العامّة والخواص الفرديّة وكلّ أشكال الأبنيّة وأنواع السّياقات ومستويات اللّغة ودرجات الرّبط النّحوي والتّرابط الدّلالي(التّماسك)، والنّماذج الهيكليّة المتنوّعة النّظرية والتّطبيقيّة، ويستوعب معارف ومعلومات من علوم

[1] ــ صلاح فضل : بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 234.

أخرى تتداخل معه، ولها أهميّة كبيرة في عمليّة إنتاج النّصوص وفهمها وتفسيرها"[1] .

والواضح أنّ البيان النّبوي يتوفّر على هذه السّمات الّتي تعمل على إيصال رسالة إلى متلقّي الخطاب قصد الإقناع"فالكلام النّبويّ جامع مجتمع، لا يذهب في الأعمّ الأغلب إلى الإطالة بل كالتّمثال: يأتي مقدَّرا في مادّته ومعانيه وأسلوب الجمع بينهما وربط الصّورة بالمعنى"[2]، ذلك أنّ بلاغته ربانيّة بحتة، فقد أولاه ربّه بعنايته فيخاطبه بقوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾(النساء: ١١٣)، وما تذهب إليه هذه الآية يعتبر جانبا آخر يتعلّق بأمر فصاحته بعد النّشأة اللّغويّة الّتي نشأها، فهذا الفضل العظيم من الله على نبيّه أن جعل له لسانا قادرا على التّحكّم في اللّغة على اختلاف اللّهجات"فلم يُعلم يقينا حقّ يقين أنّه صلى الله عليه وسلم تعلّم شيئا عن العرب، ولا كان لهم علم بدراسة الفوارق البلاغيّة بين الألفاظ أو في التّراكيب أو في الصّور والأخيّلة، بل لم يكن لأحد من قومه شيء من هذا القبيل دراسة وتعلّمًا فقد كانت ثقافة القوم ثقافة سماعيّة، ينطلقون في لغتهم وأشعارهم وبيانهم عن حسّ لغوي وبلاغي فطري، وإن اختلف هذا الإحساس من فرد إلى آخر"[3]، فقد أقرّ أعداؤه قبل أتباعه بفصاحته وبلاغته.

1 ــ النّصّالنّبـــــــويّ :

عندما نتحدّث عن النّصّ النّبويّيقودنا الكلام إلى أحاديثه صلى الله عليه وسلم، وهي في جملته ما يصدر عنه من كلام في الخطب أو الحكم أو الكلام العادي أو في أيّ شكل من أشكال الكلام، فنرى أنّ هذه الأحاديث" وإن كانت فيض الخاطر، وعفو البديهة، يبدو عليها أثر الإلهام، وسمة العبقريّة، وطابع البلاغة"[4]، لقد كان ينطق كلامه شفاهة ويوجّهه إلى المسلمين، فتحقق الكلمة غايتها، ويبلغ الخطاب هدفه، ويولد بذلك تأثيرا سحريّا يخترق الأسماع والقلوب معا.

فالبدايات الأولى للأحاديث النّبويّة كانت منطوقة، أي أنّ النّصّ أو الخطاب النّبويّ عبارة عن رسالة تحمل شفرة معيّنة تريد أن يقتفيها متلق معيّن لتحقّق هدفا معيّنا "ولا خلاف أنّ بلاغة المتكلّم يدخل فيها ــ إضافة إلى فنيّات الكلام وبلاغته ــ طريقة الأداء، والتّعبيرات الجسديّة والإشارات ونظرات العينين، ونبرة الكلام ونغمته، وإيقاعه الحي الحياتي المعيش، والانفعال والترديد أو التكرار، وهي كلّها أدوات بلاغيّة تصاحب التّعبير بالكلمات المنطوقة، ولها دورها الهام في عمليّة

---

[1] ــ سعيد حسن بحيري: علم لغة النص، ص: 143.

[2] ــ مصطفى صادق الرافعي : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص: 293.

[3] ــ عبد العزيز فتح الله عبد الباري: نحو منهج إسلامي في البلاغة والنقد والأسلوبية والنص النبوي الشريف، كلية المعلمين، جامعة عمر المختار، شبكة الألوكة، رجب 1430هـ ــــ 2009م، ص: 43.

[4] ــ أحمد حسن الزيات: تاريخ الأدب العربي، دار الثقافة، بيروت، 1978م، ص: 111.

التّواصل اللغوي الفعّال"[1]، كان صلى الله عليه وسلم يعتمد على الإشارة المفهمة الموضّحة في بعض المواقف لتأكيد أمر ما ولتثبت فهمه في أذهان الصّحابة، وهذه الإشارة لها مدخل كبير في التّعبير، لأنّها تستلفت النّظر، وتنبّه الغافل، وتعين على التّذكّر والحفظ[2]، ويؤكّد الجاحظ على أنّ من"أصناف الدّلالات على المعاني، اللّفظ والإشارة...، والإشارة تكون باليد وبالرأس وبالعين، والحاجب والمنكب...، والإشارة واللّفظ شريكان، ونعم العون هي له، ونعم الترجمان هي عنه، وما أكثر ما تنوب عن اللّفظ، وما تغني عن الخط، وبعد فها تعدو الإشارة أن تكون ذات صورة مألوفة، وحلية موصوفة على اختلافها في طبقاتها ودلالاتها، وفي الإشارة بالطرف والحاجب، وغير ذلك من الجوارح مرفق كبير، ومعونة حاضرة في أمور يسترها بعض النّاس من بعض، ويخفونها من الجليس وغير الجليس، ولولا الإشارة لم يتفاهم النّاس معنى خاص الخاص، ولجهلوا هذا البتّة...، هذا ومبلغ الإشارة أبعد من مبلغ الصّوت، فهذا أيضا تتقدّم فيه الإشارة الصّوتَ"[3]، فكثيرا ما يكون في الإشارة أبلغ الكلام.

ولا تخلو بعض أحاديث الرّسول صلى الله عليه وسلم من الإشارة، فقد استخدم صلى الله عليه وسلم أشكالا مختلفة منها في أداء أحاديثه، فمثلا "إذا أراد أن يبيّن شدّة الأمر ظهر ذلك على ملامحه وفي صوته، وإذا أراد بيان الملازمة جمع بين أصبعيه السّبابة والوسطى"[4]، والإشارة تختلف من كلام إلى كلام حسب مقتضى الحال والمقام، وطبيعة الموضوع تتحكّم في طبيعة الإشارة، لأنّ أهميّته تقتضي استعمال إشارات دالّة وهادفة من ملقي الخطاب وهو الرّسول صلى الله عليه وسلم إلى متلقي الخطاب وهم البشر على اختلاف مقاماتهم ودياناتهم وأعمارهم وجنسهم وبيئتهم، فيعتمد صلى الله عليه وسلّم الوسائل التّعبيريّة الملائمة لحال المتلقّي، فكان صلى الله عليه وسلّم يوظّف الألفاظ المناسبة ويختارها حسب مادّتها وصيغتها ولهجة المخاطَب، مراعيّا في ذلك حال المتلقي في بناء التراكيب.

دوّنت هذه الأحاديث فيما بعد فأصبحت نصوصا كتابية، وكتبت المعاهدات والرّسائل في حينها بحكم الوظيفة الحينية التي تؤديها، أما الخطب والأدعيّة والوصايا وأجوبة عن أسئلة كتبت بعد حينها ورعيت الدّقة في المضاهاة بين رواياتها جهد المستطاع[5]، والنّصوص النبويّة واضحة المعالم، إذ تتّضح في بيانه،

---

[1] ــ عبد العزيز فتح الله عبد الباري: نحو منهج إسلامي في البلاغة والنقد والأسلوبية والنص النبوي الشريف، المرجع نفسه، ص: 46.

[2] ــ محمد أبو العلا أبو العلا الحمزاوي: الخصائص البلاغية للبيان النبوي، ص: 52 .

[3] ــ الجاحظ : البيان والتبيين، ج1، ت: عبد السلام محمد هارون، ص: 76 ـــ 79.

[4] ــ محمد أبو العلا أبو العلا الحمزاوي، الخصائص البلاغية للبيان النبوي، ص : 52.

[5] ــ عباس محمود العقاد : عبقرية محمد، ص: 67

وسمة الأسلوب الرّاقي المعتمد في إيصال الفكرة إلى المستمع أو القارئ على حدّ سواء.

والرّافعي معجب شديد الإعجاب بهذه البلاغة وهذا البيان الّذي حمل ميزات خاصّة، ومن خلال هذه الصّفات يتبيّن لنا طبيعة النّصوص النّبويّة الّتي تقوم على بلاغة شكّلتها النّبوّة بالدّرة الأولى، ثمّ كانت عوامل الفطرة والبيئة والتّكوين الّتي نشأ في ظلّها النّبي صلى الله عليه وسلم، هذه الأسباب جميعها هيّأها الخالق سبحانه وتعالى لنبيّه صلى الله عليه سلّم، "إذ ليس في العرب قاطبة من جمع الله فيه هذه الصّفات، وأعطاه الخالص منها، وخصه بجملتها، وأسلس له مآخذها، وأخلص له أسبابها كالنّبي صلى الله عليه وسلم، فهو اصطنعه لوحيه، ونصبه لبيانه، وخصّه بكتابه، واصطفاه لرسالته"،[1] ويتبيّن لنا من قول الرّافعي أنّ بلاغته صلى الله عليه وسلّم وحيّ، ونصوصه تتميّز بخصوصيّة معيّنة من حيث السّبك والحبك، وما يكون فيها من تماسك الأجزاء وترابطها، فقد" كان منطقه صلى الله عليه وسلم على أتمّ ما يتفق في طبيعة اللّغة ويتهيّأ لها إحكام الضبط وإتقان الأداء: لفظ مشبّع، ولسان بليل، وتجويد فخم، وفصاحة متأديّة، ونظم متساوق"[2]، فروعة الفصاحة وإحكام الأداء وعذوبة المنطق وسلاسة النّظم هي صفات كانت في لغة الرّسول صلى الله عليه وسلّم، فلم يتكلّف لها ولم يتصنّع، بل هي فطرة فطره الله عليها "فقد قالت السّيدة عائشة رضي الله عنها: ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسرُدُ كسردكم هذا، ولكن كان يتكلّم بكلام بين فصل، يحفظه من جلس إليه، وفي رواية أخرى عنها أيضا: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدّث حديثا لو عدَّه العادُّ لأحصاه"[3].

ومعنى ذلك انفراده عليه الصّلاة والسّلام بأسلوب معيّن، وبيان خاصّ ومميّز وفي ذلك دلالة على صدق الرّسالة، فالحديث النّبوي نصّ بلغ الذّروة من البيان، فقد "يكون للكلمة معنى معـــــروف سابق، لكن النّبي ـــ عليه السّلام ـــ ينقلها إلى معنى جديد، وقد تكون الكلمة مستعملة في إحدى القبائل بهذا المعنى، لكن أصحابه لم يكونوا يعرفونها، فعندما ينطقها الرّسول تصبح الكلمة مستعملة"[4]، وقد وردت عدّة ألفاظ عنه صلى الله عليه وسلم، لم يسمع بها أصحابه من قبل، ـــ كما سنرى في ذكر بعض الأحاديث لاحقا ـــ الأمر الذي جعل بعض الصّحابة يتساءلون عن هذا الجديد، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يشرح لهم معنى كل لفظة .

---

[1] ـــ مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص: 231

[2] ـــ المرجع نفسه، ص: 297.

[3] ـــ المرجع نفسه، ص :297.

[4] ـــ عبد الفتاح لاشين: من بلاغة الحديث الشريف، ص : 16.

2 ــ السّبك والحبك في البلاغة النّبويّة:

يعمل علم النّصّ على الكشف عن العلاقات الخفيّة الّتي تسهم في تماسك النّصوص وترابطها، وتضامّها حول بعضها محقّقة في ذلك الوحدة الكليّة وفق عناصر حدّدت من قبل بعض العلماء وعلى رأسهم روبرت دي بوجراندعرفت بمعايير النّصّيّة وهي: السّبك والحبك، والقصديّة، والمقبوليّة، والإعلاميّة، والمقاميّة، والتّناص، وقد لقي هذا العلم إقبالا واسعا من قبل الباحثين لتطبيقه على نصوص مختلفة شعريّة كانت أم نثريّة، وذلك من أجل الوصول إلى الوسائل التي تساعد على تحقيق تماسكها، فعلى الرّغم من الدّراسات التي قدّمت في مجال الشّعر والنّثر، ليبرهن هذا العلم قدرته على سبر أغوار النّصّ، كان لابدّ من دراسات تطبيقيّة أخرى مكثّفة في مجال تحليل النّصوص، لغرض بيان عناصرها وعلاقتها بخارج النّصّ، كالعلاقة الّتي تربط هذا العلم بالأسلوبيّة والاتّصال والسّياسة والسّيميائيات والبلاغة وغيرها.

والنّصّ النّبوي من بين النّصوص الّتي لم تحض بالدّراسة النّصّيّة، أو بمعنى أصح لم يتم التّطرق إليها من قبل علم النّصّ بشكل كبير مثل إعجاز القرآن، وبعد دراستنا لمظاهر الاتّساق والانسجام في النّصّ القرآني، ورأينا الأدوات الّتي تسهم في تماسكه في ظلّ ما جاء به الرّافعي في مدوّنته"إعجاز القرن والبلاغة النّبويّة"، كان لابدّ من الإشارة إلى ذلك التّماسك الحاصل في البلاغة النّبويّة، من خلال الكشف عن هاتين الظّاهرتين في كلامه صلى الله عليه وسلم.

إنّ تطبيق مبادئ علم النّصّ على نصوصه صلى الله عليه وسلم "سيفتح للدّراسات النّصّيّة منحى جديدا صوب الدّرس النّبوي"[1]، لأنّ نصوصه لا تخلو من عناصر التّماسك النّصّي، ولأنّ أسلوبه منفرد في لغة العرب، فإذا أردنا أن نعرف خصائص هذا الأسلوب فيما صحّ نقله من كلام النّبي صلى الله عليه وسلم على جهة الصّناعتين اللّغويّة والبيانيّة، إضافة إلى الحكمة النّبويّة، فنجد هذه الجهات الثّلاث هي الإطار العام لبلاغته عليه أفضل الصّلاة والسّلام، كما وصفها الرّافعي، وهذه الصّفات رأى بأنّها دالة على سموّ بلاغته.

فقال عن الصّناعة اللّغوية أنّ كلامه صلى الله عليه وسلم: " مسدّد اللّفظ محكم الوضع جزل التّركيب، متناسب الأجزاء في تأليف الكلمات: فخم الجملة واضح الصّلة بين اللّفظ ومعناه وضريبة في التّأليف والنّسق، ثمّ لا ترى فيه حرفا مضطربا؛ ولا لفظة مستدعاة لمعناها أو مستكرهة عليه؛ ولا كلمة غيرُها أتمّ منها

[1] ــ سالم بن محمد المنظري، التّرابط النّصي في الخطاب السّياسي، بيت الغشام للنشر والترجمة، ط1، 2015م، سلطنة عمان، ص :6

أداءً للمعنى وتأتِّيًا لسرّه في الاستعمال"[1]، ويقصد من هذا القول"النّظم" بصفة عامّة، بما فيه من جودة الألفاظ وحسن اختيارها وفصاحتها، وتركيبها المحكم بتلك الدّقة التي وردت في كلامه صلّى الله عليه وسلم، وجودة التّناسب بين الأجزاء، وتلك هي مميّزات وخصائص أسلوبه وكلامه ـ عليه السّلام ـ بحيث جمعه بين "الجزالة في المفردات والديباجة، والوضوح في الدّلالة، وإذا اقترن الوضوح في بالجزالة في الكلام كان قطعة رائعة من البيان السّاحر، وأضحى صالحا لأن يلقى على جماهير الناس...وأنّه حينئذ لخليق أن يفتح مغاليق قلوبهم إلى النّور، ويقودهم على درب الخير...وضوح لا تحجبه مفردات غريبة، ولا أساليب معقّدة، وجزالة لا يفارقها الوضوح والبيان ولا تنافسها جزالة في متانة التّركيب، وفخامة الإيقاع، وعدم الابتذال"[2].

وبناء عليه، فاقتران كلامه بالوضوح والجزالة سمة في أحاديثه صلى الله عليه وسلم، لأنّ الغرض الّذي يؤول إليه كلامه يتمثّل في تبليغ الرّسالة، وليجعلها تنفذ إلى أسماع النّاس وقلوبهم، لأنّه"لا يريد أن يقيم بينه وبين السّامع حاجزا من اللّفظ الغريب أو المعنى الغريب...ما على الرّسول إلّا البلاغ، وهذا البلاغ في التّعبير: كل كلمة تصل إلى سامعها، وكل كلمة مقصودة بمقدار..ولا زخرف ولا حيلة ولا مشقّة متعمل بها في ابتغاء التّأثير، إلّا الإبلاغ الّذي يليق بالرّجولة والكرامة، وعلى المعرض بعد ذلك وزر الإعراض"[3]، فالسلاسة والعذوبة من الصفات البارزة في كلامه.

وأمّا عن البيان فيقول الرّافعي أنّه:"حسن المعرِض، بيـــّن الجملة، واضح التفصيل، ظاهر الحدود، جيـــّد الرّصف، متمكّن المعنى؛ واسع الحيلة في تصريفه، بديع الإشارة، غريب اللّمحة، ناصع البيان، ثمّ لا ترى فيه إحالة ولا استكراها، ولا ترى اضطرابا ولا خطلا، ولا استعانة من عجز، ولا توسعا من ضيق، ولا ضعفا في وجه من الوجوه"[4]، فحسن العرض يتمثّل في الأسلوب وطريق الأداء، وقد رأينا أنّه صلى الله عليه وسلم يستعمل الإشارة إضافة إلى لغة البيان، وهذا الأمر متعلّق بالجانب التّعبيري الفنيّ، والرّافعي قد وظّف ألفاظا لم تخرج في إطارها العام عن تلك التي بحث فيها العلماء النّصّانيون، كجودة الرّصف، والتّمكّن في المعنى، ونصاعة البيان وغيرها، ويوحي ذلك إلى التّماسك الشّديد في النّصّ النّبويّ بائتلاف تلك الألفاظ مع بعضها، وتحقيقها للمعاني المقصودة، فنصوصه طويلة كانت كالخطب أو قصيرة كبعض أحاديثه الواردة في

---

[1] ــ مصطفى صادق الرافعي : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص325.

[2] ـــ محمد الصباغ: الحديث النبوي(مصطلحه ـــ بلاغته ـــ كتبه)، ص : 65 ــ 66

[3] ــ عباس محمود العقاد: عبقرية محمد، طبعة جديدة منقحة ومراجعة، (دت)، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ص : 71

[4] ـــ مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص:325.

الصّحيحين وغيرها من كتب الحديث، تتعالق أجزاؤها وتتفاعل فيما بينها منتجة في الأخير تلك الدّلالة الكليّة للنّصّ، ويكون لها وقع خاصّ في نفسيّة المتلقّي، الأمر الّذي جعل الرّافعي يبيّن تجربته الشخصيّة كمتلق للحديث النّبوي، ويشرح لنا هذا الأثر النّفسي فيقول:" أمّا أسلوبه صلى الله عليه وسلم فأجد له في نفسي روح الشّريعة ونظامها وعزيمتها، فليس له إلا قوة أمر نافذ لا يتخلّف، وإنّ له مع ذلك نسقا هادئا هدوء اليقين، مبيّنًا بيان الحكمة، خالصا خلوص السّر، واقعا من النّفس المؤمنة موقع النّعمة من شاكرها"[1]، وهذا أمر آخر يدخل في انسجام النّص النّبوي لكونه يراعي أثر هذا البيان في النّفس البشريّة، وما مدى تفاعل هذه النّفس مع هذه الصناعة البّيانيّة.

وتحدّث الرّافعي عن الحكمة واصفا إيّاها قائلا:"سموّ المعنى؛ وفصل الخطاب؛ وحكمة القول؛ ودنوّ المأخذ، وإصابة السّر، وفصل التّصرف في كل طبقة من الكلام..."[2]، وهذا الجانب متعلّق بالمعاني الّتي وردت في أحاديثه، فتجد "الحكمة النّبوية مطبوعة في ألفاظها بطابع السّليقة، مسوقة وراء عفو الخاطر، في صياغة محكمة من الألفاظ تيسر للذهن بلوغ شغاف المعنى المراد من أيسر طريق، ولا تشتِّته عنه بين تعاريج الألفاظ وصناعة التزويق والتأليف"[3]، الأمر الّذي جعل من الحكمة النّبويّة علما جديدا، يختصّ بدراسة ما ورد عن النّبي صلى الله عليه وسلم من أقوال وأفعال من أجل الكشف عن تلك الكنوز الّتي احتوتها السّنة النّبويّة في مجالات عدّة وذلك قصد تطبيقها والعمل بها.

أظهر الرّافعي هذه الصّناعات الثّلاث مجتمعة في النّصّ النّبويّ مبيّنا الدّور الّذي يتأتّى لكلّ عنصر في البلاغة النّبويّة، والّذي يحدث ذلك التّماسك الكلّي للنّصّ، ويتحقّق بذلك انسجامه ممّا يؤدّي إلى سهولة إيصاله إلى المتلقّي فيتفاعل معه، ويفهمه فهما عميقا عمق تأثير هذا الكلام في نفسه، وحسن وقعه في سمعه، ومدى انعكاس هذا الحسن في قلبه، فيقول: "أمّا اللّغة فهي الواضع بالفطرة القويّة المستحكمة، والمنصرف معها بالإحاطة والاستيعاب، وأمّا البيان فبيان أفصح النّاس نشأة، وأقواهم مذهبا، وأبلغهم من الذّكاء والإلهام، وأمّا الحكمة فتلك حكمة النّبوة، وتبصير الوحي وتأديب الله، وأمرٌ في الإنسان من فوق الإنسانية"[4]، وهذا الأمر من جهات الصّنعة في كلامه من ــ اللّغة والبيان والحكمة ــ لم يجتمع عند

---

[1] ــ مصطفى صادق الرافعي: السمو الروحي الأعظم والجمال الفني في البلاغة النبوية، تحقيق أبو عبد الرحمن البحيري وائل بن حافظ بن خلف عفا الله عنه، دار البشير للثقافة والعلوم، مصر، (دت)، (دط)، ص:30

[2] ــ مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص : 326.

[3] ــ محمد سعيد رمضان البوطي: في الحديث الشريف والبلاغة النبوية، دار الفكر، دمشق، 1432ه، 2011م، ط1، ص :51.

[4] ــ مصطفى صادق الرافعي : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص: 326.

بليغ من الفصحاء والبلغاء، ذلك لو أنّ أحدهم "سلمت له الحكمة لم تسلم له صنعة اللّغة في حسّ الهداية إلى الاستعمال والتّمكن منه، وإن خلصت له هذه لم يخلص إلى أسرار البيان في تركيبها وتنضيدها"[1].

وهذا إقرار من الرّافعي على أنّ البلغاء والفصحاء من العرب لم تسلم لهم جهات الكلام في كلامهم من لغة وبيان وحكمة على أتمّها، فتلك الصّنعة في كلامهم والطّبع القويّ، والصّقل البديع، واللّفظ المونَقَ، والحكمة النّاصعة، ما هو إلا جهد الممرّن من هذه الفئة"فكأنّ اللّفظة الواحدة من تلك الجملة إنّما هي مقياس للنّبوغ والابتكار وكأنّ الجملة ليست كلاما من الكلام، ولكنّها سرّ من أسرار النّفس يُلقي إليه شغلا طويلا لم يكن هو من قبلُ في سبب من أسبابه.، وما كان في أحرف وكلمات ينشر منها ويطوي، فقد سار إلى كلمات مسحورة تنشر هي من نفسه وتطوي"[2]، ومعنى ذلك أنّ الصّنعة عند البليغ من النّاس تعتمد على التّكلّف، والغلوّ في الإتقان، والمبالغة في التّهذيب والتّنقيح، فيستحسنه البصير بتلك الأمور كلّها ويعجب بهذا الأسلوب.

هذا، على أنّ كلامه صلى الله عليه وسلم"ليس ممّا تكلّف له، ولا داخلته الصّنعة، ولا كان يتلوّم على حَوْكه وسرده، ولكنّه عفوُ البديهة، ومساقطة الحديث، ممّا يُجريه في مناقلة الكلام ومساق المحاضرة، وأنّه مع ذلك لعلى ما وصفنا وفوق ما وصفنا، فقد تراه وما يتّفق فيه من الأوضاع التّركيبيّة الغريبة، وتعرف أنّ ذلك شيء لم يتّفق مثله في هذا الباب لشاعر ولا خطيب ولا كاتب على إطالة الرواية، ومراجعة الطبع، والغلوّ في الصّنعة، وعلى أنّ لهم السّبك الخالص والمعدن الصّريح، والبيان الّذي يتفجّر في الألسنة لرقّته وعذوبته واطراده..."[3]، ومعنى ذلك أنّ ما أثمرته بلاغة البلغاء والفصحاء لا تسمو إلى تلك البلاغة التي عبّر عنها الرافعي بقوله:" والثّمر بعد متفاوت في أشجار البلاغة، نضجا وماء وحلاوة وكثرة، وما أثمرت من ذلك بلاغة غريبة ما أثمرته بلاغة السّماء في القرآن الكريم ثم بلاغة الأرض في كلامه صلى الله عليه وسلم، والناس بعد ذلك أجمعون حيث طاروا أو وقعوا..."[4]، فبلاغة النّبي صلى الله عليه وسلم أقلّ درجة من بلاغة القرآن الكريم الّتي أشار إليها ببلاغة السّماء، ولكن هذه البلاغة في نفس الوقت تعلو عن بلاغة البشر، كما أنها ليست معجزة كإعجاز القرآن الكريم.

والعرب لم يجدوا فصيحا كمثله، ولو وجدوه لعارضوه به، جاعلين من ذلك سببا في إنكار دعوته، والرّافعي يصف هذه الفصاحة الّتي تميّز بها النّبي صلّى الله

---

[1] ــ المرجع نفسه، ص : 326.
[2] ــ المرجع نفسه، ص : 327.
[3] ــ المرجعنفسه، ص327.
[4] ــ المرجع نفسه، ص: 327.

عن بني قومه والبشر جميعا، والأثر العميق الّذي تطبعه في النّصّ النّبويّ قائلا:" غير أنّهم عرفوا منه الفصاحة على أتمّ وجوهها وأشرف مذاهبها ورأوا له في أسبابها ما ليس لهم ولا يتعلّقون به ولا يطيقونه، وأدنى ذلك أن يكون قويّ العارضة، مستجيب الفطرة، ملهم الضّمير متصرّف اللّسان، يضعه من الكلام حيث شاء؛ لا يستكره في بيانه معنى، ولا يندّ في لسانه لفظ، ولا تغيب عنه لغة، ولا تضرب له عبارة، ولا ينقطع له نظم، ولا يشوبه تكلّف، ولا يشقّ عليه منزَع، ولا يعتريه ما يعتري البلغاء في وجوه الخطاب وفنون الأقاويل، من التّخاذل، وتراجع الطّبع، وتفاوت مابين العبارة والعبارة، والتّكثر لمعنى بما ليس منه، والتّحيف لمعنى آخر بالنّقص فيه، والعلوّ في موضع والنّزول في موضع؛ إلى أمثال أخرى لا نرى العرب قد أقروا له بالفصاحة إلّا وقد نزّه صلى الله عليه وسلم عن جميعها، وسلم كلامه منها، وخرج سبكه خاصا لا شوب فيه، وكأنّما وضع يده على قلب اللّغة ينبض تحت أصابعه"[1] .

إنّ ما يتميّز به النّصّ النّبوي أنّ جمله "راسخة السّبك، دقيقة التّعبير عن عمق المعاني الّتي تنطوي عليها، بالغة الرّوعة في استثارة مشاعر النّفس، لا ترى فيها فضولا من الكلام التّزيـيني، ولا تقع فيها على معنى تعوزه الدّلالة والأداة، كلا الألفاظ والمعاني كِفَاءٌ للآخر متساوق معه، وإنّ من الحقّ أن يقال عنه إنّه من السّهل الممتنع...وحصيلة القول أنّ البلاغة النّبويّة سَمَت بالبيان العربي المنثور إلى أن تكون البلاغة الكلامية خادمة للمعاني، بدلا ممّا كان عليه الحال غالبا من جعل المعاني أسيرة لجمال السّبك والألفاظ"[2]، فترابط هذه الجمل بعضها ببعض وتجاورها في بنية النّصّ الواحد يجعلها"مسؤولة عن تكوين سياق نصّي معيّن يساعد على تفسير التّراكيب داخل النّصّ، وكل جملة في النّصّ لا يمكن فهمها إلّا من خلال ترابطها بأخواتها في النّصّ"[3]، وهو الدّور الّذي يقوم به نحو النّصّ بهدف الكشف عن النّظام الكلّي الحاكم للنّصوص.

ويبدو الأمر واضحا في البلاغة النّبويّة الّتي ارتكزت على نمط من التّركيب المنفرد، ذلك أنّ سياق النّصّ الّنبويّ واضح المعالم، مترابط الأجزاء، ونكتشف ذلك إذا ما حلّلنا حديثا ما للنبي صلّى الله عليه وسلّم، وهذا بدراسة الخواص التي تساهم في ترابطه "وتعطي عرضا لمكونّات منظمة لنماذجه النّصيّة"[4]، فترابط

---

[1] ـــ مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص: 286.

[2] ـــ محمد سعيد رمضان البوطي: في الحديث الشريف والبلاغة النبوية، دار الفكر، 1432هـ ـ 2011م، ط1، ص : 62 ــ 63

[3] ـ محمد حماسة عبد اللطيف: منهج في التحليل النصي للقصيدة تنظير وتطبيق، فصول مجلة النقد الأدبي،، الشعر العربي المعاصر، ج1، المجلد الخامس عشر،العدد الثاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب،1996 م،ص: 126 ــ 127.

[4] ـــ أحمد عفيفي: نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي، ص : 98

النّصوص يكون في نظام معيّن ومع وجود سياق مناسب، والنّصّ بكليّته لابدّ أن ينطوي على مجموعة من الخصائص الّتي تؤدّي إلى التّماسك والانسجام[1]، والنّصوص النّبويّة ثريّة بهذه الخصائص الّتي يعمل متلقّي هذا الخطاب على اكتشافها، وبذلك نكون "أمام متلقّ يمارس نوعا من الإبداع في اكتشاف تلك الرّوابط الخبيئة "[2]، وذلك يجعله يتفاعل مع النّصّ، ويصل إلى حقيقته.

3 ــ المقاميّة عند الّرافعي في النّصّ النّبويّ:

ما يميّز النّصّ النّبويّ، أنّ النّبيّ صلى الله عليه وسلم كان ينظّم خطابه ويؤلّف بين ألفاظه وجمله، فيخبر وينشئ، ويقدّم ويؤخّر، ويذكر ويحذف، ويقصر ولا يقصر، ويصل ويفصل، ويوجز ويطنب، كلّ ذلك قد يكون بحال المخاطب، ورعاية لمقتضاه[3]، الأمر الّذي جعل كلامه صلى الله عليه وسلم محكم الإتقان والجودة، فصبغ بصبغة خاصّة، وقد كان له التّميّز عليه الصّلاة والسّلام في جميع هذه الأساليب، فقد فاق البلغاء بلاغة، والفصحاء فصاحة، واستطاع بأسلوبه المتميّز والمتفرّد أن يصل إلى القلوب، ويستميل إليه الأسماع، وأدرك عليه الصّلاة والسّلام تمام الإدراك طبيعة المخاطَب"إذ ليس من الحكمة أن يُخَاطَبَ أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب، وعلي... بنفس المستوى الّذي يوجّه به الكلام إلى بدويّ أعرابي آتيا وسيفه في يده؛ ففي النّمط الأوّل تكفي الإشارة واللّمحة لفهم المقصود، إذ هناك معرفة خلفيّة مشتركة بين الرّسول وبين هؤلاء الصّحابة إن لم تكن مشتركة بصفة كليّة فإنّ كثيرا من عناصرها مشتركا فيه. وفي الطّراز الثّاني، كان الرّسول مضطرّا لأن يفصل ويوضّح ويضرب الأمثلة المستقاة من البيئة حتى يحصل الإدراك والفهم"[4] .

معنى هذا القول هو حرصه صلى الله عليه سلّم على أن يخاطب كل قوم، بل كلّ فرد على قدر حاله "وأن تكون ألفاظه ملائمة لمعانيه وأغراضه، حتّى يبلغ كلامه مكانه في قلوب السّامعين وأن يصل التّأثير شغاف القلوب، فيُقبِل ما يراد قبوله، ويُترك ما يراد تركه... وقد يستعمل الكلمة اللاذعة، تحمل الإنكار الشديد، والتوبيخ الأليم، مع الأدب الجم في الخطاب، واللطف الجميل في القول"[5]، فلكل مقال مقام، وسياق المقام يقتضي هنا معرفة القصد من المتحدّث إضافة إلى حال المخاطب مع مراعاة الظروف المحيطة بالعمليّة التّواصلية، فهذا النّوع من

---

[1] ــ المرجع نفسه، ص : 98.

[2] ــ المرجع نفسه، ص: 98.

[3] ــ يوسف بن عبد الله بن محمد العليوي: رعاية حال المخاطب في أحاديث الصحيحين، دراية بلاغية تحليلية، رسالة مقدمة لقسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي لنيل درجة العالمية العالية(الدكتوراه)، 1428ه ــ 1429ه، ص : 543.

[4] ــ محمد مفتاح، دينامية النص، ط2،المركز الثقافي العربي، بيروت، حزيران 1990م، ص: 195.

[5] ــ عبد الفتاح لاشين: من بلاغة الحديث الشريف، ص:20

السّياق"يمثل البيئة التّفاعليّة بين المتحدّث والمخاطَب، وما بينهما من عرف سائد يحدّد مدلولات الكلام، وذلك أنّ تداول الخطاب يجري في سياق ثقافي واجتماعي بين المتحدّث والمخاطَب، وليس لفظا مجرّدا عن محيطه الّذي يجري فيه"[1]، والنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم كان مراعيا في أحاديثه حال المخاطَب لأنّه كان مدركا بأسرار الألفاظ فيوظّف كل كلمة في مكانها المناسب، ويصون حق المعنى المراد باللّفظ المناسب، لذلك أخذت ألفاظه صفات مختلفة منها الرّشاقة والعذوبة والفخامة والسّهولة عملت على خدمة معان ظاهرة بيّنة، معروفة وقريبة إمّا عند الخاصّة وإمّا عند العامّة" والمعنى ليس يشرف أن يكون من معاني الخاصّة، وكذلك ليس يتّضع بأن يكون من معاني العامّة، وإنّما مدار الشّرف على الصّواب وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال، وما يجب لكلّ مقام من المقال، وكذلك لفظ العامّي والخاصّي، فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك، وبلاغة قلمك، ولطف مداخلك، واقتدارك على نفسك، إلى أن تُفهِم العامّة معاني الخاصّة، وتكسوها الألفاظ الواسطة*، الّتي لا تَلطف عن الدّهماء، ولا تجفو عن الأكْفاء، فأنت البليغ التّام"[2]، ومعنى هذا القول أنّه على المتحدّث مراعاة أحوال المخاطَبين، وهي ميزة خاصّة عند الرّسول صلّى الله عليه وسلّم لأنّ السّياق المقامي بصفة عامّة يشمل"كلّ ما يحيط باللّفظة من عناصر غير لغويّة تتّصل بالعصر أو نوع القول، أو جنسه أو المتكلّم أو المخاطب أو الإيماءات أو أيّة إشارة عضويّة أثناء النّطق تعطي للفظة دلالتها"[3]، وتجدر بنا القول هنا أنّ ملكة البلاغة التّامّة فُطر عليها النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وفاق بها سائر البلغاء والفصحاء.

وهنا تظهر بلاغة المتكلّم في اختيار الألفاظ المساوقة لمعانيها والّتي تعبّر بدقّة عن هذا المعنى بخلاف المواد الأخرى الّتي تشاركها في أصل المعنى، ويتعلّق بذلك أيضا الجرس الصّوتي لحروف المادّة الّتي تعطي مزيدا من الدّقة في التّعبير بخلاف المواد الأخرى الّتي لا يتوافر فيها من الدّلالة الصّوتية ما يراعي مقتضى الحال، كما يتعلّق بذلك أيضا اختيار المادّة الّتي تتلاءم مع غيرها في سياق الكلام[4].

---

[1] ــ إسماعيل نقاز: الحديث النّبوي ومستويات السّياق المقامي: مقاربة أصوليّة لسانيّة، مجلّة المخبر، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، جامعة بسكرة، الجزائر، ع12، 2016م، ص: 69 .

* ــ المبسوطة، ينظرالجاحظ: البيان والتّبيين، ج1، ص: 136.

[2] ــ الجاحظ : البيان والتّبيين، ج1، ص: 136.

[3] ــ نجادي بوعمامة: الإعلاميّة والمقاميّ وأثرهما في الانسجام النّصّي، مجلّة الباحث: المجلّد4، ع16، 2018م، ص: 60

[4] ــ يوسف بن عبد الله بن محمد العليوي: رعاية حال المخاطب في أحاديث الصحيحين، دراية بلاغية تحليلية، مرجع سابق، ص : 266.

ذهب الرّافعي في هذا المقام إلى الحديث عن الملاءمة بين الحروف باعتبار أصواتها ومخارجها، وذلك عائد إلى صفته صلى الله عليه وسلم أنّه ضليع الفم، يفتح الكلام ويختمه بأشداقه، فقد كان النّبي صلى الله عليه وسلم يستعمل جميع فمه إذا تكلّم، لا يقتصر على تحريك الشّفتين فحسب"ولقد كانت العرب تتمادح بسعة الفم وتُذمّ بصغره، لأنّ السّعة أدلّ على امتلاء الكلام، وتحقيق الحروف وجهارة الأداء وإشباع ذلك في الجملة، ولأنّ طبيعة لغتهم ومخارج حروفها تقتضي هذا كلّه ولا تحسُنُ النّطق إلّا به، ولا تبلغ تمامها إلّا أن يبلغ فيها، وهو بعد مزيّتها الظّاهرة في أفصح أساليبها"[1]، وقد يتفاوت البلغاء في حسن اختيار الألفاظ ودقّتها في التّعبير عن المراد، وهذا الأمر نجده عند النّبي صلى الله عليه وسلم فاق به أبلغ البلغاء، فكانت ألفاظه دقيقة وملائمة للحال، كما أنها تحمل جرسا صوتيا يتناسب مع الفعل من حيث الشدة واللين، والصلابة والقوة، والرقة والحنان، وغيرها من العوامل التي تخالج النفس البشرية، فالألفاظ لم توظف اعتباطا، وإنما تحمل دلالات وإيحاءات، يتلقّاها مستمع الخطاب أو قارئه فيحدث ذلك التفاعل"من خلال تأمّلات المتلقّي في النّصّ المنجز أمامه، الأمر الّذي اقتضى أن يقال بأنّه لابدّ من وجود قضيّة مركزية(محوريّة) يتقابل أمامها المبدع والمتلقّي متواجهين أو غير متواجهين"[2]، ويتمّ ذلك عن طريق تحديد البنيّة الكبرى للنّصّ لأنّ "التّحليل النّصّي يبدأ من البنيّة الكبرى المتحقّقة بالفعل، وهي تتّسم بدرجة قصوى من الانسجام والتّماسك...فالتّماسك يتحدّد على مستوى الدّلالات عندما تكون العلاقات قائمة بين المفاهيم والذّوات، والمشابهات والمفارقات في المجال التّصوري، كما يتحدّد أيضا على مستوى المدلولات أو ما تشير إليه النّصوص من وقائع وحالات"[3]، لذلك فتحليل العلاقة بين الوحدات في المتتالية النّصيّة مرهون بالكشف عن البنية الكبرى الّتي تطلق على الوحدات البنيويّة الشاملة للنّص، والكلام النّبوي نصوص تتّسم بالتّماسك وتشكّل كلّا منسجما، والجمل القائمة في خطابه: خطبا أو رسائل أو معاهدات أو أحاديث صحيحة وغيرها تتميّز فيما بينها بتحقيق شروط التّرابط.

وبذلك فإنّ المعالجة النّصّيّة الّتي تندرج ضمن هذا الإطار ــ نحو النّصّ ــ تقتضي وصف العناصر اللّغويّة ابتداء من الوحدات الوظيفيّة الشّاملة، أي الّتي لها تأثير جوهري في بقيّة العناصر، ومن ثمّ الجوانب المحوريّة الشاملة الّتي تبرز الموضوع الأساسي في النّصّ، ويركّز في ذلك كلّه على علاقة النّصّ بالملقي وظروف الإلقاء ودور المشاركين في العمليّة اللّغويّة، وكيفية اختيار المبدع لأدواته اللّغويّة، ثمّ يأتي دور العناصر المكمّلة وغيرها من عناصر النّصّ

[1] ــ مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص: 295.
[2] ــ أحمد عفيفي: نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي، ص : 98.
[3] ــ صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، ص236.

الثّانوية[1]، والنّصّ النّبويّ متماسك الأجزاء، وتعابيره يحكمها مبدأ التّرابط، فالكلمات ترتبط ارتباطا وثيقا ببعضها البعض، وكلامه منسجم على مستوى المعجم والتّركيب والدّلالة والتّداول.

والواضح أنّ البلاغة النّبوية تمتاز بخصائصها اللّغوية، فعباراتها متّسعة وألفاظها متساوقة يطابق مدلولها مقتضى الحال، ذلك أنّ لكل لفظ من هذه الألفاظ خصائص تميّزه والّتي تجعل منه وحدة صوتيّة تحقّق أهدافا وغايات كثيرة، وما يميّز كلامه صلى الله عليه وسلم هو الإيقاع الصّوتي المعبّر الّذي يحمل جرسا مؤثرا لافتا، وبيّن الرافعي أنّ منطقالنّبيّ صلى الله عليه وسلم، يعود لأسباب طبيعيّة فيقول:"فأنت ترى أنّ هذا هو المنطق الّذي يمرّ بالفكر قبل أن ينطق إلى الفم وأنّ العقل فيه من وراء اللّسان فهو غالب عليه مصرِّف له، حتى لا يعتريه لبسٌ، ولا يتخونه نقص، وليس إحكام الأداء وروعة الفصاحة وعذوبة المنطق وسلاسة النظم إلا صفات كانت فيه صلى الله عليه وسلم عن أسبابها الطبيعية"[2]، وقد يشاركه فصحاء العرب في هذه الفصاحة أو في بعضها لكن تميّزه صلى الله عليه وسلم يكمن في تنزّهه عن النّقص الّذي يعتري الفصحاء أحيانا، وذلك راجع لأنّها طبيعيّة فيه"من جهة إحكام المنطق وامتلائه"[3]، فقد أنزل القرآن بلسانه، لسان عربي مبين، إضافة إلى ذلك كلّه يبيّن الرافعي أنّ"نبينا صلى الله عليه وسلم كان طويل السّكوت، ولم يتكلّم في غير حاجة، فإذا تكلّم لم يسرد سردا، بل فصل ورتّل وأبان وأحكم، بحيث يخرج كلّ لفظة وعليها طابعها في النّفس...وأنّه بذلك قد جمع خصالا من إحكام الأداء، لا يشاركه فيها منطق أحد إلى حد، ولا تتوافى إلى غيره ولا تتساوى في سواه"[4]، وهذا التّفرّد في الأسلوب، والبيان المحكم وراءه نفس عظيمة كاملة قرّت أعمالها على نظام لا مأخذ عليه.

4 ــ القصديّة والمقبوليّة:

يتجسّد معيار القصديّة في مقبوليّة النّصّ بفضل التّفاعل بين العناصر النّحويّة والدّلاليّة "فكما يمدّ العنصر النّحوي العنصر الدّلالي بالمعنى الأساسي في الجملة الّذي يساعد على تمييزه وتحديده، يمدّ العنصر الدّلالي العنصر النّحوي كذلك ببعض الجوانب الّتي تساعد على تحديده وتمييزه؛ فبين الجانبين أخذ وعطاء وتبادل تأثيري مستمر"[5]، يعمل هذا التفاعل على تماسك النّص وانسجامه، فالاتساق والانسجام "يشكّلان الخاصيّة التي تجعل من النّصّ وحدة اتّصاليّة

---

[1] ــ بن الدين بخولة: الإسهامات النصية في التراث العربي، ص :29.

[2] ــ مصطفى صادق الرافعي : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص: 297.

[3] ــ المرجع نفسه، ص :298.

[4] ــ المرجع السّابق، ص :299.

[5] ــ محمد حماسة عبد اللّطيف: النّحو والدّلالة، مدخل لدراسة المعنى النّحوي الدّلالي، ص:113 .

متجانسة"[1]، وذلك تبعا للتماسك الحاصل بين العناصر الشّكلية والدّلاليّة للنّصّ، ويتّصل القصد بنِية منشئ النّصّ الّذي عليه"أن ينتج نصّا ذا سبك وتعليق ليصل إلى ما خطّط للوصول إليه"[2]، وإذا قمنا بتحليل أيّ نصّ نبوي نجد أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم متميّز في إيصال معنى ما يريده إلى المخاطَبين وذلك باستخدامه الألفاظ المناسبة والموحية التّي تصيب النّفس والقلب والعقل معا، ذلك أن جرسها يجعل المتلقي على استعداد تام للتّفاعل معها إضافة إلى تمكّنه الكبير من اللّغة، وأسلوبه الّذي تفرّد به يجعلنا نقول أنّ معيار القصديّة في البلاغة النّبويّة ينمّ عن مدى تميّز الرّسول صلّى الله عليه وسلّم على اختيار ما يناسب سياق المقال والمقام معا.

لذلك فإنّ طابع الألفاظ التي يوظفها ووقعها في النّفس دليل على أنّ"اللّذة السّمعية الّتي توفّرها الإيقاعات الصّوتيّة للأحاديث النّبويّة تعدّ سببا قويّا في انتشارها وكثرة ترديدها على الألسنة، حيث يتأثّر المتلقّي بهذا الإيقاع قبل الوصول إلى ما تحمله اللّفظة من معان وصور، ويبلغ التّأثير مداه عندما تلتقي في نفسه دلالات المعنى وإيقاعه الصّوتي تعبيرا عمّا أراده الرّسول صلى الله عليه وسلم من توجيه وإرشاد"[3]، ويعبّر عنها الرّافعي بقوله: "فلا ترى من الكلام ألفاظا ولكن حركات نفسيّة في ألفاظ"[4]، فألفاظه محيطة بالمعاني الرّامية إليها، كما أنّه هناك علاقة بين الوزن النّفسي والوزن الصّوتي بين الطّرفين(المرسِل والمرسَل إليه)، وهي علاقة كاملة بين الأصوات المعبّرة والمعاني الثّائرة في النّفس، لأنّها صورتها تعلو وتنصبّ، وتلين وتشتدّ، وتطول أو تقصر[5]، ولا عجب أن نجد أنفسنا مع بيانه عليه السّلام"مأخوذين بمعانيه مشدودين إلى أهدافه، متمثّلين صورته في قلوبنا وهو يحدّث، لأنّه يخاطب من القلوب قبل الأسماع، لصدور الكلام عن قلبه الرّؤوف، الحافل بشتّى العواطف والأحاسيس التي تربط بينه وبين أمّته"[6]، ذلك أنّ الخصوصيّة التي يتميّز بها البيان النّبوي من حيث البناء الصّوتي، سواء من أصغر وحدة بنائية أو أكبرها أو إيقاع الحديث برمّته، وهذا الانسجام القائم بين

---

[1] ـميلود مصطفى عاشور، أياد عبد الله: قصديّة الشّاعر وقبول المتلقي في قصيدة "أنا.. والبدر" للشاعر الليبي رجب الماجري، مقاربات في اللسانيات والأدبيات بين التّقليد والتّجديد، أبحاث محكمة(الجزء الثاني) أدبيات، 7 ــ 9 ديسمبر2015م، الجامعة الإسلاميّة العالميّة، ماليزيا، ص: 564.

[2] ــ تمام حسان: اجتهادات لغويّة، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 2007م، ص:279.

[3] ــ مدحت حسيني حسيني ليمونة: البلاغة الصوتية في الأحاديث النبوية، ص: 1731.

[4] ـ مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص: 300.

[5] ــ كمال عز الدين: الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية، دار إقرأ، الطبعة الأولى،بيروت، 1404ه ــ1974م، ص: 275-.

[6] ــ المرجع نفسه، ص :261.

المعاني وتساوقها للألفاظ يجعل المعنى يسرع إلى العقل لأنّه يستهوي الأذن، وتميل إليه النّفس، وتتذوّقه الألسن لحسن تصوير المعنى بجرس اللّفظ.

فالكلمة النّبويّة تحمل في طيّاتها دلالات صوتيّة من شأنها أن تصوّر الحدث وملابساته تصويرا دقيقا يساعد على إبراز الموقف بجزئياته وظلاله، ففصاحة الألفاظ تقتضي أن يتحكّم الفصحاء في مخارج الأصوات، والرّسول صلى الله عليه وسلم فيه من الصّفات الخَلقية ما يجعل محاسن هذا الباب فيه من الطّبيعة، إضافة إلى اكتسابه المنطق واللّغة، والأسباب تعود كما ذكرنا سابقا إلى نشأته اللّغوية، وأنّ سنّته وحي من الوحي، ففصاحته عليه السّلام طبيعيّة بحتة، وهذه الفصاحة"راحة إلى حسن الملاءمة بين الحروف باعتبار أصواتها ومخارجها، حتّى تستوي في تأليفها على مذاهب الإيقاع اللّغوي"[1]، لأنّ الكلمة النّبويّة ــ على وجه الخصوص والكلمة اللّغويّة على وجه العموم ــ كائن حيّ تستمدّ حياتها وهويّتها وقوّتها من الأصوات الّتي تتألّف منها، ومن السّياق الّذي ترد فيه، إنّ العلاقة بين اللّفظة وأصواتها، ومن ثمّ بين اللّفظة والسّياق علاقة جدليّة؛ ذلك أنّ الدّلالة الكليّة للسّياق لا تتحدّد إلّا بدلالة الألفاظ المكوّنة له، فاللّفظة بدلالاتها السّياقيّة المتنوّعة تضفي على السّياق ظلالا مختلفة تكسبه تنوّعا دلاليّا[2].

إنّ من فضيلة الجرس في البيان النّبوي "أن نرى لفظا في الحديث واحدا يرسم المعنى الكامل، أو يساعد في أكبر حيّز من الإطار على تصويره، أو تأكيد معالمه في جوانب الصورة"[3]، وهذا ما يؤكّد على ما للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم من قدرة كبيرة على اختيار الكلمات ذوات الإيقاع الموسيقي المحبّب، بحيث يتوافر لكلّ كلمة منها أمران اثنان لهما أهميّة كبرى في إعطاء الكلمة موسيقاها الحلوة، هما: التّعانق بين اللّفظ والمعنى، والانسجام في إيقاع الحروف[4]، وذلك ما يطلق عليه مناسبة اللّفظ للمعنى أي الاهتمام بالجرس والإيقاع الصّوتي في البيان النّبوي على قدر الاعتناء بالمعنى"وهو يتخيّر الألفاظ تخيّرا يقوم على أساس من تحقيق الموسيقى المتّسقة مع الحديث وجوّ السّياق"[5]، فمكوّنات اللّفظة من تلك الأصوات الّتي تكون دالّة على معناها، وكان العرب القدامى يستعملون أصوات الكلمات محاذية للحدث الّتي استعملوها لأجل التّعبير عنه، وذلك من أجل التّصوير المناسب لهذه الأحداث فتتعالق الألفاظ في النّهاية مع معانيها محدثة ذلك التّناسب

---

[1] ــ مصطفى صادق الرافعي : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص: 295.

[2] ــ عبد القادر مغدير : المناسبة الصوتية في اللفظة القرآنية، مجلة التعليمية، العدد الثاني، 2011م، ص: 201.

[3] ــ كمال عز الدين: الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية، ص: 291.

[4] ــ مدحت حسيني حسيني ليمونة: البلاغة الصوتية في الأحاديث النبوية، ص : 1750.

[5] ــ المرجعنفسه، ص :1753.

بينهما، فهي تمثّل "الصّورة الّتي ترسمها الكلمة في أذهاننا"[1]، فتكون هذه الكلمة مؤثرة بوقعها الخاصّ العائد إلى التّركيب الصّوتي المتميّز"وكثيرا ما يشترك الوصف، والحوار، وجرس الكلمات، ونغم العبارات، وموسيقى السّياق، في إبراز صورة من الصّور، تتملّاها العين والأذن، والحسّ والخيال، والفكر والوجدان"[2].

فالبيان النّبوي يوظّف الكلمة الموحيّة والمناسبة بدقّة لتعبّر عن المعنى الّذي أوردت له في مقامات مختلفة، فلا تنوب لفظة عن الأخرى لأنّ موقع اللّفظة في السّياق لها إيحاءاتها، فإيقاع الكلمة الموظّفة وجرسها الخاصّ بها في موضعها الّتي وردت فيه بدقّة تعين في بلوغ المعنى من خلال ما تحمله الأصوات من طاقات إيحائية، تجعل هذه المعاني تضيف للألفاظ أبعادا مميّزة .

ولقد عقد الرّافعي فصلا موجزا يبيّن فيه دعائم البلاغة النّبوية بالكشف عن سمات الأسلوب النّبويّ، ذلك الأسلوب المنفرد في هذه اللّغة، فنسق البلاغة النّبوية لا يحتويه كلام الفصحاء"وهو معدود من ضروب الفصاحة ومتعلقاتها ـــ إلّا وجدته في هذا النّسق على مقدار من الاعتبار يفرِدُه بالميزة، ويخصّه بالفضيلة، لأنّ كلامه صلى الله عليه وسلم في باب التّمكين لا يعْدِلُه شيء من كلام الفصحاء"[3]، فهذا النّسق مبني على خصائص بارزة تعمل على اتّساق وانسجام النّصّ النّبويّ.

5 ـــ الانسجام والمقبوليّة:

تنتج المقبوليّة من التفاعل القائم بين النص والمتلقي"و من هنا برز الدّور الّذي يضطلع به معياري التّماسك والانسجام في عمليّة بناء النّصّ بما يكفل تحقيق استمراريّة المعنى، وتنظيم المعلومات بداخله، ولهذا كان مستوى المقبوليّة في النّص يزيد وينقص تبعا لمدى تحقّق التّماسك والانسجام في النّصّ، لأنّهما يساعدان القارئ على متابعة ترابط النّص، ويسهمان في سدّ الفجوات اللّغويّة الّتي تظهر للمتلقي في النّص"[4]، وعليه فكلّما كان النّص منسجما يكون التّأثير في المستقبِل أكثر، وتاليا ينتج عن ذلك نسبة عالية من القبول، وبالنّسبة للنّصّ النّبوي لا يحتاج منّا إثباتا عن مدى تماسكه وارتباطه لأنّه منزّه عن ذلك، بحكم أنّ البلاغة النّبويّة هي وحي من الوحي، ومستوى التّأثير في المتلقي لا يحتاج إلى برهان لأنّ الكلام نابع من أفصح العرب، وإنما يقودنا الأمر في هذا المقام إلى الكشف عن الظواهر اللّسانيّة النّصية في البلاغة النّبوية وفق ما عرضه الرافعي في مدوّنته .

---

[1] ـ المرجع نفسه، ص: 1754.

[2] ـ سيد قطب: التصوير الفني في القرآن الكريم، دار الشروق، القاهرة، ط16، 1423هـ ـــ 2002م، ص:37 .

[3] ـــ مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص338.

[4] ـــ ميلود مصطفى عاشور، أياد عبد الله: قصديّة الشّاعر وقبول المتلقي في قصيدة "أنا.. والبدر" للشاعر الليبي رجب الماجري، مقاربات في اللسانيات والأدبيات بين التّقليد والتّجديد، ص: 562 ـــ 563.

وبناء عليه، يجعلنا بناء النّص النّبوي حسب الرّافعي نقف على "النّسيج الصّوتي للمفردات الّتي تتشكّل منها الجملة حيث تتكوّن الكلمة في التّشكيل المنسجم من حروف ذات صفات معيّنة تتناغم مع المعنى والجوّ الّذي يدور في إطار النّصّ"[1]، وهذه هي الميزة الّتي تميّزت بها البلاغة النّبويّة، واكتست البيان النّبوي، فهذا النّسيج الصّوتي الّذي يسفر عن إيقاع موسيقي تحيل إليه تلك الأصوات في كلامه صلى الله عليه وسلم، هو من أسباب الانسجام"فهو صفة صوتيّة تخلع على التّركيب توازنا وانسجاما وعلى جمله تعادلا وتوازيا"[2]، إضافة إلى أنّه عندما تكون هذه المفردات في أيّ نصّ متخيّرة دقيقة كما هو الحال في الأحاديث النّبوية، والكلام النّبوي بشكل عام"فإنّها تحدث قوة في السّبك وجمالا في التّناسق، فضلا عمّا تحدثه من إيقاع خاصّ ينسجم من دلالة الجملة والعبارة، ولا شك أنّ تناغم دلالة المفردات يؤدي تلقائيّا إلى تناغم صيغ تلك المفردات عند من اختلطت بنفسه فطرة اللّغة وأوتي حظا من ملكة التّعبير"[3]، هذا الانسجام يجعل المتلقّي يتفاعل مع النصّ ويحاول فكّ شفراته، والتّمكن من فهم أغراضه.

ويرجع ذلك إلى الائتلاف بين اللّفظ والمعنى وتعانقهما والتئامهما، فكثيرا ما ينشأ منهما الانسجام الّذي يبقى أثره ولا ينتهي جماله، لأنّه يتجاوب مع الفطرة البشرية التي تميل إليها النّفس "فالنّفس تميل إلى أن تؤدّي لها المعنى الرّقيق...في لفظ رقيق يشف عن المعنى"[4]، لذلك نجد كلامه صلى الله عليه وسلم يبلغ النّفوس والقلوب لما فيه من هذه المواءمة بين الألفاظ والمعاني، وقوّة السّبك، وحسن الانسجام في النّغم والصّيغ والنّظم، فاجتماع هذه العناصر في التّركيب الصّوتي والتّأليف النّصّي النّبوي، شكّل نصوصا متلاحمة ملمّة بكلّ عناصر التّماسك النّصّي الّتي نادت بها اللّسانيات النّصيّة الحديثة، فقد استطاعت البلاغة النّبوية أن تكسر كل حواجز البلاغة القديمة لكي تجد لها موقعا في مختلف العلوم الحديثة، لأنّها نابعة من شخصيّة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم الّذي يأتي درجته في البيان بعد القرآن الكريم، هذا النّبي الّذي فاق البلغاء والفصحاء قديما وحديثا، الأمر الّذي يجعلنا نجزم بأنّ ما آلت إليه اللّسانيات النّصيّة الحديثة، وما وصلت إليه من علوم ونتائج في دراسة النّصوص أنّ البيان النّبوي قد وقف على هذه العناصر التي تحقّق للنصّ نصّيّته وتماسكه، وحقّقت هذه النّصوص جملة من معايير النّصيّة، الأمر الّذي يجعل الخطاب/النّص النّبويّ نصّا متماسكا، ويشكّل وحدة كبرى تحكمها قواعد الاتّساق والانسجام النّصّي، فالوقوف على هذين المعيارين

---

[1] ــ محمد إبراهيم شادي، البلاغة الصوتية في القرآن الكريم، ص : 50

[2] ــ المرجع نفسه، ص :55.

[3] ــ محمد إبراهيم شادي، البلاغة الصوتية في القرآن الكريم، ص : 59.

[4] ــ المرجع نفسه، ص: 61.

في فهم الأحاديث النّبويّة أو الكلام النّبويّ برمّته يؤدّي إلى الفهم الجيّد، وعلى نحو فعّال، المقصود من أحاديثه بكامله إن كان تعرض إليها المتلقي استماعا أو قراءة.

وما يستنتج، هو أنّ هذه البلاغة النّبويّة قائمة على"أنّ كلّ لفظ هو لفظ الحقيقة لا لفظ اللّغة، فالعناية فيها بالحقائق، ثمّ الحقائق هي تختار ألفاظها اللّغوية على منازلها؛ وبذلك يأتي الكلام كأنّه نطق للحقيقة المعبّر عنها، والكلمة الصّادقة تُنطَق مرّة واحدة؛ فصورتها اللّغوية لا تكون إلّا صريحة منكشفة عن معناها المضيء كأنّما ألقي فيها النّور"[1]، هذه هي طبيعة الألفاظ النّبويّة الّتي تعبّر عن الحقائق الّتي تتجسّد في تلك الألفاظ المختارة لإيصال المعنى المقصود "وهو معلوم أنّه صلى الله عليه وسلم لا يتكلّف ولا يتعمّل، ولم يكتب ولم يؤلّف، ومع هذا لا تجد في بلاغته موضعا يقبل التّنقيح، أو تعرف له رقّة من الشّأن كأنّما بين الألفاظ ومعانيها في كل بلاغته مقياس وميزان، أو كأنّ هذه البلاغة تنبثق بالكلام على طبيعة عاملة فيه بقواها الدائبة الثابتة، ففنّها الجميل هو التركيب الذي تجيء فيه كما ترى الشجر مثلا كاسيا من ورقه وزهره"[2]، وهذا من جملة المعالم التي اختصت بها البلاغة النّبوية، فالألفاظ المختارة واضحة المعنى ومألوفة في لغة العرب، بعيدة عن كل تصنّع أو تكلّف أو غموض، وتؤدّي المعنى المراد، فهي تخدم قصديّة المتكلم المتمثّل في شخص الرسول صلى الله عليه وسلم من أجل إيصال المقصود إلى المتلقي، إضافة إلى أنّ هذا المعنى يتحدّد بالوقت المناسب، ما يجعل الكلام مطابقا لمقتضى الحال كما ذهب إليه مفهوم البلاغة، وقد بيّن الرّافعي أنّ الصّناعة البيانية والبلاغية جعلت النّص النّبوي مترابط الأجزاء، متماسك سبكا وحبكا، لأنّه "حقيقة طبيعيّة قد انفردت في ذاتها، ومعنى انفرادها في ذاتها أنّها كذلك هي، فليس فيها موضع لشيء غير ما هو فيها"[3]، لا يعتريه ما يعتري نصوص باقي البشر من بلغاء وفصحاء من تماسك مكلّف، ذلك أنّ هذا الوضوح البياني العجيب سببه النّبوّة.

ويرى الرّافعي أنّ غموض بعض الفلاسفة وبعض الشعراء هو دليل الطّبيعة على أنّهم زائدون في الطّبيعة، ويبرّر هذا الأمر أنّ من أساليبهم الفلسفيّة والشّعريّة ما يجعل معنى الكلمة أحيانا هو نقض معناها، إذ يتصنّعون للفكر ويستجلبون له ويشقّقون فيه أهل صناعة الألفاظ بالألفاظ، فهنا البديع اللّفظي؛ وهناك "البديع الفكري"، ولا طائل وراءهما إلا صناعة وبهرجة[4]، فبيانه صلى الله عليه وسلم

---

[1] ــ مصطفى صادق الرافعي: وحي القلم، ج3، راجعه واعتنى به: درويش الجَويدي، المكتبة العصرية، سيدا، بيروت، ص: 17 ــ 18

[2] ــ المرجع نفسه ، ص: 18.

[3] ــ مصطفى صادق الرافعي: وحي القلم، ص:18.

[4] ــ ينظر المرجع نفسه، ص: 18.

أكثر جمالا ووضوحا ومنفعة ودقّة وسموّا ورفعة، من يسمعه ترِقّ له الأنفس، وتستميل له القلوب وتستهويه الأسماع.

وتعتبر لغة البلاغة النّبوية أسمى لغة، فالنّصّ النّبوي أبْيَن فصاحة وأرقّ أسلوبا بعد القرآن الكريم، ولا يخلو كلامه صلى الله عليه وسلم من التّماسك والترابط الّذي بقي له الأثر الكبير عند المتلقي على مرّ الأزمنة، وما جاء به علم اللّغة الحديث من دراسة في مجال تحليل النّصوص، يمكننا أن نتّخذ عناصره في التّحليل بغية الوصول إلى أهمّ معايير النصية التي يمكن اكتشافها في بلاغته صلى الله عليه وسلم، ومن خلال هذا الجدول سنحاول تصنيف ما أورده الرافعي من أحاديث نبويّة استشهد بها في جوامع الكلم، نذكر منها:

"إنما الأعمال بالنّيّات".

"الدّين النّصيحة".

"الحلال بيّن والحرام بيّن، وبينهما أمور متشابهات".

"المضعف أمير الرَّكب".

وقوله في معنى الإحسان:

"...أن تعبد الله كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك".

"آفة العلم النسيان، وإضاعته أن تحدِّث به غير أهله".

"المرء مع من أحبّ".

"الصبر عند الصدمة الأولى".[1]

و نقوم بترتيبها على أساس العموم والتّخصيص كما هو مبيّن في الشكل على الترتيب:

العموم	التّخصيص
إنّما الأعمال	النّيّات
الدّين	النّصيحة
الحلال بيّن والحرام بيّن	أمور متشابهات
المضعف	أمير الرّكب
عبادة الله/ كأنك تراه	إنه يراك
آفة العلم/ ضياع العلم	النسيان/ تحدّث به غير أهله

[1] ــ مصطفى صادق الرافعي : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص: 340 ــ 341.

الصّبر	عند الصدمة الأولى.

الملاحظ في هذه الأحاديث اجتماع صفتين: الأولى تخصّ العموم، والثّانية أفادت التّخصيص، فقد جعل النّبي صلى الله عليه وسلم في حديثه "إنما الأعمال بالنّيات"[1] على سبيل المثال لا الحصر:

الأعمال تفيد العموم النّيّات تفيد التّخصيص.

هذا التّركيب المحكم بدأ من التّعميم إلى التّخصيص، وهو ضرب من التّناسب الذي يحدث "عند مقارنة اثنين من أجراء الخطاب من جهة تفاصيلهما ففي هذه الحالة تسمى العلامة الناتجة باللّقاء التّناسبي، وأحيانا من جهة الاختلاف، وفي هذه الحالة تسمى العلاقة النّاتجة بالتقابل التّناسبي...وتستعمل علاقة التّناسب عادة بإحدى علاقات العموم والخصوص"[2]، والأعمال كثيرة منها الحسنة ومنها دون ذلك، فكلّ شخص يبدأ عمله بنيّة معيّنة، وهذا ما يريده النّبي صلى الله عليه وسلم أن يكون شائعا بين الأمّة، لكي يبيّن للناس أنّ أيّ عمل تسبقه نيّة مبيّتة، فاستخدم عليه الصّلاة والسّلام اللّفظين"الأعمال والنّيّات"، فإذا صلحت الضّمائر والنّيات أتبعها صلاح العمل وإلّا فالعكس، فالنيّة ترفع صاحبها درجات أو تهوي به أسفل سافلين، قال ذلك في حديث موجز قصير من سمعه من العامّة حفظه لسهولة اللّفظ ودلالته على المعنى المراد، هذا جانب من الائتلاف بين الألفاظ والمعاني، والاتّساق الحاصل بين الألفاظ التي تفيد العموم والأخرى التي تفيد الخصوص في ترتيب محكم، قلّ كلامه في هذا المقام ودلّ معناه دلالة واضحة أنّ الأعمال لابدّ أن تكون خالصة لوجه الله، وهذه العلاقة القائمة بين (العموم و التّخصيص) من وسائل انسجام الخطاب الّتي نادى بها (فان دايك) في حديثه عن علاقات الجزء، الكلّ .

وفي قوله صلى الله عليه وسلم:"الحلال بيّن والحرام بيّن، وبينهما أمور متشابهات"، فمفردات هذا الحديث الشّريف واضحة وسهلة، ومن بساطتها يفهمها المتلقّي مباشرة، والجمل المركّب منها محكمة المعنى وعبارتها واضحة، لأنّ تأليف الحديث تميّز بالسهولة والأمر عائد إلى أنّ:

ـــ الألفاظ المستعملة متداولة لدى العام والخاص، لذلك يتيسّر حفظه من طرف المتلقّي.

ـ جمله سهلة التّركيب، وصياغتها محكمة"الحلال بيّن ـــ الحرام بيّن ـــ بينهما ـــ أمور متشابهات".

[1] ـــ صحيح البخاري :كتاب بدء الوحي، باب بدء الوحي، ص7.

[2] ـــ تمّام حسان: اجتهادات لغويّة، ص:374

في هذا الحديث يقسّم الرسول صلى الله عليه وسلم الأشياء وأعمال النّاس ثلاثة أقسام:

ــ قسم بيّن حلّه، وواضح أنّه من الحلال لصراحة الدّليل الذي يدلّ على حلّه، ولحسن فهم الإنسان، وحسن تطبيق الإنسان.

ـــ وقسم آخر يتبيّن أنّه محرّم، لصراحة الأدلّة التي تدل على تحريمه، مع حسن تطبيق الإنسان لما فهمه من الدّليل عل ما يأتيه من أعمال أو يحدثه من أعمال

ـــــ وقسم ثالث دائر بين الحلال والحرام، ولا يتضح لأيّ قسم منهما ينتمي!!لخفاء الدّليل الذي يدلّ عليه...فعند التطبيق لم يدر عن هذه الجزئية: هل تنطبق عليها قاعدة الحلال أو تنطبق عليها قاعدة الحرام؟ فمن أجل ذلك جاء الاشتباه[1]، فما وضُح حلّه من هذه الأقسام الثّلاثة فأمره بيّن وعلى الإنسان أن يقدم عليه، أمّا ما وضح تحريمه، فعلى الإنسان اجتنابه، أمّا ما اشتبه أمره فعلى المرء أن يتحرّى الأمر قبل الخوض فيه.

إنّ الحديث يشتمل على نظم محكم وتركيب منفرد، فبدأ بالتّعميم ثم التخصيص، وكان لهذه الثّنائية ائتلاف خاص وانسجام مميز، إذ جعل من الحلال والحرام أمرا بيّنا من باب العموم، و والثّانية"الأمور المشتبهات" تميّزت بالتّخصيص، بحيث نلاحظ الاتساق بين مفردات الحديث غاية في الإحكام، وإذا ما حاول شخص أن يغيّر من هذا النظم، فإنه سيعجز عن الإتيان بمثل هذا التركيب البليغ، وهذه الصّياغة الفريدة، وسيجد نفسه أمام صيغة بيانية أبلغ مما يذهب إليه بليغ أو فصيح في مثل هذا القول.

جاءت المفردات في كلا الحديثين مرتّبة مع ملاءمة معنى كل مفردة لمعنى ما يليها ، فاختيار الألفاظ كان مناسبا للمعنى المقصود، فتساوقت وانسجمت وفق نظم خاص، وشكلت تماسكا نصيا فريدا، وذلك راجع إلى الأدوات التي وظفّها الحديث في نظمه وتركيبه، إضافة إلى صفتي التّعميم والتّخصيص اللّتان امتزجتا في سياق موحد.

ونلاحظ تكرار لفظة"بيّن" تارة مقرونة بالحلال، وتارة أخرى مقرونة بالحرام،"فزيادة إلى كونه يؤدي وظائف دلاليّة معيّنة، فإنه يؤدي إلى تحقيق التماسك النصي"[2]، وتكرار اللّفظ لم يكن عفويا لأنّه من لَدُن أفصح العرب، وذلك لتخصيصه الحلال والحرام بالإبانة، وما بينهما من المشتبهات، والغرض من هذا التّكرار هو التّأكيد على كلامه ليرسخ في ذهن المتلقي، لأنّ هذه الظّاهرة البلاغيّة

[1] ـــ محمد بدوي : شرح حديث:"الحلال بيّن والحرام بيّن"، 23- ـــ 11 ــ 2008م ، الموقع الإلكتروني:
ar.islamway.net/fatwa/28230

[2] ـــ صبحي إبراهيم الفقي: علم اللغة النصي، ج2، ص: 22.

في الأحاديث النبوية غرضها خدمة الدّعوة، لذلك فالتّكرار في هذا المقام كان مقصودا متعمّدا لتبيان أهمية الأمر من جهة، ومدى خطورته من جهة أخرى، فأن يميّز المرء بين الحلال والحرام فيما هو واضح، فهذا لا ضير فيه، لكنّ الخطورة في جهل ما بينهما والوقوع فيه، فهذا ليس بالشيء الهيّن.

نلمح في الحديث الشّريف يسر في الانتقال من كلمة إلى أخرى تليها، وهذا من أسباب الانسجام، بحيث" ينتقل اللسان من كلمة لأخرى في سهولة وراحة وكأنّه ينطق كلمة واحدة، وبحيث يصل بين نهاية كلمة وبداية أخرى وكأنه ينطق حرفا واحدا"[1]، ويرجع ذلك إلى حسن اختيار الألفاظ، ومدى تأديتها لمعانيها، فعندما" تكون صيغ المفردات متخيّرة دقيقة فإنها تحدث في قوّة في السّبك وجمالا في التناسق"[2]، وبذلك تظهر النّصوص النّبويّة شديدة التّماسك، تترك أثرا عميقا في متلقي هذا الخطاب الفريد.

يشير الّرافعي إلى خاصيّة مميّزة من دعائم البلاغة النّبويّة والتي تسهم في عملية انسجام النّصّ، وهي الخلوص الّذي يعني الإحاطة باللّغة من كل جوانبها، والتفرد في الأسلوب، لأنّه"لم يكن في العرب ولن يكون فيمن بعدهم أبد الدّهر من ينفذ في اللّغة وأسرارها وضعا وتركيبا، ويستعبد اللفظ الحرّ، ويبلغ من ذلك إلى الصّميم على ما كان من شأنه صلى الله عليه وسلم"[3]، فوظيفة اللّغة الأساسيّة هي التّعبير التّواصلي، أي أنّه يجب في التّعبير اللغوي أن يكون واضحا دقيقا شفافا[4]، يعبّر عن مقتضيات الواقع، بحيث توظّف هذه اللّغة حسب المخاطبين، فهذا التّمكن في اللّغة أعطاه القدرة على الوصول إلى القلوب باختيار ما يناسب من ألفاظ، وتحديد المعاني المتوخاة دون التّقصد إليها، فلا نجد من البشر من تجتمع له اللّغة غيره صلى الله عليه وسلم "ولا نعرف في النّاس من يتهيّأ له الأسلوب العصبّي الجامع المجتمع على توثّق السّرد وكمال الملاءمة، كما تراه في الكلام النّبوي، وما من فصيح أو بليغ إلّا وهو في إحدى هاتين المنزلتين دون ما يكون في الأخرى على ما يلحقه من النّقص فيهما جميعا إذا تصفحتَ وجوه كلامه وضروب الفصاحة فيه، واعتبرت ذلك بما سلف؛ وأبلغ النّاس من وفق أن يكون في المنزلة الوسطى بين منزلتيه صلى الله عليه وسلم"[5]، هكذا يرى الرّافعي منزلة الفصيح من الفصحاء، فالكمال اللّغوي هو في بلاغته صلى الله عليه وسلم بعد بلاغة القرآن الكريم، فقد اجتمع له توثّق السّرد وكمال الملاءمة في الأسلوب، وهي عناصر تعمل على تماسك النّصّ وترابطه، فترى أحاديثه كلّها نصوصا متماسكة.

---

[1] ـــ محمد إبراهيم شادي: البلاغة الصوتية في القرآن الكريم، ص: 54.

[2] ـــ المرجع نفسه، ص : 56.

[3] ـــ المرجع نفسه، ص: 338.

[4] ـــ محمد مفتاح: دينامية النص، ص: 194.

[5] ـــ مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص: 338.

ونستنتج مما ذكرناه أن أسلوب تماسك أجزاء النّصّ وطرائق انسجامه فيما بينها"يمكن اعتباره الوسيلة المباشرة التي يتأسّس عليها الحكم بمقبوليّة النّصّ، أي إنّ مقبوليّة النّص عند المتلقي تبدأ من عمليّة الفهم الّتي يؤسّس لها توافر معياري التماسك والانسجام في النّص حيث تتشابك المعاني الجزئية، وتتفاعل ساعية إلى غاية مستهدفة، هي قصد المتكلّم، ليأتي القارئ ويتعاطى مع النّصّ بما فيه من عناصر التّماسك وآليات الانسجام"[1]، ولابد لهذا المتلقي أن يكون متمرسّا لفهم قصديّة المتكلّم، فالنّبيّ صلى الله عليه وسلّم كان يراعي أحوال المخاطَبين مراعيا في ذلك بيئتهم وطريقة تعاملهم مع من حولهم، فأصاب عليه الصلاة والسّلام أهدافه وبلغ غاياته بلسان عربيّ مبين.

6ــ الإعلامية في البلاغة النّبوية من منظور الرافعي:

أقرّت الدّراسات النّصّيّة أنّ النّصّ الجيّد هو الذّي يحقق مقاصد منتجه، وينال قبول المتلقي ويستحوذ على إعجابه، وفي سبيل إرضائه راح اللّسانيون يبحثون عن معايير تأخذ بالحسبان العناصر الّتي لا يتوقّعها المتلقّي وفي نفس الوقت تحدث الأثر المطلوب، فوجدوا ضالّتهم في معيار الإعلاميّة[2]، التي تبحث في الكفاءة الإعلاميّة في النّصوص؛ إذ ترتبط بإنتاج النّصّ واستقباله لدى المتلقّي، ومدى توقعه لعناصره، أو بقصد المنتج، وقبول المتلقي[3]، فالعناصر غير المتوقعة في النّصّ هي مناط اهتمام القارئ، وتشير الإعلامية" إلى الطّريقة الّتي تستخدم فيها العناصر اللغويّة لتقديم المعلومات في النّصّ، فمن المتعارف عليه أنّ كلّ أنواع المعلومات لا يتوافر القدر نفسه من الإعلاميّة، ومن ثمّ يقع العبء على المدقّق اللّغوي بحيث يتولى عمليّة النّقل الفاعل للمعلومات في النّصّ، وذلك بخلق توازن بين المعلومات المعروفة سلفا والمعلومات الجديدة، الأمر الّذي يحقّق مقروئية النّصّ ويجعله ممتعا"[4]، ويرى روبرت دي بوجراند أن ينظر إلى الإعلاميّة من"ناحية الجدّة أو التّنوّع التي توصف بها المعلومات في بعض المواقف، فإعلامية أيّ عنصر إنّما تكمن في قلّة احتمال وروده في موقع معيّن بالمقارنة بالعناصر الأخرى في نفس النّص، وكلّما بعد احتمال الورود ارتفع مستوى الكفاءة

---

[1] ــميلود مصطفى عاشور، أياد عبد الله: قصديّة الشّاعر وقبول المتلقي في قصيدة "أنا.. والبدر" للشاعر الليبي رجب الماجري، مقاربات في اللسانيات والأدبيات بين التّقليد والتّجديد، ص:563.

[2] ــ ينظر: عبد العزيز حميدي، سليم سعداني: تجليّات الإعلاميّة في المدوّنات الألكترونيّة، مدوّنة MTA youth أنموذجا مقاربة في ضوء لسانيات النّصّ، مجلّة القارئ للدّراسات الأدبيّة والنّقديّة واللّغويّة، المجلد4، ع3، سبتمبر 2021م، ص: 274

[3] ــ ينظر : مفلاح بن عبد الله: تجليّات الإعلاميّة في شعر تميم البرغوتي، مقاربة في ضوء لسانيات النّصّ، مجلّة المدوّنة، مختبر الدّراسات الأدبيّة والنّقديّة، المجلّد4، العدد2، ص: 593.

[4] ــ محمد عبد الرحمن إبراهيم: الإعلاميّة أبعادها وأثرها في تلقّي النّصّ، بحث تكميلي لنيل درجة الدكتوراه في اللغة العربيّة (الدّراسات اللّغويّة)، كليّة معارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلاميّة العالميّة ــ ماليزيا، يناير 2007م، ص : 9 ــ 10.

الإعلاميّة"[1]،وذلك من خلال سعيها إلى الكشف عن التّفاعل الذي يُنْشْأُ عندما يصادف المتلقي في النّصّ عناصر غير المتوقّعة وغير المألوفة، إذ عادة ما يبدي المتلقّي اهتماما كبيرا بما يجده من جدّة وإبداع ومخالفة الواقع على مستوى صياغة النصّ أو مضمونه[2]، وهذا الاهتمام يجعله ينغمس في هذا النّصّ ويتفاعل معه .

ويطلق على هذا المعيار أيضا الإخبارية، بحيث تعتبر وظيفة الإخبار من أهمّ الوظائف في النّصوص على اختلافها، والنّصّ النّبوي يقوم بالإخبار والإقناع في آن واحد، لأنّ الغرض من كلامه عليه السّلام هو إيصال الرّسالة، فنجده صلى الله عليه وسلّم يتخيّر ألفاظه ويستخدم أساليب متنوّعة تستميل إليها النّفس البشريّة، لأنّ "الطّابع الإخباري للنصوص لا يلزم الكاتب نمط مألوف من القول يقتفي أثره ويقبع حبيسه، بل له أن ينشئ ما شاء من الخطط في الكتابة، وأن يتّبع ويبدع ما قدر عليه من أساليب التّعبير، فيتخيّر اللّفظ غير المتوقّع الّذي يسترعي انتباه المتلقّي، وينشئ التّركيب المخالف للاستعمال الدّارج، فيحقّق بذلك الغرضين معا: الإخبار والتّأثير الأسلوبي"[3]، والإعلاميّة في النّصوص النّبويّة صبغت بميزة خاصّة تميّزت في تفرّد أسلوبه عليه الصّلاة والسّلام من جميع النّواحي، وعلى الرّغم أنّه ما صدر عنه صلى الله عليه وسلّم من أقوال وأحاديث لم تدوّن إلّا فيما بعد، إلّا أنّ العناصر المفاجئة وغير المتوقعة في النّصوص قد كان لها موقع في أحاديثه عليه أفضل الصلاة والسلام، وتمثل ذلك في غريب اللّفظ على سبيل المثال لا الحصر، الذي لم يعهده الصّحابة، فكانوا يقفون متسائلين كما سنرى من خلال الأحاديث التّي أوردها الرّافعي في مدوّنته، مما يوحي بأن الكلام النّبوي ذو تجليّات إعلامية مرتفعة للغاية.

فقد تفرّدت البلاغة النّبوية بمميزات خاصّة من حيث الألفاظ والمعاني، وتبيّن أنّ البيان النّبوي معجز بألفاظه ومعناه، وإن لم يقع التّحدي به كما حدث مع القرآن الكريم، الّذي يترفّع عن كلام البشر، ففصاحة اللّفظ وجزالة المعنى وبلاغة الكلام النّبوي هو أصل هذا الإعجاز، فقد تميّز كلامه صلى الله عليه وسلم بخاصيّة مميّزة؛ حيث أوتي صلى الله عليه وسلم جوامع الكلم، فيقول عليه أفضل الصّلاة والسّلام:" بعثت بجوامع الكلم، ونصرت بالرعب..."[4]، وفي رواية أخرى: بعثت بجوامع الكلم، قال الهروي: يعني به القرآن، جمع الله تعالى في الألفاظ اليسيرة

---

[1] ــ روبرت دي بوجراند: النص والخطاب والإجراء، ص: 23.

[2] ــ مفلاح بن عبد الله: تجليات الإعلامية في شعر تميم البرغوتي ، مقاربة في ضوء لسانيات النّصّ، ص: 596 ـــ 597.

[3] ـــ المرجع نفسه، ص: 596.

[4] ـ الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النّيسابوري(206 ــ 261هـ)، ج1، وقف على طبعه وتحقيق نصوصه: محمد فؤاد عبد الباقي، ط1، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، (3 ــ 9) حديث،1412ه ـ 1991م، دار الحديث، بيروت، ص: 371-.

منه، المعاني الكثيرة، وكلامه صلى الله عليه وسلم كان بالجوامع، قليل اللّفظ كثير المعاني[1]، ومعنى ذلك أن يقول المعنى الكثير باللّفظ القليل، وهذا الأمر نجده واضحا في الأحاديث النّبويّة الّتي يريد عليه الصّلاة والسّلام من ورائها ما يكون شائعا في الأمّة وأن يعلمه البسطاء والبلغاء على حدّ سواء، فيتردّد على الألسن لأنّه يصل إلى الأفهام بأقصر طريق وأوجز لغة، وجملة عربيّة في أبسط أوجه تراكيبها.

يقول الرّافعي في اجتماع كلامه وقلّته صلى الله عليه وسلم: "ومن كمال تلك النّفس العظيمة، وغلبه فكره صلى الله عليه وسلم على لسانه قل كلامه وخرج قصدا في ألفاظه، محيطا بمعانيه، تحسب النّفس قد اجتمعت في الجملة القصيرة والكلمات المعدودة بكل معانيها: فلا ترى من الكلام ألفاظا ولكن حركات نفسيّة في ألفاظ"[2]، من أجل هذا المعنى وتمكّنه فيه صلى الله عليه وسلم كان يكره الإطالة في الكلام بما يجاوز مقدار القصد به، وقد أورد الرّافعي في هذا الصّدد قصّة الرّجل الّذي تكلّم عند النّبي صلى الله عليه وسلم فأطال، فقال له الرّسول صلى الله عليه وسلم: كم دون لسانك من حجاب؟ فقال: شفتاي وأسناني، فقال له: إن الله يكره الانبعاق في الكلام؛ فنضر الله وجه رجل أوجز في كلامه واقتصر على حاجته، والانبعاق: الاندفاع في الكلام، وهو مظنّة الخطأ، وقلما سلم صاحبه من زلل، لأنّه أبدا إلى الزيادة عن معانيه وعن حاجته[3]، ولذلك كثرت كلمات النبي صلى الله عليه وسلم التي انفرد بها دون العرب، وكثرت جوامع كلِمه، كما ستعرفه، وخلص أسلوبه، فلم يقصر في شيء، ولم يبالغ في شيء، واتسق له من هذا الأمر على كمال الفصاحة والبلاغة ما لو أراده مريد لعجز عنه، ولو هو استطاع بعضه لما تم له في كل كلامه، لأن مجرى الأسلوب على الطبع، والطبع غالب مهما تشدّد المرء وارتاض ومهما تثبّت وبالغ في التحفظ"[4]، وهذا الوجه من البيان النّبويّ لم يكتمل إلّا مع الرّسول صلى الله عليه وسلم، وهو نوع من الخصائص التي انفرد بها النّبي عليه السّلام دون الفصحاء والبلغاء بحيث كان الأمر يسيرا عليه، على أن يبدي ما يريد على النّحو الّذي خرج عليه.

تضمّنت البلاغة النّبويّة جوامع الكلم أو الإيجاز، هذه الظّاهرة البلاغيّة الّتي نجدها عند القدماء في ثنايا كتبهم، لأنها عدّت من أقسام البلاغة[5]، ومعناه تقليل

---

[1] ـ المرجع نفسه، ص : 371.

[2] ـ مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص: 300

[3] ـ ينظر المرجع نفسه، ص: 300.

[4] ـ المرجع السابق، ص: 300.

[5] ـ أبو الحسن علي بن عيسى الرماني: لنكت في إعجاز القرآن،(ت 384ه)، ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز،، حققها وعلق عليها: محمد خلف الله أحمد/ ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر،ط2، (دت)، ص : 76

الكلام من غير إخلال بالمعنى، وإذا كان المعنى يمكن أن يعبر عنه بألفاظ قليلة، فالألفاظ القليلة إيجاز[1]، والإيجاز بلاغة...لا إخلال فيه بالمعنى المدلول عليه[2]، هذه الصّفة أعطيت للنّبي صلى الله عليه وسلم وفضل بها على سائر البشر ومنهم الأنبياء، وذلك ما جعل الإعجاز في البلاغة النّبوية أمرا واضحا، فلغته فيها إيجاز، وسهولة وعدم تكلّف، فإذا أراد أي امرئ أن يصف كلامه صلى الله عليه وسلم بالإيجاز يجده على أبلغ وأروع حال لأنّ"الإيجاز لا يؤتى إلا من رزق حدّة في الذّهن، وإرهافا في الإحساس البياني، ومعرفة تامّة بدلالة المفردات، وإدراكا واعيا لأحوال المخاطَبين، وقد اجتمع ذلك كله في في الرسول صلى الله عليه وسلم على أكمل وجه"[3]، وقد أورد الرّافعي بعض الأحاديث الدّالة على جوامع الكلم واعتبرها حكمة البلاغة" مما تكون غرابته من تركيب وضعه في البيان، ثم هو أكثر كلامه صلى الله عليه وسلم .

وهذا الأمر كان يَعْجَب له الصحابة رضي الله عنهم "ويرونه طبقة في هذا اللّسان وطرازا لا يحسنه إنسان"[4] بحيث يكون الكلام باللّفظ القليل مع المعنى الكثير وإحكام الأسلوب دون أن تجد له تكلّفا أو تعقيدا، مع إبانة المعنى، فهذه الأمور كلّها لم تعرف في اللّغة إلّا للنّبي صلى الله عليه وسلم، وهذا الصّحابي الجليل سيدنا أبو بكر الصديق يقول لصاحبه مرّة:" لقد طفت في العرب وسمعت فصحاءهم، فما سمعت أفصح منك؛ فمن أدّبك(أي علّمك)؟ قال: أدّبني ربّي فأحسن تأديبي[5]، فالتّربية الإلهية أثمرت هذا البيان الرائع الّذي جعل من البلاغة النّبويّة بحرا يُغْرف منه البيان العام والصّياغة، والتّماسك والانسجام، وحسن الصّنعة اللّغوية.

ويجعل الرّافعي الإيجاز من دعائم البلاغة النّبويّة وأطلق عليه القصد الذّي يقصد به جوامع كلامه صلى الله عليه وسلم،"فالإيجاز والاقتصار على ما هو من طبيعة المعنى ومن طبيعة الألفاظ في معانيها، ومن طبيعة النّفس في حظّها من الكلام وجهتيه(اللّفظيّة والمعنويّة) ــ فذلك مما امتازت به البلاغة النبوية"[6]، فلا معنى للإيجاز إلّا أن يُدلَّ بالقليل من اللّفظ على الكثير من المعنى[7]، وهذا من مميّزات الأسلوب النّبويّ، فما الإيجاز إلّا السّرعة والتّخفيف في بلوغ الحاجة بالقدر الممكن، فالّذي يسرع فوق الطّاقة لا يبلّغك حاجتك فيكون مجحفا مخلّا،

---

[1] ــ المصدر نفسه، ص:76.
[2] ـ المصدر نفسه، ص : 78.
[3] ــ محمد الصبآغ: الحديث النبوي: مصطلحه ــ بلاغته ــ كتبه، ص: 106 .
[4] ــ المرجع نفسه، ص: 301.
[5] ـ المرجع السابق، ص : 301.
[6] ــ المرجع نفسه، ص:339.
[7] ــ عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص:463.

والّذي يبطئ حيث تمكن السّرعة لا يكون إلا مسرفا مملّا[1]، والرّسول صلى الله عليه وسلم في أسلوب الإيجاز"كأنّ الجملة تخلق في منطقه صلى الله عليه وسلم خلقا سويّا، أو هي تنزع من نفسه انتزاعا، وهذا عجيب حتّى يمكن أن يعطيه امرؤ حظّه من التّأمّل إلّا أعطاه حظ نفسه من العجب، وإنّما تمّ في بلاغته صلى الله عليه وسلم بالأمر الثالث"[2]، ويقصد به الاستيفاء.

الاستيفاء:ويعني به الوفاء بحق المعنى مع وجازة اللّفظ[3]، أي الكلام الموجز مع الوفاء بالمعنى، وهذا المصطلح تابع للإيجاز، ذكره الرّافعي أنّه "الّذي يخرج به الكلام ــ على حذف فضوله وإحكامه ووجازته ــ مبسوط المعنى بأجزائه ليس فيها خداج*ولا إحالة ولا اضطراب حتّى كأنّ تلك الألفاظ القليلة إنما ركّبت تركيبا على وجه تقتضيه طبيعة المعنى في نفسه، وطبيعته في النّفس، فمتى وعاها السّامع واستوعبها القارئ تمثّل المعنى وأتمّه في نفسه، في حسب ذلك التّركيب، فوقع إليه تامّا مبسوط الأجزاء، وأصاب هو من الكلام معنى جموما*، لا ينقطع به ولا يكبو دون الغاية، كأنّما هذا الكلام قد انقلب في نفسه إحساسا لنظر معنوي"[4].

يتبيّن لنا من القول أنّ المتلقي يفهم المقصود من كلامه صلى الله عليه وسلم دون تكلّف أو عناء، لأنهّ تركيب محكم، مترابط الأجزاء على قلّة الألفاظ الّتي توحي بمعنى تام وقويّ، يقع في النّفس، فيدركه المرء ويحفظه بسهولة ويسر، ويدرك معناه أتمّ الإدراك، وذلك تبعا للأثر الّذي يتركه لدى هذا المتلقّي، وللنّظم دور كبير في صناعة هذا التّركيب، فتآلف الألفاظ وانسجامها، وحسن الصّيغة، وسلاسة هذا الأسلوب يشكّل نسيجا يحمل دلالة قويّة تجعل النّفوس تتفاعل معه، لذلك يرى الرافعي بأنّه"ضرب من التّصرّف بالكلام في أخلاق النّفوس الباطنة التي تذعن لها النفوس وتتصرّف معها، وقلّما يستحكم لامرئ إلّا بتأييد من الله وتمكين من اليقين والحجة فهو على حقيقته مما لا تعين عليه الدربة والمزاولة إلا شيئا يسيرا لا يستوفي هذه الحقيقة، ولا يمكن أن تجعله المزاولة فيمن ليس من أهله كما هو في أهله، ولأمر ما قال أفصح العرب صلى الله عليه وسلم:"أعطيت جوامع

---

[1] ــ محمد عبد الله دراز : النبأ العظيم، ص:161.

[2] ــ مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص: 339.

[3] ــ بن عيسى بطاهر : البلاغة النبوية في منظور الرافعي، قراءة في المنهج، بحوث ودراسات، التجديد، المجلد16، العدد32، 1434ه ــ 2012م، ص:67.

* أي نقصان، وأصله أن تخدج الناقة أو نحوها من ذوات الظلف والحافر فتلقي ولدها لغير تمام الحمل فيجيء ناقص الخلقة، الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص:339.

* يقول الرافعي: نقلناه من قولهم: فرس جموم، إذا كان قويا، كلما ذهب منه جري جاءه جري جديد، ينظر الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص: 339.

[4] ــ مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص: 339.

الكلم"[1]، وفي رواية أخرى"أتيت"، إذن فالأمر على هذا الحال هو نعمة من الله عليه، فما هو عليه إنّما إعطاء وإيتاء من الله عزوجل له.

أُرسل النّبي صلى الله عليه وسلم ـــ كما هو معلوم ـ إلى قوم هم أئمة البيان "وهم في خصومته قوم لُدّ، لا تنقطع بهم حجّة، ولا يعوزهم منطق بليغ، قد نعتوا الرّسول بأوصاف عديدة كيدا ومخاصمة، ولكنّهم لم يستطيعوا أن ينعتوه بما ينال من فصاحته، لأنّهم يعلمون أنّ مثل هذه الفرية زائفة باطلة لدى دهماء النّاس جميعا"[2]، وللنشأة اللّغويّة دور كبير في اكتسابه صلى الله عليه وسلم ألفاظا لم تسمع من العرب قبله، هذه النّشأة الخالصة جعلته في مرتبة بعيدة المنال على أيّ بشري، كما أيَّده ربّه بمعجزة القرآن والبيان، واكتسب أسلوبا لا نظير له بين البشر، فهو وإن كان دون بلاغة القرآن إلّا أنّه استطاع أن يؤثّر في اللّغة والأدب.

كان صلى الله عليه وسلم دقيقا في اختيار ألفاظه، مشرقة معانيه، فصيح المنطق، سلس الأسلوب، عباراته قويّة، فقد أوتي جوامع الكلم، لذلك اعتبرت البلاغة النّبويّة المصدر الثّاني من مصادر الأدب، اشتغل عليه العلماء واللّغويون عبر العصور كما اعتمد عليه المفسّرون في تفسير الآيات القرآنية، ولا شكّ أنّ تأثيره على اللّغة والأدب كان تأثيرا كبيرا، لأنّه أسهم إسهاما كبيرا في ثراء اللّغة العربيّة، وزادها حياة ورونقا.

أشار الرّافعي إلى الإبداع اللّغوي الّذي جاء به النّبي صلى الله عليه وسلم، وذلك من خلال إتيانه بألفاظ جديدة لم تسمع من غيره من قبل، قائلا في ذلك" ومنهم ألفاظ كان العرب أنفسهم يسألونه عنها ويعجبون لانفراده بها وهم عرَبٌ مثله؛ كما عجبوا لفصاحته الّتي اختصّ بها ولم يخرج من بين أظهرهم"[3]، وراح يضرب مثالا لحديث النبي صلى الله عليه وسلم، روي أنّه قال لأبي تَميمة الهُجَيْمي: "إيّاك والمخيلَة" فقال: يا رسول الله، نحن قوم عرب؛ فما المخيلة؟ فقال عليه الصّلاة والسّلام: "سَبلُ الإزار" ومرّت الكلمة بعد ذلك على هذا الوضع، يراد به الكبر ونحوه[4]، وهكذا كان النّبي كثيرا ما يسأله أصحابه في مثل هذا الأمر، فيقوم بتوضيح لهم غوامض ما لم يفهم من جديد المفردات، "فالغموض المبني على التعقيد الفنّي الذّي ينم عن قدرة فنيّة فذّة يعتبر عاملا مهما في رفع درجة الإعلاميّة، بما يحدثه من تأثير في المتلقّي لما يحمله من مزايا تشحذ عقله وتدفعه

[1] ــ المرجع نفسه، ص :339.
[2] ــ محمد الصباغ: الحديث النبوي، (مصطلحه ــ بلاغته ــ كتبه)، ص: 53
[3] ــ مصطفى صادق الرافعي : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص: 317.
[4] ــ المرجع نفسه، ص: 317.

للتّفكير والمشاركة الإيجابيّة الفعّالة"[1]، فهذه الألفاظ في الحديث شدّت الانتباه وجعلت المتلقي يبحث عن دلالتها لما لها من صدى وأثر في نفسه.

واستمرّ عصره على ذلك النّحو، حيث جمعت فيه اللّغة واستفاضت، وشهدت ثراء واسعا، جعل المعجم العربي مستفيضا بالألفاظ والمعاني، لكنه صلى الله عليه وسلم"وردت عنه ألفاظا أخرى لم يعثر العلماء على تفسيره صلى الله عليه وسلم لها، فلم يستطيعوا الجزم بضبطها أو معانيها، ومن ثم فقد اختلفوا في تحديد معنى اللفظة الواحدة، ولا شك أن في هذا إثراء للغة"[2]، لذلك نجد عدة معاني للفظة واحدة أخذت معاني مختلفة من لدن مفسرين مختلفين، الأمر الذي يجعلها تأخذ دلالات عدّة زخر بها المعجم العربي، فازدانت بها اللّغة وازدادت ثراء.

إنّ الثّراء اللّغوي الّذي أضافه النّبي صلى الله عليه وسلم لم يكن على مستوى المفردات فحسب، فقد كان للتّراكيب البديعة حظا وافرا في تلك الفصاحة ومعانيها"فجمع له بذلك صلى الله عليه وسلم قوّة عارضة البادية وجزالتها، ونصاعة ألفاظ الحاضرة ورونق كلامها، إلى التّأييد الإلهي الّذي مدده الوحي الّذي لا يحيط بعلمه بشري"[3]، وقد أورد الرّافعي بعض التّراكيب الّتي جاءت في أحاديثه صلى الله عليه وسلم: "مات حتْف أنفِه"، وعن هذا التركّيب "روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: ما سمعت كلمة غريبة من العرب ـــ يريد التركيب البياني ـــ إلا وسمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسمعته يقول:"مات حتف أنفه"*وما سمعتها من عربي قبله"[4]، يبيّن الرّافعي أنّ هذا ضرب عزيز في الكلام،يحذو حذوه البلغاء ويطبعون على قالبه "وكلّما كثر في اللّغة لانت أعطافه، واستبصرت طرق الصّنعة إليه، وما من بليغ أحدث في العربيّة منه ما أحدثه النّبي صلى الله عليه وسلم؛ فهذه واحدة من الأوضاع التّركيبيّة"[5]، الّتي أثرت اللّغة العربيّة.

---

[1] ــ الرّبيع بوجلال: معيار الإعلاميّة في التّراث النّقدي والبلاغي، الأكاديمية للدّراسات الاجتماعية والإنسانيّة، ب/قسم الآداب والفلسفة، العدد 18، جوان 2017م، ص: 59

[2] ــ فاطمة الزهراء عواطي: أثر الحديث النبوي الشريف في اللغة العربية وتطورها، مقال، مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية، المجلد 12، العدد2 ، السداسي الأول 2020م، ص: 79.

[3] ــ القاضي عياض(أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض) ت(476ه ـ 544ه): الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم، تقديم وتحقيق: عامر الجزار، ج1 ، دار الحديث، القاهرة، 1425ه ـ 2004م، ص : 56.

*ـــ أي على فراشه، قال في القاموس : وخص الأنف لأنه أراد أن روحه تخرج من أنفه بتتابع نفسه... غير أن لها رأيا آخر هو أن موت الرجل على فراشه من غير حرب ولا قتال ولا أمر يؤوخ به الموت في الألسنة، مما كانوا يأنفون له، والحتف هو الهلاك، فكأن صاحب هذه الميتتة إنما ماتت أنفته وكبرياؤه، فلم يرفع الموت أنفه في القوم بل أذله وأرغمه، فكان به هلاكه.ينظر: الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص:315.

[4] ــ مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص:315 ــ 316.

[5] ـ المرجع نفسه، ص: 316.

أشار الرّافعي إلى أوضاع تركيبيّة أخرى، كقوله صلى الله عليه وسلم في صفة الحرب يوم حنين"الآن حمِيَ الوطيس"[1]، والوطيس هو شبه تنور يسجر فيه، ويضرب مثلا لشدّة الحرب الّتي يشبه حرّها حرّه، وقد قال آخرون: الوطيس هو التّنور نفسه، وقال الأصمعي: هي حجارة مدوّرة، إذا حميت لم يقدر أحد أن يطأ عليها، فيقال: الآن حمي الوطيس. وقيل: هو الضّرب في الحرب، وقيل: هو الحرب الّذي يطيس النّاس، أي يدقهم.قالوا هذه اللّفظة من فصيح الكلام وبديعه الّذي لم يسمع من أحد قبل النّبي صلى الله عليه وسلم[2]، إنّ هذه الكلمة بكل ما يقال في صفتها، وكأنّها هي نار مشبوبة من البلاغة تأكل الكلام أكلا، وكأنّما تمثّل لك دماء نارية أو نارا دموية![3]، ففصاحة اللّفظ وبلاغة معناه تجعل نفس متلقّيه تشكّل تصويرا مجسّما لمعنى التّركيب الذي وردت فيه، فتوحي بذلك عن صدق رسالة قائلها الذي عبّر بهذا اللّفظ ليتناسب تناسبا فريدا مع المعنى المقصود من الحديث الشريف.

وقوله صلى الله عليه وسلم في حديث الفتنة:"هدنة على دَخَن"[4]، يشرح الرّافعي هذا التّركيب البديع قائلا: "وهذه العبارة لا يعدلها كلام في معناها، فإن فيها لونا من التّصوير البياني لو أذيبت له اللّغة كلّها ما وفت به...فهذا تصوير معنى الفساد الذي تنطوي عليه القلوب الواغرة، وثم لونٌ آخَر في صفة هذا المعنى، وهو اللّون المظلم الّذي تنصبغ به النيّة(السّوداء) وقد أظهرته في تصوير الكلام لفظة(الدّخن)،ثمّ معنى ثالث، وهو النّكتة الّتي من أجلها اختيرت هذه اللّفظة بعينها، وكانت سرّ البيان في العبارة كلّها، وبها فضلّت كل عبارة تكون في هذا المعنى وذلك أنّ الصّلح لا يكون إلّا أن تطفأ الحرب، كما يلقى الحطب الرّطب على النّار تخبو به قليلا، ثمّ يستوقد فيستعر فإذا هي نار تلظى، وما كان فوقه الدخان فإنّ النّار ولا جَرَم من تحته، وهذا كلّه تصوير لدقائق المعنى كما ترى، حتى ليس في الهدنة الّتي تلك صفتها معنى من المعاني يمكن أن يتصوّر في العقل إلّا وجدت اللّون البياني يصوّره في تلك اللّفظة لفظة(الدَخن)"[5]، فلفظة بممحمول هذا الوصف أحدثت نظما رائعا في التّركيب مع حسن ائتلافها مع ما قبلها، جعلت المعنى واضحا، إيجاز في الكلام وجودة السّبك يترتّب عنه هذا المعنى السّديد في إيصال الرّسالة النّبويّة إلى متلقّيها.

لم يكن الرّافعي أوّل من أشار إلى هذه الأحاديث، فقد سبقه القدماء، ومن بينهم الجاحظ حين قال: " وسنذكر من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، مما لم

---

[1] ــ صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب 28، باب في غزوة حنين، ص: 1399.

[2] ــ المصدر نفسه، ص: 1399.

[3] ــ مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص:328.

[4] ــ أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب : علامات النبوة في الإسلام، رقم:3606.

[5] ــ مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص: 329.

يسبقه إليه عربي، ولا شاركه فيه أعجمي، ولم يُدَعَّ لأحد ولا ادَّعاه أحد، مما صار مستعملا ومثلا سائرا"[1]، إلّا أنّ الرّافعي قد أفاض في شرح هذا التّركيب"مات حتف أنفه"، "الآن حمي الوطيس"، "بعثت في نفس السّاعة"، كما أورد أحاديث أخرى للنّبي صلى الله عليه وسلم لم يذهب إلى الاستقصاء في جمعها وشرحها واستنباط وجوه البيان منها قصدا، لأنّ ذلك يتطلّب كتابا برأسه في جهة البيان لوحده.

يذكر الرّافعي في موضع آخر قوله صلى الله عليه وسلم:"بعثتُ في نفس السّاعة" يريد من هذا الحديث أنّه بُعث والسّاعة قريبة منه، فوصف ذلك باللّفظة الّتي تدلّ على أدقّ معاني الحسّ بالشّيء القريب، وهي لفظة النّفس كما يحسّ المرء بأنفاس من يكون بإزائه ولا يكون ذلك إلّا على شدّة القرب، وإنّما لأفرد اللّفظة ولم يقل:"بعثتُ في أنفاس الساعة " لأنّها نفخة واحدة، ومعنى هذا آخر فإنّ النّفخة الشّديدة متى جاءت من بعيد كانت كالنّفس من الأنفاس، وليس المراد من قرب السّاعة أنّها قدر اليوم أو غد على التّعيين، ولكنّ المراد أنّها آتية لا ريب فيها...وبقي معنى رائع في لفظة (النّفس) أيضا؛ وذلك أن يقال على المجاز: فلان في نفسٍ من ضيّقه، إذا كان في سعة ومندوحة وقد عرف الضيق ما هو بعد أن شدّ عليه وكتم أنفاسه! فيكون التّأويل على ذلك، أنّ السّاعة آتية وأنّها قريبة، وأنّها تكاد تكون ولكنّ البعثة في نفس منها، فليعمل النّاس لآخرتهم فإنّه يوشك أن لا يعملوا؛ ثم ليعمروا أنفسهم قبل أن يعمروا أرضهم: فإنّ السّاعة تطوي هذه وتنشر تلك"[2]،نلحظ أنّ لفظة (النّفس) قد تعدّدت دلالاتها وأحدثت في التّركيب نظما خاصّا، ذلك أنّها نابعة من أفصح خلق الله صلى الله عليه وسلم، الأمر الذي جعلها في ذات السّياق تحمل تأويلات متعدّدة، بيّنها الرّافعي في معان مختلفة، مبيّنا أنّ مثل هذه الأوضاع التّركيبيّة ابتدعها سيّد الخلق عليه السّلام ولم تسمع من أحد قبله، ولم يكن له شريك في مثلها أحد.

وظاهرة إحداث الدّلالات والألفاظ في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن كانت في المقام الأوّل من دلائل النّبوة ومن أدلّة تأييد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالوحي، فهي كذلك تشير إلى ظاهرة لغويّة عرفتها الدّراسات اللّغوية الحديثة والدّلاليّة منها على الخصوص[3]، كما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنّه"استبدل بعض الألفاظ بألفاظ أخرى من خلال تصحيح بعض ملفوظاتهم المنتشرة بينهم وإعطاء بديل عنها"[4]، إنّ ما جاء به النّبي صلى الله عليه وسلم من البيان شبيه

---

[1] ــ الجاحظ: البيان والتبيين، ج2، ص: 15.

[2] ــ مصطفى صادق الرافعي : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص:330.

[3] ــ السّيّد الشرقاوي: معاجم غريب الحديث والأثر والاستشهاد بالحديث في اللّغة والنّحو، النّاشر مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1421ه ــ2001م، ص:43.

[4] ــ فاطمة الزهراء عواطي: أثر الحديث النبوي الشريف في اللغة العربية وتطورها، ص: 83.

بالغيث العميم الّذي يأتي النّاس في حال حاجتهم إليه، وهي صورة يعرف قيمتها العربي المتلقي لهذه البلاغة التي أعطت اللّغة قيمة جمالية كبيرة، إضافة إلى إثرائها بالألفاظ الجديدة، والدّلالات الكثيرة التي وردت في نظم محكم، وانسجام واضح ،جعل النّصّ النّبوي متماسكا، إذ لا يمكن أن نستبدل ألفاظا أخرى غير الّذي اختيرت لأداء المعنى المقصود من الكلام، وبهذه الصّور الفنيّة المشحونة بالشّحنات الإبلاغية التي أدّت المعنى، وحقّقت الأغراض المرجوّة من الأحاديث النبويّة، وكسرت التّوقع، وزادت من مستوى الإعلامية في هذه النّصوص.

والكلام النّبويّ بصفة عامّة لا يقع على درجة واحدة من الإعلامية، فبعض أحاديثه تقع في الإعلامية من الدّرجة الأولى:وهي النّصوص ذات المحتوى المحتمل في الهيئة(الصياغة) المحتملة[1]، فهو سهل الصياغة ودرجة الإعلاميّة تكون منخفضة؛ أي محكم واضح الدّلالة، كقوله صلّى الله عليه وسلّم:"إنّما الأعمال بالنّيات" فهذه المعلومات متوقّعة من قبل المتلقّي، ومصدر النّية القلب، وقد وردت نصوصا قرآنية تبيّن أنّ مصدر الإخلاص هو القلب.

وبعضها من الإعلاميّة من الدّرجة الثانيّة: وهي النّصوص ذات المحتوى غير المحتمل في الهيئة المحتملة...أو المحتوى المحتمل في الهيئة غير المحتملة[2]، وفي المحتملين نجد أنّ الأوّل يتّسم بالصّعوبة ويثير جدلا حادا أمّا الثاني لا يكون مثيرا للجدل مثل الأوّل إلّا أنّه يكون كذلك إذا توفّرت الأسباب، ومن شأنه أن يتّسم بالتّحدي،بحيث أنّ"عادية الأسلوب تساعد المرء على المعالجة السّهلة في حين يؤدّي الخروج عن المألوف إلى جعل المعالجة تصبح تحدّيّا مثيرا"[3]، والكفاءة الإعلامية في هذه الدّرجة تكون متوسّطة، مثال ذلك قوله صلى الله عليه وسلّم:"الحلال بيّن والحرام بيّن، وبينهما أمور متشابهات"، فالحديث واضح بيّن، لكن الغرابة تكمن في الأمور المتشابهات، الّتي من شأن المتلقي أن يقف عندها ويستفسر عنها بغية معرفة الطّريق السّليم الّذي عليه اتّباعه، فالوقائع اللّغوية التي تحملها تتجاوز الدّرجة الأولى، وهي دون الدّرجة الثّالثة لذا تميّزت بالتّوسط لوقوعها بينهما، فهي لا ترقى إلى مرتبة عاليّة من الإعلاميّة على حسب ماذهب إليه دي بوجراند في تحديد درجات الإعلاميّة في النّصوص.

أمّا عن الإعلاميّة من الدّرجة الثالثة فيعثر عليها المرء في الوقائع التي لا تبدو لأوّل وهلة خارجة بعض الشيء على قائمة الخيارات المحتملة، وهذه الوقائع قليلة الحدوث نسبيّا وتتطلب قدرا كبيرا من الاهتمام وموارد المعالجة، غير أنّها

---

[1] ــ روبرت دي بوجراند: النّصّ والخطاب والإجراء، ص:251.

[2] ــ المرجع نفسه، ص: 251.

[3] ــ روبرت دي بوجراند، ولفغانغ دريسلر: مدخل إلى علم لغة النّص، ص :187

تكون في المقابل أكثر إمتاعا"[1]، وتنقسم وقائع العادة الثّالثة في الغالب إلى قسمين هما:"الانقطاعات وفيها تبدو تشكيلة ما خالية من المادّة، والمفارقات: وفيها تبدو الأنماط المعروضة من النّص غير مواكبة لأنماط المعرفة المختزنة، ويستلزم الأمر قيام مستقبلي النّصّ بالبحث في الدّافعيّة وهي حالة خاصّة من حالات حل المشكلات من أجل ما تشير به تلك الوقائع، وسبب اختيارها واستيعابها المجدد في إطار الاستمرار الذي يؤلّف الاتّصال"[2].

إنّ إعلاميّة الكلام النّبوي لها حِكَم وأغراض، وأهمّها استنباط القيّم من بيانه، والحثّ على التّقيّد بتعاليم الدّين الإسلامي، بحيث نجد في الأحاديث النّبويّة مفاجآت وأمورا غير متوقّعة، كان النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم مراعيا فيها ظروف المتلقين وأحوالهم، وخاصّة المفاجآت في الجانب البياني، وإعلاميّة الحديث النّبوي تفوق إعلاميّة النّصوص البشريّة، وكلامه صلى الله عليه وسلم صالح لكل الأزمان والعصور.

وفي ضياء هذا، إنّ البحث في الإعلاميّة لا ينحصر في الأثر الانفعالي الذّي يحدثه التّركيز على لفظة أو جملة أو استعمال أسلوب لغوي دون غيره، بل تشمل جميع الإمكانات اللّغويّة، الأدبيّة، الدّلاليّة، الأسلوبية التي يستثمرها المبدع سعيا إلى التّأثير في نفسيّة المستقبل، فمسار الإعلاميّة إذن، لا ينحصر في جوانب تأثيريّة ضيّقة، وإنّما يمتدّ ليشمل كلّ ما يؤثّر في نفسيّة القارئ، أي: التقنيات اللّغويّة والأسلوبيّة والأدبيّة المستثمرة في عمليّة إنتاج النّصّ، وهذا ما يجعل الظّاهرة الأدبيّة ليست مرتبطة بالنّصّ فحسب بل هي القارئ أيضا وجملة ردود فعله تجاه النّصّ[3]، وذلك لما للمتلقّي من أثر في استيعاب هذا النّصّ بعد تحليله وكشف أسراره.

7 ــ المتلّقي:

لم يغفل علماء اللّغة عن الدّور الّذي يقوم به المتلقي في عمليّة فهم النّصّ، حيث يجد نفسه في حوارية مع المؤلف والنّص معا، حيث "يجب أن تتوفّر فيه الكفاءة الّتي تمكّنه من استيعاب النّصّ وتفكيكه، وتتمثّل تلك الكفاءة في معرفة لغة النّصّ، وأسلوبه وسياقه"[4]، حتّى يتمكّن هذا القارئ أن يتفاعل مع هذا النّص، ويستطيع الوصول إلى أسراره، فهو عنصر فعّال من عناصر الخطاب الأدبي، فالمبدع في محاولته لصياغة خطاب أو نص ما يحاول أن يحدث أثرا نفسيّا من

[1] ــ المرجع نفسه، ص :190.
[2] ــ المرجع السابق، ص :190.
[3] ـ الرّبيع بوجلال: معيار الإعلامية في التّراث النّقدي والبلاغي، ص : 56.
[4] ـ صبحي إبراهيم الفقي: علم اللغة النّصّي بين النظرية والتّطبيق، ص:110.

طرف مستقبل الخطاب لإبداعه وهو المتلقي، لذلك لابدّ من وجود مشاركة وجدانيّة بين طرفي الخطاب: المبدع والمتلقي.

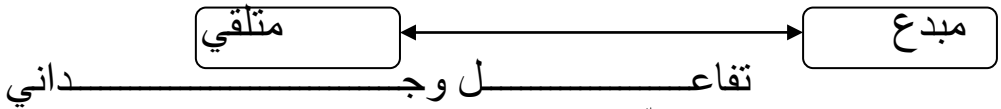

إذ لابدّ أن تتوحدّ لذّة المتعة في صاحب الإبداع(النّص/ الخطاب) والمتلقي(المستقبل سامعا كان أو قارئا)، وعند الحديث عن المتلقي يتبيّن لنا بأنّه ضروري جدّا في إنجاح العمليّة الإبداعيّة لأنّ هناك علاقة بين الأدب وتأثيره في المتلقي وخاصة التّأثير النّفسي، إذ لا يتحقّق للأدب وجود إلّا بتأثيره في النّفوس[1]،حتّى يتمّ فهم النّص فهما صحيحا مبنيّا على قواعد سليمة.

والدّارس لأدب الرّافعي في الإعجاز القرآني يدرك تمام الإدراك عدم تغافله أو تجاوزه حضور المتلقي، فقد أولى له عناية واسعة، وخصوصيات معيّنة، ومن يقرأ للرافعي يجده في حلقة تواصليّة متكاملة معه، فخطابه واضح المعالم من خلال تعامله مع القارئ وذلك بما يورده من أفعال الأمر كقوله:(واعلم، انظر، تأمّل، أنّك..)، وحتّى في تحليله للنّصوص القرآنية والنّبويّة فيبيّن وقعها في النّفس البشريّة، وفي تناوله للبلاغة النّبوية ترى الرّافعي يقف على أسرارها، ويعرض بذلك تفصيلا عن هذا الأسلوب الذّي لا تضاهيه بلاغة بليغ أو فصاحة فصيح.

يبيّن الرّافعي كيف يتفاعل المتلقّي مع النّصّ النّبويّ فيقول:" إذا كان فنّ العبقريين، هو أسمى الكلام الإنسانيّ، لما خُصُّوا به من هذه التّهيئة، فإنّ فنّه صلّى الله عليه وسلّم يكون ولا جَرَم من بابِ الأكبرِ ممّا هو أكبر في إلهام الإنسانيّة كلّها، ولهذه القوّة النّادرة كان بيانه قويّا على مزج معانيه بالنّفس بما فيه من صنعة الحياة، وإنّما فلسفة البيان* الفنّي أن تمتدّ الحياة من النّفس إلى اللّفظ، فتصنع فيه صُنعها فتفصلُ العبارة الفنيّة غن كاتبها أو قائلها وهي قطعة من كلامه، لتستحيل عند قارئها أو سامعها قطعة من الحياة في صورة الإدراك؛ فالبيان الفنّي هو الوسيلة لحمل الوجود وبعثرته في مواضع غير مواضعِه، وخلقه خلقا آخر في النّفس البشريّة[2]، وبذلك يُؤَوَّلقوله صلّى الله عليه وسلّم:"إنّ من البيان لسحرا"[3]، إذ جعل نوعا من البيان سحرا وليس البيان كلّه.

---

[1] ـــ محمد المبارك : استقبال النّصّ عند العرب، ط1، المؤسسة العربيّة للدّراسات والنّشر، 1999م، ص:35.

* الملهم: الموهوب، ينظر مصطفى صادق الرّافعي: وحي القلم، ج3، ص:17.

[2] ـــ مصطفى صادق الرّافعي : وحي القلم، ج3، ص:17.

[3] ـــ صحيح البخاري، كتاب الطّبّ، باب إنّ من البيان سحرا ، رقم:5767، ص:1460.

والبيان النّبوي يملأ السّمع عذوبة والقلب رقّة والنّفس إعجابا، يجعل المستقبِل له يستقطب المعنى المراد باستمرارية لا تستدعي انقطاعا، لأنه أسلوب عذب وإيقاع فنّي لا يمتلكه بشريّ أبدا، ومن يتفاعل مع هذا البيان لابد أن يمتلك ملكة الذّوق إذ "لا يستشعر حلاوة الأساليب ولا يدرك ما فيها من جمال إلا إذا كان صاحب ذوق رهيف، له بالأساليب الجميلة مودّة وإلف من طول معاشرة ومصاحبة"[1]، لأنّ المتلقي يختلف باختلاف الظروف الاجتماعية والثقافية، بحيث أنّ الرّسول صلّى الله عليه وسلّم كان يواجه "أناسا متعدّدي المعتقدات ومتنوّعي الثقافة ومختلفي البيئة، وتبعا لهذا الاختلاف، كان الرسول يكيّف خطابه الموحَى إليه بحسب نوعيّة المخاطَب"[2]، ولا شك أنّ المتلقي للكلام النّبوي برمّته يتفاعل تفاعلا تامّا مع نصوصه عليه السّلام، إذ أنّ فاعليّة مستقبِل الخطاب ترتقي بارتقاء النّصّ وهذا أمر طبيعي في ذات الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، لأنّ نصوصه وإن لم يتكلّف فيها، مشحونة بالقيم الجماليّة الفنيّة والطّاقات الخلّاقة من حيث البلاغة والفصاحة.

وسنحاول في هذا الصّدد أن نبيّن ذلك التّفاعل بين ملقي الخطاب ومستقبِله من خلال هذا الحديث الذي أورده الرّافعي في المدوّنة، والخلفية وراء هذا التّناول ليست تفسير الحديث الشّريف أو استخلاص الأحكام منه، وإنما"اعتبار النّص عمليّة لها بداية ووسط ونهاية، وجوهر العمليّة هو التّفاعل بين المتكلّم والمخاطب الحاصل عن طريق السّؤال والجواب الظّاهر أو المضمر"[3]، من خلال تفكيك هذا الحديث إلى أسئلة وأجوبة:

قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم:" من همّ بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة، فإن عمِلها كتِبت له عشرا، ومن همّ بسيّئة ولم يعملها لم تكتب عليه فإن عملها كتبت عليه سيّئة واحدة، ولا يهلك على الله إلّا هالك"[4].

المتكلّم	المخاطَب	المتكلّم
"من همّ بحسنة ولم يعملها"	ماذا يحدث له؟	"كتبت له حسنة"
"فإن عمِلها"	ماذا يحدث؟	"كتبت له عشرا"
"ومن همّ بسيّئة ولم	ماذا سيحدث في هذه الحالة؟	"لم تكتب عليه"
		"كتبت عليه سيّئة

[1] ـــ محمد إبراهيم شادي: البلاغة الصّوتيّة في القرآن الكريم، ص:63.
[2] ـــ محمد مفتاح: ديناميّة النّصّ، ص: 195.
[3] ـــ المرجع نفسه، ص : 214.
[4] ـــ صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب من همّ بسيّئة أو حسنة، ج11، رقم6126، ص330.

يعملها"	هل الأمر سيّان؟	واحدة"
"فإن عملها"	من؟	"إلّا هالك".
"ولا يهلك على الله"		

نستنتج من الجدول أن هناك علاقة تفاعل بين المتكلم ومتلقي الخطاب كامنة في هذه الحواريّة المضمرة، فنموّ أيّ نصّ"تحكمه علاقة التّفاعل سواء أكانت صراعيّة أو تعاونيّة، وتُحدَّدُ درجة الصّراع أو التّعاون بوضع الهيئتين معا[1]"، وطبيعي أن يتغلّب، في حالتنا هذه، التّعاون والامتثال، وهكذا التّفاعل الدّائم مع النّصّ؛ إذ نرى المتلقي كثيرا ما يصنع أسئلة يواجه فيها النّصّ، ويلاحظ وسائل التّماسك، ليستطيع نهاية فكّ شفرة النّصّ"[2]، فالقارئ لابدّ أن يتسلّح ببعض الأدوات التي تساعده على فهم أيّ نصّ كأن "يدرك طبيعة المنتج، وطبيعة النّصّ، والوسائل المستعملة في النّصّ، وسياق النّصّ، هو ذلك القارئ النّموذجي أو المثال إن صحّ التّعبير"[3] لأنّه ركن أساسي من أركان التّحليل النّصّي، وحضوره مهم في الحوار القائم بين النّصّ ومبدعه، ليشكّل بذلك تكملة للثّلاثي القائم على بناء النّص لأنّ"النّصّ مفتوح، ينتجه القارئ في عمليّة مشاركة، ولا مجرّد استهلاك، هذه المشاركة لا تتضمّن قطيعة بين البنيّة والقراءة، وإنّما تعني اندماجهما في عمليّة دلاليّة واحدة، فممارسة القراءة إسهام في التّأليف"[4] .

يقف الرّافعي في قراءته للحديث أعلاه منبهرا قائلا:"فتأمّل هذا التّذييل العجيب، فإنّك لا تقضي منه عجبا، ولن يعجز إنسان أن يهمّ بالخير، يفعله أو لا يفعله، وأن ينزع إلى الشّرّ فيمسك عنه، فإن عجز حتّى عن هذا فما فيه آدميّة، ورحمة الله تنال الإنسان بأسباب من خيره، ومن شرّه إذا كان فيه الضّمير الإنساني، وهذا في الغاية كما ترى"[5]،والتّذييل هو إعادة الألفاظ المترادفة على المعنى الواحد بعينه، حتّى يظهر لمن لم يفهمه، ويتوكّد عنده فهمه، وسبيله أن يستعمل في المواقف الحافلة، والمواطن الجامعة[6]، فمتلقي هذا الخطاب النّبوي يدرك تلك المطابقة والمقابلة التي تعتبر مظاهر الانسجام، فيقف على خلفيات هذا الحديث من خلال تحليله والوقوف على هذه الخواص العاملة على انسجامه، فيجد نفسه داخل هذا السّياق يحاور ويحاول أن يستوعب جيّدا دقائق الأمور، وتاليا

[1] ــ محمّد مفتاح : ديناميّة النّصّ، ص: 214.
[2] ــ صبحي إبراهيم الفقي : علم اللغة النّصي بين النّظريّة والتّطبيق، ج1، ص:112.
[3] ــ المرجع نفسه، ص: 112.
[4] ــ سعيد حسن بحيري : علم لغة النّصّ، ص: 113.
[5] ــ مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص:337.
[6] ــ أبو طاهر محمد بن حيدر البغدادي: قانون البلاغة في نقد النّثر والشّعر، ص:112 –113 .

يصل إلى حقيقة الأمور أنّ الخير إذا فعله أو نوى فعله يكون له نصيب من الجزاء، أمّا الشّر إذا بادر به فيكتب له الجزاء على قدر العمل الذّي قام به .

إنّ الرّسول صلّى الله عليه وسلّم أدرى باللّغة وخباياها، فقد مَنَّ الله تعالى على نبيّه صلى الله عليه وسلم ووفقه، فأعطاه وآتاه ومنحه القدرة على صناعة الكلام البليغ المتماسك والمترابط أشدّ ترابط من حيث نظم ألفاظه ومعانيه، وقوّة التّأثير الّتي تقابلها قوّة التّفاعل من طرف المتلّقي ولاجتماع هده العناصر الثّلاثة(القصد، الخلوص، الاستيفاء) في كلامه صلى الله عليه وسلم "وبناء بعضها على بعض، سلم هذا الكلام العظيم من التعقيد والعيّ والخطل والانتشار وسلمت وجوهه من الاستعانة بما لا حقيقة له من أصول البلاغة: كالمجاز البعيد الذي يغوص إلى الأعماق الخيالية، وفساد الوضع المعنوي، وفنون الصّنعة، وما إليها مما هو فاش في كلام البلغاء، يعين جفاء البداوة على بعضه، ورقة الحضارة على بعضة، وهو في الجهتين باب واحد"[1]، هذه هي البلاغة النّبويّة التي تعلو كلام النّاس من جهة وتنزل عن القرآن من جهة أخرى، لا صنعة ولا تكلّف بل هو الإلهام الرّباني لنبيّ أدّبه ربهّ فأحسن تأديبه.

ونخلص مما ذكرناه أنّ البلاغة النّبويّة رافد من روافد البيان العربي، كما يعتبر الرّافعي أحد روادها، هذا البيان الّذي صبغ بصبغة النّبوّة، واستلهم من المدرسة الرّبانيّة ما يوافق دعوته، امتاز النّصّ النّبوي بتماسك الألفاظ وتآلفها، وترتيب المعاني في النّظم والنّفس معا، لأنّه صادر من أفصح العرب، سلس الأسلوب، فصيح المنطق، دقيق في اختيار اللّفظ، سمح المعاني، أوتيت له صلى الله عليه وسلم جوامع الكلم، ولم يستطع أن يضاهيه في ذلك لا بليغ ولا فصيح، الأمر الّذي جعل الرّافعي يقف على نسق هذه البلاغة ليبيّن أهمّ الخصائص الّتي ساهمت في التّماسك النّصّي النّبويّ، وإنّ ما ذكرناه من دعائم البلاغة النّبويّة الأصل في تميّزه حسب المؤلف، فاجتماع هذه العناصر الثلاثة جعلت البيان النّبويّ يأخذ منزلته في البلاغة العربيّة بعامّة، فمنزلته دون القرآن الكريم وفوق بلاغة البلغاء وفصاحة الفصحاء، ولهذا البيان التّأثير الكبير في اللّغة لسلامة منطقه عليه أفضل الصلاة والسلام.

إنّ الوقوف على البيان النّبويّ ومحاولة الكشف عن معايير التّماسك وفق ما جاءت به اللّسانيات النّصية من منظور الرّافعي، يجعلنا نستنتج وفق ما درسنا أنّ الكلام النّبويّ غنيّ بالأدوات الّتي تعمل على تماسك النّصوص وترابطها، ذلك أنّه صلى الله عليه وسلم حقّق التّرابط والانسجام في نصوصه فيما استعمله من أدوات البلاغة التي تقاطعت مع لسانيات النّص في الكثير من العناصر، تجلّت في المقاميّة والقصدية والمقبوليّة والإعلامية وظاهرة الانسجام النّصي في بناء النّص النّبوي،

[1] ـــ المرجع نفسه، ص: 340.

مما جعل للمتلقي حضورا وتفاعلا تاما مع هذه النّصوص الّتي كانت على قدر كبير من التّماسك.

وتجدر الإشارة هنا، أن البلاغة النّبويّة فاقت النّظريات الحديثة الّتي دعت إليها لسانيات النّصّ، لأنّها صورة صادقة عن الحياة الّتي يعيشها الإنسان، فالنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم اجتمعت لديه تعدّديّة الأساليب لأنّه يخاطب النّاس على مستوياتهم المختلفة، واستطاع في كلّ أحاديثه وخطبه ورسائله وكلامه العام أن يحقق الأغراض المنشودة، وأن يصل إلى المتلقي الذّي استوعب كلامه على مرّ الأزمنة والعصور، وبذلك تكون هذه البلاغة أسمى بلاغة بشريّة على وجه الأرض.

خاتمة

حاولنا في هذا البحث إنجاز قراءة في "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية"لمصطفى صادق الرافعي، وبعد هذه المحطات العلمية والفصول اللغوية التي وقفت عندها على آليات التماسك النصي في هذه المدونة من خلال ثنائية الاتساق والانسجام برصد أهم مظاهرهما، فتوصّلنا إلى مجموعة من النّتائج يمكن تلخيصها في النّقاط التّاليّة:

- إنّ إجراءات لسانيات النّصّ حاضرة بقوّة وفاعلية عند العرب المحدثين فأفردوا لها مؤلّفات مختلفة الرؤى، مسايرين بذلك الرّكب الغربي، والتّطور الجاري في هذا المجال، كما نجدها عند علمائنا في العصر الحديث الّذين اهتموا بعلوم القرآن وغيرها من أجل إبراز تماسك النّصّ القرآني واعتباره وجها من الإعجاز.
- يعد التّماسك النّصّي بظاهرتيه المتميّزتين(الاتّساق والانسجام) أهمّ قضايا لسانيات النّصّ، فمن خلالهما يكشف عن مدى تماسك النّصّ من عدمه، ذلك أنّ الاتّساق يعنى بالعلاقات الشّكليّة، أمّا الانسجام فاهتمامه منصب على العلاقات الدّلالية بين العناصر اللّغويّة الّتي تربط بين أجزاء هذا النّصّ.
- أسهمت أدوات عدّة في تماسك النّصّ القرآني أدرجها الرّافعي في كتابه تمثّلت في : الإحالة، الاتّساق المعجمي(التّكرار، التّضام)، الاستبدال ...
- شغلت الإحالة النّصية حيّزا في تماسك النّص القرآني من خلال ظاهرة الالتفات الّتي درسها السّابقون وبيّنوا مكانتها في اتّساق النّصّ وذلك من خلال البنيّة السّطحية له.
- أدى الاستبدال وظيفة جمالية في الإعجاز، وذلكباستعمال مجموع الكلمة في مقام يستوجب الإفراد والاستغناء عن مفردها، أو استعمال مفرد الكلمة في مقام يستوجبالجمع واستبداله بمفردها.
- أضفى التّكرار في إعجاز القرآن اتّساقا وتأليفا في القرآن الكريم فقد وجد الرّافعي أنّ هذه الخاصيّة لها وقع في نفسيّة المتلقّي تجعله كالمثير لجلب انتباه القارئ أو المستمع لتفاعل مع النّصّ القرآني.
- إنّ أدوات الاتّساق الّتي أدرجت في مدوّنة الرّافعي تعمل على كشف التّماسك الشّكلي للنّصّ وهي متوافقة مع آليات الاتّساق لدى الغرب، فلم يخل كتاب الرّافعي من هذه العناصر الّتي تساعد في التّرابط السّطحي للنّصّ .
- معالجة الرّافعي تميّزت بالعمق في التّحليل، فقد أولى عناية بالغة بالاستهواء الصّوتي، وذلك بدراسته لأصوات الكلمة وعلاقة هذه الأصوات ببعضها، ودلالة الكلمة وقيمتها الجمالية في النّصّ.

- كان للرّافعي فهما خاصّا لبعض المعاني الخالصة من كلّ تقليد، ذلك أنّ معالجته لم تقتصر على آراء السّابقين فقط، بل كانت له رؤية للتّجديد والابتكار.
- اقتضت مظاهر الانسجام عند الرّافعي الوقوف على ظاهرة لغويّة عرفها القدماء والمحدثون على حدّ سواء وهي المناسبة التي تعمل على انسجام النّصّ القرآني.
- لم يقف الرّافعي على الملمح اللّفظي للمفردة، بل تتآلف عنده جمالية التّشكيل اللّفظي مع الدّلالة الإيحائية للمفردة القرآنية، فانسجام الأصوات وما تحمله من دلالات يرقى بهذه الألفاظ، وهذا النّظم إلى أعلى درجات البيان.
- اهتمّ الرّافعي بالجانب الإيقاعي، فجعل يستنبطه من الألفاظ وأجراسها ، متتبّعا في ذلك نظمها والدّلالات الّتي توحي إليها، مشيرا إلى أثر هذا الوقع الصوتي في النفس البشرية.
- اهتمّ الرّافعي بالفاصلة القرآنية واعتبرها أداة من أدوات الّتي تسهم في تماسك النّصّ لتوافقها الكبير مع الأصوات، ونوع الصّوت والطّريقة الّتي يتمّ بها آداء الصّوت، فأهميّة الصّوت لا تقتصر على الدّلالة أو الإيحاء وإنّما يمتاز بأهميّته التّجنيسيّة.
- اهتمّ الرّافعي بالمتلقّي جاعلا منه فاعلا أساسيّا في عمليّة التّواصل وذلك من خلال التّأثير ووقع الإيقاع الموسيقي القرآني في نفسه مثيرا بذلك استجابته مبديا تفاعله مع النّصّ سواء كان هذا المتلقّي قارئا أو مستمعا.
- اهتمّ الرّافعي بفكرة النّظم والّتي أجمعها في الحروف وأصواتها، والكلمات وحروفها والجمل وكلماتها، وهذه هي عماد الإعجاز عنده.
- يبدو واضحا أنّ الرافعي جدّ متأثّر بعبد القاهر الجرجاني إلّا أنّه انتهج لنفسه مسلكا معيّنا في معالجته لقضية الإعجاز القرآني ، فبدأ بأصغر وحدة بنوية للنّصّ وهي الحروف وأصواتها.
- أفاد الرّافعي من السّابقين وبخاصّة تأثّره بابن الأثير، وذلك أنّه تمثّله في جوانب من دراسته.
- اعتمد الرّافعي العديد من الظّواهر اللّغوية الّتي تتوافق مع ما جاءت به الدّراسات النّصيّة الغربية في تحديدها للتّماسك النّصّي .
- يعتبر الرّافعي أحد الرّواد الدّارسين للبلاغة النّبويّة، وقد عبّر عنها بطريقته الأدبيّة الخاصّة، وبيّن منزلتها في فنون البيان عامّة.

- تمحورت الدّراسة لآليات التّماسك النّصي في البلاغة النّبويّة عند الرّافعي على دراسة البيان النّبوي الذي تمّ الوقوف من خلاله على الأدوات المساهمة في انسجامه.
- أشار الرّافعي إلى ظاهرتي السّبك والحبك في البلاغة النّبويّة من خلال حديثه عن الصّناعة اللّغويّة والبيان والحكمة وعن النّظم، فالبلاغة النبوية لها نسقها الخاص، ففيها من الصّنعة المحكمة، وجوده التّناسب بين الأجزاء، والرّصف الجيّد، والبيان النّاصع، والحكمة البالغة، وتفرّد أسلوبه صلّى الله عليه وسلّم في هذه اللّغة.
- قام الرّافعي بالإشارة إلى معيار المقامية من خلال تركيزه على مدى ملاءمة الألفاظ النّبوية لمقتضى الحال، وذلك راجع لحسن اختيارها ودقّتها، والبلاغة النّبوية بعباراتها المتّسعة وألفاظها المتساوقة جعلت المقال يتناسب مع كل مقام، فرعاية الموقف كانت من أهم المميّزات الّتي احتوتها البلاغة النّبوية، فكانت نصوصه صلى الله عليه وسلّم مرتبطة بمواقف معينه حسب ما تقتضيه الأحوال.
- إنّ معياري القصدية والمقبوليّة في البلاغة النّبوية عاملان مهمّان في إنجاح العملية التّواصلية، فشخصية المتكلم المتمثلة في النّبي صلى الله عليه وسلم وسمة أسلوبه المتفرد، وبلاغته الفذّة التي لا تضاهيها بلاغة بشري جعلته يوظف الكلمة الموحية المناسبة المعبّرة عن المعنى، والتي تجعل المتلقي يتفاعل معها، مما يجعل معيار المقبولية في تراتب مستمر مع قصديّة المتكلم.
- يرى الرّافعي أنّ للبلاغة النّبويّة دعائم تعمل على انسجام النّص النّبوي وتماسكه متمثلة في عناصر ثلاثة وهي: القصد والخلوص والاستيفاء، وهي نسق البلاغة النبويّة.
- يشير الرّافعي إلى معيار الإعلامية في البلاغة النّبويّة عندما تحدّث عن جوامع الكلم، وبيّن غير المتوقّع في بعض الأحاديث النّبويّة الّتي أوردها، وكسرت بذلك توقع المتلقي، فالرسالة النّبويّة دورها الإبلاغ والإخبار، لذلك نجد النّبي صلى الله عليه وسلم يبدع في أساليب التعبير، لأنّ هذه الوظيفة لا تلزم المتكلم باتبّاع نمط معيّن من القول .
- يبيّن الرّافعي في مدوّنته أنّ البلاغة النّبوية أضفت للغة العربيّة رصيدا جديدا من حيث الألفاظ والمعاني والتّراكيب لم تعرف لها سابقة قبل النّبيّ صلى الله عليه وسلّم، وهذّبت استعمالات بعض الألفاظ، وبذلك تكون هذه البلاغة منطلق للتجديد والابتكار في المجال اللّغوي.

- لم يغفل الرّافعي عن دور المتلقي في تحليل النّص القرآني أو النّبوي، وذلك من خلال إدراك هذا الأخير للغة النّص وسياقه، ولابد لهذا المتلقي أن يكون متمرّسا لفهم كتاب الله أو سنّة نبيّه، لأنّه هناك تحفظات في هذا المقام، فالرّافعي في تحليله لإعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة وكأنّه يتعامل مع نوع معيّن من المخاطَب، حتّى يستطيع هذا الأخير الولوج إلى فكر الرّافعي من خلال ما أورده من دراسة وتحليل.
- إن دراسة الرّافعي لإعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة على الرّغم من أنّها بلاغيّة، إلّا أنّه تجاوز تلك البلاغة المعيارية، واعتمد وسيلة في التّحليل تقترب إلى الدّراسات النّصيّة، فتحدّث عن الانسجام والاتّساق، وبيّن حدود النّظم من وجهة نظره، فرغم تأثّره بسابقيه إلّا أنّه استطاع أن يضع لمسته الخاصّة في حديثه عن الحروف وأصواتها، الكلمات وحروفها، الجمل وكلماتها.
- إنّ الوقوف على مواطن الاتّساق والانسجام في النّصّ الدّيني حسب الرّافعي يوّدي إلى الفهم الصّحيح لهذه النصوص، فعلم اللّغة النّصي له أهميّة كبيرة في تحليلها لها، مع مراعاة التّحفظات.

ويبقى ما قدّمته هذه الدّراسة ما هو إلّا غيض من فيض، فمدوّنة الرّافعي"إعجاز القرآن والبلاغة النبويّة" لا تزال تحتاج إلى استنطاقات أخرى في مجال لسانيات النّص تختبر فيها آليات أخرى بإمكانها أن تبرز جماليتها وجاذبيتها، لأنّها ثريّة بالظّواهر اللّغويّة بما يكفي لإشباع رغبة الباحثين في الدّراسات النّصّيّة .

ملاحق

ـــ نبذة عن حياة مصطفى صادق الرافعي:

1 ـ نسبه ومولده:

مصطفى صادق الرافعي الأديب المصري ذو الأصول السورية، هو مصطفى بن عبد الرزاق بن سعيد بن عبد القادر الرافعي، ولد في أوائل يناير 1880م، بقرية بهتيم من محافظة القليوبية بمصر.

والده من رجال القضاء الشرعي بمصر، كان رئيسا للمحاكم الشرعية في كثير من الأقاليم، وهو واحد من أحد عشر أخا اشتغلوا كلهم بالقضاء من ولد الشيخ سعيد الرافعي، وكان لآخر أمر الشيخ عبد الرزاق رئيسا لمحكمة طنطا الشرعية، وفي طنطا كانت إقامته إلى آخر أيامه، وفيها مات ودفن، وفيها أقام المترجم وإخوته من بعدُ في بيت أبيهم، فاتخذوا طنطا وطنا ومقاما، لا يعرفون لهم وطنا غيرها ولا يبغون عنها حولا[1].

والأستاذ الرافعي حنفي المذهب كسائر أسرته، ولكنه درس مذهب الشافعي وكان يعتدّ به ويأخذ برأيه في كثير من مسائل العلم، وأمه سورية الأصل مثل والده بحيث كانت تحبه وتؤثره، وكان يطيعها ويبرها؛ وقد ظل إلى أيامه الأخيرة إذا ذكرها تغرغرت عيناه كأنه فقدها بالأمس، وكان دائما يحب أن يسند إليها الفضل فيما آل إليه أمره[2].

2 ـــ علمه وثقافته:

أشرف والده على تعليمه إلى أن أتمّ حفظ القرآن الكريم، واستفاد من مكتبة والده، ولم يزل يتعهده بتعاليم الدين الحنيف إلى أن تأكّد من أن الروح الإسلامية قد أخذت بمجامع قلبه، ثم التحق وهو في سن الثانية عشر بمدرسة"دمنهور" الابتدائية، وبعد ذلك أصيب الرافعي بمرض لم يبارحه حتى ترك حبسة في صوته ووقرا في سمعه فترك التعليم الرسمي، وعكف على التحصيل الشخصي في مكتبة أبيه ، ومكاتب طنطا المشهورة، ينهل من كنوزها، وما مضى إلا قليل حتى استوعبها، وأحاط بما فيها، بالإضافة إلى حرصه الشديد على قراءة ما تخطه

[1] ـ محمد سعيد العريان: حياة الرافعي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط3، 1375هـ ـــ 1955م، ص:27.

[2] ـــ المرجع نفسه، ص:27.

الجرائد والصحف والمجلات المطبوعة مما يتصل بالأدب، فيقرؤه وقد يرد على ما جاء فيه مما يستحق النقد، ولا يصحّ أن نغفل أثر قراءة الكتب الأروبية المترجمة في الفلسفة والأدب والأخلاق في اللغة العربية[1].

وتحت وطأة الظروف الصحية التي عاشها الرافعي، كانت مكتبة والده في هذه الحقبة من تاريخه هي دنياه التي يعيش فيها: ناسها ناسه، وجوّها جوّه، وأهلها صحابته وخلانه، وعلماؤها رواته، وأدباؤها سمّاره؛ فأخذ عنها العلم كما كان يأخذ المتقدمون من علماء هذه الأمة عن العلماء والرواة فما لفم؛ فنشأ بذلك نشأة السلف: يرى رأيهم، ويفكر معهم، ويتحدّث بلغتهم، وتستخفّه أفراحهم، وتتراءى له أحلامهم ومناهم[2] وبذلك اجتمعت له كل أسباب المعرفة والاطلاع، وعرف العلم سبيله من نافذة واحدة من نوافذ العقل إلى رأس هذا الفتى الذي هيّأته القدرة الإلهية بأسبابها والعجز بوسائله ليصبح أديبا من أدباء العربية.

كان الرافعي يأسف أحيانا على هجر مدرسته ويمني نفسه أن يعود إليها في وقت فراغ، لكن مثله لن يجد وقت فراغ للمدرسة، هذه هي ثقافة الرافعي، وتلك وسائله إلى المعرفة، وظل على هذا الدأب في القراءة والاطلاع حتى لآخر يوم من عمره، ولا تجد الرافعي وحده أينما كان إلا وفي يده كتاب، وذلك دليل على حبه الشديد للقراءة.لا جرم أن شعر هذا الشاب الناهض بغصّة في صدره إذ حيل بينه وبين التعليم الثانوي، ولكن المدرسة ليست وحدها باب الثقافة الفريد،فالكتب أكبر وسائل هذه الثقافة، وسيأخذ منها ما يروق مشربه، ويوافق منحاه، وهو حينئذ أكثر انطلاقا وأشدّ حريّة من طالب التعليم الثانوي[3].

اشتغل كاتبا في محكمة"طلخا" مدة ثم نقل إلى محكمة"إيتاي البارود" الشرعية، ثم إلى "طنطا" من المحكمة الشرعية إلى المحكمة الأهلية بعد سنتين، لأنه رأى في المحاكم الأهلية أوسع أفقا، والعمل فيها أيسر جهدا وأكثر أجرا، وظل في محكمة"طنطا" الأهلية إلى يومه الأخير، ولم يكن يرى الوظيفة إلا شيئا يعينه

[1] ـ حسين حسن مخلوف: مصطفى صادق الرافعي حياته وأدبه، كتاب مجلة الهلال، العدد 205، جمادى الأول، 1396هـ ـ ماي1976، ص: 21، 22.

[2] ـ محمد سعيد العريان: حياة الرافعي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر،ط3، 1375هـ ـ 1955م،ص: 31 .

[3] ـ محمد رجب البيومي: مصطفى صادق الرافعي فارس القلم تحت راية القرآن، دار القلم ، دمشق، ط1، 1417هـ ـ 1997م،ص: 23 .

على العيش، ليفرغ لنفسه ويُعدُّها لما تهيّأت له، فما انقطع غن المطالعة والدرس يوما واحدا، وما أكثر ما كان ينقطع عن وظيفته.

3ــ زواجه:

تزوج الرافعي في سن الرابعة والعشرين من عمره، وزوجه مصرية صريحة النسب، من أسرة البرقوقي المعروفة، وأخوها الأستاذ عبد الرحمن البرقوقي صاحب " البيان"(ت 1945م)، وقد كانت صلة الأدب بين الرافعي وعبد الرحمن البرقوقي هي أول السبب في هذا الزواج، يقول الرافعي عن قصة زواجه:"كنت في الرابعة والعشرين، وكنت أعرف عبد الرحمن البرقوقي نوعا من المعرفة التي تربط بين شابين ترافقا في الطبع، واتفقا في الغاية: وكان عبد الرحمن طالبا أزهريا ولوعا بالأدب، له حظوة ومكان عند الأستاذ الإمام، إذ كان أحد تلاميذه "وكنا نلتقي أحيانا؛ فسرني منه ما سره مني؛ وكان يعيش عيشة مترفة ليست منها حياة الأزهريين؛ إذ كان له من غنى أبيه ومن جاه أسرته عز وكرامة.. فما تعارفنا حتى تصافينا، ثم اتصل بيننا الودّ، فكنت له ــ وكان لي ــ أصفى ما يكون الصديق للصديق...

لم أكن أعرف له أخا أو أختا، ولم يجر في بالي قطّ أنّ الصلة بيننا ستتجاوز ما بيننا، حتى كان يوم جلست فيه أتحدّث إلى نفسي، فكأنني سمعت صوتا من الغيب يهتف بي أنّ صديقي عبد الرحمن هو صهري وأخو زوجي... وانتبهت وأنا أسأل نفسي: أله أخت؟ ياليت...!لو كان إنني إذن من السعداء...[1].

ويواصل سعيد العريان سرد قصة زواج الرافعي على لسانه قائلا:" وكانت نفسي في الزواج، فما هي إلا أن تحرّك في نفسي هذا الخاطر حتى سعيت إلى صديقي عبد الرحمن، وقلت له وقال لي، وجرّنا الكلام إلى حديث الزّواج، فقلت لصاحبي: من لي يا أخي بالزوجة التي أريد؟ ووصفت له الفتاة التي تعيش في أحلامي؛ فلما فرغت من حديثي قال صاحبي: أنا لك بما تريد. قلت: أتعرف؟قال: هي هدية أقدّهما إليك.قلت: من؟قال: أختي!"[2].

قال الرافعي: "وغشيني غشية من الفرح، فما تلبّثت حتى مددت أليه يدي فقرأنا الفاتحة، وما وقع في نفسي وقتئذ أنّني أمدّ يدي لأخطب عروسي لنفسي، ولكني أمدها لأتعرّف على العروس التي خطبتها عليّ الملائكة وأثبتت نبأ الخطبة في علم الغيب"[3].

---

[1] ــ محمد سعيد العريان: حياة الرافعي، مرجع سابق، ص:60.

[2] ــ المرجع نفسه، ص60.

[3] ـ المرجع نفسه، ص60.

بهذه الكلمات التي أقرّها الرافعي عن زواجه، يتبيّن لنا عاطفية هذا الأديب، ولابد من وقع لهذه العاطفة على أدبه، وتأثره الدائم بانفعالاته، فهو يرجع دائما ما يستنتجه من آراء وأفكار إلى تلك الانفعالات النفسية التي تصدر من الطبيعة البشرية، وقد استمر زواجه ثلاثا وثلاثين سنة، وأسس بيتا مبنيا على ميثاق غليظ، يعيش فيه عيشة مثالية عالية، فكان الزوج والأب معا كما يجب أن يكون، وهيّأ له هذا الاستقرار الجوّ المناسب للحياة الأدبية، وأعبائه العلمية، فإلى هذه الزوج الفاضلة"يعود الفضل الآخر الذي وافى بالخير على الرافعي الأديب، وقد ارتفع به من الشاعرية والوجدان حتى بلغ ضمير الأمة في البلاغة والفكر، والإمامة في فقه بيانها"[1].

4 ــ وفاته:

توفي الرافعي يوم الاثنين التاسع والعشرين من صفر 1335ه، الموافق ل:01 ماي 1937م، عن عمر يناهز سبعا وخمسين سنة، مخلفا فراغا كبيرا في الحياة الأدبية آنذاك.

5 ـ حياته الأدبية:

كانت حياة الرافعي الأدبية زاخرة بالأعمال الخالدة، فأديبنا كان شاعرا وكاتبا في آن واحد، وأوّل ما نبدأ ه حياته الأدبية هو الشعر لننتقل بعدها إلى الكتابة.

5 ـ 1ـ الرافعي الشاعر:

مال الرافعي في أيام يفاعته إلى الوحدة والانطواء على نفسه أحيانا، كان كثير التأمل لذلك عهد الابتعاد عن الناس، والمتنفس الوحيد لهمومه وأحزانه هو الشعر، يحفظ من روائعه، ويتمثل به، ثم ينسج على منواله، فكانت أول محاولاته الأدبية في ــ أوّل أيّامه ــ منظومة جارى فيها شيخ الإسلام تقي الدين بن تيميّة في "ذم الهوى".

لقد سلك السبيل إلى الشعر والقول، فما كاد يرسل فيه بعض القوافي حتى تلفّت حواليه كأنّه يبحث عن الصدى، فأطال الحديث له في "الشعر العربي" دار فيه مع فنونه جميعا، وعرف أغراضه وجمع عناصره، وقال في بديعياته وموشّحاته وأزجاله،..وقدح في القديم وأهاب إلى أن يُنْظَر إلى ما يقوله الشاعرون

[1] ــ محمد رجب البيومي: مصطفى صادق الرافعي فارس القلم تحت راية القرآن، مرجع سابق، ص:117.

من شعر فيه روح العصر؛ وكأنّه يرشّح نفسه أو يعرض بضاعته، ويستلْفت الأنظار إليها بما يعلمه من الشعر[1].

وما يميز الرافعي قوة الإرادة ومحاولته أن يتربع على مرتبة سامية في الشعر، وإن مرت عليه أيام، ربما كان يشعر أن جهده لم ينلْه بفنّه الشعري المنزلة التي يطمح، فكان له من قلمه الآخر في التصدي لشعراء العصر بتقويم يوزّعهم في درجات، ونقده اللاذع لهؤلاء الشعراء قد أثار عاصفة الأدباء، جعلت الصحافة تشْتَجِر فيما بينها، وتدور في معاني النقد والموازنة، والامتياز لها مكانها في تاريخ الأدب الحديث[2]، ويبدو أن الرافعي قد خاطر من جعل قلمه الآخر سليطا على الشعراء، فقد مسّ أكثر من شاعر في بعض خصائصه، كما سلّط قلمه بالغمز واللمز تارة، وبالنقد الموجع تارة أخرى.

وبهذه الروح المخاطرة في المباراة أسرع فأخرج ديوانه الأول، يُثبِت فيه وجوده الشاعر، ويأخذ مكانه بجدارة الفارس، ويكسِب من الثناء عليه وإطراء نعْتِه وأدبِهِ[3].

5 ــ 2- ــ فنون النثر والكتابة عند الرافعي:

من "خلال استقرار الرافعي وإطالة الوقوف أمام آثاره الأدبية ندرك مقدار الرضا والشعور بالانسجام مع الموفق الأدبي الذي اختار أن يجده في حياته بالرغم مما كان يسبب له من منغصات الآلام ومن مثيرات الشجون"[4]، بحيث أنه لم يدع فنّا من فنون الكتابة والنثر العربي إلا ونجد له لمسات متميزة بأسلوبه الذي حظي به.

عُرف الرافعي كاتبا أديبا مشاركا، له في الكتابة العربية صفحات يشار إليها بالانفراد، وتوصف بالامتياز من ناحية الأسلوب، وتُنعت بما حفِلت به من المعاني والجدّ في شعبها وتوليدها،...

حيث تكون شخصيته واضحة في معظم الفصول التي أنشأها، والأبواب التي كتب فيها، والموضوعات النّي تحرّى فيها التّجديد، والتفسيرات التي حاول بها فقه الحياة بدراسته وتأمّل[5]، والمنزلة الرفيعة في الأدب والكتابة العربية كان سببها الثقافة والتربية التي تلقاها، وهي بالأحرى جوانب شخصية ساهمت في بروز تلك

---

[1] ــ محمد رجب البيومي: مصطفى صادق الرافعي فارس القلم تحت راية القرآن، مرجع سابق، ص: 120.

[2] ــ ينظر : المرجع نفسه، ص:121 .

[3] ــ نفسه، ص:121.

[4] ــ عبد العزيز المقالح: عمالقة عند مطلع القرن، ط1 ، منشورات دار الآداب، بيروت، 1404هـ ــ1983م، ص123.

[5] ــ المرجع نفسه، ص: 303.

المقوّمات التي استمدها من الأسرة الرافعية التي نبغت وحرصت على أصول الفقه وعلومه الإسلامية.

6 ــ آثاره:

رحل الرافعي مخلفا وراءه رصيدا كبيرا من الأعمال الأدبية والتي تزاوجت بين شعر ونثر، أثرت المكتبة العربية، ومن بين هذه الأعمال الخالدة:

ـــــ وحي القلم
ـــــ أوراق الورد(رسائلها ورسائله).
ـــــ رسائل الأحزان في فلسفة الجمال والحب.
ـــــ كتاب المساكين.
ـــــ تحت راية القرآن.
ـــــ حديث القمر.
ـــــ السحاب الأحمر.
ـــــ ديوان الرافعي.
ـــــ ديوان النظرات
ـــــ على السفود، نظرات في ديوان العقاد.
ـــــ من روائع الرافعي ـــــ7 ــ السمكة
ـــــ رواية حسام الدين الأندلسي
ـــــ كلمة وكليمة
ـــــ عروس تُزفُّ إلى قبرها
ـــــ السّحاب الأحمر.
ـــــ القلب المسكين.
ـــــ موت أم والسمكة.
ـــــ السمو الروحي الأعظم والجمال الفني في البلاغة النبوية.
ـــــ رسائل الرافعي.
ـــــ تاريخ آداب العرب.
ـــــ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية.

إن هذه الأعمال الخالدة التي أثرت المكتبات العربية قد تنوعت من حيث المضامين، واختلفت في تصنيفاتها ، فقد صنفت هذه الكتب في أقسام، منها ما ينتمي إلى قسم الأدب، ومنها ما تكون وجهته إلى فلسفة العلوم والاستيمولوجيا، وآخر في علم البلاغة والنقد الأدبي، كما كان له مجال في الروايات والقصص العربية، وديوانين في الشعر إضافة إلى الإعجاز العلمي في القرآن والسنة.

فمصطفى صادق الرافعي بهذا الرصيد الأدبي، والكم المعرفي يعتبر موسوعة أدبية، اتسم بأسلوب متميز ومتفرد، وهذا الأسلوب وليد بيئة، وفُطِر عليه

ملاحق: نبذة عن حياة الرافعي ومدونته

منذ نعومة أظافره"فقد نشأ الرافعي من أوليته أديبا يريد أن يشعر ويكتب ويتأدّب، وسلخ شبابه يعمل حتى أمكنته اللغة من قيادها وألقت إليه بأسرارها فكان عالما في العربية يقول الشعر...وعرف حقيقة أدبه وما ينبغي له وما يجب عليه...لهذا كان الرافعي من الكتاب والأدباء والشعراء الذين تُتّخذُ حياتُهم ميزانا لأعمالهم وآثارهم"[1].

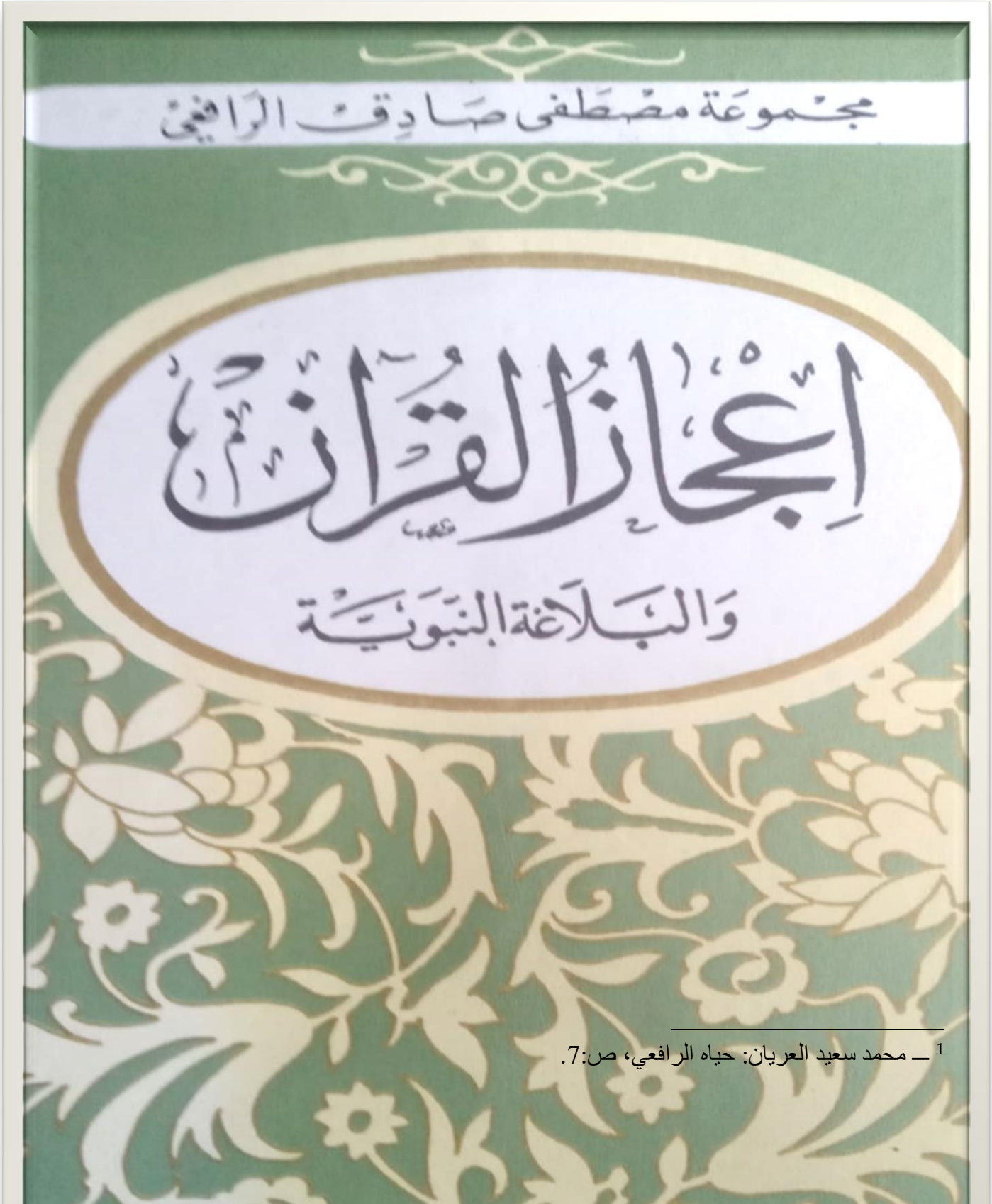

[1] ــ محمد سعيد العريان: حياه الرافعي، ص:7.

هذا الكتاب

ليس لكلام بشري - مهما سما وعلا - ان يدّعي كمال وصف ما جاء في القرآن، أو يأمل الوصول الى بيان إعجازه، فيُبرز نواحي ذلك الإعجاز، ويوفّيه!...

إذن، ما الذي دفع سعد زغلول إلى أن يقول عن كتاب الرافعي هذا «.. كأنه تنزيل من التنزيل، أو قبس من نور الذكر الحكيم..»!

وجعل محمد رشيد رضا يحض الناس على قراءته «.. بقية الاستعانة على النبوغ في بلاغة لغتهم، والتفقه في كتاب الله تعالى، وتعرّف الشيء الكثير من أسرار إعجازه، مما لا يجدونه في غيره...»؟..

ودعا يعقوب صروف إلى الدعوة له بقوله «يجب على كل مسلم عنده نسخة من القرآن: ان تكون عنده نسخة من هذا الكتاب»؟.

لا شيء سوى التوفيق الذي كلّل به الدّيان مجهود عبده «الرافعي» فيجعله يضع عن:

«إعجاز القرآن والبلاغة النبوية»

أروع وأنفذ وأشمل كتاب - عبر العصور - نقدمه بفخر واعتزاز صامتين، زعيمين بإفادة كل قارئ عربي منه.

الناشر

المؤلف مكانة مرموقة بين أدباء عصره، وشغل به العلماء، وهذا الكتاب يتضمن العلم والبيان الرفيع ،بحيث يجد فيه كل طالب طلبه في هذا المجال. في السنة التالية من إتمام هذا المؤلف، أصدر الرافعي الجزء الثاني من تاريخ آداب العرب، وموضوعه إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، وهو الذي أصدره باسم "إعجاز القرآن" .

إذن فهذا الكتاب يعتبر جزءا من كتابه الأول وقد أفرده المؤلف في مدونة خاصة تحمل هذا العنوان وتعالجه، فكان رحمه الله"أول من خص الإعجاز القرآني بكتاب مستقل في العصر الحديث"[1]، وأسلوب الرافعي في هذا الكتاب قويّ جدا لدرجة أنه يصعب على جمهور الناس فهمه واستيعابه، بحيث سطّر الرافعي كتابه على نحو أسلوبي يرهق القارئ المتخصص، فما بال القارئ إذا لم يكن متخصصا.

ولو أتيح للرافعي أن ييسّر هذا الأسلوب بعض الشيء، كما فعل في مقالاته التي جمعت في وحي القلم، لكان الأمر أسهل وأيسر على عامة الناس ولأثمر الكتاب ثمرا خاصا ولعل الأسباب ترجع إلى أن الرافعي في تعامله مع النص القرآني وخاصة قضية الإعجاز، لابد له من أن يرتقي بالأسلوب ارتقاء يتيح له أن يقتبس ما يستطيع من أنوار الكتاب المعجز، ولقد أثبتت بعض الدراسات أن ثمّة فارق بين أسلوب الرافعي في الجزء الأول"تاريخ آداب العرب" وأسلوبه في الجزء الثاني"إعجاز القرآن والبلاغة النبوية" على الرغم من أن الرافعي هو الرافعي في سمُوّه البياني[2]، وكل ما خطّه في كتبه يشير إلى هذا السمو الرائع.

الأمر الآخر في تأليف "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية" لم يكن بالشيء السهل أو الهين كما في بقية مؤلفاته، حيث تعب الكاتب فيه تعبا شديدا، وقد اعترف بذلك في إحدى رسائله لمحمود أبو رية قائلا:"...وأمراضي كلها عصيبة وقد ترادفت منذ فرغت من الجزء الثاني من "التاريخ" لأني تعبت فيه إلى أقصى ما يحتمل جسمي وعقلي، ولذلك تراني أكتب يومين أو ثلاثة ثم أضطرّ إلى ترك الكتابة عشرة أيام أو أكثر، مع أن جسمي والحمد لله غير ضعيف ولكن أعصابي

[1] ــ محمد رجب البيومي: مصطفى صادق الرافعي، فارس القلم تحت راية القرآن، ص:93.
[2] ــ ينظر: المرجع نفسه، ص:93.

قد تأثرت من دماغي كثيرا"[1]، وهذه الرسالة لدليل على أن الكتابة في الإعجاز ليست بالأمر الهيّن، ويبدو أن الرافعي قد أدرك حجم المسؤولية التي يتحمل أعباءها وهو يتعامل مع كتاب الله، ولكي يستطيع أن يوصل الرسالة التي من أجلها فتح آفاق الكتابة في إعجاز القرآن الكريم.

إنّ تعب الرافعي والجهد الذي بذله في هذا المجال لم يذهب سدى، فقد "قوبل الكتاب بما يستحق من التقدير، ومع أن زعيم الأمة المحامي المِدْره والخطيب البليغ سعد زغلول رحمه الله لم يكن من عادته أن يتحدّث عن الكتب الأدبيّة تحريريا، فقد بهره كتاب الرافعي"[2]، ومن أجل ذلك وجه سعد زغلول كلمته للأديب جاءت في فاتحة الكتاب"إعجاز القرآن" تحدث فيها على تحدي القرآن لأهل البيان في عبارات عبّر عنها بالفارغة المحرجة على أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو بسورة منه، ولكنهم عجزوا على ذلك، والسبب يعود إلى أثر ذلك الكلام العزيز، يواصل سعد زغلول كلمته مخاطبا الرافعي قائلا:"وأن أقواما أنكروا هذه البداهة وحاولوا سترها، فجاء كتابكم"إعجاز القرآن" مصدقا لآياتها، مكذّبا لإنكارهم، وأيّد بلاغة القرآن وإعجازَها بأدلة مشتقة من أسرارها، في بيان مستمد من روحها، كأنّه تنزيل من التنزيل، أو قبس من نور الذكر الحكيم، فلكم على الاجتهاد في وضعه والعناية بطبعه شكر المؤمنين، وأجر العاملين، والاحترام الفائق"[3]، وكان في فاتحة الكتاب كلمات أخرى لمحمد سعيد العريان، ومحمد رشيد رضا، وكلمة الدكتور يعقوب صروف منشئ"المقتطف" شيخ المجلات العربية يقول فيها:"يجب على كل مسلم عنده نسخة من القرآن، أن تكون عنده نسخة من هذا الكتاب"[4]، وهذه الكلمات تدل على القيمة العلمية والأدبية والبلاغية لهذا المؤلّف.

8 ــ محتوى المدونة:

كتاب "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية" يتكون من قسمين مهمّين، القسم الأوّل منه تناول إعجاز القرآن الكريم، أمّا القسم الثاني فأفرده الرافعي للبلاغة النبوية.

---

[1] ــ مصطفى صادق الرافعي: رسائل الرافعي، ويليه الرسائل المتبادلة بين شيخ العروبة أحمد زكي باشا والأب انستاس ماري الكرملي، الدار العمرية،(دط)،(دت)، ص:27.

[2] ــمحمد رجب البيومي: مصطفى صادق الرافعي، فارس القلم تحت راية القرآن، ص:94.

[3] ـ كلمة سعد باشا زغلول، الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص: 8.

[4] ـ المرجع السابق، ص:23.

أ/ القسم الأوّل، إعجاز القرآن:

الباحث أو القارئ الذي يتناول هذه المدونة بالبحث أو القراءة على حد سواء، أول ما تقع عليه عينه في فاتحة كتابه تلك الكلمات التي أشرنا إليها سابقا حول هذا المؤلَّف، مرفوقة بكلمة المؤلِّف في طبعتها الثالثة والأولى.

قسّم المؤلف المدوّنة إلى فصول بدأها بالقرآن ووصفه والنّهج الذي اعتمده الكاتب في التأليف، ثم تتوالى الفصول متضمنة المواضيع الآتية: (تاريخ القرآن، القراءة وطرق الآداء، القراء ووجوه القراءة، قراءة التلحين، لغة القرآن الأحرف السبعة، مفردات القرآن، تأثير القرآن على اللغة، الجنسية العربية في القرآن، آداب القرآن، القرآن والعلوم، سرائر القرآن، تفسير آية، إعجاز القرآن، فصل في معنى الإعجاز، الأقوال في الإعجاز، مؤلفاتهم في الإعجاز، التحدي والمعارضة، أسلوب القرآن، نظم القرآن وإعجاز تأليفه، واقفا في ذلك على مدار النّظم عنده والمتمثل في الحروف وأصواتها، الكلمات وحروفها، الجمل وكلماتها،وفصل حول غرابة أوضاع القرآن التركيبية ثم يعرج للحديث عن البلاغة في القرآن وصولا إلى الطريقة النفسية في الطريقة اللسانية، وفي الأخير، إحكام السياسة المنطقية على طريقة البلاغة.

كانت هذه عناوين الفصول التي تصدرها كتاب إعجاز القرآن والبلاغة النبوية في قسمه الأول، حيث أخذ الرافعي كل فصل بالشرح والتحليل إلا أنه في بعض المواقف اعتمد على التنظير، ولم يقدّم جانبا تطبيقيا، الأمر الّذي يجعل أي باحث يقف على هذه الأمور النظرية فيستوعبها ومن ثم يسقطها على الآيات لتتضح فكرة الرافعي تطبيقيا وتكون أكثر عمقا.

ب/القسم الثاني، البلاغة النبوية:

رأى فيها الأديب من المزايا ما يجعلها تقرن بإعجاز القرآن، وقد جعل لهذه البلاغة في مدونته فصولا مختلفة، فقد افتتح الرافعي مجال البلاغة النّبويّة بحديثه عن البلاغة الإنسانية، وبعدها جعل المجال الواسع لبلاغته صلى الله عليه وسلم، فكانت الفصول على التوالي: فصاحته، صفته، إحكام منطقه، اجتماع كلامه وقلّته، نفي الشّعر عنه، تأثيره في اللّغة وصولا إلى نسق البلاغة النّبويّة ودعائمها).

وبما أنّ موضوع الدّراسة تجلى في مجال الدّراسات النّصية كان للبلاغة النبوية رصيد متميّز في هذا المقام، وذلك يدلّ على أنّ الرّافعي استطاع أن يسير على نهج علماء النّص في تعامله مع النصالقرآني،والنص النبوي.

فهرس المصطلحات

المصطلحات باللّغة الإنجليزية	المصطلحات باللّغة العربيّة
Sentence	الجملة
Text	النص
Discourse	الخطاب
Sentence grammar	نحو الجملة

Text grammar	نحو النّص
Linguistics of the text	لسانيات النّص
Textuality	النّصّية
Cohesion	الاتّساق، السّبك، الربط
Coherence	الانسجام
Reference	الإحالة
Pronouns	الضّمائر
Message	رسالة
PROGRESSION	توال
Substitution	الاستبدال
Ellipsis	الحذف
conceeptuual conectivity	التّرابط المفهومي
Reiteration	التّكرار
Collocation	التّضام
Endaphara	إحالة داخل النّصّ
Exophara	إحالة خارج النّصّ
Anaphora	إحالة قبليّة
Cataphora	إحالة بعديّة
Nominal Substitution	استبدال اسمي
Verbal Substitution	استبدال فعلي

Clausal Substitution	استبدال قولي
INTENTIONALITY	القصد
ACCEPTABILITY	القبول
SITUATIONALITY	رعاية الموقف
INTERTEXTUALITY	التّناص
INFORMATIVITY	الإعلاميّة
STATES	حالات
Knowledgestate	الحالة المعلوميّة
emotional state	الحالة الانفعاليّة
social state	الحالة الاجتماعيّة
CHANGE	التغيّر
Current controls	الضّوابط السّائدة
CHRONIC SYSTEM	نظام متزامن

المصادر والمراجع

القرآن الكريم
1. مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت، 1410هـ ـ 1990م .
2. ابن أبي الأصبع زكي الدين عبد العظيم بن عبد الواحد المصري(ت654هـ):تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تح: حفني محمد شرف، ط1،لجنة إحياء التراث الإسلامي، الجمهورية العربية المتحدة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامي، القاهرة،1380هـ ـ1963م .
3. ابن جني:الخصائص، ت:عبد الحميد هنداوي، ج1،دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1424ه-2002م .
4. ابن جني: اللمع في العربية، ت:حسين محمود شرف، عالم الكتب، بيروت، ط2، 1979م ـــ محمد بن إدريس الشافعي: الرسالة، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية، 2006م، بيروت، لبنان
5. ابن سنان الخفاجي: أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد الحلبي(466هـ)، سر الفصاحة، شرح وتصحيح: عبد المتعال الصعيدي، مطبعة ومكتبة محمد علي صبيح وأولاده، القاهرة، 1389هـ ـــ 1969م .
6. ابن منظور: لسان العرب ، المجلد الأول، طبعة دار صادر، ط3،بيروت
7. ابن منظور: لسان العرب، المجلد العاشر، طبعة دار صادر، ط3،بيروت
8. ابن منظور:أبو الفضل جمال الدين بن محمد،لسان العرب، دار صادر،ط3، بيروت،1414ه-1994م، ج13
9. ابن هشام الأنصاري المصري: أبو محمد جمال الدين بن يوسف بن أحمد بن عبد الله، مغني اللبيب عن كتاب الأعاريب، طبع دار الشام للتراث، بيروت،(دت).
10. أبو الحسن علي بن عيسى الرماني: لنكت في إعجاز القرآن،(ت 384ه)، ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز،، حققها وعلق عليها: محمد خلف الله أحمد/ ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر،ط2، (دت).
11. أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني: إعجاز القرآن،تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر،2009م.
12. أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي: البيان في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز، حققها وعلق عليها: محمد خلف الله، د.محمد زغلول سلام، ط2، دار المعارف، مصر.

13. أحمد بن فارس بن زكريا، مقاييس اللغة: تحقيق شهاب الدين أبو عمرو، دار الفكر، بيروت، 1994م .
14. الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النّيسابوري(206 ــ 261هـ):صحيح مسلم، ج1، وقف على طبعه وتحقيق نصوصه: محمد فؤاد عبد الباقي، ط1 ،1412ه ـ 1991م، دار الحديث، بيروت .
15. الإمام أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي: دلائل الإعجاز، قرأه وعلق عليه: أبو فهر محمود محمد شاكر، الناشر مكتبة الخانجي، القاهرةّ
16. الإمام برهان الدين أبي الحسن إبراهيم البقاعي ت(885هـ):نظم الدرر في تناسب الآيات والسور،تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي، ط2،دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،1424هـ ــ2003م، ج1.
17. الأمير أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي (ت466هـ): سرّ الفصاحة، تحقيق: علي فوده، مكتبة الخامجي، المطبعة الرحمانية بمصر،ط1، 1350هـ ـ 1932م .
18. الباجيأبو الوليد(ت474ه):المنهاج في ترتيب الحجاج،، تحقيق عبد المجيد تركي، دار الغرب الإسلامي، بيروت ، ط3، 2001م
19. الباقلاني: أبو بكر محمد بن الطيب، إعجاز القرآن،تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر،2009م.
20. الجاحظ: البيان والتبيين، تح: عبد السلام هارون، ج2 ، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط7 - 1418ه ــ 1998م.
21. الجرجاني: التعريفات، دار الكتاب اللبناني/المصري ، بيروت /القاهرة،ط1 ، 1991م
22. الخطيب القزويني، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن بن عمر بن أحمد بن محمد(ت739هـ): الإيضاح في علوم البلاغة ، المعاني والبيان والبديع،وضع حواشيه إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1 ، 1424هـ ـ 2002م.
23. الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق صفوان داوودي، دار القلم، دمشق، 1992م ،

24. الزركشيأبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله: البرهان في علوم القرآن،ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط1،1376ه ،ج2.
25. الزمخشري: أساس البلاغة ،تحقيق محمد باسل عيون السود، مادة (نصص)،ج2 .
26. الزمخشري، جار الله: المفصل في صنعة الإعراب، تح: علي بوملحم، دار مكتبة الهلال، بيروت، ط1 .
27. سيبويه: الكتاب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مطبعة الخانجي، ط3، 1408هـ – 1988م – ج1.
28. ضياء الدين ابن الأثير(273هـ): المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر،تحقيق: أحمد الحوفي، د.بدوي طبانة، نهضة مصر، القاهرة، (دت)، ج3، ط2، 1997م
29. الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن: مجمع البيان في تفسير القرآن، ج6، تحقيق السيد هاشم الرسول المحلاتي والسيد فضل الله اليزدي، دار المعرفة، بيروت، 1986م
30. العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل:كتاب الصناعتين، الكتابة والشعر، تح: محمد علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط2، دار الفكر العربي .
31. علي صدر الدين ابن معصوم المدني(ت 1120ه): أنوار الربيع في أنواع البديع، تحقيق: شاكر هادي، الناشر:مطبعة النعمان، النجف الشريف،1996م
32. الفيروز أبادي(مجد الدين محمد بن يعقوب): القاموس المحيط، ضبط وتوثيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ، لبنان، (دط)، 1999م
33. الفيروز أبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب،(ت 817هـ)، القاموس المحيط، ضبط وتوثيق يوسف الشيخ محمد البقاعي، إشراف مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1426هـ – 2005م.
34. القاضي عياض(أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض): الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم، ت(476ه – 544ه)، تقديم وتحقيق: عامر الجزار، ج1 ، دار الحديث، القاهرة.

35. مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، مشكلات الحضارة، تقديم، محمد عبد الله دراز/ محمود محمد شاكر،دار الفكر،دمشق ـ سوريا، ط4، (1987م)، إعادة، 1420ه ـ2000م ،
36. المبرد: المقتضب، ج1 ،تح، عبد الحسين عقيمة، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة ،ط2 ،1979م .
37. محمد بن إدريس الشافعي: الرسالة، تحقيق أحمد محمدشاكر، بدون بيانات.
38. محمد علي التهانوي: كشاف إصطلاحات الفنون، تقديم وإشراف ومراجعة: رفيق العجم ،القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب، ج2، 1972م.
39. محمد الطاهر ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج1 الدار التونسية للنشر، (دط)، (دت) .
40. محمد عبد العظيم الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن، حققه واعتنى به: فوّاز أحمد زمرلي عفا الله عنه، ج1، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1415هـ ــ 1995م .

قائمة المراجـــع:

41. إبراهيم أنيس: دلالة الألفاظ، الناشر مكتبة الأنجلو مصرية، 1976م، ط3.
42. أبو بكر بن محمد فوزي البخيت: خصائص الأسلوب القرآني، كرسي القرآن الكريم وعلومه، ط1 ، ص1436هـ ، جامعة الملك سعود، الرياض.
43. أبو فهر محمود محمد شاكر: مداخل إعجاز القرآن، مطبعة المدني، مصر .
44. أحمد الزغبي، التناص نظريا وتطبيقيا: مؤسسة عمون للنشر والتوزيع، 2000م، عمان
45. أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، بنية الخطاب من الجملة إلى النص، ط1 ، الرباط، المغرب، دار الأمان للنشر والتوزيع، 2001م .
46. أحمد حسن الزيات: تاريخ الأدب العربي، دار الثقافة، بيروت، 1978م.
47. أحمد عفيفي،نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي،ط1،مكتبة زهراء الشرق، 2001م
48. أحمد مختار عمر: علم الدلالة، عالم الكتب، القاهرة، ط4، 1993م.

49. أحمد يوسف علي: قراءة النص في الموروث النقدي، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط2 ،2008م .
50. الأزهر الزناد: نسيج النص، بحث في ما يكون به الملفوظ نصا،ط1،المركز الثقافي العربي،1993م أشرف عبد البديع عبد الكريم، الدرس النحوي النصي في كتب إعجاز القرآن الكريم، مكتبة الآداب، القاهرة، 2008م،
51. إلياس أنطون إلياس: قاموس إلياس العصري، دار الجليل، بيروت، 1972م،
52. بشير إبرير: السيميائية وتبليغ النص الأدبي، ضمن كتاب(السيميائية والنص الأدبي)، منشورات جامعة عنابة باجي مختار، الجزائر ، 1995م.
53. بغدادي بلقاسم: المعجزة القرآنية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
54. بن يحي الطاهر نعوس: تحليل الخطاب القرآني في ضوء لسانيات النص، دراسة تطبيقية في سورة البقرة، دار القدس العربي، 2014م،وهران .
55. تامر سلوم: نظرية اللغة والجمال في النقد العربي، دار الحوار، اللاذقية، سوريا، ط1، 1983م .
56. تمام حسان: اجتهادات لغويّة، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 2007 م.
57. تمام حسان: مفاهيم ومواقف في اللغة والقرآن، عالم الكتب، القاهرة، ط1 ،2010م
58. جميل عبد المجيد: البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، الهيئة المصرية للكتاب، مصر، 1988م
59. جودة مبروك: التكرار وتماسك النص، قصائد القدس لفاروق جويدة نموذجا، مكتبة الآداب، ط1 ، القاهرة، 1429هـ ــ 2008م.
60. جوزيف ميشال: دليل الدراسات الأسلوبية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1984م .
61. حاتم صالح الضامن: نظرية النظم، تاريخ وتطور، منشورات وزارة الثقافة والإعلام،، 1979م .
62. حسام أحمد فرج: نظرية علم النص، رؤية منهجية في بناء النص النثري، مكتبة الآداب، ط1 ، القاهرة، 2007م.
63. خلود العموش: الخطاب القرآني، دراسة غفي العلاقة بين النص والسياق، جدار للكتاب العالمي،عالم الكتب الحديث، ط1 ، 1429هـ ـ 2008م ، الجامعة الهاشمية.

64. خولة طالب الإبراهيمي، مبادئ في اللسانيات، دار القصبة، الجزائر، 2000م .
65. درويش الجندي: نظرية عبد القاهر الجرجاني في النظم، مكتبة النهضة، مصر، (دط)، 1960م .
66. الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، كلمة السيد محمد رشيد رضا منشئ مجلة المنار،القاهرة، ربيع الأولسنة1346هـ .
67. ردة الطلحي: دلالة السياق، جامعة القرى، ط1، 1424هـ .
68. رشيد بن مالك: قاموس مصطلحات التحليل السيميائي للنصوص، دار الحكمة، الجزائر، 2000م .
69. سالم بن محمد المنظري: التّرابط النّصي في الخطاب السّياسي، بيت الغشام للنشر والترجمة، ط1، 2015م، سلطنة عمان .
70. سعد الدين السيد صالح: المعجزة والإعجاز في القرآن الكريم، ط2 ، دار المعارف، القاهرة،1993م.
71. سعد عبد العزيز مصلوح: في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية أفاق جديدة، عالم الكتب، القاهرة، ط1 ،1997م .
72. سعد مصلوح: العربية من نحو الجملة ونحو النص، الكتاب التذكاري لقسم اللغة العربية، جامعة الكويت، عبد السلام هارون معلما ومؤلف ومحققا،إعداد د.وديعة النجم، د.عبده بدوي، 1990م.
73. سعيد البحيري: القصد والتفسير في نظرية النظم(معاني النحو)،عند عبد القاهر الجرجاني ضمن كتاب: دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة،1999م.
74. سعيد حسن بحيري: علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات، مكتبة لبنان ناشرون، الشركة المصرية للنشر، لونجمان، 1997م، القاهرة.
75. سعيد يقطين: انفتاح النص الروائي، المركز الثقافي العربي، بيروت الدار البيضاء،ط1، 1989م.
76. سليمان عشراتي: الخطاب القرآني، مقاربة توصيفية لجمالية السرد الإعجازي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1998م.
77. السّيد أحمد عبد الغفار: التّصور اللغوي عند الأصوليين،مكتبات عكاظ للنشر، الإسكندرية/ط1، 1401ه-1981م.
78. السّيّد الشرقاوي: معاجم غريب الحديث والأثر والاستشهاد بالحديث في اللّغة والنّحو، النّاشر مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1421ه ــ2001م .

79. سيد قطب: التصوير الفني في القرآن الكريم، دار الشروق، القاهرة، ط16، 1423هـ ــ 2002م.
80. صبحي إبراهيم الفقي: علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، ج2 ،دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة،ط1، 1431ه ــ 2000م
81. صبحي الصالح: مباحث في علوم القرآن،دار العلم للملايين،بيروت،، أغسطس، 1977م، ط10
82. صلاح الدين محمد عبد التواب: النقد الأدبي دراسات نقدية وأدبية حول إعجاز القرآن، الكتاب الأول، دار الكتاب الحديث، القاهرة،1423ه ـ 2003م .
83. صلاح الدين محمد عبد التواب: النقد الأدبي، دراسات نقدية وأدبية حول إعجاز القرآن الكريم، الكتاب الثاني،دار الكتاب الحديث القاهرة، 1430ه ــ 2003م .
84. صلاح عبد الفتاح الخالدي: إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني، دار عمار للنشر والتوزيع ، الأردن، ط1، 1421ه ـ 2000م.
85. صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة،1992م، أغسطس، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.
86. صلاح فضل: مناهج النقد المعاصر، دار إفريقيا الشرق، 2002 م ، المغرب/ بيروت.
87. طاهر سليمان حمودة: ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي، الدار الجامعية للطباعة والنشر والتوزيع، الاسكندرية،1998م .
88. طه جابر العلواني: الوحدة البنائية للقرآن المجيد، مكتبة الشروق الدولية، ط1 ،1427هـ ــ 2006م
89. عباس محمود العقاد: عبقرية محمد، طبعة جديدة منقحة ومراجعة، (دت)، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، مصر .
90. عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسبر كلام المنان،، تح: عبد الرحمن معلا اللويحق، ط1، 1420هـ .
91. عبد الرحمن بو درع: نحو قراءة نصية في بلاغة القرآن والحديث، كتاب الأمة، سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن إدارة البحوث والدراسات الإسلامية،العدد 154، ربيع الأول 1434هـ ـ قطر.
92. عبد الرحمن بودرع: في لسانيات النص وتحليل الخطاب، نحو قراءة لسانية في البناء النصي للقرآن الكريم، بحث مقدم للمؤتمر الدولي لتطوير الدراسات القرآنية، المؤتمر الدولي لتطوير الدراسات القرآنية1434،ه/2013م .

93. عبد السلام سليمي: دراسة في التركيب، كلمات للنشر والطباعة والتوزيع، سلا ،ط1، 2010م .

94. عبد العزيز فتح الله عبد الباري: نحو منهج إسلامي في البلاغة والنقد والأسلوبية والنص النبوي الشريف، كلية المعلمين، جامعة عمر المختار، شبكة الألوكة، رجب 1430هـ ـــــ 2009م.

95. عبد الغني بارة، إشكالية تأصيل الحداثة في الخطاب النقدي المعاصر،مقاربة حوارية في الأصول المعرفية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (دط)، 2005م .

96. عبد الفتاح أحمد يوسف: لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة، فلسفة المعنى بين نظم الخطاب وشروط الثقافة، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، 1413هـ ـ 2010م، لبنان،

97. عبد الفتاح عبد العليم البركاوي: دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث، "دراسة تحليلية: الصوتية والبنيوية والتركيبية في ضوء نظرية السياق"، دار المنار، القاهرة، ط 1، 1411هـ ـ1991م

98. عبد الفتاح كيليطو: النص والأدب، مقال أورده عبد السلام المسدي، قضية البنيوية، دار الجنوب للنشر،1995م.

99. عبد الفتاح لاشين: من بلاغة الحديث الشريف، عكاظ للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية،، ط1 ،1402هـ ـ1982م .

100. عبد القادر أحمد عطا: مقدمة تحقيق كتاب تناسق الدرر في تناسب السور للحافظ جلال الدين للسيوطي، دراسة وتحقيق: عبد القادرأحمد عطا، سلسلة نوادر التراث، دار الاعتصام،مصر، 1398هـ ـ 1978م.

101. عبد القادر بقشي: التناص في الخطاب النقدي و البلاغي، إفريقيا الشرق، المغرب، ط1،، 2007م عبد الله عبد الحميد سويد،أحكام التجويد في القرآن الكريم في ضوء علم الأصوات الحديث، دراسة مقارنة، ط2، القاهرة، جامعة عين شمس،كلية الآداب، قسم اللغة العربية، 1985م .

102. عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2004م، بيروت، لبنان.

103. عبد الوهاب كيلوطو: النص والأدب، مقال أورده عبد السلام المسدي، قضية البنيوية، دار الجنوب للنشر، 1995م .

104. عدنان بن ذريل: النص والأسلوبية، دراسة منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1989 م.

105. علي أبو المكارم: الظواهر اللغوية في التراث النحوي، الظواهر التركيبية، ، القاهرة الحديثة للطباعة، 1968م .
106. علي حرب:الموسوعة الفلسفية العربية، مج1، معهد الإنماء العربي، ط1، 1986م، مادة مقال.
107. علي حميد خضيّ: دلالة السياق في النص القرآني، أطروحة مقدمة إلى اللغة العربية في كلية الآدب والتربية الأكاديمية في الدانمارك .
108. عمر أبو خرمة: نحو النص(نقد النظرية...وبناء أخرى)، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، ط1، أربد-الأردن، 1425ه-2004م .
109. فاضل صالح السامرائي: التعبير القرآني، دار عمار، عمان، الأردن، ط4 ، 1427هـ – 2006م
110. فطب الريسوني: النص القرآني من تهافت القراءة إلى أفق التدبر، مدخل إلى نقد القراءات وتأصيل علم التدبر القرآني، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، ط1، 1431هـ ــ 2010م
111. كمال عز الدين: الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية، دار إقرأ، الطبعة الأولى،بيروت، 1404ه ــ1974م
112. كمال عز الدين: الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية، ط1، دار اقرأ، بيروت، 1404هـ ــ 1984م
113. لطيف زيتوني: معجم المصطلحات ، نقد الرواية، دار النهار للنشر، ط1 ،بيروت، 2002م .
114. محمد أبو العلا أبو العلا الحمزاوي: الخصائص البلاعية للبيان النبوي، مكتبة رشد، الألوكة، 1428هـ – 2007م
115. محمد الأخضر الصبيحي: مدخل إلى علم لغة النص مجالات تطبيقه،ط1، الدار العربية للعلوم، بيروت،2008م.
116. محمد الباشا الكافي: معجم عربي حديث، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، 1992م .
117. مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1 ، 1421هـ – 2002م .
118. محمد العبد: النص والخطاب والاتصال، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة، مصر القاهرة، مصر، 2014م،
119. محمد المبارك: فقه اللغة وخصائص العربية، دراسة تحليلية مقارنة للكلمة العربية،دار الفكر للطباعة والنشر، ط7، 1981م.
120. محمد المبارك : استقبال النّصّ عند العرب، ط1، المؤسسة العربيّة للدّراسات والنّشر، لبنان، 1999م،

121. محمد حماسة عبد اللطيف:بناء الجملة العربية، دار الشروق، القاهرة، ط1 ، 1416هـ ـ 1996م
122. محمد حماسة عبد اللطيف: بناء الجملة العربية، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة، 2003م .
123. محمد خطابي: لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، بيروت،، ط1 ، 1990م .
124. محمد زغلول سلام:أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الهجري، قدم له محمد خلف الله أحمد، ط1، مكتبة الشباب، المنيرة(مصر).
125. محمد سعيد رمضان البوطي: في الحديث الشريف والبلاغة النبوية، دار الفكر، دمشق، 1432ه، 2011م، ط1 .

126. محمد عابد الجابري: الخطاب العربي المعاصر، بيروت ، دار الطليعة،1982م.
127. محمد عبد الباسط عيد: النص والخطاب، قراءة في علوم القرآن، تقديم: صلاح رزق، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 1420هـ ـ 2009م.
128. محمد عبد الله دراز: النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، اعتنى به وخرج أحاديثه: عبد الحميد الدخاخني،دارطيبة للنشر والتوزيع،المملكة العربية السعودية، ط1، 1417هـ ـ 1997م/ط1 ، 1422ه ـــ 2000م .
129. محمد مفتاح: تحليل الخطاب الشعري(استراتيجية التناص)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب ، ط2 ،1986م

130. محمد مفتاح: التشابه والاختلاف، نحو منهاجية شمولية، المركز الثقافي العربي،(دط)،الدار البيضاء، المغرب .
131. محمد مفتاح: ديناميكية النص(تنظير وإنجاز)، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط2 ،1990م
132. محمدالأخضر الصبيحي: مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه، ط1 ،الجزائر/ لبنان، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون، 2008م .
133. محمود عكاشة: تحليل النص، دراسة الروابط النصية في ضوء علم اللغة النصي، ط1 ،مكتبة الرشد ناشرون، 1435هـ ـ 2014م
134. مصطفى حميدة: نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة العربية، لونجمان، القاهرة 1997م .

135. مصطفى صادق الرافعي: السمو الروحي الأعظم والجمال الفني في البلاغة النبوية، تحقيق أبو عبد الرحمن البحيري وائل بن حافظ بن خلف عفا الله عنه، دار البشير للتقافة والعلوم، مصر، (دت)، (دط)
136. مصطفى صادق الرافعي: وحي القلم، ج3، راجعه واعتنى به: درويش الجَويدي، المكتبة العصرية، سيدا، بيروت.
137. مصطفى مسلم محمد: مباحث في التفسير الموضوعي،، ط4، دار القلم، 1426هـ ــ 2005م
138. مصطفى ناصف: اللغة والبلاغة والميلاد، دار سعاد الصياح ، ط1 ، 1992م، الكويت .
139. منذر عياشي: مقالات في الأسلوبية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق،ط1، 1990م .
140. المهدي إبراهيم الغويل: السياق وأثره في المعنى، دراسة أسلوبية، أكاديمية الفكر الجماهيري، 2011م، ليبيا .
141. نصر حامد أبو زيد:نقد الخطاب الديني،مصر ، القاهرة،مطبعة سينا،1994م.
142. نصر حامد أبو زيد: مفهوم النص، دراسة في علوم القرآن، مكتبة الفكر الجديد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط1 ، 2014م .
143. نور الدين السد: الأسلوبية وتحليل الخطاب، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع،الجزائر 1997م.
144. نور الدين عتر: في ظلال الحديث النبوي ومعالم البيان النبوي، أوّل دراسة فكرية، اجتماعية وأدبية جمالية معاصرة، ط1، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، 1434هـ-2013م .
145. نور الدين عتر: علوم القرآن الكريم، مطبعة الصباح، دمشق، ط1، 1414هـ ـ 1993م.
146. وليد محمد مراد: نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية عند عبد القاهر الجرجاني، دار الفكر، ط1، 1403هـ ـ 1983م، دمشق، سوريا.

المراجع المترجمة إلى العربيّة:

147. برند شبلنر: علم اللغة والدراسات الأدبية، دراسة الأسلوب، البلاغة، علم اللغة النصي، ترجمه وقدم له وعلق عليه،محمد جاد الرب، الدار الفنية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1 ،1987م.

148. تون فان دايك: علم النص(مدخل متداخل الاختصاصات)، ترجمة وتعليق سعيد حسن بحيري، دار القاهرة للكتاب، القاهرة، ط1، 1421هـ ـ 2001م .
149. جوليا كريستيفا: علم النص، تر فريد الزاهي،مراجعة: عبد الجليل ناظم، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب.
150. دومينيد مانقونو: المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، تر: محمد يحياتن، ط1،منشورات الاختلاف، الجزائر، 2005م.
151. روبرت دي بوجراند: النص والخطاب والإجراء، ترجمة تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط1 ،1418ه ـــــ 1998م.
152. روبرت دي بوغراند، ولفغانغ دريسلر: مدخل إلى علم لغة النص، إلهام أبو غزالة، علي خليل حمد، مطبعة دار الكاتب، ط1 ، 1413هـ ـــ 1992م.
153. زتسلاف، ووارزنياك: مدخل إلى علم النص: مشكلات بناء النص،تر:سعيد حسن البحيري، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2003م.
154. غراهام هــو: الأسلوبية والأسلوب، ط1 ، ترجمة : كاظم سعد الدين، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1985م .
155. فان دايك: النص والسياق، تر عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2000م .
156. فولفجانج هاينه من، وديتر فيهفيجر: مدخل إلى علم اللغة النصي، ترجمة: د فالح بن شبيب العجمي، جامعة الملك سعود، الرياض، ط1419،1هـ ـ 1999م
157. ماري نوال غاري بريــور: المصطلحات المفاتيح في اللسانيات، ترجمة: عبد القادر فهيم الشيباني، 2007م، ط1 ، سيدي بلعباس، الجزائر.
158. ميشال فوكو: حفريات المعرفة، ت:سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب .

المقالات والدوريات:

159. إسماعيل نقاز: الحديث النّبوي ومستويات السّياق المقامي: مقاربة أصوليّة لسانيّة، مجلّة المخبر، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، جامعة بسكرة، الجزائر، ع12، 2016م .

160. بن عيسى بطاهر : البلاغة النبوية في منظور الرافعي، قراءة في المنهج، بحوث ودراسات، التجديد، المجلد16، العدد32، 1434ه ــ 2012م .
161. تارا فرهاد شاكر: التماسك النصي بين التراث والغرب، مجلة جامعة بابل/ العلوم الإنسانية، المجلد22، العدد6، 2014م .
162. جميل حمداوي: السيميوطيقا والعنونة، عالم الفكر ، الكويت، الجلد25،العدد3، 1997م .
163. حورية قادري: مفهوم النص في إعجاز القرآن والبلاغة النبوية عند مصطفى صادق الرافعي، مقال نشر بمجلة دراسات، العدد الرابع، ديسمبر 2013م، جامعة بشار
164. الرّبيع بوجلال: معيار الإعلاميّة في التّراث النّقدي والبلاغي، الأكاديمية للدّراسات الاجتماعية والإنسانيّة، ب/قسم الآداب والفلسفة، العدد 18، جوان 2017م.
165. سامية أحمد: التحليل البنيوي للسرد، مجلة أقلام، بغداد، العدد(3)، 1978م.
166. سلمان بن محمد بن حسن القرني: جمالية المفردة القرآنية عند الرافعي بين التقليد والتجديد، أستاذ البلاغة والنقد المساعد بقسم اللغة العربية،، جامعة الباحة، مجلو جامعة الباحة للعلوم الإنسانية، العدد(16)، محرم 1440هـ، سبتمبر،2018م
167. سلمان بن محمد بن حسن القرني: جمالية المفردة القرآنية عند الرافعي بين التقليد والتجديد، مجلة جامعة الباحة للعلوم الإنسانية، العد(16)، محرم، 1440هـ، سبتمبر 2018م.
168. سيار الجميل: الخطاب التاريخي العربي، مجلة المستقبل العربي، بيروت ، العدد(148)، 1991م.
169. الطيب العزالي قواوة: التماسك النصي بين الدرس البلاغي القديم والدرس اللساني الحديث، مجلة البحوث والدراسات/ المجلد 15، العدد01، 1 جوان، 2018م .
170. عبد الحليم بن عيسى: الاتصال اللغوي بين الدقة والغموض، مقال، مجلة اللغة والاتصال، جامعة وهران، العدد1، أكتوبر 2005م .
171. عبد الرحمن الحاج :المفردة بوصفها أداة لتحليل الخطاب القرآني، بحوث ودراسات، التجديد، المجلد الرابع عشر، العدد السابع والعشرين،1431هـ ـ 2010م.

172. عبد العزيز حميدي: سليم سعداني: تجليّات الإعلاميّة في المدوّنات الألكترونيّة، مدوّنة MTA youth أنموذجا مقاربة في ضوء لسانيات النّصّ، مجلّة القارئ للدّراسات الأدبيّة والنّقديّة واللّغويّة، المجلد4، ع3، سبتمبر 2021م.
173. عبد القادر مغدير: المناسبة الصوتية في اللفظة القرآنية، مجلة التعليمية، العدد الثاني، 2011م.
174. عز الدين بوبيش: حقيقة الإعجاز القرآني عند الرافعي، مجلة التراث العربي
175. عز الدين هبيرة: مصطلح التماسك النصي في التراث اللغوي العربي: مقاربة نصية، مجلة العلوم الإنسانية، المجلد ب، ع49 ، جامعة الإخوة منتوري، قسنطينة، الجزائر، 2018م
176. علي ملاحي، عن ولادة النص الجديد من أجل طمأنينة القارئ، مجلة اللغة والأدب، معهد اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر، الجزائر،العدد12، 1997م .
177. فاتح زيوان: مصطلحا الخطاب والنص، الدلالة في الثقافة العربية، مجلة كتابات معاصرة ع(70) م(18) بيروت، 2008م.
178. فاطمة الزهراء عواطي: أثر الحديث النبوي الشريف في اللغة العربية وتطورها، مقال، مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية، المجلد 12، العدد2 ، السداسي الأول 2020م.
179. محمد حماسة عبد اللطيف: منهج في التحليل النصي للقصيدة تنظير وتطبيق، فصول مجلة النقد الأدبي، الشعر العربي المعاصر،ج1، المجلد الخامس عشر،العدد الثاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب،1996 م
180. مفلاح بن عبد الله: تجليّات الإعلاميّة في شعر تميم البرغوتي، مقاربة في ضوء لسانيات النّصّ، مجلّة المدوّنة، مختبر الذّراسات الأدبيّة والنّقديّة، المجلّد4، العدد2 .
181. ميلود مصطفى عاشور: أياد عبد الله: قصديّة الشّاعر وقبول المتلقي في قصيدة "أنا.. والبدر" للشاعر الليبي رجب الماجري، مقاربات في اللسانيات والأدبيات بين التّقليد والتّجديد، أبحاث محكمة(الجزء الثاني) أدبيات، 7 ـــ 9 ديسمبر2015م، الجامعة الإسلاميّة العالميّة، ماليزيا.
182. نجادي بوعمامة: الإعلاميّة والمقاميّ وأثرهما في الانسجام النّصّي، مجلّة الباحث: المجلّد4، ع16، 2018م .
183. سعد مصلوح، نحو أجرومية للنص الشعري،دراسة في قصيدة جاهلية، دار المنظومة،المجلد10، ع: 1،2يوليو ـ أغسطس1991 م.

184.

الأطروحات العلمية:

185. أحمد ياسوف: جماليات المفردة القرآنية، إشراف وتقديم: نور الدين عتر، رسالة قدمت لنيل درجة ماجستير في الآداب(الدراسات الأدبية، دار المكتبي، ط2 ، 1419هـ ـ1999م
186. أمينة بن عبد الله: أثر الربط المعجمي في اتساق الخطاب القرآني، سورة الشعراء أنموذجا، رسالة ماجستير، 2017م ـــ 2018م، مشروع: اللسانيات النصية،، جامعة وهران1 ـ أحمد بن بلة.
187. بن الدين بن خولة: الإسهامات النصية في التراث العربي، أطروحة دكتوراه، تخصص معجميات، 2015م / 2016م .
188. حمادة محمد عبد الفتاح حسيني: المصاحبة اللغوية وأثرها في تحديد الدلالة في القرآن الكريم(دراسة نظرية تطبيقية)، رسالة دكتوراه، جامعة الأزهر، 1428هـ ـ 2007م.
189. خالد خميس مصطفى فراج: التماسك النصي في سورة التوبة، دراسة تطبيقية في ضوء لسانيات النص، قدمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات درجة الدكتوراه في نخصص اللغة والنحو، جامعة اليرموك، إربد- الأردن،15 شعبان 1430هـ ـ 6 أوت 2009م .
190. سمية ابرير: مفاهيم لسانيات النص وتحليل الخطاب في دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني"دراسة في ضوء علم المصطلح"، مذكرة مقدمة لنيل درجة الماجستير، تخصص علوم اللسان، 2010م /2011م .
191. علي بوعلام: جماليات التكرار وآلياته في التماسك النصي، قصيدة مديح الظل العالي للشاعر محمود درويش أنموذجا، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في مشروع اللسانيات النصية،، 1438هـ ـــ 2017م .
192. -محمد عبد الرحمن إبراهيم: الإعلاميّة أبعادها وأثرها في تلقّي النّصّ، بحث تكميلي لنيل درجة الدكتوراه في اللغة العربيّة(الدّراسات اللّغويّة)، كليّة معارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلاميّة العالميّة ـــ ماليزيا، يناير 2007م.
193. عفّت الشرقاي: بلاغة العطف في القرآن الكريم، من متطلبات درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها، إشراف:د.عبد الاله الصائغ، نيسان،2014م،جمادى الآخرة1435ه ـ الأكاديمية العربية في الدانمارك م، دار النهضة العربية، بيروت، 1981م .
194. يوسف بن عبد الله بن محمد العليوي: رعاية حال المخاطب في أحاديث الصحيحين، دراية بلاغية تحليلية، رسالة مقدمة لقسم البلاغة والنقد

ومنهج الأدب الإسلامي لنيل درجة العالمية العالية(الدكتوراه)، 1428ه ــ 1429ه .

المواقع الإلكترونيّة:

195. انعطاف ــ لغوي.https://ar.unionpedia.org
196. بول ــ ريكور///https:sotor.com
197. جون ـــ ليونز//https://ar.wikipedia.org/wiki
198. رقية ــ حسن/ar.wikipedia.org/wiki
199. رولان ـــ بارث//https://ar.wikipedia.org/wiki
200. اللغوي مايكل هاليداي. https://e3arabi.com
201. محمد بدوي : شرح حديث:"الحلال بيّن والحرام بيّن"، 23- ـــ 11 ــ 2008م ، الموقع الإلكتروني:ar.islamway.net/fatwa/28230
202. نبذة عن دي سوسير https ://sotor.com

المراجع الأجنبيّة:

203. Duval Fredric :La Traduction Du Romulion ؛Librairie Droz Geneve.2001
204. Halliday،M.A.K، and Ruqaia Hassan ،cohesion in english،London 1976.
205. John Lyons – linguistique generale (introduction a linguistique theorique) –traduction- Duboi Charliere et Robinson-Larousse- imprimerie herissey- France- Paris-1983-.
206. Michel Charolles : Enseignement De Recit Et Coherence De Texte.Langue Francaise.n38.Larousse Paris. 1978.

فهرس الموضوعات

الموضوع
الصفحة

شكر وتقدير

الإهداء

مقدمة..... أ

المدخل: مفاهيم لسانيات النص

1 ـ مفهوم الجملة والنص من التراث إلى المعاصرة.....9

1 ـــ 1 ـــ مفهوم الجملة عند العرب والغرب..... 9

1 ـــ 2 ـــ مفهوم النص لغة واصطلاحا عند العرب القدماء.....13

1 ـــ النص لغة.....13

2 ـــ تعريف النص اصطلاحا عند القدماء.....14

2 ـــ 1 ـــ مفهوم النص عند العرب المحدثين.....17

2 ـــ2 ـــ النص عند الغرب.....22

2 ـــ 3 ـ مفهوم الخطاب.....25

2 ـــ 4 ـــ الفرق بين الخطاب والنص..... 30

3 ـــ مفهوم التماسك النصي.....33

4 ـــ إعجاز القرآن.....34

4 ـــ 1 ـــ العجز والإعجاز.....35

1 ـــ العجز لغة.....35

2 ــ الإعجاز لغة.....36

4 ـــ 2 ــ مفهوم إعجاز القرآن..... 36.....

5 ـــ مفهوم البلاغة النبوية.....37

1 ـــ البلاغة لغة.....37

2 ـــ البلاغة اصطلاحا.....38

5 ــ 1ــ البلاغة النّبويّة اصطلاحا.....39

الفصل الأول: التّماسك النّصّي بين المفهوم العربي والغربي

1 ـــ مفهوم لسانيات النص.....42

2 ـــ نحو الجملة ونحو النص.....47

3 ــ التماسك النصي..... 51

4 ــ التماسك النصي عند الغرب..... 52

4 ـــ 1 ــ التماسك النصي عند فان دايك(Van Dijk) 53

4 ــ 2 ـــالتماسك النصي عند هاليداي ورقية حسن (Ruqaia – Halliday Hasan).....57

5 ــ التّماسك النّصّي في الدّراسات اللسانية العربية..... 58

1ـــ التّماسك النّصّي عند محمد خطابي 59

2 ــ التّماسك النّصّي عند صبحي إبراهيم الفقي.....62

6ـــ التّماسك النّصّي عند القدماء في الإعجاز.....65

6ـــ 1 ــ التّماسك النّصّي عند الخطابي(ت388ه).....66

6ــ 1ـــ1ــ الإعجاز النّفسي وأثره في خلق التّماسك النّفسي عند الخطابي.....68

6 ـــ 2 ـ التّماسك النّصّي غند الباقلاني(ت403ه).....69

6 ــ 3 ــ التّماسك النّصّي عند عبد القاهر الجرجاني(ت471ه).....76

7ـ التّماسك النّصّي وقضيّة اللّفظ والمعنى.....82

الفصل الثاني: مظاهر الاتساق النصي عند الرافعي في الإعجاز

1 ــ مفهوم الاتّساق.....90

2 ــ وسائل الاتّساق.....92

2 ــ1ــ الإحالة.....92

أ/الضمائر..... ...94

ب/أسماء الإشارة.....95

ج/المقارنة..... 95

2 ــ2 ــ الاستبدال.....96

2 ــ 3 ـــ الحذف..... 98

2 ــ4 ــ الوصل..... 100

2 ــ5ــ الاتساق المعجمي..... 101

3 ــ حقيقة الإعجاز عند الرافعي..... 103

4 ــ أسلوب القرآن عند الرافعي..... 106

5 ــ ملامح التماسك في أسلوب القرآن عند الرافعي.....108

6 ــ التماسك النصي من منظور الرافعي.....111

7 ــ آليات الاتساق النصي عند الرافعي..... 114

7 ــ 1 ــ مفهوم النظم من منظور الرافعي.....115

7 ـــ 2 ـــ تركيب الكلام.....117

1 ـــ الحروف وأصواتها.....119

1 ــ 1ــ الحرف لغة..... .119
1 ــ2 ـــ الحرف اصطلاحا..... 119
7 ـــ 3 ـــ الاستبدال..... 122
7 ـــ 4ـــ الاتساق المعجمي:.....125
1 ــ التكرار.....125
1 ـــ2 ـ ظاهرة التكرار بين البلاغيين العرب وعلماء النص..... 127 .
1 ـــ 3ــ التّكرار عند الرافعي..... . 128
2 ــ التضام.....132
8 ــ الإيقاع الصوتي في النص..... 135
9 ـــ مفردات القرآن.....136
10 ــ أثر الكلمات الزائدة في اتساق النص..... 138
11 ـــ مزية النظم في الأسماء الجامدة..... 140
12 ــ الالتفات عند الرّافعي..... 142

الفصل الثالث: مظاهر الانسجام النصي عند الرافعي

1ــ الانسجام النصي عند الرافعي.....148
2ــ مفهوم الانسجام النصي.....149
2ــ 1 ـــ الانسجام لغة.....150
2ــ 2 ـــ الانسجام اصطلاحا..... 150
3 ـ آليات الانسجام النصي.....156
3 ـــ 1 ـــ السياق.....157
3ــ 1 ــ 1ــ السياق لغة.....157
أ/ السياق الداخلي.....160

ب/السياق الخارجي..... 161
3 ــ2 ــ مبدأ التأويل المحلي..... 162
3 ــ 3 ـــ مبدأ التشابه.....164
3 ـــ4 ـــ التغريض..... 165
3 ـــ 5 ــ المناسبة..... 166
أ/ المناسبة لغة.....166
ب/المناسبة اصطلاحا.....167
4ــ مظاهر الانسجام النصي عند الرافعي.....170
1 ــ تناسب الأجزاء.....170
. 2 ــ تناسب الأصوات القرآنية..... 171
2 ــ1 ــ الاستهواء الصوتي في اللغة.....173
2 ـــ 2 الفاصلة القرآنية..... ..176
3 ـــ وظيفة الصوت في السياق..... 176
4ـــــ مناسبة الكلمة لحروفها..... .177
4ـ 1 ـــ مفهوم الكلمة.....177
1 ــ صوت النفس.....178
3 ـــــ صوت العقل.....178
3 ــ صوت الحس.....179
4ـ 2 ــ التناغم الصوتي في نظم الحروف.....180
4 ــ3 طول اللفظة القرآنية وانسجامها..... 182

4ـــ4 انسجام غريب القرآن من منظور الرافعي.....184

5 ــ الجمل وكلماتها..... 185

5ـ 1 ـ روح التركيب..... 187

6 ـــ التناسب بين الآيات.....188

7 ـ تناسب عنوان السورة ومضمونها.....190

8 ـ المناسبة بين الألفاظ والمعاني.....190

الفصل الرّابع: آليات التماسك النّصّي في البلاغة النّبوية من منظور الرّافعي

1ــ البلاغة النّبويّة 195

2ــ آليات التّماسك النّصّي في البلاغة النّبويّة عند الرّافعي..... 196

1ـ النّصّ النّبوي..... 205

2ــ السّبك والحبك في البلاغة النّبويّة.....208

3ـــ المقاميّة عند الرّافعي.....213

4ـــالقصديّة والمقبوليّة.....217

5ــ الانسجام والمقبوليّة.....220

6ـ الإعلاميّة في البلاغة النّبويّة من منظور الرّافعي..... 227

7ـ المتلقّي..... 238

ــ الخاتمة..... 245

ـ ملاحق 250

ـ فهرس المصطلحات..... 264

ــ فهرس الموضوعات.....268

ـ الملخص..... 295

ملخص

الملخص: شهدت الدراسات اللغوية في الآونة الأخيرة نقلة هامة، في نظرتها إلى النصوص، فبعدما كانت جل الدراسات والأبحاث محصورة في إطار الجملة، التي كانت أكبر وحدة لغوية للتحليل، ظهرت جهود الباحثين تدعو إلى انفتاح الدرس اللساني على دراسة أعلى من الجملة تتمثل في النص، فظهر علم جديد يسمى لسانيات النص، ولقد كان للتماسك النصي(الاتساق والانسجام) موقعا بارزا وجوهريا في كل الدراسات التي تناولت هذا العلم، لأنه يعمل على تحقيق نصية النص، وقد وقفت هذه الدراسة الموسومة بـــ"آليات التماسك النصي في إعجاز القرآن والبلاغة النبوية"لمصطفى صادق الرافعي نموذجا" على الكشف عن أهم مظاهر الاتساق والانسجام التي اعتمدت في المدونة، وما مدى تقاربها مع المفاهيم الغربية في مجال لسانيات النص. وخلصت الدراسة إلى أن مدونة الرافعي طرحت قضايا لسانية نصية في معالجة النص القرآني، نتيجة توافر جملة من أدوات التماسك الشكلية والدلالية.

الكلمات المفتاحية:الجملة؛ النص؛ الخطاب؛ لسانيات النص؛ التماسك النصي؛ الاتساق؛ الانسجام؛ التكرار؛ التضام؛ الاستبدال؛ النظم؛ الإيقاع الموسيقي؛ الفاصلة القرآنية؛ السياق؛ المناسبة.

Résumé :

Les études linguistiques ont récemment connu un changement qualitatif important dans leur vision des textes. Etant donné que la plupart des études et des recherches n'étaient focalisées que sur la phrase qui était la plus grande unité linguistique d'analyse. Les efforts des chercheurs effectués appelaient à l'ouverture de la leçon linguistique à une étude dépassant le stade de la phrase ,qui est le texte. C'est ainsi qu'une nouvelle science appelée la linguistique du texte s'est apparue .La cohérence du texte(cohérence/cohésion) avait une place prépondérante et claire dans toutes les études qui traitaient cette science .Elle vise à atteindre la textualité du texte .L'étude intitulée <<Les mécanismes de la cohérence textuelle dans Al iedjaz Alcoranie et la rhétorique du prophète » de Sadiq Al Rafei qui est un modèle de la révélation des principaux aspects de la cohérence et la cohésion adoptées dans l'œuvre. Elle est si proche des concepts occidentaux dans le domaine de la linguistique du texte .L'étude a abouti que l'œuvre d'AlRafei a posé des questions linguistiques textuelles afin de traiter le texte coranique grâce à la disponibilité d'un ensemble d'outils de cohésion formelle et sémantiques

Mots clés :phrase – texte – le discours – linguistique du texte – cohérence textuelle – cohérence – cohésion –répétition – fusion - substitution _ systèmes – rythme musical – pause coranique – le contexte – occasion

Abstract :

Linguistic studies have recently undergone asignificant shiftin their view of texts. As most studies and research were confined to the sentence framework, which was the largest linguistic unit of analysis. As the efforts of the researchers emergedadvocating for the linguistic lesson to be open to a study higher than the sentence represented in the text. Therefore, a new science appeared called text linguistics. Besides, textual coherence (cohesion andcoherence) had a prominent and essential position in all the studies which dealt with this science, as it works to achieve the textuality of the text. Thus,This study, entitled "Mechanisms of Textual Coherence in the Miracle of the Qur'an and the Prophetic Rhetoric" by Moustapha Sadek al-Rafi'i as amodel ", so as to reveal the most important aspects of cohesion and coherence that were adopted in the corpus.In addition to the extent of its convergence with Western concepts in the field of text linguistics. Ultimately,the study concluded that Al-Rafei's corpus raised textual linguistic issues in the treatment of the Qur'anic text, as a result the availability of a set of formal and semantic cohesion tools.

Keywords :Sentence ;Text ;Discourse ;Text linguistics ;Textual coherence ;Cohesion ;Coherence ;Reiteration;Collocation ;Substitution ;systems ;Musical rhythm ; Quranic comma ;Context ; Occasion.